البلاغة والنّقد الأدبيّ في شروح الاختيارات الشعريّة

د. محمّد بن سليمان بن ناصر الصّيقل
عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المجلّد الأوّل

مكتبة
التّوبة

المقـــدِّمَة

- موضوع البحث .
- دوافع البحث فيه .
- مصادره .
- منهجه .
- الدراسات السابقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات اعمالنا ـ مَنْ يهده الله فلا مُضلَّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له.

واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً.

﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تَموتُنَّ إلا وانتم مسلمون﴾.

﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللّه الذي تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومَن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

امّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهَدْي هَدْي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وشرُّ الأمور مُحْدَثاتُها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وإن «أشرف العلوم كلها علم الكتاب والسنة، وهما قطبا كل علم، واصلا فَهْم؛ إذْ كانا طريقاً إلى معرفة الخالق تعالى، وشكر نعمته، وسبيلاً إلى إدراك السعادة والفوز بجنته، ولا يصحّ حقيقة معرفتهما إلا بعلم الإعراب الدالّ على الخطأ والصواب، وعلمِ اللغة المُوضِحَة عن حقيقة العبارات المُفْصِحَة عن المجاز والاستعارات، وعلم الأشعار؛ إذْ كان يُستشهد بها في كتاب الله عزّ وجلّ، وفي غريب اخبار رسوله صلى الله عليه وسلم...»[(١)].

ومن هذا المنطلق في فَهم فضل تعلُّم اللغة العربية وعلومها وآدابها، وإدراك قيمة هذه اللغة العزيزة الخالدة التي اتقرّب إلى الله تعالى بمحبتي إيّاها ـ كانت دراستي لعلوم هذه اللغة الغالية، ورجائي ـ بعون الله وتيسيره وتوفيقه ـ ان احصل على أعلى الإجازات العلمية في بعض علومها.

---

(١) ذكر ذلك ابو زكريا الخطيب التبريزي في مقدمة شرحه ديوان الحماسة لابي تمام ٢/١.

ومن ثمَّ كان موضوع بحثي لنيل درجة (الدكتوراه) في البلاغة والنقد الأدبي : (البلاغة والنقد فيما نُشر من شروح الاختيارات الشعرية) ٠

وقد كان من أهم دوافعي لاختيار هذا الموضوع - إضافة إلى ماسبق - :

- كون مادة هذا البحث وأصله يدور حول مادة فنية قيِّمة لهذه اللغة العربية ؛ أعني مادة : (الشعر)، وبخاصة أنه شعر القدماء ؛ من الجاهليين والإسلاميين والعصور الأولى ٠ ودراسة مثل هذه الأشعار والوقوف عليها ورياضتها مفتاح إلى كنوز علوم هذه اللغة وتعلّم آدابها ٠

- ومن أهم هذه الدوافع : علمي بأن شروح الاختيارات الشعرية لم تخدم خدمة تليق بها ، وبخاصة في مجال البحث البلاغي والنقدي ٠

أما مصادري في هذا البحث فقد كانت على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : مصادر رئيسة أساس ؛ وهي شروح الاختيارات الشعرية التالية:

١ - (شرح ديوان المفضليات) لأبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ٠

٢ - (شرح اختيارات المفضل) لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ٠

٣ - (معاني أبيات الحماسة) لأبي عبدالله الحسين بن علي النمري ٠ ومُستَدرك أبي محمد الأعرابي عليه في كتابه (إصلاح ماغلط فيه أبو عبدالله النمري في معاني أبيات الحماسة) ٠

٤ - (شرح ديوان الحماسة) لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي[٢] ٠

٥ - (شرح ديوان الحماسة) لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ٠

٦ - (شرح المضنون به على غير أهله) لعبيد الله بن الكافي العبيدي ٠

وإنما قلت : إن هذه هي مصادري الرئيسة الأصيلة في البحث ؛ لأنها هي الشروح التي أقرّها مجلس كلية اللغة العربية بالرياض في جلسته الثامنة المعقودة بتاريخ ١٤٠٨/٤/١٥هـ بقراره ذي الرقم (٢٣) لعام ١٤٠٨هـ ؛ أثناء موافقته على موضوع البحث وعنوانه وخطته ، وقد حذف المجلس بعض كتب الشروح الأخرى التي

---

(٢) سمّاه المرزوقي في مقدمة شرحه : (شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام حبيب بن أوس الطائي المعروف بكتاب الحماسة) ٠ انظر ٣/١ ٠ ولكنه اشتهر بالتسمية التي ذكرت ٠

رُفعت إليه .

ثم إنّ هذه الاختيارات الستة المذكورة آنفاً - والتي اعتمدها مجلس الكلية وأقرّها - هي التي يصدق عليها مصطلح (شروح الاختيارات الشعرية) صدقاً فنياً وعلمياً ومنهجيا .

كما أنّ هذه الشروح الستة تتميز بمادة علمية يمكنني أن أتعامل معها بوضوح - إلى حدّ كبير - وأدير عليها خطة البحث البلاغي والنقدي .

أما الصنف الثاني من مصادر البحث فكانت بعض شروح الاختيارات الشعرية الأخرى التي كانت خارج دائرة ما أقره مجلس الكلية ؛ أعني شروح الاختيارات الستة المذكورة آنفاً والتي جعلتها مصادر أصيلة رئيسة للبحث . ولكني ومع علمي بعدم دخولها في مصادر البحث الرئيسة ، لعدم إقرار مجلس الكلية لها ، ولكونها لاتتمتّع بمادة علمية يمكن أن يُدار موضوع البحث وخطته عليها بوضوح تام أو ثراء علمي ، ولكون بعضها يتصل بشروح المعلقات ، والقول في عدّ المعلقات من الاختيارات الشعرية فيه تردّد؛ لأن كثيراً من الباحثين والدارسين يعدّ ديوان المفضليات أول اختيار شعري موثق دوّنه شخص واحد على أسس الاختيار الفنية والنقدية وَفْق مفهوم الاختيارات، وقد وجدت هذا الحكم بينهم فيما يشبه الإجماع[٣] .

لكني مع ذلك كله قرّرت الرجوع إلى هذه المصادر محاولاً الإفادة منها وإثراء البحث البلاغي والنقدي ، ولرفع مسألة التحرّج لاحتمال دعوى دخول مثل هذه الشروح في دائرة مانشر من شروح الاختيارات الشعرية .

ومصادر هذا الصنف هي :

١ - (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.

٢ - (شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي ، المعروف بابن النحاس .

---

(٣) سيأتي بيان ذلك في تحديد مفهوم الاختيارات في مبحث التمهيد .

٣- (أسرار الحماسة) لسيد علي المرصفي ٠

وأما الصنف الثالث من المصادر فهو تلك المصادر الثانوية المساعدة من المصادر التراثية الأصيلة في مجال البحث اللغوي والبلاغي والنقدي ، ومن المراجع الحديثة التي لاغنى لباحث في مثل هذا الموضوع عن مثلها ٠ وهي مصادر ومراجع كثيرة أشرت إليها في حواشي صفحات البحث ، وأثبتها في ثبت مصادره ومراجعه ٠ وقد أفدت منها – بحمدالله – كثيراً في تعزيز هذا البحث وإثراء مادته العلمية في مباحث هذا البحث وفصوله المختلفة في جانبيه البلاغي والنقدي ٠

وقد بنيت الرسالة على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب تضم ثلاثة عشر فصلاً ، يضم كل فصل عدداً من الجزئيات والتفريعات التفصيلية ٠

وقد جريت في كتابة فصول هذا البحث ومباحثه البلاغية والنقدية على منهج علمي فني يعتمد الاستقراء والعرض والدراسة والتحليل لما لدى شرّاح الاختيارات الشعرية من جهود نظرية وتطبيقية ؛ من خلال نماذج شروحهم لأبيات تلك الاختيارات ؛ للوقوف على طبيعة جهود هؤلاء الشراح في البحث البلاغي والنقدي ، ومعرفة مدى عنايتهم بالمصطلحات العامة والجزئية لمباحث البلاغة وفنونها ، وقضايا النقد ومسائله ، ومدى قربهم في ذلك مما استقرّ عند البلاغيين والنقاد من مصطلحات عامة أو جزئية فرعية ، أو بعدهم منه ٠ ولمعرفة إلى أيّ حدّ وفّى شراح الاختيارات بمباحث البلاغة وفنونها ، أو مسائل النقد وقضاياه ، أو أنهم قد قصروا في ذلك أو في بعضه ؟ ٠ ولتبيُّن صفة معالجة هؤلاء الشراح ودراستهم لهذه المباحث والفنون ، أو القضايا ؛ من حيث الاسترسال والتحليل أو الإيجاز والاقتضاب ٠

وقد انطلقت من هذا المنهج الذي رسمته لنفسي في دراسة فصول البحث ومباحثه الكثيرة المتعددة ؛ العامّ منها والجزئي ؛ فدرست في الباب الأول : (البلاغة في شروح الاختيارات الشعرية) ، واختصّ الفصل الأول من هذا الباب بدراسة (مباحث علم المعاني) متضمناً أحوال الإسناد الخبري ، وأحوال المسند إليه ، وأحوال المسند ، وأحوال متعلقات الفعل ، والقصر ، والإنشاء ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ٠

ودرست في الفصل الثاني (مباحث علم البيان) وفنونه ؛ وهي : التشبيه ،

والحقيقة والمجاز ، والكناية والتعريض ٠

وفي الفصل الثالث درست (مباحث البديع) بنوعيه ؛ المعنوي واللفظي ٠

ولكل من هذه المباحث والفنون في فصول البلاغة الثلاثة جزئياته التفصيلية الكثيرة التي وقفت عندها بالدراسة التفصيلية التطبيقية وفق المنهج المشار إليه آنفا ٠

وفي الباب الثاني وقفت عند (أهم الدراسات النقدية في شروح الاختيارات الشعرية) ؛ وذلك في ستة فصول ؛ فدرست في الفصل الأول (قضية الانتحال) ، وفي الفصل الثاني (قضية عمود الشعر العربي) ، وفي الثالث (أغراض الشعر العربي)، وفي الرابع (قضية السرقات) ، وفي الفصل الخامس (قضية القِدَم والحداثة) ، وفي السادس (قضية اللفظ والمعنى) ٠

أما الباب الثالث فبحثت فيه (شروح الاختيارات الشعرية من خلال الدراسات النقدية الحديثة) ، وقوام هذا الباب أربعة فصول ؛ درست في الفصل الأول منها (قضية المضمون) ، وفي الفصل الثاني (الرمز الشعري) ، وفي الثالث (الخصائص الأسلوبية) ، وفي الفصل الرابع (الأوزان والقوافي) ٠

ولكل فصل من الفصول العشرة لهذين البابين النقديين جزئياته ومباحثه الفرعية التفصيلية التي وقفت عندها بالبحث والدراسة التطبيقية المفصّلة ؛ وفق المنهج الذي رسمته المتبع في البحث كله ٠

ثم ختمت البحث بخاتمة ضمّنتها خلاصة البحث ، ونتائجه ، وتوصياته ٠

ويحسن التنبيه إلى أنّ منهجي النظري والتطبيقي في دراسة جزئيات مباحث البلاغة وفنونها ، أو قضايا النقد ومسائله وشواهد ذلك عند الشرّاح – قائم على منهجي العلمي الفني الاستقرائي التحليلي ، مع الأخذ بالاعتبار مايلي :

– أنني أورد ما أجده مناسباً لدى شراح الاختيارات من وقفات نظرية أو تطبيقية من خلال شروحهم لأبيات الشعر ؛ وذلك لكل مبحث أو جزئية أو فن بلاغي ، أو قضية أو مسألة نقدية ٠

– إن اقتصرت في دراسة مبحث أو قضية أو جزئية فرعية على نموذج تطبيقي واحد لشارح واحد من هؤلاء الشراح فلأني لم أجد سوى هذا النموذج عند الشارح أو غيره من الشراح ، وإلاّ فإن الأصل إيراد نماذج تطبيقية لكل مبحث أو جزئية أو

فن بلاغي ، أو قضية أو مسألة نقدية من عند كل الشرّاح .

- لكن قد تتعذر الحال فأجد نموذجاً واحداً عند كل منهم لهذا المبحث أو الجزئية أو القضية أو تلك فأقتصر عليه ، وقد أجد نموذجاً واحداً أو أكثر عند واحد أو اثنين أو ثلاثة من الشراح دون غيرهم ؛ فأورد لهم هذه النماذج دون أن أذكر نماذج أخرى عند بقية الشرّاح ؛ لعدم وجود نماذج مناسبة لهم .

- أنّ مالم ينصّ فيه الشرّاح على ذكر المصطلح البلاغي أو النقدي فليس من شأني الخوض فيه ، لأني لست دارساً لمسائل البلاغة وفنونها ، وقضايا النقد ومباحثه في الاختيارات الشعرية ذاتها ؛ حتى يلزمني الاجتهاد واستخراج المباحث المطلوبة من نصوص الاختيارات ، وإنما دراستي - حسب عنوان البحث وموضوعه - لتلك المسائل والفنون والقضايا والمباحث في شروح الاختيارات الشعرية ودراسة جهود الشراح البلاغية والنقدية في تلك الشروح ؛ من خلال شروحهم لأبيات تلك الاختيارات الشعرية .

ومع ذلك فقد اجتهدت في بعض المواضع والمباحث والجزئيات في تلمُّس المصطلحات العامة والجزئية في النصوص الشعرية ، كما تلمست إشارات الشرّاح - ولو من بُعْد - إلى تلك المصطلحات ؛ وفاءً للبحث وإثراءً له ، وتَوْقاً إلى مايشبه الكمال المنشود والمطلوب دائماً في إتقان الأعمال .

أمّا الدراسات السابقة في موضوع هذا البحث فلعل اهمّها بحث عنوانه (شروح الحماسة - دراسة أدبية نقدية) للدكتور / محمد علي عثمان . غير أني لم أطلع عليه . ولكنه كما يتضح من عنوانه خاص بدراسة شروح اختيار الحماسة ليس غير ، وهي دراسة أدبية نقدية ، وليست دراسة في البحث البلاغي ؛ فهو في البحث النقدي وحده دون البلاغي ، وفي شروح الحماسة وحدها دون غيرها من شروح الاختيارات الأخرى .

- ومن هذه الدراسات السابقة كتاب (دراسة في حماسة أبي تمام) ، وسيأتي - في مبحث التمهيد - القول في ذكر منهج هذا الكتاب ؛ وأنه ليس بالدراسة التي تأخذ سَمْتَ الشروح ، ولا بالدراسة التي تأخذ سمتَ الدراسة البلاغية النقدية العلمية المتخصصة ، ولكنه محاضرات طبعها الأستاذ المؤلف لطلابه في مرحلة

التخرج الجامعي من كلية دار العلوم بالقاهرة ، وقد رجعت إليه وأفدت من مقدمته وتمهيده في مواضع قليلة جداً من البحث .

– ويمكن أن يُعدَّ من هذه الدراسات كتاب : (شروح الشعر الجاهلي) لمؤلفه الدكتور / أحمد جمال العمري ، والكتاب من جزأين ؛ الأول : في نشأة هذه الشروح وتطورها ، والآخر : في بيان مناهج الشرّاح .

والكتاب كما ترى في شروح الشعر الجاهلي فقط ، دون غيره من شروح الأشعار أو الاختيارات الأخرى ، ثم إنه في نشأة هذه الشروح وتطورها ، وفي بيان مناهج شرّاح هذا الشعر . فهو دراسة أدبية صرفة لاصلة لها بالبحث البلاغي أو النقدي ، إضافة إلى كونها – كما ذكرت – مختصة في شروح الشعر الجاهلي فقط .

ومع ذلك فقد اطلعت على الكتاب ورجعت إليه مفيداً منه ؛ وبخاصة في مناهج الشرّاح فيما يخص المرزوقي والتبريزي في بيان منهجيهما في البحث البلاغي والنقدي في شرحيهما لديواني المفضليات والحماسة .

– ومثله : كتاب (منهج التبريزي في شروحه) للدكتور المحقق فخر الدين قباوة . وهو – كما يتضح من عنوانه – كسابقه بحث أدبي صرف في بيان منهج التبريزي في شروحه الشعرية ؛ سواءً شروحه للاختيارات الشعرية أو سواها . وقد اطلعت عليه ، وأفدت منه قليلاً في منهج التبريزي في البحث البلاغي والنقدي .

وأمّا الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث طوال ست سنوات تقريباً فالله – سبحانه وتعالى – وحده بها أعلم . وإن الحديث عنها من باب الشكوى غير جائز شرعاً ، ولكن لابأس بالحديث عنها من باب الإخبار لا الشكوى ؛ وأوجز أهمّ هذه الصعوبات بما يلي :

١ – طول البحث وكثرة الشروح مدار البحث ؛ حيث يقع بعض هذه الشروح في عدد من المجلدات تتراوح بين الثلاثة والأربعة ، وماكان منها في مجلد واحد فهو مجلد ضخم جداً من القطع الكبير حتى إنه ليعادل ثلاثة مجلدات.

٢ – وهي مع هذا الطول تتسم بالصعوبة ؛ لِقِصَر نَفَس الشرّاح في بحوثهم البلاغية والنقدية ، ولعدم وضوح إشاراتهم ومصطلحاتهم أحياناً ، ولصعوبة النصوص الشعرية ؛ نصوص الاختيارات ذاتها ، فكثير منها نصوص جاهلية أو قريب

منها ، وأحيانا يعمى عليّ المقصود بتركيب معيّن من بيت ما ، أو شرحه لدى الشارح ؛ فاضطر إلى المعاجم اللغوية ؛ للوقوف على المراد حتى يتسنى لي البتُّ في أمر ما أنا فيه من بحث .

٣ - كون هذا البحث في عامته تطبيقياً لانظرياً ، وحسبك بهذا صعوبة وبخاصة في مجال البحث البلاغي والنقدي !.

٤ - تردّدي كثيراً بين دراسة شروح المعلقات وغيرها أو تركها ، ثم أخذي بمبدأ الحيطة لنفسي ، ودراستها .

ومردّ هذا التردد إلى أمور :

أحدها : مايشير إليه العنوان ؛ فإن عبارة (فيما نشر من شروح الاختيارات الشعرية) عبارة مطلقة .

والآخر : أن مجلس الكلية قد حدّد لي شروحاً لاختيارات شعرية بأسمائها ، وحذف شروحاً أخرى ، ولم يطالبني بدراسة شروح غير ماحدّده .

وكذلك فإن في عدّ المعلقات من الاختيارات مقالاً ، كما سبق بيان ذلك في أول المقدمة . والباحثون في ذلك على خلاف ، وإذا كانت المعلقات لاتعدّ من الاختيارات فإن شروحها لاتعدّ شروح اختيارات .

٥ - ومن الصعوبات تعاقب ثلاثة من الأساتذة في الإشراف على البحث مدة إعداده ؛ لظروف خاصة بكل منهم وبالكلية .

٦ - ومنها مامرّ بي شخصياً من ظروف عائلية شاقّة لا أريد ذكر شيء منها ، وإنما أحتسبها عند الله سبحانه .

٧ - ومن هذه الصعوبات ارتباطي بعمل وظيفي يأخذ عليَّ بياض نهاري .

ولا يفوتني في ختام هذه المقدمة إلّا ان اتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى اولاً بالشكر والحمد على ما يسّر واعان. ثم بالشكر إلى اساتذتي الفضلاء: الدكتور / أنس عبدالحميد داود - رحمه الله تعالى وعفا عنه - ؛ أول من أشرف على هذا البحث . ثم أستاذي الكريم الفاضل الدكتور / فريد محمد بدوي النكلاوي الذي لم يدّخر وسعاً في رعاية هذا البحث وتشجيعي لإنجازه . ثم أخص بالشكر الوافر الجزيل أستاذي الكريم الدكتور / محمود عبدالعظيم صفا الذي لازم الإشراف على

البحث مدّة طويلة ، وعايشه معايشةً متتابعة ، وأفادني بنصحه وتوجيهاته . كما أشكر كلاً من أعانني على هذا البحث ، ولو بكلمة طيبة .

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا أعمالنا ، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم وعوناً على طاعته ، وأن يصلح لي ولإخواني المسلمين النيات والذريات ، وأن يعفو عنا الخطيئات والزلات . إنه جواد كريم برٌ رحيم .

وصلى الله على نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه .

التمهيد

أ - مفهوم الاختيارات الشعرية

ب - أسماؤها وأسماء أصحابها

أ - مفهوم الاختيارات الشعرية :

الشعر ديوان العرب ، وهو سجل آثارهم وأمجادهم . وقد كان الشعراء والرواة يحفظونه في صدورهم ، دون كتابة له أو تدوين ، فقد كان لكل شاعر ملازم يحفظ شعره ويرويه للناس ، وعن طريق الرواة في الأجيال يتنقل الشعر من جيل إلى جيل ، ومن راوية إلى راوية ؛ وبهذا تمّتْ المحافظة على هذا التراث الشعري الضخم من النسيان أو الضياع .

فلما انتشر الإسلام وتعلم الناس وشاعت الكتابة بدأ الرواة والمتأدبون يسجّلون مافي صدورهم من شعر لهذا الشاعر أو ذاك ، أو لشعراء هذه القبيلة أو تلك ، حتى تجمعت أشعار منتخبة لشعراء أفراد وقصائد لشعراء القبائل ، واختيارات لكبار الشعراء [١].

وكان أول من بدأ التدوين من الرواة حماد بن سابور بن المبارك - المعروف بحماد الراوية ، والمتوفى سنة ١٥٥هـ . ولقد اشتهر بحفظ قدر كبير جداً من أشعار الأقدمين . وهو الذي دوّن القصائد الجاهلية الطوال المشهورات ، وسمّاها (المعلقات) أو (السُّموط) على اختلاف في عدد تلك القصائد . وقد لقيت المعلقات عناية كبيرة من الدارسين والشرّاح ، ومن أشهر شروحها وأجودها شرح الحسين بن أحمد الزوزني - المتوفى سنة ٤٨٦هـ - ، وشرح أبي بكر الأنباري - المتوفى سنة ٣٢٨ هـ -، وشرح يحيى بن علي التبريزي ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ [٢].

ثم جاء المفضل الضبي - المتوفى بين سنتي ١٦٤ - ١٧٥ هـ - الذي جمع مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن اختياراً قد اشتهر باسم المفضل : (المفضليات) . وقد سماها المفضل نفسه قبل (كتاب الاختيارات) [٣].

---

(١) انظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب - قسم الأدب د . مصطفى الشكعة ٤٦٩ . وانظر : مقدمة جمهرة أشعار العرب لمحققه د . محمد علي الهاشمي ٣١/١ .

(٢) انظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٣) انظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٤٧١ . وانظر : مختارات الشعر العربي - رؤية في تصنيفها ، بحث للدكتور محمد عويس محمد في كتاب بحوث ودراسات في اللغة العربية وآدابها ٤٠١/٢ .

ثم جمع الأصمعي - المتوفى سنة ٢١٦ هـ - مجموعة قصائد اختارها على نسق اختيار المفضليات ، وقد اشتهرت بـ (الأصمعيات) نسبة إلى لقب الأصمعي. ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن (المفضليات) رُزقتْ حظوة من الشهرة تتضاءل أمامها (الأصمعيات) في حين أن القارىء لهذين الاختيارين بتجرد وإمعان سيعجب جداً بنماذج اختيار (الأصمعيات) وقصائده أكثر من إعجابه بنماذج اختيار (المفضليات) وقصائده ؛ وما ذاك إلا لأن الأصمعي أديب حافظ راوية ظريف فانعكست سمات هذه الشخصية على اختياره إلى حدّ كبير ، بينما اتسمت اختيارات المفضل بالحدّة والجد فجاءت فحلة فخمة مليئة بالألفاظ الغريبة التي يعجب بها الناس قديماً ويميلون إليها أكثر من إعجابهم وميلهم إلى الألفاظ السهلة العذبة [٤].

ودوّن أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي اختياره الذي سماه (جمهرة أشعار العرب) ، وقد بناه على أساس سباعي ؛ فجعل اختياره في سبعة أقسام هي: السبع السُّمُوط ؛ وهي المعلقات السبع ، والجمهرات ، ومنتقيات العرب ، والمذهبات ، وعيون المراثي ، والمشوبات ، والملحمات السُّبع [٥].

ثم دوّن ابن الشجري - المتوفى سنة ٥٤٢ هـ - مختاراته التي تنسب إليه : (مختارات ابن الشجري) وتعرف باسم (ديوان مختار شعراء العرب) وأحياناً تعرف باسم (مختارات شعراء العرب)[٦] .

ويذكر الدكتور محمد عويس محمد مختارات عديدة في بحثه الذي درس فيه الاختيارات الشعرية منذ العصر الجاهلي إلى القرن الحادي عشر تقريباً ؛ فحاول تصنيف هذه المختارات وفق رؤية جديدة اجتهد في تنسيقها وتسمياتها، وجعلها ثلاثة أنماط : نمط تاريخي قبلي ، ونمط نقدي ، ونمط تاريخي خاص . وقد فرّع عن كل نمط ألواناً من التصنيفات والمختارات التي لاتسلم من بعض الغموض وشيء من التداخل؛ لصعوبة التحديد لهذه التقسيمات ووضع التصوّرات الخاصة بكل منها .

---

(٤) انظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٥) انظر : جمهرة أشعار العرب ٢١٨/١ - ٢٢٠ .

(٦) انظر : بحوث ودراسات في اللغة العربية وآدابها ٤٠٤/٢ . وانظر : مقدمة المحقّقَين لشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٦/١ .

وقد أدخل في هذه الاختيارات الشعرية كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، وكتب الطبقات ؛ مثل (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي ، و (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (طبقات الشعراء) لابن المعتز ، و (الذخيرة لابن بسام)، و (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) ، و (خريدة القصر وجريدة أهل العصر) لعماد الدين الأصفهاني . وجعل (مختارات الحماسة) من مختارات التثقيف الفنئوي [٧]. . .

وقد تطوّر مفهوم الاختيارات في اختيارات الحماسة عنه في الاختيارات الشعرية الأولى كالمفضليات ، والأصمعيات والجمهرة ومختارات ابن الشجري ؛ إذْ كان مبنى الاختيارات الشعرية في دوادينها الأولى على الاختيار المطلق غير المبوّب أو المصنف حسب الموضوعات أو الأغراض الشعرية ، بينما كانت في اختيارات الحماسة وفق تبويب سنّه أبو تمام ؛ حين صنّف اختياره في ديوان الحماسة إلى عشرة أبواب شملت عشرة موضوعات أو أغراض شعرية . كما أن الاختيارات الشعرية في دواوينها الأولى مبنية على اختيار القصائد المختلفة التي لارابط بين موضوعاتها أو أغراضها ، وهي في اختيارات دواوين الحماسة مبنية على المقطّعات غالباً ، لاعلى القصائد والمطوّلات ، والتي تنتظم كل مجموعة منها تحت موضوع أو غرض شعري واحد [٨].

وقد حذا حذو أبي تمام في هذا النوع من الاختيار الحماسي - المبوّب المصنف لمقطوعات الاختيار حسب الموضوعات والأغراض - جمهرة من المعجبين بهذا الصنف من الاختيار ؛ أمثال (البحتري ، والخالديين ، وابن الشجري ، وأبي هلال العسكري، والأعلم الشنتمري ، ويوسف البياسي الأندلسي وأبي الحسن البصري) في دواوينهم المعروفة بالحماسات [٩].

---

(٧) بحوث ودراسات في اللغة العربية وآدابها ٢/٣٩١ - ٤٣٦ .

(٨) انظر : مقدمة المحقّقين لشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٦/١ . وانظر : كتاب (دراسة في حماسة أبي تمام) ٧ ، ٨ .

(٩) انظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي مقدمة المحققين ٦/١ ، ٧ . وانظر : دراسة في حماسة أبي تمام ٧ ، ٩ .

ولا أستبعد أن يكون أبو تمام قد تأثر في هذا التصنيف لاختيار حماسته - بحسب الموضوعات والأغراض - بصاحب الجمهرة الذي صنف اختياره إلى سبعة موضوعات أو أقسام ، وهي وإن كانت أقساماً بُنيتْ في تصنيفها وتقسيمها على أساس أدبي نقدي صرف بعيدٍ عن موضوعات الشعر وأغراضه ، قريبٍ من الاتجاه النقدي العام في أحكامه ومصطلحاته العامة إلا أنها أولاً قامت على أساس التصنيف والتبويب والتقسيم ، ثم إنها ثانياً ضمّتْ في تصنيفها وتبويبها قسمين يصنفان في الموضوعات أو الأغراض الشعرية ؛ وهما (المراثي) و (الملحمات) .

ولهذا لا أستبعد تأثر أبي تمام به وتقفّيه أثره في هذا التصنيف وإن كان لأبي تمام فضيلة التّوسع في هذا التصنيف والدقة فيه ، وتخصيصه وحصره في موضوعات الشعر وأغراضه وفنونه بعيداً عن التصنيف وفق الاتجاه النقدي العام في أحكامه ومصطلحاته العامة ؛ كالذي كان عند صاحب الجمهرة .

رأي في سبب تأليف الاختيارات الشعرية :

يذكر الأستاذ / علي النجدي ناصف رأياً فنياً لطيفاً في سبب تأليف الاختيارات الشعرية ؛ ومجمل هذا الرأي : أن الرواة رأوا اللغة العربية تنساب إلى بلاد الأعاجم - مع استفاضة الفتوح الإسلامية - نقيةً خالصة ، ولكنها لاتلبث أن تشوبها العجمة التي لايُؤمَن معها التعويل على هذه اللغة في احتجاج أو استنباط ؛ فنفر هؤلاء الرواة يدفعهم الحبّ لهذه اللغة والغيرة على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ؛ فنفروا إلى البادية يقتصوّن أثر الشعر ، ويستمعونه في بواديه فيجمعونه دون نهج محدد مرسوم ، وإنما يهمّهم ألاّ يندّ منه شيء من شعر القبيلة أو الشاعر فتصدى بعضهم لجمع كثير من أشعار شعراء القبائل وبعض دواوين الشعراء .

ثم نظر الناس فإذا لهم من هذا الشعر محصلة وذخيرة وتراث عظيم ، لكنه مشوّش متفاوت يعوزه التمييز والتصنيف الذي ييسر على شداة الأدب والطلاب غير المتخصصين فهمه وتنوقه وحفظه ؛ فكان لابدّ من إجالة النظر في هذا الكم الهائل من الشعر وغربلته وإخضاعه لتجربة الانتقاء والاصطفاء ؛ فكان الانتخاب والاختيار في

كتب الاختيارات الشعرية ودواوين المنتخبات التي دعت إليها دواعي الترتيب والتيسير والفهم والحفظ (١٠).

وهذا الرأي في سبب تأليف دواوين الاختيارات الشعرية رأي فني لطيف قريب إلى المعقول والمعهود في حياة الأمم والشعوب ؛ فهو رأي مقبول إلى حدّ بعيد .

رأيي في أقدم دواوين الاختيارات الشعرية :

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن أقدم اختيار موثّق قائم على التدوين المنهجي هو اختيارات المفضل والأصمعي في ديوانيهما : (المفضليات) و (الأصمعيات) ، وأنه لم يعرف قبل هاتين المجموعتين شيء من الاختيار إلاّ مايروى من أشعار بعض القبائل ، ومايروى من اختيار العرب في جاهليتهم للقصائد السبع الطوال الموسومة بالمعلقات ، والتي تنسب روايتها في ديوان خاص بها إلي حماد الرواية (١١).

---

(١٠) انظر : دراسة في حماسة أبي تمام ٦ .

(١١) انظر : جمهرة أشعار العرب مقدمة المحقق ١/٣١ ، ٣٢ . وانظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي مقدمة المحققين ١/٦ ، وانظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٤٧١ ، وانظر : دراسة في حماسة أبي تمام ٨ .

ب - أسماء الاختيارات وأسماء أصحابها :

وأذكر الآن أسماء دواوين الاختيارات الشعرية مع أسماء أصحابها ؛ وفاءً بخطة التمهيد الثانية :

١ - القصائد الطوال المشهورات ؛ وتسمى (المعلقات) و (السّموط) و (المذهبات) ، و (القصائد المشهورات) و (السبع الطوال الجاهليات) و (القصائد السبع أو القصائد العشر) ، وهي قصائد طوال لفحول شعراء الجاهلية المعروفين . وقد مرّ القول - آنفاً ؛ في آخر الكلام على مفهوم الاختيارات - في جمعها وجامعها، وأنه حماد الراوية ، كما سبق رأي بعض الباحثين والدارسين في اعتبارهم أقدم اختيار وصل مدّوناً موثقاً على أساس منهجي هو اختيارات المفضل .

٢ - (المفضليات) لأبي العباس المفضل بن محمد الضبي .

٣ - (الأصمعيات) لعبدالملك بن قريب الأصمعي .

٤ - (جمهرة أشعار العرب) لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي .

٥ - (ديوان مختار شعراء العرب) أو (مختارات شعراء العرب) لهبة الله العلوي بن أحمد بن الشجري . وتعرف باسم (مختارات ابن الشجري) .

٦ - (منتهى الطلب في أشعار العرب) لمحمد بن المبارك بن ميمون .

٧ - (مشارف الأقاويز في محاسن الأراجيز) لم يذكر اسم مؤلفه أو مختاره باللغة العربية ، وذُكر في ترجمة عنوان الكتاب أنه لابن جعفر [١٢].

٨ - (المطرب من أشعار أهل المغرب) لابن دحية .

٩ - (السّحر والشّعر) للسان الدين ابن الخطيب [١٣].

---

(١٢) طبع هذا الاختيار أحد المستشرقين الألمان ، ومنه نسخة في المكتبة الشرقية بجامعة (بون) ، تحت رقم (٤٠).

(١٣) ديوان من الاختيارات اللطيفة جمعه واختاره الشاعر الأديب ذو الوزارتين (لسان الدين ابن الخطيب) . وقد ذكر في مقدمته : أنه جمعه باختيار دقيق لابنه (عبدالله) ليتأدب به ويتهذّب ويتعلم الشعر ويحسن قرضه . ومنه نسخة خطية مكتوبة بخط حديث - في المكتبة الشرقية بجامعة (بون) أيضاً . وقد وقفت عليها وقلّبت النظر فيها .

١٠- (الحماسة) لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ٠

١١- (الحماسة) المنسوب إلى البحتري ٠

١٢- (حماسة الظرفاء) لأبي محمد عبدالله بن محمد العبدلكاني ٠

١٣- (الحماسة الشجرية) لابن الشجري صاحب (مختارات شعراء العرب) ٠

١٤- (الحماسة) للأعلم الشنتمري ٠

والحماسات التي انتهج أصحابها نهج أبي تمام في التسمية والمنهج بحسب التصنيف وفق الموضوعات والأغراض الشعرية - كثيرة ٠

وثمّة اختيارات شعرية أخرى انتهج أصحابها نهج أبي تمام في حماسته في تبويب اختياراتهم وتصنيفها وفق موضوعات وأغراض شعرية ؛ ومن هذه الاختيارات :

١٥- (الأنوار في محاسن الأشعار) للشمشاطي ٠

١٦- (المضنون به على غير أهله) لعز الدين عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجي ٠

١٧- (مجموعة المعاني) مجهول المؤلف ٠

١٨- (مختارات البارودي) لمحمود سامي البارودي ٠

تلك أهم دواوين الاختيارات الشعرية ، وأسماء أصحابها المختارين لها ٠

الباب الأول
البلاغة
في
شروح الاختيارات الشعرية

مدخل :

- منهج البحث البلاغي في شروح الاختيارات :

يقصد بمناهج الشّراح في شروحهم الاختيارات الشعرية في جانبيها (البلاغي والنقدي) الطريقة التي سلكوها في معالجة المباحث والفنون البلاغية ، أو القضايا والمسائل النقدية، وإلى أيّ حدّ ظهرت واضحةً مذاهبُهم الفنية وطريقتهم في فهم النصوص الشعرية واستخراج مافيها من مباحث بلاغية ، أو قضايا نقدية، وما مصادرهم في ذلك؟ ، ونحو ذلك ؛ مما يعين على وضوح مناهجهم في معالجة تلك المباحث ، أو القضايا [١] .

وإذ قد عرفت المقصود بمناهج الشّراح في البحث البلاغي والنقدي فإني سأورد ملامح السمات العامة لخصائص منهج البحث البلاغي لدى شراح الاختيارات الشعرية ، وسيليه - بإذن الله تعالى - ملامح السمات العامة لخصائص منهج البحث النقدي لدى هؤلاء الشراح ؛ وذلك في موضعه مدخلاً للباب الثاني : (أهم الدراسات النقدية في الشروح) . على أن كثيراً من ملامح هذه السمات العامة لخصائص منهج البحث البلاغي والنقدي تلتقي عند كلٍّ من هؤلاء الشرّاح ؛ في منهجه الخاص في بحثه البلاغي ، أو النقدي .

---

(١) انظر شروح الشعر الجاهلي / مناهج الشّراح ٢/٦ ، ٧.

أ - منهج البحث البلاغي عند أبي محمد القاسم بن محمد الأنباري في شرحه ديوان المفضليات :

أخذ أبو محمد الأنباري - رحمه الله - اختيار المفضليات وشرحه إملاءً عن عامر بن عمران أبي عكرمة الضبي، وأخذ أبو عكرمة الضَّبي قصائد ديوان الاختيار عن أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي عن المفضّل الضبي.

ثم إن أبا محمد الأنباري لم يكتف برواية أبي عكرمة وتفسيره وشرحه، بل أخذ يتحقّق ويتحرى في هذا الاختيار العظيم وشرحه ، سائلاً بعض معاصريه ومدارسا ؛ فسأل أبا عمر بُندار الكرخي، وأبا بكر العبدي، وأبا عبد الله محمد بن رستم ، والطوسي ، وغيرهم؛ سأل هؤلاء وغيرهم عن الشيء بعد الشيء فزادوه على رواية أبي عكرمة الضبي البيتَ والتفسير ، فضمّن ذلك في مواضعه من شرحه لهذا الاختيار .

ولم يتوقف أبو محمد الأنباري عند هذا الحدّ ، وإنما صار بعد هؤلاء العلماء إلى أبي جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح ؛ فقرأ عليه هذه القصائدَ المختارة وشَرْحَها بصفتها وحالتها التي وصلت إليها ، ومع إضافاتها التي انتهت إليها؛ فأنكر أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح على أبي عكرمة الضبي أشياء بيّنها الأنباري في مواضعها من الكتاب - شرح ديوان المفضليات - . وقد أسند أبو محمد الأنباري إلى أبي جعفر أحمد بن عبيد مافسّره ورواه في مواضعه من الكتاب، جاعلاً عمود الكتاب على نسق أبي عكرمة الضبي في الرواية والتفسير.[٢]

ويتبيّن مما سبق أن الجهد الذاتي لأبي محمد الأنباري في شرح ديوان المفضليات جهد قليل إذا ماقُورن بجهد أبي عكرمة الضبي أو أبي جعفر أحمد بن عبيد؛ وسواهما ممن سألهم وناقشهم من العلماء الذين ذكرهم ؛ فزادوه البيت والتفسير على رواية أبي عكرمة وشرحه.

---

(٢) انظر مقدمة الشارح أبي محمد الأنباري ١ . وجاء فيها : « قال أبو بكر بن الأنباري و قال أبي : وحُدِّثت أن أبا جعفر المنصور تقدّم إلى المفضّل في اختيار قصائد للمهدي، فاختار له هذه القصائد؛ فلذلك نسبتْ إلى المفضل» .

وبناءً على ذلك فإنّ البحث البلاغي في شرح ديوان المفضليات ليس خاصاً بأبي محمد الأنباري وحده ، بل ليس له منه إلا القليل؛ لأنه ليس له من عامّة الشرح - بجميع جوانبه - إلا القليل؛ ولذلك فسيكون النظر في منهج البحث البلاغي في شرح المفضليات نظراً عاماً يمسّ الشرح بعامّته ، كما يمسّ جهود الشراح الذين تضافروا على شرح هذا السفر العظيم بعامّتهم.

ومن ملامح سمات شرح ديوان المفضليات بوجه عام :

١ - التوسع في الشرح اللغوي ، والاستشهاد عليه ، وعلى بعض المعاني بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وبالأبيات الشعرية ، وبآثار الصحابة والأئمة - رضوان الله عنهم أجمعين - ، وبأمثال العرب وحكمهم وأقوالهم.(٣)

وقد يجرُّ هذا التوسع في الاستشهاد إلى شرح هذه الشواهد والتوسع فيها توسّعا قد يطغى أحياناً على شرح أبيات الاختيار ذاتها . بل قد يتعدى ذلك إلى الاستطراد الطويل!.(٤)

٢ - العناية بالروايات الشعرية المختلفة لبعض مفردات الأبيات أو تراكيبها مع الاستشهاد على تلك الروايات أحيانا.

٣ - وأما مصادر شرح ديوان المفضليات عند أبي محمد الأنباري فهي ماتقدم ذكره؛ من اعتماده في الرواية والتفسير على أبي عكرمة الضبّي ، وبنائه نسق الكتاب وعموده على رواية أبي عكرمة وتفسيره . ثم اعتماده بعده على بعض مشايخ عصره الذين سألهم ودارسهم في شأن شرح الاختيار ؛ فزادوه على رواية أبي عكرمة وتفسيره الشرحَ والتفسير. ثم اعتماده على أبي جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح الذي عرض الأنباريُّ عليه الكتاب بعد هؤلاء جميعاً ، فقرأه عليه ، وحكّمه فيه ؛ فمحّصه النُّصح ، واستدرك على أبي عكرمة الضبي أشياء وزاد أشياء بيّنها الأنباري في مواضعها من الكتاب.

---

(٣) انظر شرح المفضليات ٥٢ ، ٥٣ ، ٨٩ ، ٩٠.

(٤) انظر شرح المفضليات ٤٨ ، ٥٢.

وهذه الملامح للسمات العامة لشرح ديوان المفضليات تدخل فيها جميع جوانب الشرح اللغوي والنحوي والصرفي والإخباري والتفسيري والبلاغي والنقدي ؛ ذلك بأن الشرح كُلٌّ لايتجزأ تتضافر جوانبه جميعاً في إخراج شرح علمي فني متكامل .

على أني لو أردت أن أتبيّن أهم الملامح أو السمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي في شرح ديوان المفضليات عند الأنباري لوجدتها فيما يلي:

١ - قلة العناية بذكر المصطلحات البلاغية أو الإشارة إليها ، بل انعدام ذلك في كثير من مواضع الشرح ، ويتجلّى ذلك بصورة أوضح في مسائل مباحث علم المعاني بوجه خاص. ثم فنون مباحث البديع وألوانه. أما صور مباحث علم البيان وفنونه فهي أكثر مباحث علوم البلاغة عناية فيما يخصّ النص على المصطلحات البلاغية ، أو الإشارة إليها بمصطلحات عامّة إن لم يكن بمصطلحاتها الفنية البلاغية الخاصة؛ فقد يرد في الشرح ذكر صورة الاستعارة في بيت مّا، وبيانها والدلالة عليها بالنص على مصطلحها البلاغي الصريح :(الاستعارة)، لكنه لايذكر المصطلح النوعي أو الجزئي لتلك الاستعارة؛ مثل استعارة (تصريحية أصلية) . أو (تصريحية تبعية).، (أو استعارة بالكناية) أو (تمثيلية). بل إنّه كثيراً مايدلُّ على صورة الاستعارة أو المجاز بمصطلح (المَثَل) ، دون نص على مصطلح الاستعارة ونوعها ، أو المجاز ونوعه اللّذين تضمنتهما الصورة الفنية في البيت لما سمّوه بمصطلح (المَثَل).

ولعل صورة التشبيه أكثر الصور الفنية عند الأنباري وضوحاً وعناية بذكر المصطلح والنصّ عليه ، لكنه ذِكْرٌ للمصطلح العام للتشبيه دون تحديد نوعياته وجزئياته ، والنص على مصطلحاتها ، وبيان صورها الفنية.

٢ - ومن مزايا البحث البلاغي عند الأنباري- الإيجاز الشديد وقِصَر النَّفَس في العرض والبيان والتحليل الفني لجوانب البحث البلاغي وفنونه ومسائله ، وقد نتج عن ذلك عدم وضوح الرؤية الفنية البلاغية في معالجة كثير من المباحث البلاغية وفنونها.

٣ - إهمال كثير من مسائل البلاغة وفنونها ؛ وذلك في مباحث علوم البلاغة كلها بوجه عام .

وستجد شواهد كثيرة جداً لهذه الملامح والسمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي عند الأنباري ماثلةً - إن شاء الله تعالى - في نماذج الدراسة التطبيقية على مباحث علوم البلاغة وفنونها في الفصول الثلاثة التالية لمبحث مناهج الشراح في البحث البلاغي.

ب- منهج البحث البلاغي عندالتبريزي في شرح المفضليات :

١ - التبريزي في غالب شرحه اختيارات المفضل عالة على المرزوقي أو الأنباري ؛ فقد نقل عن الأنباري الأخبار ، وكثيراً من الأنساب، والتعريف بالشعراء ومسائل اللغة . ونقل عن المرزوقي معاني الأبيات ، والنحو والتصريف ، ومباحث البلاغة، والوقفات النقدية مضيفاً إلى ذلك - كما يقول المحقق الدكتور فخر الدين قباوة - بعض عبارات من نسخ وكتب أخرى مؤلفاً بين الجميع بأسلوب من التصرف والاختصار.

٢ - وبناءً على هذا الاعتماد الكبير على الآخرين الذي يكاد أن يكون كلياً يرى الدكتور قباوة- وأؤيده في ذلك إلى حدٍّ ما - أن التبريزي لم يُثرِ في مسائل اللغة والنحو ومباحث البلاغة وفنونها أيَّ مسألة أو مبحث أغفله أسلافه ، لكنه ذكر من ذلك ماذكره المرزوقي أو الأنباري فحسب . وأعرض عن غيره مع أنه ليس أقل أهمية مما ذكروه !.[٥]

وعلى ذلك فنادراً مايأتي بجهد ذاتي ، وأكثرما يأتي به من عنده مسائل تتصل بالنحو ووجوه الإعراب.

٣ - ومع ذلك فنادراً جدًامايعزو التبريزي في شرحه المفضليات إلى مصادره ومن أخذ عنه ونقل ؛ وبوجه خاص المرزوقي والأنباري !.

تلك أهم الملامح والسمات العامة لمنهج التبريزي في شرحه ديوان المفضليات.

أما أهم الملامح والسمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي عند التبريزي في

---

(٥) انظر منهج التبريزي في شروحه ٥٥٢ ، ٥٥٣. وقد بيّن المحقق الفاضل في الحاشية من شرح التبريزي للمفضليات كل ماأخذه عن المرزوقي أو الأنباري بتحديد فني دقيق يكاد يكون منقطع النظير؛ مما أفادني كثيراً في بيان جهد التبريزي في شرح المفضليات .

شرح ديوان المفضليات فلا تكاد تخرج عن الملامح والسمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي عند الأنباري في شرحه المفضليات ؛ من :

١ - قلة العناية بالمصطلحات البلاغية أو الإشارة إليها ، وبخاصة في مسائل علم المعاني وبحوثه ، وإن كان التبريزي أكثر عناية من الأنباري في النصّ على المصطلحات البلاغية ودراسة مباحث البلاغة وفنونها وتحليلها ؛ نظراً لاعتماده الكبير على المرزوقي في ذلك . على أن النصّ على هذه المصطلحات البلاغية، أو الإشارة إليها يكون بذكر المصطلحات العامة ، كا(الاستعارة) ، أو (التشبيه) ، أو (المجاز)، دون نصّ على المصطلحات النوعية الفرعية لهذه الأجناس البلاغية ، وكثيراً مايذكر الصورة الفنية والبلاغية أو يشير إليها بذكر مصطلح (المَثَل) ؛ كما هو الحال عند الأنباري سواءً بسواء ؛ على طريقة اللغويين والبلاغيين القدماء .

وقد لقي فن (التشبيه) عند التبريزي عناية طغت على مباحث البلاغة وفنونها الأخرى - كما هو الحال عند الأنباري - ، لكن دون عناية في بيان الصورة الفنية والبلاغية التي اشتملت عليها صور التشبيه ، ودون تحديد أو بيان لفروع التشبيه وجزئيات أنواعه وذِكْر لمصطلحاته - كما هو الحال عند الأنباري كذلك - ، على أن سرّ عناية التبريزي بمباحث التشبيه العامة مردّه إلى المرزوقي الذي كان جلُّ اعتماده عليه في مباحث البلاغة وفنونها .

٢ - الإيجاز الشديد وقِصَر النَّفَس في العرض والبيان والتحليل الفني لجوانب البحث البلاغي وفنونه ومسائله ، وإن كان في ذلك أخف من الأنباري وأقرب منه إلى حسن العرض وعمق البيان وطول التحليل- نسبياً - لبعض الصور البلاغية . ومردّ ذلك إلى المرزوقي الذي نقل عنه !.

٣ - أهمل التبريزي ذكر بعض مسائل البلاغة ومباحث فنونها وصورها وذلك في مباحث علوم البلاغة كلها بوجه عام . على أنه في ذلك أخف من الأنباري إهمالاً وأكثر عناية بهذه المسائل والمباحث ؛ نظراً لاعتماده الكبير على المرزوقي . وما كان من وجوه النقص وإهمال بعض الجوانب البلاغية فمردّه إلى سلبيته الذاتية، واعتماده على النقل دون إبداء لرأي، أو تسديدٍ لنقص أو استنتاجٍ خاص يُكمل به جهود مَنْ

سبقه أو أخذ عنه !.

وشواهد هذه السمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي عند التبريزي ماثلة في نماذج الدراسة التطبيقية على مباحث علوم البلاغة وفنونها في الفصول البلاغيةالثلاثة التالية لمناهج الشّراح في البحث البلاغي، بإذن الله تعالى.

ج - منهج البحث البلاغي عند النمري:

كان أبو عبد الله النمري في شرحه ديوان الحماسة من خلال كتابه (معاني أبيات الحماسة) يركّز على بيان بعض معاني أبيات الحماسة التي اختارها من بعض المقطوعات والقصائد لعامة أبواب الحماسة من غير شمول لتلك القصائد أو المقطوعات ، وإنما يختار بعض أبيات المعاني التي تحتمل أكثر من وجه في التفسير ، أو التي يعتورها الغموض أو الإشكال في معرفة معناها؛ يختار مثل هذه الأبيات لبعض المقطوعات والقصائد في عامة أبواب الحماسة؛ وهذا مما جعل جهده البلاغي أو النقدي غير كبير ولا مؤثّرتبعًا لحجم الشرح الذي يقع في مجلد واحد لطيف من الحجم الوسط ، و تبعاً لطبيعة منهجه الذي بنى عليه شرحه الذي يقوم في أساسه على تفسير المعاني وبيان المُشْكل منها.

وسيتضح هذا الجهد بصورة تفصيلية تطبيقية أثناء الدراسة التطبيقية البلاغية في فصول مباحث البلاغة الثلاثة التالية ؛ بإذن الله تعالى .

ومن أهم مايميّز منهجه في البحث البلاغي:

١ - قلة العناية بمسائل البلاغة ومباحث فنونها ، بل ندرة ذلك ، مع قلة العناية بذكر المصطلحات البلاغية ، وبخاصة الفرعية النوعية منها ، وما ذكر من هذه المصطلحات يكون بذكر المصطلحات العامة لهذه المباحث والفنون؛ مثل مصطلحات : (التشبيه) ، و(الاستعارة) و(الكناية) و (المجاز) ، أو مصطلح (المَثَل) - على طريقة البلاغيين من اللغويين - دالاً به على بعض أوجه (المجاز) أو فنون (الاستعارة) .

٢ - يحكُم معالجته البلاغية لبعض مباحث البلاغة وفنونها الإيجازُ الشديد، مع

الافتقار إلى التوسع في العرض والبيان والتحليل الفني للصور الفنية البلاغية .
٣ - أهمل كثيراً من مسائل البلاغة ومباحثها وفنونها ، وبوجه خاص مسائل علم المعاني ومباحثه وكثيراً من فنون البديع ، وبوجه خاص البديع اللفظي الذي لم يذكر منه فناً واحدا.

ولقد كان من مصادر أبي عبد الله النمري في شرحه (معاني أبيات الحماسة) أبو رياش الذي عوّل عليه كثيراً في شرحه، ومنهم الديمرتي ، والأصمعي- رحمهم الله تعالى - . وكان له بعض الاعتراضات على الديمرتي في بعض وجوه تفسير معاني أبيات الحماسة(٦) .

د - منهج المرزوقي في البحث البلاغي في شرحه ديوان الحماسة :

تقدم في التعريف بمنهج البحث البلاغي عند التبريزي في شرحه ديوان المفضليات أن ذكرت اعتماده الكبير على المرزوقي في هذا الشرح وبخاصة في البحث البلاغي والنقدي، وتقدم ذكر المزايا والسمات الخاصة بمنهج البحث البلاغي عند التبريزي في شرح المفضليات ، وأن سمات هذا المنهج عائدة في الحقيقة إلى أساسها وأصلها ؛ أعني صاحبها الحقيقي؛ وهو المرزوقي .

وإذا كان شرح المرزوقي للمفضليات لايزال مخطوطاً - ينتظر من ينهض بتحقيقه وإخراجه للناس- فإن التبريزي بتعويله عليه كثيراً واعتماده قد أعطانا صورة صادقة قيمة عن هذا الشرح وبخاصة في جانبيه البلاغي والنقدي .

ويُعدُّ أبو علي المرزوقي في شرحه ديوان الحماسة أشهر شرّاح الحماسة ، بل أوفى شرّاح الاختيارات الشعرية بمتطلبات الشرح والوفاء بجميع جوانبه اللغوية، والنحوية والصرفية ، والمعاني، ومباحث البلاغة وفنونها ومسائل النقد ، مع حسن في العبارة وقرب في الأداء ، وسلاسة في الأسلوب وإشراق في الديباجة ، ووضوح في المقصد ، والدلالة على مراد الشعراء وأغراضهم في أشعارهم . وقد لمست ذلك واضحاً جلياً من خلال معايشتي الطويلة له ومعايشتي لغيره من الشرّاح ؛ ذلك بأنه

---

(٦) انظر معاني أبيات الحماسة ٣، ٤، ١١، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٢٠١، ٢٤٠.

لم يكن لي أن أطلق مثل هذا الحكم الخطير من فراغ ؛ بل من معاناة وطول مُدارسة ومصابرة له ولغيره من الشرّاح ؛ حتى تبيّن لي الفرق بينه وبين غيره . إن شرح المرزوقي لديوان الحماسة أوعى الشروح وأجمعها لجوانب العلوم المختلفة؛ من لغة ونحو وصرف ، وأدب وبلاغة ونقد ، وأخبار ومناسبات وقصص وحكايات وسير وغير ذلك . وهو أوفى الشروح بمتطلبات الشرح والقيام ببيان جوانب هذه العلوم وتسخير الآلة والوسيلة الدقيقة الواعية في لغة أدبية سهلة رصينة جزلة وعبارات متلاحمة النظم جيدة السبك حسنة الرصف مشرقة الديباجة نسجتها يد أديب بليغ متمكن من ناصية البيان.

ومنهج المرزوقي في شرحه بوجه عام يعتمد المنهج (الإبداعي الفني) الجامع بين العقل في الرواية والفهم في الدراية؛ كما قرّر ذلك الدكتور أحمد جمال العمري :

فهو منهج « يقوم على دعامات فنية ، ومقومات أدبية وعلمية تتآزر فيما بينها لتخدم النص الشعري وتضيء جوانبه ، وتبرز سماته ومعانيه في أجمل صورة ، وعلى أكمل وجه .»

وهو المنهج الذي « يقوم على إعمال العقل وكدّ الفكر، واستنطاق النصوص بما فيها ، وما وراءها ، ويستند إلى المحصول الثقافي الواسع في علوم اللغة والأدب ، ويظهر في إطار فني بديع يعكس ملكة صاحبه الخلاّقة الواعية الذّواقة الفاهمة لأغراض الشعر ومراميه ومعانيه.»

وهذا المنهج الذي يقوم « على استعراض الروايات ومقارنتها واختيار أفضلها وأجودها وأقربها إلى مذهب الشاعر ومقصده.»

كما أنه المنهج الذي تظهر فيه « ذاتية الشارح وشخصيته وملكته الأدبية، وقدرته على بلورة الأفكار ، وتقديم التصورات الممكنة والمحتملة والجائزة في غلاف من الأسلوب الأدبي المؤثّر المُحرِّك لمشاعر القارئ أو السامع ووجدانه.»[٧]

---

(٧) شروح الشعر الجاهلي - مناهج الشرّاح ١٢٩/٢.

وقد ذكر محققا(شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي المعروف بكتاب الحماسة) - كما سمّاه المرزوقي نفسه في مقدمته- : أن هذا الشرح من أقدم شروح الحماسة، وأكبر شروحها التي وصلت إلينا ، وأكثرها عناية بمعاني الشعر وبالنقد والموازنة. مع العناية بجوانب اللغة ومسائل الاشتقاق والنحو والصرف دون إسراف في هذه الجوانب والمسائل، كما تميز شرحه بأسلوب رصين متخيّر العبارة . غير أنه قد يُطيل أحياناً الفصل بين أركان الجملة الواحدة مما يجعل القارئ عرضة للتيه وطول الفهم ، كما امتاز بمقدمته النفيسة الجريئة التي تعدُّ وثيقة مهمة في تاريخ النقد الأدبي ، شعره ونثره.[٨]

وقد نقل المحققان الكريمان ثناء بعض العلماء والأدباء على شرح المرزوقي لديوان الحماسة فذكرا قول ياقوت : إنّ المرزوقي قد أجاد في هذا الشرح جداً . وقول القفطي:« وهو الغاية في بابه» . وقول ابن شاكر:« وهو أحسن شروحها» ؛ يعني الحماسة .[٩]

وأمّا مصادر المرزوقي في شرحه ديوان الحماسة فإني أعتبر تظلّع المرزوقي في اللغة والنحو والتصريف - حيث ينتسب للمدرسة البصرية في النحو - وزادَه العلمي والثقافي الواسع وملكَته الذاتية الواعية الذواقة ، أعتبر ذلك أهم مصدر ذاتي له .

ومع ذلك فقد استعان في هذا الشرح ببعض شيوخه الذين التقى بهم وسألهم وناقشهم ، كما صرّح بذلك في خاتمة شرحه التي ذكر فيها طول معاناته في هذا الشرح الذي اشتغل فيه مدة طويلة لايذكر طرفيها كما يقول.[١٠]

كما أفاد من بعض العلماء واللغويين كالخليل، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي العباس المبرد ، والدُّريدي ، وأبي محمد الدهان اللغوي؛ وهو من شيوخه الذين التقى بهم

---

(٨) مقدمة شرح ديوان الحماسة ١٦، ١٧.

(٩) مقدمة المحققين / عبد السلام هارون وأحمد أمين / شرح ديوان الحماسة١/ ٢٠.

(١٠) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٨٦.

وسائلهم ودارسهم.[١١]

وإذا كان المرزوقي قد بنى شرحه ديوان الحماسة بوجه عام على المنهج الإبداعي الفني فإنه قائم كذلك على هذا المنهج في منهج بحثه البلاغي والنقدي بوجه خاص.

ذلك بأن هذا المنهج يقوم في منهج البحث البلاغي على « استغلال إمكانات اللغة والتفنّن في استخراج مكامن علوم البلاغة ، لإظهار مايؤديه من جمال التصوير وروعة التعبير؛ في إطار من حُسن العرض ، وكمال التحليل ، وجودة التعليل.»[١٢]

على أني لاأذهب بعيداً في تقدير الجهود البلاغية عند المرزوقي المبنية على هذا المنهج ؛ فلا أرى ماراه الدكتور / أحمد جمال العمري؛ إذْ إنّي أرى المبالغة في تقدير هذه الجهود تطغى على أحكام العمري؛ حين قال: « ... لقد استخرجت حاسته الفنية التذوقية كلّ كنوز هذه العلوم الثلاثة : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع استخراجاً صحيحاً وجريئا ؛ حيث طبّق أصولها وأحكامها ، وأبرز مواطن الجمال في الشعر بطريقة رائعة فذّة تلفت الأنظار وتجذب الانتباه ؛ حتى تلألأت تحليلاته البلاغية ؛ فكادتْ تطغى على باقي عناصر الشرح الفني عنده...»[١٣]

ويضيف د. العمري :

« لقد استغل طاقاته البلاغية في شرح الصور الشعرية التي رسمها الشعراء وتحليل معانيها المجازية الخيالية ، وإبراز مافي الأبيات والمقطّعات من سمات الجمال الصوتي والمعنوي..؛ فساعد بكل هذا على تمكين الصور الفنية من الوصول إلى أغوار النفس والتأثير فيها ... وأمدّ شروحه بالكثير من العناصر الحيَّة التي أضفتْ على شروحه قيمة علمية وفنية عالية لم تتوفر لكثيرين غيره من الشُرَّاح.»[١٤]

---

(١١) انظر شرح ديوان الحماسة ١/١٨٥ ، ٢٥١ ، ٣/١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ٤/١٨٨٦.
(١٢) شروح الشعر الجاهلي - مناهج الشرّاح ٢/١٢٩ .
١٣) شروح الشعر الجاهلي - مناهج الشرّاح ٢/١٨٥ .
(١٤) شروح الشعر الجاهلي - مناهج الشراح ٢/١٨٥ ، ١٨٦.

إني لا أغض من جهد المرزوقي ، وحسن منهجه في بحثه البلاغي والنقدي ، ولا أزال أراه أحسن الشرّاح وأفضلهم في ذلك ، وكم كان لي من وقفات الإشادة والإعجاب بجهود الرجل البلاغية والنقدية ، ولكني مع ذلك لا أوافق الدكتور العمري فيما قاله آنفاً ، إذْ نبرة المبالغة تَسِم حُكمَه ، وإطلاق الحكم الكبير إذا كان أساسه الإعجاب المطلق أمر غير مقبول!.

ولعل مردّ هذا الإعجاب المفرط لدى الدكتور العمري بالجهود البلاغية للمرزوقي ، وإطلاقه هذه الأحكام الغالية في تقدير هذه الجهود - إلى تميّز المرزوقي في هذه الجهود من بين شرّاح الاختيارات الشعرية؛ الأمر الذي حدا بالدكتور العمري إلى الإعجاب الشديد به ، ومن ثَمَّ إصدار هذه الأحكام المفرطة في الإعجاب والمبالغة في تقدير هذه الجهود.

صحيح أنه تميّز بين هؤلاء الشراح بوفرة هذه الجهود البلاغية والعناية بذكر المصطلحات البلاغية العامة ، أو ماينوب عنها ويشير إليها ، وذلك نظراً لوفرة شرحه وكثرته ونظراً إلى تمتعه بروح فنية في الشرح والتنوق أكثر من غيره ، لكن ينقصه النص على المصطلحات النوعية الفرعية، والتحليل الفني المفصّل لوجوه البلاغة ومباحث فنونها ، ولقد كان العبيدي أدق منه في تحديد المصطلحات البلاغية في بعض المواضع ، وبخاصة النوعية والفرعية من هذه المصطلحات ، وإن كانت في مواضع قليلة.

وما ينطبق على الأنباري والتبريزي والنمري من ملامح خاصة بمنهج البحث البلاغي لديهم ينطبق على المرزوقي ، ولكنه كان في ذلك أفضل منهم وأميز ، وأكثر عناية بالمصطلحات البلاغية ، وبخاصة النوعيةالفرعية منها . وأقلّ منهم إيجازاً وقِصَر نَفَس ، وأوسع في العرض والتحليل وبيان الصورة الفنية البلاغية، كما كان أقلّ منهم إهمالاً لبعض مباحث البلاغة وذكر مسائلها ومباحث فنونها وصورها ، وبخاصة مباحث علم المعاني ، وفنون مباحث البديع بنوعيه ، وإن كان قد أهمل كثيراً من فنون البديع اللفظي بوجه خاص!.

لقد صحبت المرزوقي – كما صحبت غيره من الشرّاح – طويلاً ، وعانيت مدارسة شرحه وخَبَرْته عن قرب ، وبوجه خاص مايهمني هنا الآن ؛ من هذا الشرح؛ وهو الجانب البلاغي والنقدي فإذا كنت قد حكمت عليه في هذين الجانبين بما حكمت آنفاً فإنما أحكم به عن كثب ؛ لطول المعاناة والمصابرة ومعالجة نصوص كلامه ، وترددي بين كلماته وعباراته ، ووقوفي على مايقول متأمِّلاً بإنعام النظر وإمعان الفكر .

هـ - منهج البحث البلاغي عند التبريزي في شرحه ديوان الحماسة :

اعترف التبريزي في خاتمة شرحه ديوان الحماسة بأنه قد جمع هذا الشرح ممَّن سبقه وأخذه عمَّن تقدَّمه من العلماء .

كما نصَّ على الميزة التي تميز بها شرحه ونفى أن تكون موجودة في شرح آخر غير كتابه . وقد أراد بهذا الجمع والتلفيق بين الشروح أن يستقل شرحه بذاته ويستغني الناظر فيه عن غيره من الكتب التي صنِّفت في شرح الحماسة.(١٥)

والحقيقة أن هذه الميزة التي ذكرها مؤكّداً عليها لاتسلم له وحده ؛ فإنك تجد شرح ديوان الحماسة للمرزوقي قد جمع فيه مؤلفه الفاضل ماشتمل عليه شرح التبريزي ؛ من وجوه الإعراب والمعاني وبعض الأخبار، بل إنه قد زاد في بعض ذلك، وبخاصة التوسع في الشرح والإجادة فيه ، والعناية بأوجه الإعراب ، وتفسير الغريب ، كما تميز بطائفة غير محدودة من بحوث النقد وقضاياه وبخاصة فيما يتصل بنقد الأسلوب والنقد اللغوي وغيره من القضايا النقدية الكبرى التي تميزت بها مقدمة شرحه ، كما تميز ببيان وجوه البلاغة ومسائل مباحثها وفنونها ونحو ذلك ؛ مما كان التبريزي فيه عالة على المرزوقي.

---

(١٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٧٩/٤.

صحيح أن التبريزي اهتم بذكر اشتقاق أسامي شعراء الحماسة ، وذكر أخبارهم ، وأخبار القصائد ومناسباتها ، وإن كان المرزوقي قد شاركه في بعض من ذلك ، لكنه لايقارن بجهد التبريزي بذلك بحال.

وإنّ في تصريح التبريزي بجمعه أكثر فنون الكتاب ومسائله ممّن سبقه وتقدّمه من العلماء والأدباء والنقاد- تواضعاً صادقاً وأمانة علمية نزيهة تخفف كثيراً من العتب عليه في عدم عَزْوه ماأتى به من آراء وقضايا نقلها بنصّها عن غيره ، وبخاصة المرزوقي الذي ينقل عنه في الأعم الأغلب وفي المواطن المهمة دون عزو إليه أو إشارة . بينما أجده يعزو كثيراً إلى أبي هلال العسكري ، ويصرح بذكر أبي العلاء حين ينقل عنه ، وبالنمري وأبي محمد الأعرابي وأبي رياش، أما المرزوقي فنادراً مايذكره أو يصرح باسمه على كثرة ماينقله عنه من مهم مفيد!.

ومن سمات منهجه في الشرح بوجه عام وفي البحث البلاغي بوجه خاص- السلبية؛ فإنه ينقل عمن ينقل عنه دون أن يعقّب عليه بشيء ، وهو في هذا السلوك أو الموقف السلبي لايشعرك بشخصيته العلمية واستقلاله الذاتي في الرأي والمذهب؛ فلا تدري هل يوافق من نقل عنه أو يخالفه؟! .

وإذا كان التبريزي في شرح اختيارات المفضل عالة على المرزوقي في مباحث البلاغة والنقد ومنهجه في ذلك - كما سبق بيانه في موضعه - فإنه كذلك عالة على المرزوقي في شرحه ديوان الحماسة في مباحث البلاغة والنقد، وفي منهجه في البحث فيهما . وما ينطبق على التبريزي هناك في شرح المفضليات من اعتماد على المرزوقي في المادة العلمية والمنهج فيما يتصل بالبحث البلاغي والنقدي ينطبق عليه هنا في شرح الحماسة مادة علمية ومنهجاً في البحث البلاغي والنقدي؛ من قلة العناية بالمصطلحات البلاغية، وبخاصة الفرعية منها ، ومن إيجاز وقِصَر نفسٍ في العرض والبيان والتحليل الفني ، ومن إهمال لبعض مواطن مباحث البلاغة وفنونها، وبخاصة مباحث علم المعاني ومسائله ، وفنون مباحث البديع ، وبوجه خاص اللفظي. على أن مباحث البلاغة وفنونها عند التبريزي في شرحه ديوان الحماسة أكثر عناية بالمصطلحات العامة وأغزر مادة منها عنده في شرح المفضليات ؛ نظراً لكونها كذلك

عند من نقل عنه وتابعه ؛ وهو المرزوقي.

ولكن التبريزي كثيراً مايبتر نصوص كلام المرزوقي في هذه المباحث البلاغية والنقدية، فيسيء إلى عمل المرزوقي ويشوه هذه المباحث البلاغية والنقدية بهذا البتر الذي حاول فيه الإيجاز أو الاختصار ، ولكن دون جدوى . بل كثيراً مايهمل متابعة المرزوقي في تلك المباحث، دون أن يأتي بجديد أو يضيف شيئا! . وهذا من سلبيات المتابعة وعدم الاستقلال العلمي ؛مما وسم البحث البلاغي والنقدي عند التبريزي ومنهجه في ذلك بسيما التقصير والعيب والضعف وعدم المبالاة في مثل هذه الجوانب العلمية ذات الثراء والغَناء !.

و - منهج المرصفي في البحث البلاغي:

يتّسم منهج المرصفي في شرحه ديوان الحماسة المسمّى (أسرار الحماسة) - والذي ظهر الجزء الأول منه فقط[١٦]- ؛ يتسم هذا الشرح بالسمة اللغوية العامة منتهجاً فيه نهج الشراح اللغويين الأوائل ؛ من بيان للمفردات الغريبة، وتفسير بعض التراكيب الغامضة، وبيان المعنى العام المراد ، وقلّما يعتني بالنحو وأوجه الإعراب ، مع عنايةٍ بتراجم الشعراء وأنسابهم . وعناية كذلك ببعض مباحث البلاغة وفنونها ، وبعض القضايا والمسائل النقدية. مع إيثار للإيجاز وتحاشي الإطالة ، والاستطراد في عامة شرحه .

أما منهج المرصفي في البحث البلاغي فتكاد تلحقه بمنهج اللغويين والأدباء أمثال الأنباري والمرزوقي والتبريزي ، من جهة الوقوف المقتضب عند بعض مباحث البلاغة وفنونها ومن جهة عدم العناية التامة بذكر المصطلحات البلاغية والنص عليها ، وبخاصة المصطلحات البلاغية الفرعية النوعية، أمّا المصطلحات العامة فهو فيها على

(١٦) طبع الجزء الأول من هذا الكتاب فقط بمطبعة أبي الهول بمصر عام ١٣٣٠هـ ، انظر : حماسة أبي تمام وشروحها / دراسة وتحليل ٢٠٢. وانظر مقدمة التحقيق لشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥/١.

طريقة من سبقه من الشرّاح اللغوين ؛ لذلك تجده يستعمل مصطلح (المَثَل) للدلالة على مصطلح (الكناية) وعلى مصطلح (التشبيه) ، كما يستعمل مصطلح (المجاز) كثيراً ؛ للدلالة على مصطلح (الاستعارة) بأنواعها.[١٧]

كما أنه يتفق مع منهج البحث البلاغي عند اللغويين في قصور البحث البلاغي بوجه عام عن الوفاء بمباحث علوم البلاغة وفنونها ، وبخاصة مباحث علم المعاني ، وفنون البديع . غير أن فنون علم البيان أخذت منه حظّاً وافراً - كما هى الحال عند سائر الشرّاح ، بوجه عام - ، مع العناية بمصطلحات فنون البيان وصوره الفنية، ومع الدقة - بصفة عامة - في إطلاقها وتحديدها على مدلولاتها الفنية الخاصة، وهو يفوق البلاغيين من الشراح اللغويين في ذلك ؛ مثل مصطلحات (التشبيه) (الاستعارة) ، (الكناية) و مصطلح (المجاز) ؛ للدلالة على (المجازالمرسل) ، ومصطلح (الإسناد) للدلالة على المجاز (العقلي)؛ ولعل لتأخر عصره - بعد نضج علوم البلاغة ومصطلحاتها بقرون - نصيباً كبيراً في هذه الدقة والعناية في التحديد؛ ولهذا السبب فإنه لايُعذر في عدم العناية بتحديد المصطلحات البلاغية الفرعية والنصّ عليها عند معالجاته القصيرة المقتضبة لبعض مباحث البلاغة وفنونها . كما أنه لايعذر في عدم البسط والتوسع في العرض والتحليل الفني لهذه المباحث والفنون ، وبخاصة أنه سمّى شرحه (أسرار الحماسة) !.

ز -منهج البحث البلاغي عند علي النجدي ناصف في دراسة الحماسة:

أخرج الأستاذ علي النجدي ناصف كُتَيِّباً لطيف الحجم يقع في (١١٩) صفحة من القطع الصغير سمّاه (دراسة في حماسة أبي تمام) . والمطالع لعنوان هذاالكتيب بادي الرأي يظنه كتاباً علمياً فنياً متخصصاً في الدراسة العلمية الفنية

---

(١٧) انظر أسرار الحماسة ١٤/١ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٣٣ .

المؤصلة لحماسة أبي تمام ، ولكن سُرعان مايتلاشى هذا الظن ويتبدد هذا الشعور بمجرد مطالعة مقدمة الأستاذ المؤلف الذي أبان مشكوراً في تواضع جم منهجه في الدراسة وخطته فيها وطبيعة هذه الدراسة وقيمتها العلمية والفنية، حيث أفاد بأن الكتاب ماهو إلا محاولة أدبية فنية يضعها بين يدي طلابه في السنة النهائية من الدراسة الجامعية؛ لتكون وسيلة لهم تعينهم على الوقوف على فنّ التحليل الأدبي والدراسة الأدبية، للإفادة منه في دراستهم وما يستقبلونه من حياة علمية وأدبية؛ يقول الأستاذ في ذلك:

« ... قُيِّض لي أن أدرّس نصوصاً من حماسة أبي تمام مع طلبة السنة الرابعة بدار العلوم ، ولدراسة النّصوص الأدبية في دار العلوم طريقتها المتخصصة وقصدها المرسوم .... وقد بدا لي أن أقدّم بعض مادرّست من هذه النصوص كتاباً منشوراً يقرؤه الناس؛ فكان لابد أن أرجع إليها فأنفي عنها الدراسات التي لاتعني غير المتخصصين ، فما أقدم إليهم الكتاب وحدهم ، ولكن إلى كل قارئ أديب .

وهاهو ذا يقوم على مقدمة ؛ وسبع حماسيات ؛ فأما المقدمة فتُؤرِّخ الاختيار من الشعر ، وتحدّث عن طليعة كتبه ، وتدرس كتاب (الحماسة) لأبي تمام من نواحيه المختلفة، وتعرض مآخذها ومآخذ القدماء عليه ، وتبيّن مبلغ الثقة به ، ومدى الإفادة منه في اللغة والأدب خاصة ، وفي الثقافة الإسلامية عامة.

وأما الحماسيات فتتوالى بعد المقدمة تباعاً ، ولكلٍّ وحيها الخاص في طابع الدراسة ومقتضياتها المتميزة في منحى التناول والعرض ، وإن كانت لتشارك جميعاً في الغاية والاتجاه العام.»[١٨]

إذاً فكتاب (دراسة في حماسة أبي تمام) ليس دراسة لاختيار الحماسة من حيث شرح نصوص أبوابه وفنونه الشعرية دراسة لغوية أدبية بلاغية نقدية كما هو الحال في شروح الحماسة أو غيرها من شروح الاختيارات الشعرية ، ولكنه أُلِّف قصداً لتعليم طلاب المرحلة الجامعية فن الدراسة الأدبية وتحليل نصوصها ؛ كما

---

(١٨) دراسة في حماسة أبي تمام ٣ ، ٤.

صرح بذلك مؤلفه فهو في أصله محاضرات ألقيت على هؤلاء الطلاب ثم رأى أن ينقّحه فيخرجه كتاباً يقرؤه القارئ المتأدب ، ولا يعني القارئ المتخصص أو الباحث العلمي في تخصصه الدقيق، كما يقول المؤلف!.

ومع ذلك فقد قلّبت فيه النظر مراراً عسى أن أجد فيه مايفيد مما أنا بصدده من أمر هذا البحث المعني بدراسة البلاغة والنقد عند شرّاح الاختيارات الشعرية دراسة علمية فنية دقيقة عميقة متخصصة فلم أجد فيه مايفيد في هذا الجانب، غير ماأفدتُه منه من قليل ؛ فيما يخص تضمين أبي تمام اختيارات حماسته كثيراً من شعر الجاهليين والمخضرمين ، وبخاصة المقلُّون والطائيون من هؤلاء وأولئك ؛ لما تميزت به تلك الأشعار من جودة وإتقان ، وحكمه على أبي تمام بأنه لم يكن محابياً لقبيلته طيء ، حين اختار أشعاراً كثيرة لشعراء منها مغمورين ، وأن أشعارهم جيدة متقنة، وقد ضمنت ذلك فصل (القِدَم والحداثة) .[19]

كما أفدت منه في الأسباب الداعية إلى تأليف الاختيارات الشعرية ؛ وذلك في التمهيد لهذا البحث[20].

حـ - منهج العبيدي في البحث البلاغي في شرحه (المضنون به على غير أهله):

قال العبيدي:

« وما أردت أن أشرح مثل هذه الأبيات إلا أني لمّا تقلدتُ أن أشرح أبيات هذه المجموعة فبالضرورة وقعت فيه .»[21]

١ - وهذا تصريح منه يثبت فيه منهجه العام في شرح أبيات اختيار(المضنون به على غير أهله) الذي حوى طائفة كبيرة من مقطوعاتٍ وأبياتٍ سافلة تعارض القيم الدينية وآداب الإسلام وتوجيهاته ، ويتضمن كثيرٌ منها انحرافات سلوكية وشذوذات أخلاقية، ومع ذلك لايستنكف العبيدي من شرحها وبيان مافيها من فُحش ورذائل،

---

(١٩) انظر ص ٩٦٦ من هذا البحث .

(٢٠) انظر ص ١٦ ، ١٧ من هذا البحث .

(٢١) شرح المضنون به على غير أهله ٥٠٦ .

ولو كان كثير منها غير محتاج لبيانه وشرحه ؛ لوضوحه. وتلك سلبية منه وعدم تورّع ، وإن كان مما يُخفّف من ذلك قليلاً بعضُ مواقفه المشرِّفة تجاه بعض المعاني السافلة التي تضمنتها بعض الأبيات والمقطوعات ، لكن تلك المواقف قليلة جداً إذا ماقورنت بمواقفه السلبية الكثيرة، وسيأتي كلام مفصّل على ذلك ونماذج منه - بإذن الله تعالى - في فصل (عمود الشعر العربي) ؛ فيما يتصل بباب (شرف المعنى وصحته) ؛ أحد خصال هذا العمود.[٢٢]

٢ - ومن سمات منهجه العام في الشرح استشهاده بالآيات القرآنية الكريمة وبالأحاديث الشريفة وأقوال العرب من حكم وأمثال.[٢٣]

٣ - ومن مصادره في شرحه أبو على المرزوقي ؛ فهو ينقل عنه شرح بعض أبيات اختيار(المضنون به على غير أهله) الواردة اتفاقاً في شرح ديوان الحماسة، ينقل عنه شرح هذه الأبيات بنصه مهما طال!.[٢٤]

كما نقل عن أبي هلال العسكري، وسيبويه ، والزجاج ، والخليل ، والفراء ، وابن عذارى .[٢٥]

كما يعدّ من مصادره : علمه ببعض اللغات ؛ كاللغة الفارسية التي يورد منها بعض الأبيات من شواهد المعاني ، ثم يسوق ترجمتها إلى العربية أو بالعكس؛ بترجمة بعض الأبيات العربية إلى اللغة الفارسية .[٢٦]

٤ - ومن منهجه العام في الشرح إيراده أحياناً بعض مناسبات الأبيات وأخبارها .[٢٧]

---

(٢٢) انظر ص ٧٣٤ - ٧٣٩ من هذا البحث .
(٢٣) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٩٧، ٩٨، ١٠٤، ٥٢٢.
(٢٤) انظر شرح ديوان الحماسة ٤٦، ٤٨، ١٣٠، ٢٧٦، ٣٣٨.
(٢٥) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٨٢ ، ١٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٥٣٥ ، ٥٤٢.
(٢٦) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٨٩ ، ٤٤٥.
(٢٧) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٤٢٤ ، ٤٢٥.

٥ - اتسم شرحه بوجه عام بركاكة في الأسلوب والعبارات ، وضعف في صياغة جمل الشرح ونظمه وسبكه ! . وتلك خصلة ذميمة طالما تأذّيت منها ؛ لأنه يصعب - أحيانا - عليّ فهم المراد والمضمون ، وطالما أوْقَعتْه هو في بعض التجاوزات اللغوية والأخطاء اللغوية والنحوية .(٢٨)

وإن كان قد اعتذر في خاتمة شرحه عن زلله وخطئه فإن ذلك مما يخفف عنه قليلاً تبعة الأمر ، لكنه لايعذر البتة بهذا الاعتذار.(٢٩)

تلك أهم السمات العامة لمنهج العبيدي في عموم شرحه .

أما أهم مايميز منهجه في البحث البلاغي إضافة إلى ماذكر من سمات المنهج العام فإنه يتميز بما يلي:

١ - قِصَر نَفَسِه في البيان والتحليل لمباحث البلاغة وفنونها وإيرادها بشكل موجز مقتضب في الأعم الأغلب.

٢ - استعراضه بعض الروايات وتحكيم الأفضل منها ؛ لما يتضمنه من قيمة علمية أو فنية بوجه من وجوه البلاغة، على أن مثل ذلك نادر مايرد عند العبيدي.(٣٠)

٣ - تقصيره في البحث البلاغي ؛ بتفويته الوقوف عند كثير من مباحث البلاغة وفنونها ، وبخاصة في مباحث علم المعاني وفنون البديع.

٤ - تقصيره - كغيره من الشراح - بالنص على المصطلحات البلاغية، وبخاصة النوعية والفرعية منها.

ط- منهج البحث البلاغي عند أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري:

شرْح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري للقصائد السبع الطوال الجاهليات - لايخرج في منهجه العام عن منهج اللغويين ؛ كوالده أبي محمد القاسم الأنباري في شرحه المفضليات ، وكشرح أبي جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس للقصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ، وكشرح المرزوقي والتبريزي للمفضليات...

---

(٢٨) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٤٨، ٣١٢، ٤١٦، ٥٣٣.
(٢٩) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٥٥٦.
(٣٠) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٤٤١

وإن كان أبو بكر الأنباري أقرب إلى الطابع اللغوي العام في شرحه من المرزوقي في شرحه للمفضليات أو ديوان الحماسة.

ومن مصادر أبي بكر الأنباري في هذا الشرح : الأصمعي، والفراء ، والكسائي ، وأبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح - الذي رجع إليه والده وعرض عليه شرح المفضليات ليجيزها - ، ومنهم التوزي ، والطوسي وأبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، وابن الكلبي في الأنساب ، وأبو عبيدة ، وجمهرة من اللغويين غير هؤلاء .[٣١]

وهو شرح مفيد جامع وقع في قريب من (٦٠٠) صحيفة من القطع الكبير.

وأهم مايميز منهج البحث البلاغي عنده :

١ - جريه على مذهب البلاغيين من اللغويين في اصطلاحاتهم البلاغية ؛ كتسمية (المجاز) و(الاستعارة) بمصطلح (المَثَل) ، وكتسميته فن المشاكلة - من فنون البديع المعنوي- باسم (الازدواج والتوفيق بين اللفظتين)، مع أن بعض اللغويين يسمي فن (الموازنة والمماثلة) - أحد فنون البديع اللفظي - باسم (المزاوجة و الإتْباع)[٣٢]

٢ - عدم العناية بالمصطلحات البلاغية، وبخاصة المصطلحات الفرعية النوعيةمنها.

٣ - الإيجاز في عرض مباحث البلاغة والبيان المقتضب في بحثها وتحليلها ، وقد يتوسّع قليلاً في بعض المباحث أو الفنون.[٣٣]

٤ - قصور البحث البلاغي عنده دون كثير من مباحث علوم البلاغة وفنونها ، وبخاصة مباحث علم المعاني ، وفنون البديع . أما فنون علم البيان وصوره فإنها حظيت منه بنصيب وافر ؛ تارة يذكرها تحت مصطلحاتها العامة الصريحة المباشرة، وتارة تحت مصطلحات اللغويين كالمَثَل والمجاز .

---

(٣١) انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٣ ، ٤ ، ١٠ ، ٦٣ ، ١١٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٥٣.

(٣٢) انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٣٦١ . وانظر ٤٢٦ ، ٤٢٧. وانظر ص ٦١٢ من هذا البحث .

(٣٣) انظر شرح القصائد السبع الطوال ١٠٠ ، ١٠١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧.

ي - منهج البحث البلاغي عند أبي جعفر بن النحاس:

جرى أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي ، (المعروف بابن النحاس) في شرحه للقصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات على سنن اللغويين في منهجه العام في هذا الشرح؛ أمثال أبي بكر الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ووالده في شرح المفضليات.

وقد ورد في تقدمة ابن النحاس شرحه (القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات) قوله :

« قال أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي : الذي جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الإكثار من تفسير غريب الشعر ، وإغفال لطيف مافيه من النحو ؛ فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورات ، وأتْبَعتُ ذلك مافيها من النحو باستقصاء أكثره ، ولم أُكثر الشواهد ولا الأنساب ؛ ليخفّ حفظ ذلك إن شاء الله .»[٣٤]

ومن مقدمته هذه التي صرّح فيها بخطته نأخذ منهجه العام في الشرح ، وفي البحث البلاغي.

أما سمات منهجه العام كما صرّح به في هذه المقدمة فهو:

١ - لجوؤه إلى اختصار تفسير غريب الشعر في شرحه ؛ لما رآه من التوسع في ذلك عند أكثر أهل اللغة .

٢ - إتباعه تفسير غريب الشعر بما فيه من مسائل اللغة والنحو والتصريف مستقصياً اكثر المسائل من ذلك؛ حيث اغفل هذه المسائل اهل اللغة الشارحون لقصائد الشعر الجاهلي ، كما عزفوا عن لطيف النحو.

٣ - تقليله من الشواهد ، والكلام على الأنساب ، وعدم توسّعه فيهما ؛ لأجل أن يسهل حفظ شرحه وفهمه ؛ بإذن الله تعالى.

---

(٣٤) شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ٣.

أما سمات منهجه في البحث البلاغي المستوحى من هذه المقدمة فهو :

١ - لم تُشعر هذه المقدمة بشيء من توجّه إلى البحث البلاغي أو النقدي ، سوى مايمكن أن يفهم بطريق الإشارة إلى أنّ تقليله من هذه الشواهد يعني أنّ ماوُجد منها قد جرّه تعزيزُ أبيات المعاني في هذه المعلقات بالاستشهاد عليه ؛ بالتضاد أو المماثلة أو الموازنة، وأن بعض أبيات هذه المعلقات قد تحوي صوراً فنية أو مباحث بلاغية، مما يجرّ إلى الكلام عليه والاستشهاد، وهذا يدل على مايتمتع به هذا الشرح من قسط قليل من البحث البلاغي والنقدي.

٢- وفي هذا القسط القليل الذي تمتّع به شرح ابن النحاس في البحث البلاغي والنقدي رأيت عنده ماعند البلاغيين من اللغويين من إطلاق مصطلح (المثل) على (المجاز) و(الاستعارة) .

٣ - ووجدت عنده قلة العناية بالنص على المصطلحات البلاغية ، وبخاصة المصطلحات الجزئية الفرعية لأنواع تلك المصطلحات البلاغية العامة.

٤ - الإيجاز في عرض مباحث البلاغة وفنونها ، وقِصَر النَّفَس في البيان والتحليل .

٥ - قصور البحث البلاغي عنده عن الوفاء أو التوسع في مباحث البلاغة وفنونها، وبخاصة مباحث علم المعاني، وفنون البديع.

تلك هي أهم الملامح والسمات العامة لمناهج شرّاح الاختيارات الشعرية ، ومناهج البحث البلاغي لديهم بوجه خاص.

ولم أذكر شواهد وأمثلة لكل ماأوردت من سمات مناهج البحث البلاغي ؛ لأن البحث البلاغي التطبيقي في الفصول الثلاثة التالية - بإذن الله تعالى - خير شاهد تفصيلي مُقنع على ماسُقت من سمات خاصة بمنهج البحث البلاغي لدى هؤلاء الشرّاح .

الفصل الأول
مباحث علم المعاني

مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية

قبل أن أبدأ في دراسة مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية يحسن أن نتبيّن حدّ علم المعاني ونتعرف على ماهيته، وموقعه من علوم البلاغة، بعد معرفة فن البلاغة :

التعريف بفن البلاغة:

عرّف البلاغيون فنّ البلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. ومرادهم بذلك أن يأتي كلام المتكلم على وجه مخصوص دعا إليه أمر ما وحال مخصوصة ، على أن يكون هذا الكلام بمفرداته وتراكيبه في إطار الفصاحة العربية.(١)

والفصاحة : الظهور والبيان . وهي سمة تتصل بالألفاظ والتراكيب وأوصافهما . أما البلاغة فهي وصف للألفاظ والتراكيب والمعاني معاً . وعلى هذا : فكل كلام بليغ فصيح ولا عكس.(٢)

وقد تكلم ابن سنان الخفاجي على شروط الفصاحة ، سواء منها مايوجد في اللفظة المفردة وما يوجد في الألفاظ المؤلفة والتراكيب المنظومة.(٣)

---

(١) انظر :المطوّل ٢٥. وبعضهم يعرف البلاغة بجزء منها . بل بمبحث من مباحث علم المعاني؛ مثل قولهم : البلاغة :الإيجاز، أو هي : معرفة الفصل والوصل . انظر : البيان والتبيين١/٨٨، ٩٦. وليس قولهم هذا بتعريف فني شامل دقيق للبلاغة بقدر ماهو إشارة إلى أهمية هذين الفنين في فن البلاغة .

(٢) انظر : سر الفصاحة ٤٩ ، ٥٠ ، وانظر الإيضاح ٩.

(٣) انظر: سر الفصاحة ٥٤ وما بعدها ، ٨٢ ومابعدها .

حد علم المعاني:

علم المعاني: « علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.» [٤]

والمراد بأحوال اللفظ: الأمور التي تعرض له ؛ من تقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ، وغير ذلك ، وقد وصفت هذه الأحوال بأنها يطابق اللفظ بها مقتضى الحال ليخرج بذلك الأحوال التي ليست بهذه الصفة ، كالإعلال والإدغام والرفع والنصب ونحو ذلك مما لابد منه في تأدية أصل المعنى ، كما يخرج به المحسنات البديعية ؛ لأن هذه تكون بعد رعاية مطابقة مقتضى الحال، كما يخرج بهذا الحدّ علم البيان؛ لأن كون الكلام أو اللفظ حقيقةً أو مجازاً أو كناية لايُبحث عنه في علم البيان من حيث أنها يُطابِق بها اللفظُ مقتضى الحال؛ إذْ ليس في فنون صور البيان مايقتضي أن يكون التعبير عن حال من الأحوال بالتشبيه دون الاستعارة أو الكناية .[٥]

لكنه -عند التأمل الفني الدقيق-تجد رابطة وثيقة بين علمي المعاني والبيان ؛ فبلاغة الكلام تقتضي أن يختار المتكلم أحد طرق علم البيان المطابق لمقتضى الحال ؛ بأن يكون (التشبيه) في مكانه و(المجاز) في مكانه ، و(الكناية) في مكانها ؛ حسب مايستدعيه الحال ويطابقه المقام ؛ ومن هنا يتمُّ الربط الوثيق بين علمي المعاني والبيان .

---

(٤) الإيضاح ٩ .
(٥) انظر المطوّل ٣٤ ، ٣٥ .

حدّ علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية:

سأقف هنا عند شاهدين تطبيقيين ؛ لتوضيح حدّ علم المعاني في جانبه التطبيقي ؛ من خلال بعض شروح الاختيارات ، ومن خلال عُنْصرَي حدٍّ هذا العلم ؛ وهما : أحوال اللفظ أو التراكيب ، وعنصر: المطابقة لمقتضى الحال.

أما الشاهد الأول فيتصل بحال من أحوال اللفظ؛ وذلك بمنافاته للفصاحة، وتعمية دلالته بما اكتنفه من تعقيد لفظي.

وأما الآخر فيتعلق بعدم مطابقته مقتضى الحال ، وذلك بسوء تهدّي القائل إلى مايجب مراعاته لمقام مَنْ توجّه إليه بالكلام .

فالشاهد الأول: **قول القلاخ:**

٣ - فما مِنْ فتىً كُنَّا من الناس واحداً * به نبتغي منهم عميداً نُبادِلُهْ

في هذا البيت تعقيد لفظي ظاهر بسبب مااعتراه من تقديم وتأخير، ومن تشابك في الضمائر وخفاء فيها ، وقد نتج عن هذا فساد في ترتيب البيت واضطراب في نظامه وتأليفه .

وقد تحدث المرزوقي عن هذا بالتفصيل مبيناً ترتيب البيت وصحة نظمه بعد ردّ كل شيء إلى أصله ؛ قال المرزوقي:

« قوله : (فما من فتىً) بيت فيه تقديم وتأخير ، وتلخيصه مُبيَّناً مُعاداً كل شيء إلى موضعه :(مامِنْ فتىً من الناس كُنَّا نبتغي به واحداً منهم عميداً نُبادله) . فعلى هذا قوله : (من الناس) من صفة الفتى ، وبه يعود الضمير إلى الفتى . والمعنى : كنا بسببه نبتغي واحداً منهم - أي من الناس - عميداً من صفة الواحد؛ لأنا جعلنا واحداً مفعولاً لنبتغي . نبادله : أي نبادل به الناس فحذف الجار ، وقال : نبادله . على هذا قول عارق الطائي :

* وليس من الفوت الذي هو سابقُه*

أي سابق به ، وخبر ما محذوف ؛ كأنه قال : مافتى ذا صفته بموجود في الدنيا ،

وما أشبهه.»[٦]

وقد أشار التبريزي إلى التقديم والتأخير في بيت القلاخ وقدّر ترتيب البيت ؛ فقال : « وهذا البيت فيه تقديم وتأخير ، ومجازه : فما من الناس فتى كنا نبتغي منهم واحداً عميداً نبادله به » ، ثم نقل عن المرزوقي بقية الشرح المتضمن عود بعض الضمائر ... إلى آخر شرح المرزوقي وكلامه في ذلك ![٧]

والبحث في التعقيد اللفظي بسبب التقديم والتأخير وتشابك الضمائر وخفائها من صميم البحث في علم الفصاحة التي تتطلب صحة في ترتيب الكلام واتساقاً في نظمه وتأليفه وبعده عن التعقيد اللفظي وأسبابه الذي يفضي إلى التعقيد المعنوي.

وقد أجاد المرزوقي في بحث ذلك هنا من خلال هذا الشاهد المتقدم غير أنه لم يشر صراحة إلى مصطلح الفصاحة، أو مصطلح التعقيد اللفظي، وإنما دلّ عليهما بشرحه واستدراكه على الشاعر على نحو ماتقدم .

وأما الشاهد الآخر المتعلق بعدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ بسبب سوء تهدّي القائل إلى مايجب مراعاته لمقام مَن توجَّه إليه بالكلام

– فقول المُثقِّب العبدي:

٤٠ – إلى عمرو ومِن عمرو أتتني * أخي النَّجداتِ والحلم الرصينِ

أورد التبريزي شرح البيت عن المرزوقي ؛ وفيه :

« .... قال الأصمعي : أراه غيرَ الملك ؛ لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام .»[٨]

وعنى بمخاطبته بمثل هذا الكلام قوله في البيتين بعده :

٤١– فإما أن تكون أخي بحقٍّ * فأعرف منكَ غثّي من سميني

٤٢ – وإلاّ فاطَّرحْني واتّخذنــي * عــــــدواً أتقيـكَ وتتَّقينـــي

ومراد الأصمعي بنقده المتقدم : أن الشاعر لاينبغي له أن يخاطب ملكاً بمثل هذا الخطاب ؛ ولذلك استبعد الأصمعي أن يكون الشاعر يريد الملك بخطابه هذا في

---

(٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/١٠٣٨، ١٠٣٩.

(٧) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/٦٧.

(٨) شرح اختيارات المفضل ٣/١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧.

هذين البيتين.

والأصمعي مُحقٌّ في هذا النقد؛ ذلك أن لكل مقام مقالاً ولكل حال مقتضى من الكلام؛ فلئن كان الشاعر قد خاطب بهذا القول ملكاً فإنه قد أخطأ ولم يصب؛ لأن لكل طبقة من الناس خطاباً هي به أخص وأليق ، كل حسب منزلته وقدره . ومدار علم المعاني على مراعاة الكلام لمقتضى الحال؛ فإن لكل مقام مقالاً ولكل حال كلاما ، ولابد من مراعاة المتكلم لمقتضى هذه المقامات وتلك الأحوال؛ حتى يصيب الغرض البلاغي ، ويحقق الفائدة من كلامه ، ويبعد عن الخطأ والفحش والهجنة.

وقد أحسن التبريزي في شرح هذا البيت وبخاصة حين أورد كلمة الأصمعي ذات الصلة الوثيقة بمبحث علم المعاني فيما يتعلق بمراعاة مقتضى الحال على نحو ماتقدم . وعبارة الأصمعي هذه ذات قيمة في البحث البلاغي عامة ، وفي علم المعاني وحدّه خاصة وإن لم تكن هذه العبارة ذات دلالة صريحة مباشرة في الدلالة على حدّ هذا العلم فيما يتصل بمراعاة الكلام لمقتضى الحال، لكنها تشير إلى هذا المصطلح البلاغي المهم؛ أعني (مقتضى الحال) إشارة قوية.

ولم يقف الأنباري عند قول الشاعر بمايدل على هذا المصطلح أو يشير إليه ؛ لابتعليق من عنده ، ولا من عند الأصمعي أو غيره!.[٩]

وقد تحدث المرزوقي في آخر مقدمة شرحه ديوان الحماسة عن سبب كثرة الشعراء وخمولهم ، وقلة البلغاء ونباهتهم ، وأن ذلك راجع إلى أمور ينبغي للمترسل مراعاتها، وإلاّ عادت عليه بالخمول والنقيصة واللائمة، وقد ذكر المرزوقي تلك الأسباب أو الأمور التي يجب على البليغ المترسل مراعاتها ، وهي أمور مهمة تتصل بمراعاة مقتضى الحال أو المقام الذي هو أساس في حدّ علم المعاني ، وهذه الأمور هي :

« - تبيُّن مقادير مَنْ يكتب عنه وإليه ؛ حتى لايرفع وضيعاً ، ولا يضع رفيعاً .

- وزن الألفاظ التي يستعملها في تصاريفه ؛ حتى تجيء لائقة بمن يُخاطبه بـــها

---

(٩) انظر شرح المفضليات ٥٨٧، ٥٨٨.

مُفخَّمةً لحضرة سلطانه التي يصدر عنها.

- أن يعرف أحوال الزمان ، وعوارض الحَدثان ، فيتصرَّف معها على مقاديرها في النقض والإبرام ، والبسط والانقباض.

- أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل ، والإيجاز والتخفيف ؛ فقد يتّفق مايحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدارَ القصائد الطويلة، ويتفق أيضاً ماتُغْني فيه الإشارة ، وما يجري مجرى الوحي في الدلالة .

- أن يعرف من أحكام الشريعة مايقف به على سواء السبيل ولا يشتطُّ في الحكومة ، ولا يَعدِل فيما يخُطّ عن المحجَّة ، فهو إنما يترسل في عهود الولاة والقضاة ، وتأكيد البيعة والأيمان ، وعمارة البلدان ، وإصلاح فساد، وتحريض على جهاد ، وسدّ ثغور ورَتْق فتوق ، واحتجاج على فئة ، أو مجادلة لملة ، أو دعاء إلى أُلْفة، أو نهي عن فُرقة، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ماشاكل ذلك من جلائل الخطوب ، وعظائم الشؤون التي يُحتاج فيها إلى أدوات كثيرة ، ومعرفة مُفْتَنَّة.»(١٠)

وكأنما يتحدث المرزوقي بهذا الحديث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومراعاة الأحوال والمقامات وإلباس كل شأن مايناسبه من لبوس ونحو ذلك مما عُرف بعلم المعاني عند المتأخرين من البلاغيين.

ولقد أحسن المرزوقي في هذا الكلام الذي جمع فيه بين النظرية والتطبيق في قضية: (مقتضى الأحوال والمقامات)، ووجوب مراعاتها من قِبَل البليغ.

---

(١٠) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/١٩، ٢٠.

وأتناول الآن بالعرض والدرس مباحث (علم المعاني) وفق الخطة التفصيلية للبحث المبنية على ماوجدته من نماذج تطبيقية في شروح الاختيارات الشعرية :

أولاً : أحوال الإسناد الخبري :

أ - أغراض الخبر:

يُلقى الخبر أصلاً لتحقيق غرضين أصليين ؛ هما : فائدة الخبر التي تضمنتها جملة الخبر ، والتي قصد المتكلم بها إفادة المتلقي بهذه الفائدة.

والغرض الآخر: تحقيق لازم الفائدة لهذا الخبر؛ وذلك بقصد المُخبر إفادة المتلقي بأنه - أي المتكلم - عالم بالحكم الذي تضمنه الخبر.

وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين الأصليين إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال(١١)

وأذكر الآن ماتضمنته شروح الاختيارات الشعرية من أغراض بلاغية للخبر:

١ - إظهار التحسر والحزن والتوجع:

- قال مُزَرِّد بن ضرار:

٧١ - فقال لها : هل من طعام فإنني * أذمُّ إليكِ الناسَ أمُّكِ باهِلُ

خرج الخبر عند الشاعر في قوله (فإنني أذم إليك الناس أمك باهل) عن غرضه الأصلي إلى إظهار التضجر والتحسر وإلى إظهار الحزن والتوجع ؛ فقد تضجّر الشاعر هنا وشكا حسرة وحزناً من سوء حاله ؛ لذلك شكا إلى مخاطبته إعراض الناس وبخلهم ؛ فذمهم وهجاهم، ودعا عليها بالثكل والفقد.

قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي- مشيراً إلى هذا الغرض البلاغي الذي تضمنه قول الشاعر:

« ..كأنه ألقى إليها ماألقى مُتضجِّرا بالناس وبها .»(١٢)

ولا يدل هذا القول على مصطلح الخبر دلالة مباشرة صريحة ، لكن هذا

---

(١١) انظر الإيضاح ١٣، والمطوّل ٤٣، ٤٤، ٤٥.

(١٢) شرح اختيارات المفضل ٤٩١/١. وحاشيتها.

المصطلح يفهم من قول المرزوقي والتبريزي:« ... ألقى إليها ماألقى» أما غرض الخبر هنا فقد دلاّ عليه دلالة مباشرة بقولهما :«.. متضجراً بالناس وبها .»

ولم يقف الأنباري في شرحه بيت مزرّدعند مصطلح الخبر، وغرضه ، بل لم يشر إليهما مجرد إشارة!.[١٣]

- وقال الأخنس بن شهاب :

٣ - تظلُّ بها رُبْدُ النّعام كأنّها * إماءٌ تُزجّى بالعشيِّ حواطِبُ

الخبر هنا ليس على أصله وإطلاقه فلا يفيد غرضاً أصلياً ؛ من فائدة الخبر ، أو لازم الفائدة ، وإنما خرج إلى غرض بلاغي آخر يستفاد من السياق وقرينة الحال؛ يقول التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - في بيان غرض الشاعر من إخباره في هذا البيت :

« يتوجّع من استبدال الدار بسكّانها وحشاً ، والربد: جمع أرْبد وربَداء ؛ وهي النعام ...... وهي أنفر الوحوش.»[١٤]

فغرض الخبر هنا غير أصلي وإنما ساقه الشاعر لإظهار التحسر والحزن والتوجع ، وهو أحد الأغراض البلاغية التي يُساق لها الخبر ، ويستفاد العلم به من قرينة الحال والسياق.

ولم يذكر الأنباري شيئاً عن الخبر في قول الشاعر وغرضه منه ، وإنما اكتفى في أثناء شرح البيت بقوله :« ... أراد: أن هذه الديار خالية فالنعام فيها مُطمئنة.»[١٥]

- وقال الحصين بن الحمام :

٦ - يُفلّقْنَ هاماً من رجال أعزّةٍ * علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

يقول التبريزي نقلاً عن المرزوقي في هذا البيت :

« جمع بين التوجع والتشكّي ؛ لأن قوله : (أعزة) يدل على تحسُّر في أثرهم . وقوله: (أعق وأظلما) كما يدل على التشارك في العقوق والظلم يوجب التفضيل لهم فيهما

(١٣) انظر شرح المفضليات ١٨١.
(١٤) شرح اختيارات المفضل ٢/٩٢٤ وحاشيتها .
(١٥) شرح المفضليات ٤١١، ٤١٢.

والمبالغة . والتشكي من ذلك يحكم بالتشفي.»[(١٦)]

ولم يتجاوز الأنباري شرح بعض مفردات البيت ومعناه دون أن يتعدى إلى ذكر شيء مما ورد عند المرزوقي أو التبريزي ![(١٧)]

فقول الشاعر إخبار ، ولكنه خرج فيه عن غرضه الأصلي من الإخبار إلى القصد إلى إظهار التحسر والحزن والتوجع على ماساق من مصاب خبر وقع في قومه وعشيرته . وهذا الغرض أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر عن غرضه الأصلي.

وأنت ترى أن التبريزي أو المرزوقي هنا لم يشر إلى أيٍّ من المصطلحات البلاغية في تعليقه المتقدم على غرض الشاعر ؛ فلم يشر إلى مصطلح:(الخبر) ، ولا إلى الغرض الأصلي ، أو الغرض البلاغي الذي خرج إليه الخبر بعد غرضه الأصلي ، ولم يشر إلى أن مثل هذا مما يتصل بمباحث الخبر في علم (المعاني) ، وإنما اكتفى بالدلالة – وهي دلالة إشارة ولازم – على ذلك الغرض البلاغي الذي خرج إليه الكلام الإخباري عند الشاعر ؛ وهو الجمع بين (التوجع والتشكي) .

ولعل للتبريزي – كما للمرزوقي ، وغيرهما من الشرّاح – العذر في عدم التدقيق ، أو التأصيل في البحث البلاغي، فيما يتصل بذكر المصطلحات البلاغية كما عرفت عند المتأخرين ؛ لأنهم شارحون لغويون أدبيون لايعنيهم البحث البلاغي الصِرْف؛ هذا من وجه ، ومن وجه آخر: إن هذه المصطلحات البلاغية لم تستقر ولم تنضج إلا في عصور متأخرة عن أكثر هؤلاء الشراح[(١٨)]. فلا عجب إذنْ إذا هم لم تتصف بحوثهم البلاغية بالأصالة والدقة فيما يتصل بتحديد المصطلحات أو المباحث بوجه خاص .

ومما تقدم نجد أن التبريزي أفضل من الأنباري في بحث هذا الغرض البلاغي من أغراض الخبر، أعني : غرض (التحسر والحزن والتوجع) ، وإن كان التبريزي عالة على المرزوقي فيما أورده من ذلك كله ؛ في النماذج الثلاثة المتقدمة ! . لكن له

---

(١٦) شرح اختيارات المفضل ١/٣٢٦ وحاشيتها .

(١٧) انظر شرح المفضليات ١٠٥.

(١٨) توفي الأنباري ٣٠٤هـ والنمري سنة ٣٨٥هـ والمرزوقي ٤٢١هـ ، والتبريزي سنة ٥٠٢هـ.

فضل حسن التصرف والنقل لما يخدم هذا الجانب من البحث البلاغي . ولا مقارنة بينه من هذا الوجه وبين الأنباري الذي لم يكن له أدنى وقفة ألبتة في دراسة هذا الغرض البلاغي للخبر في النماذج الثلاثة !.

- وقال الحارث بن وَعلة الذُّهلي:

١ - قومي هُمُ قتلوا أُمَيمَ أخي * فإذا رميتُ يُصيبني سهمي

٢ - فلئن عَفَوتُ لأعفُــــوَنْ جللاً * ولئن سطوتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي

ذكر المرزوقي في شرح البيت الأول أن الشاعر أراد بهذا الكلام : إظهار التحزن والتفجع ؛ قال في شرح البيت وفي بيان غرض الشاعر: « يقول: قومي يا أميمةُ هم الذين فجعوني بأخي ووتروني فيه ، فإذا رُمْت الانتصار منهم عاد ذلك بالنكاية في نفسي ، لأن عزَّ الرجل بعشيرته. وهذا الكلام تحزُّنٌ وتفجُّعٌ وليس بإخبار.»(١٩)

كما ذكر أن كلام الشاعر في البيت الثاني تحسر وتوجّع أيضاً ؛ فقال في ذلك وفي شرح مضمون البيت :

« .. والكلام تحسُّر وتوجُّع . يقول: إن تركت مؤاخذتهم ، واطّرحتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ عن أمر عظيم ، وإن سطوت عليهم أضعفتُ عظمي وهددت رُكْني...» (٢٠)

ولقد أحسن المرزوقي في بيان مضمون البيتين ، كما أحسن جداً في النص على غرض الشاعر في إخباره في البيتين ، وأنه ليس على حقيقته ، وإنما هو للتحزّن والتفجّع والتحسّر . وغرض التحسّر والتحزّن والتفجّع أو التوجّع أحد الأغراض البلاغية الكثيرة التي يخرج إليها الخبر عن حقيقته وغرضه الأصلي ، والتي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وقد دلّ الشاعر على هذا الغرض البلاغي بقوله :

---

(١٩) شرح ديوان الحماسة١/٢٠٤.

(٢٠) شرح ديوان الحماسة١/٢٠٤.

(فإذا رميتُ يصيبني سهمي) ، في البيت الأول، وبقوله: (ولئن سطوتُ لأوهنن عظمي)؛ في البيت الثاني.

أما التبريزي فقد نقل شرح المرزوقي للبيت الأول ؛ وكلامه الصريح الذي نصّ فيه على غرض الشاعر ؛ وأن الخبر فيه ليس على حقيقته وإنما هو للتحزُّن والتفجّع ، وقد نقل ذلك كله عن المرزوقي بنصه !.

كما نقل عنه شرحه للبيت الثاني بتصرف ، لكنه حذف كلام المرزوقي الذي ذكر فيه غرض الشاعر في البيت ؛ وأن الكلام فيه ليس على ظاهره من الإخبار ، وإنما هو للتحسُّر والتوجُّع.(٢١)

وهذا الكلام الذي ترك التبريزي نقله عن المرزوقي في هذا الموضع هو المهم جداً أن يُذكَر في مبحث الأغراض البلاغية للخبر!.

- وقال يزيد بن عمرو الطائي:

٣ - أدفَّن قتلاها و آسوا جِراحَها * وأعلَـــمُ أن لازيغَ عمّا مُنَى لها

٤ - وقائلةٍ مَنْ أمَّها طالَ ليلُهُ * يزيدُ بن عمروٍ أمّها واهتَدى لها

شرح المرزوقي البيتين شرحاً بيّن فيه ماتضمّناه من معاني الأسى والبلاء والتّصبّر والتحسّر والتوجع ؛ فقال في شرح البيت الأول :

« وصف حالته وما مُني به في نوبه وعشيرته ، وكيف تولّى من المقتولين دفْنَهم ، ومن المجروحين أسْوهم ؛ لأنه إذا احتاج إلى تولّي ذلك منهم كان أشقى له وأعْودَ بالكَمَد عليه . وقوله : (وأعلم أن لازيغَ عمّا منى لها) رضاً منه بمحتوم القضاء ، وإظهار للتّصبُّر في البلاء ، وتحسر على مافاته من القوم في حالتي الشدة والرخاء .»(٢٢)

وقال في معنى البيت الثاني :

« ... ومعنى البيت : رُبَّ امرأة قالت متوجعة متحسرة : مَنْ قصد هؤلاء المقتولين ووُفّق في الاهتداء فقد أطيل ليلُه ؛ لأنه يَرِد منهم على مايجرح القلب ويُطيل السهر.

(٢١) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/١٩٩، ٢٠٠.
(٢٢) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٥٦.

ثم قال يزيد بن عمرو : أنا الشقيّ الذي أمَّها واهتدى لها مجيباً للقائلة....».[٢٣]

فالخبر في البيتين خرج عن حقيقته إلى غرض بلاغي ؛ هو إظهار التحسر والتحزن والتوجُّع والتفجّع . وقد أشار المرزوقي إلى هذا الغرض البلاغي الذي خرج إليه الخبر في أثناء شرحه البيتين ؛ على نحو مارأيت.

ونقل التبريزي شرح المرزوقي للبيتين بتصرف، إلا أنه لم يورد من كلام المرزوقي تلك الألفاظ والتراكيب التي تدل على معاني التحسر والتوجع ؛ وهى قول المرزوقي في البيت الأول :« .... رضاً منه بمحتوم القضاء ، وإظهار للتصبر في البلاء ، وتحسر على مافاته....» ، وقوله في البيت الثاني :« ... رب امرأة قالت متوجعة متحسرة ...» وكأنه إنما ترك نقل ذلك عمداً ؛ لأنه يخالف المرزوقي فيما ذهب إليه ؛ من أن الخبر على غير حقيقته ؛ وأنه للتحسر والحزن والتوجع ، ويرى التبريزي أن الخبر لغرض الدعاء، وليس للتحسر والتوجع كما يرى المرزوقي، وكأنه فهم أن المرزوقي قصد أن مراد الشاعر الإخبار الصريح ، وأنه لافرق بين أن يكون الخبر هنا للتحسر والتوجع أو للإخبار المحض؛ ولذلك خالفه التبريزيُّ فذكر أن مراد الشاعر من الإخبار هنا : الدعاء لا الإخبار المحض الذي يحمل معنى التحسر والتوجع.

واقرأ قول التبريزي بعد أن نقل عن المرزوقي – بتصرّف – أكثر شرحه للبيتين؛ كما ذكرت آنفا:

« ... هذا الذي ذكره المرزوقي ، والظاهر من تفسير قوله : (وقائلة مَنْ أمَّها) : ورب قائلةٍ مَنْ قصد لهذه القبيلة طال ليله ، وطال ليله على معنى الدعاء لا الإخبار ، ثم أجاب فقال : يزيد بن عمرو قصد لها ؛ والدليل على صحة ذلك قوله (أُدفِّن قتلاها) ؛ لأن قبيلته حملتْه على قتالها .» [٢٤]

ولعل مما يوهن رأي التبريزي الذي يرى فيه أن الخبر هنا للدعاء أنه لايأتي إلا

---

(٢٣) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٥٧.

(٢٤) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/١٠.

على حمل الكلام على الاعتراض لأجل الدعاء ؛ أي أن تُقدَّر جملة : (طال ليلُه) جملة اعتراضية بين قولـه : (وقائلةً مـن أمَّها) وقوله : (يزيد بن عمرو أمَّها واهتدى لها). وحمل هذه الجملة على الاعتراض لغرض الدعاء أمر فيه استغراب وشبه تناقض ؛ إذْ كيف يمكن أن يسوغ دعاء الشاعر في هذا المقام؟!. فهل المقام هنا مقام تحسر وتوجع، أو مقام دعاء وتشفٍّ ؟! . ثم إلى مَنْ يتوجّه هذا الدعاء لو قيل بأن هذه الجملة اعتراضية لأجل الدعاء؟ أيتوجه الدعاء إلى الشاعر نفسه ؛ لأنه هو الذي أمّ واهتدى ؟ ولكن ذلك أمر مستغرب غير لائق بالشاعر أن يدعو على نفسه !. وإن قيل بجواز تجريد الشاعر من نفسه غيرَه ، وتوجيهه هذا الدعاء إلى مَنْ سلِم من عشيرته فذلك أمر غريب لايليق أيضاً مع هذا المقام ؛ لأن المقام مقام تحسّر وتوجّع لامقام دعاء وتشفٍّ !.

فلم يبق لتفسير هذا الخبر على نكتة الدعاء مسوغٌ ، وإنما المسوغ أن يُفسَّر على أنه لغرض التّحسّر والتّوجّع كما قال به المرزوقي. ودليل التبريزي الذي جعله دليل صحة رأيه حريٌّ أن يكون دليلاً على صحة رأي المرزوقي لا التبريزي ؛ فقول الشاعر في البيت الأول :(أدفَنّ قتلاها....) الذي جعله التبريزي دليلاً على صحة رأيه هو دليل قوي على صحة رأي المرزوقي؛ لأن المقام مقام وصف ماآلتْ إليه حاله مع عشيرته ، وما مُنيتْ به هذه العشيرة من نكبة ، وما في ذلك من تحسر عليها وتوجع وفجيعة . ثم إن البيتين الأولين قبل هذا البيت يدلان على التحسر البالغ من الشاعر على حال قبيلته ورجال قومه :

١ - أصاب الغليل عبرتـي فأسالهـا * وعاد احتمامُ ليلتي فأطالهـا

٢ - ألا مَنْ رأى قومي كأنّ رجالهـم * نخيل أتاها عاضِدٌ فأمالهـا

فالخبر على أيّ حال هو لغرض التحسر والتوجع كما يرى المرزوقي ، وليس لغرض الدعاء كما يرى التبريزي ، والدليل ماقدّمت .

- وقال تابّط شراً :

لتَقْرعِنّ عليّ السِّنّ من نَـدَمٍ * إذا تذكَّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي

هذا خبر مؤكد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، وإنما حمل الشاعر على ذلك سوء معاشرة هذه المرأة له ، وزهادتها به ، ورضاها بمفارقته ، فأخبر بهذا الخبر عنها ، وأنها ستندم على اختيارها مفارقته ، وستقرع لأجل ذلك ذلك أسنانها بعضها ببعض ندامة وحسرة وضجراً وحزناً وتوجعاً إذا هي راجعت نفسها ، وأدركت غلطهاوسوء صنيعها معه ؛ حين فرّطت به ، وبطيب مَعْشَره ، بل إنها ستفعل ذلك إذا تذكرت بعض أخلاقه معها فكيف بها إذا تذكرت كلَّ أخلاقه؟، كما يقول العبيدي الذي شرح البيت ، ونصّ على معنى التحسر والتضجر في سبب فعلها ذلك، لكنه لم يذكر مصطلح الخبر هنا، وانه خرج عن غرضه الأصلي إلى غرض التندم والتحسر والتضجر والحزن والتوجع[٢٥] .

وأما الغرض الثاني من الأغراض البلاغية للخبر في شروح الاختيارات الشعرية فهو :

٢ - التمني:

- قال المرقش الأصغر:

٢ - لابنةِ عجلانَ في الجوّ رُسوم * لم يتَعفّيْن والعهدُ قديمُ

في هذا البيت خبر ، لكنه خرج في دلالته عن غرضه الأصلي ، فقد دلّ الشاعر بهذا الخبر على رسوم ابنة عجلان وأنها لم تزل باقية قائمة في ذلك المكان مع تقادم عهدها . ولكن ليس مراد الشاعر مجرد الإخبار عن ذلك بقدر ماهو تَمنّيه عفاءَ تلك الرسوم وزوالها وامّحاءهامن الوجود إلى الأبد ، ليستريح خاطره من تذكرها ؛ لأنها تهيّج لديه تذكر هذه المرأة كل مامرّ بتلك الرسوم ؛ فلذلك تمنّى زوالهاحتى لايبقى لها أثر في الوجود ، ومن ثمّ لاتُبقي لديه أثراً في النفس من تذكر هذه المرأة!.

(٢٥) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٢١٨.

وغرض (التمني) واحد من الأغراض البلاغية الكثيرة التي يخرج إليها الخبر عن غرضه الأصلي بمقتضى السياق وقرائن الأحوال . وقد أشار التبريزي إلى هذا الغرض البلاغي للخبر عند الشاعر أثناء شرحه البيت نقلاً عن المرزوقي!.[٢٦]

ولم يشر الأنباري إلى الغرض البلاغي للخبر في هذا البيت ، بل إنه لم يشرحه شرحاً لغوياً وأدبياً كافياً!.[٢٧]

- وقال حندج بن حندج:

٧ - ماأقْدرَ اللهَ أنْ يُدْني على شَحَطٍ * مَنْ دارُهُ الحَزْنُ ممَّن دارَه صُولُ

٨ - اللهُ يطوي بساطَ الأرض بينهما * حتّى يُرى الرَّبْعُ منه مأهُولُ

ظاهر الكلام في هذين البيتين الإخبار على طريق التعجب ، لكن ليس مراد الشاعر هنا الإخبار ، ولا غرضه التعجب، وإنما غرضه التأميل والطلب والتمني، وعلى هذا المعنى ينبغي أن يُحمل كلامه .

وقد تكلم المرزوقي في هذا كلاماً جيداً يدور حول إمكان خروج الخبر عن غرضه الأصلي إلى أغراض أخرى ، وعقد في ذلك موازنة بين هذا الخبر الخارج إلى التعجب، ومنه إلى معنى الطلب والتمني وبين خروج الخبر عن مقتضاه الظاهر ودلالته الأصلية إلى الدعاء المبني على قوة التأميل؛ بجعل مايطلب في حكم ماحصل. يقول المرزوقي:« قوله : (ماأقدر الله) لفظه تعجب ومعناه الطلب والتمني...»

« وقوله : (الله يطوي بساط الأرض بينهما) البساط : الأرض الواسعة. وجعل الكلام لما يتمناه ، ويطلب قربه ويتشهّاه ، على أنه إخبار عن الشيء وقد وقع ، وكل ذلك تحقيق لما يؤمله ويسأله ، وهذا كما يُجْعل الدعاء على لفظ الخبر ؛ كأنه لقوة الأمل يجعل المطلوب في حكم ماقد حصل.»[٢٨]

وهذا كلام لغوي بليغ متمكن ذي علم وبصر بالبلاغة وعلم المعاني منها وأسلوب الخبر والإنشاء من هذا العلم بوجه خاص، وإن لم ينصّ على مصطلح (علم

(٢٦) انظر شرح اختيارات المفضل ١١٠٨/٢ وحاشيتها .
(٢٧) انظر شرح المفضليات ٥٠٤.
(٢٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٨٣١/٤ .

المعاني)، أو مصطلح (الإنشاء) ، لكن كلامه هذا في دقائق هذه المصطلحات.

وعلى هذا قول الناس اليوم : (الله قادر) ،(الله كريم) وهم لايريدون الخبر في حدّ ذاته من وراء مثل هذه التراكيب الخبرية ، وإنما يريدون معنى يطلبون وقوعه وأمراً يتمنونه ويؤمّلونه في ذات أنفسهم ، وأنت تسمعهم إذا حزب أحدهم أمرٌ وقلتَ له : هوّن عليك ياأخي ، فمقاليد الأمور بيد الله ، يدبّر الخلق كيف يشاء ، والأمور لاتستقر على حال؛ فمع العسر يُسرٌ ، ومع الكرب الفرج . قال لك ، وهو يطلب ويؤمّل ويتمنّى ، غير مريدٍ في كلامه الإخبار في حدّ ذاته : (الله قادر . الله كريم).أمّا جعل الدعاء على لفظ الخبر فكقولهم عن مُتوفَّى : (رحمه الله) قوةً في تأميل مغفرة الله وكريم فضله وسعة رحمته وإحساناً في الظن بالله تعالى ؛ فجعلوا – لذلك – قوة حكم مايُطلب ويُتَمنَّى في قوة حكم ماحصل.

ولم يزد التبريزي عما أتى به المرزوقي في كلامه البلاغي المتصل بغرض الخبر في الموضعين ، فقد نقل عنه كلامه فيهما بنصه مع تصرف يسير جداً ![29]

٣ - التعجّب:

قال أبو ذؤيب الهذلي :

١٩ - حتّى إذا جَزَرَتْ مياهُ رُزونه * وبأيِّ حِينِ مَلاوةٍ تتقطّعُ

نقل الأنباري قول الأصمعي في شرح الشطر الثاني :« ... يقول : في أيِّ حينٍ تنقطع هذه المياه ؛ يتعجب من شدة الحر . وقوله : (وبأيٍّ حزّ ملاوة) ليس باستفهام، هو خبر فيه تعجب ؛ كقولك : أيُّ حينٍ دهرٍ انقطع عنه الماء حين لايَصْبِرُ عنه ؛ كما تقول : بأيٍّ حينٍ مات ابنُه حين رقّ عظمُه وكَبِرَتْ سنُّه.»[30]

وعلى هذا فالشطر الثاني من البيت ليس باستفهام كما يتراءى للناظر من أول وهلة ، بل هو – عند إنعام النظر وإمعان الفكر والتحقيق – خبرٌ يحمل معنى التعجب.

---

(٢٩) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣٢٧/٤.

(٣٠) شرح المفضليات ٨٦٠، ٨٦١.

والتعجب أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر عن غرضه الأصلي وفق مايقتضيه السياق وقرائن الحال.

وقد شرح التبريزي البيت شرحاً لغوياً نقل بعضه عن الأنباري ، لكنه لم يتكلم ألبتّة على طبيعة الاستفهام ، ونوع الخبر في البيت ، وغرضه البلاغي ؛ على نحو ماورد عند الأنباري!.[٣١]

- **وقال القطامي:**

١ - من يكن الحضارة أعجبته * فأيّ أناس بادية ترانا

يرى المرزوقي أن الخبر الذي يحتمله قول الشاعر: فأيّ أناس بادية ...) خبر على غير حقيقته ، وأنه قد خرج إلى غرض بلاغي يستفاد من الحال وسياق الكلام، وهذا الغرض هو : (التمدح والتعجب) ؛ فكأن هؤلاء البداة إنما يتمدحون بأنفسهم ويعجبون بها ، وأن الشاعر أراد أن يفخر بقومه البادية ويرفع من شأن حياة البدو على الحضر.

قال المرزوقي في بيان غرض الشاعر من هذا الكلام المسوق مساق الخبر:

« ... وأيٌّ هذه تضاف إلى النكرة ، ولا تضاف إلى أكثر من الذي جَعَلْتَه خبراً؛ لأنك تريد صفته ؛ ألا ترى أنك تقول : مررت برجل أيِّ رجل ، وأيُّ رجلٍ أخوك . إذا جعلته خبراً يكون مخرج الكلام المدح والتعجب؛ كأنك قلت : نهايةٌ في الرجولية أخوك ؛ فعلى هذا قوله :(فأيّ رجال بادية). فيقول : مَنْ أعجبه رجال الحضر فأي رجال بدوٍ نحن إذا حُصِّلَتِ الرجال.

والمعنى : أيُّ أُناسٍ نحن وإن كنّا من أهل البدو، والمراد التمدح والتعجّب.»[٣٢]

---

(٣١) انظر شرح اختيارات المفضل ١٦٩٨/٣.

(٣٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٤٧/١، ٣٤٨.

وقد ورد هذا الكلام بتمامه عند التبريزي عدا خلاف يسير لايكاد يذكر ! [٣٣]

فهذا الكلام المسوق مساق الإخبار في قوله : (فأيٌّ رجال بادية ترانا)، مع ماتقدمه من معنى الشطر الأول قد خرج عن معنى الإخبار الحقيقي وغرضه الأصلي إلى غرض بلاغي تضمنه سياق الكلام في البيت ، وقرائن حال الشاعر في الأبيات التالية التي تضمنت معنى التعجب والتمدح والافتخار. ولا أدل على ذلك الغرض البلاغي الذي خرج إليه قول الشاعر في هذا البيت -من قول المرزوقي :« ...ألا ترى أنك تقول:(مررت برجل أيِّ رجل) و(أيُّ رجل أخوك) إذا جعلته خبراً يكون مخرج الكلام المدح والتعجب ؛ كأنك قلت : نهاية في الرجولية أخوك؛ فعلى هذا قوله : (فأي رجال بادية..)..» إلى آخر كلامه في ذلك.

وقال المِسْوَر بن زيادة :

يقول رجالٌ ماأُصِيبَ لهم أبٌ * ولا مِنْ أخٍ أقْبلْ على المال تُعْقَلِ

بيّن المرصفي الخبر وغرضه البلاغي في البيت فقال:

« (يقول رجال) يريد بذلك : الغرابة والتعجب مما يقولون ، لامجرد الإخبار.» [٣٤]

وقد أحسن المرصفي حين نصّ على مصطلح (الخبر) ، وبيّن موضع تركيبه من البيت ، كاشفاً عن الغرض البلاغي لهذا الخبر الذي خرج إليه عن غرضه الأصلي، والغرض البلاغي الذي حقّقه الخبر هنا هو : غرض (التعجب والغرابة)؛ كما ذكر المرصفي.

---

(٣٣) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٣٢٩. وقد وردت رواية البيت عنده :
من تكن الحضارة أعجبته * فأيٌّ رجال بادية ترانا
فخالفت رواية المرزوقي في موضعين :(تكن) بدل (يكن) و(رجال) بدل (أناس).
ورواية التبريزي هي الأشهر ، وهي التي توافق رواية ديوان الحماسة التي جاء فيها البيت هكذا:
فإن تكن الحضارة أعجبته * فأيٌّ رجال بادية ترانا/ الديوان ١/٢٠٣. وقد علق محقق الديوان د. عسيلان بقوله :« في (د) و (ح) : (من تكن) ؛ وكذلك في هامش الأصل ، وفي رواية المرزوقي والتبريزي ، وفي هامش الأصل مايفيد أن (رجال) تروى (أناس).

(٣٤) أسرار الحماسة ١/٨٤ .

٤ - إظهار التلذّذ والتسلّي:

- قال المخبّل السعدي:

ذَكَرَ الربابَ وذِكْرُها سُقْمُ * فصبا وليس لمن صبا حِلْمُ

الخبر هنا في قوله : (ذكر الرباب) ليس على إطلاقه وحقيقته ، ولايفيد غرضاً أصلياً ؛ من فائدة الحكم ، أو لازم فائدته ، وإنما خرج عن ذلك إلى غرض آخر ونكتة بلاغية تستفاد من سياق الكلام وقرائن الحال في البيت وفي الأبيات التالية له .

إن الشاعر لايريد الإخبار بأنه تذكَّر حبيبته بعد نسيان حصل منه ، لكنه يريد إظهار التلذّذ بذكرها والتسلي بها ، وبنشر أخباره وأحواله معها.

يقول التبريزي في شرح البيت الذي نقله عن المرزوقي بتصرف يسير:

« قوله : (ذكر الرباب) : لايريد أنه تذكَّرها بعد تناسٍ ، وإنما يريد أنه ذكرها بلسانه تشفِّيا باسمها وتسلياً بنشر أحواله معها؛ ولذلك قال: (وذِكْرُها سُقْم) أي : ماجعلته للتداوي به من دائي فيها زادني خبالاً.»[٣٥]

فإظهار التلذذ والتسلي هو الغرض البلاغي للشاعر من إخباره هنا . وهذا الغرض أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر عن إفادة غرضه الأصلي المعروف.

ولم يتحدث الأنباري عن الغرض البلاغي لدى الشاعر في خبره الذي ساقه في هذا البيت !.[٣٦]

- وقال المرقش الأصغر:

٢ - لابنة عجلان إذْ نحن معاً * وأيُّ حالٍ من الدهر تدومُ

في هذا البيت خبر ، لكنه خرج في دلالته عن غرضه الأصلي؛ فقد دلّ الشاعر بهذا الخبر على وجود تلك الرسوم لابنة عجلان ، وأنه طالما جاورها فيها ، ولكن

---

(٣٥) شرح اختيارات المفضل ١/٥٣٢ وحاشيتها ، ٥٣٤.

(٣٦) انظر شرح المفضليات ٢٠٦.

ليس مراده مجرّد الإخبار عن ذلك بقدر مايريد التفريج عن نفسه وتسليتها بما آل إليه الحال من تحوّل ، فلعله أن يسلو عنها وينساها ، بدليل قوله بعد في الشطر الثاني من البيت :

* وأيُّ حال من الدهر تدومُ*

وغرض التسلية أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر عن غرضه الأصلي بمقتضى السياق وقرائن الحال.

ولم يشر التبريزي إلى هذا الغرض البلاغي للخبر في هذا البيت أثناء شرحه إياه نقلاً عن المرزوقي!. واكتفى بالإشارة إلى معنى التحسر الذي يدل عليه قوله :(لابنة عجلان)؛ لتعلقه بمثيله الوارد في البيت الأول.[٣٧] . ولكن دلالة الشطر الثاني على غرض التسلي أظهر. وكذلك لم يشر الأنباري إلى غرض التسلية ، الذي تضمنه الخبر في البيت ، بل إنه لم يشرح البيت شرحاً لغوياً وأدبياً كافياً !.[٣٨]

٥ - الهجاء والسخرية والتهكم:

- قال مزرّد بن ضرار:

وعاعى ابنُ ثوبٍ في الرِّعاءِ بِصبَّةٍ حِيالٍ وأخرى لم ترَ الفَحْلَ والدِ

ذكر الأنباري رواية أخرى لهذا البيت ؛ هي (لم تر التيس) ، لكنه لم يعلق على هذه الرواية بشيء . وفسّر (الصُّبَّة) بأنها الثلاثون من الإبل والغنم ونحوهما.[٣٩]

لكن التبريزي أشار إلى هذه الرواية، ووقف عند الروايتين معاً ، بعد أن فسّر (الصُّبَّة) بأنها القطعة من الإبل أو الغنم أو الخيل نحو العشرين والثلاثين ؛ فبيّن معنى الروايتين ، ووقف عند الغرض البلاغي لكل منهما ؛ فعلى رواية (لم تر التيس) يكون المراد بالصُّبَّة : الغنم ، ويحمل الكلام حينئذٍ على التعيير ؛ بأن اقتناء الإبل ليس

---

(٣٧) انظر شرح اختيارات المفضل ١١٠٨/٢ وحاشيتها .
(٣٨) انظر شرح المفضليات ٥٠٤.
(٣٩) انظر شرح المفضليات ١٣٦.

من شأن ابن ثوب وأنه دخيل في هذا الأمر، ولكنه يحسن الصياح في الرعاء بغنم هي بين حيالٍ لم تحمل وبين واضع.

وعلى رواية (لم تر الفحل) يكون المقصود بالصبة : الإبل ، ويحمل الكلام حينئذ على الهجاء والتهكم والسخرية منه ؛ بأنه لم يتعوّد اقتناء الإبل ولا علم له بزجرها فهو يدعوها بما عهده من زجر الغنم.

والتبريزي عالة في هذا كله على المرزوقي ؛ إذْ نقل عنه شرح البيت مع تصرف يسير! .(٤٠)

وكلا الروايتين صحيح المعنى والتفسير، والغرض البلاغي؛ إذْ لامانع من الهجاء بالتعيير والسبَّة ، كما أنه لامانع من الهجاء بالتهكم والسخرية . فإن اختلف معنى الروايتين فمؤدى غرضهما البلاغي واحد؛ هو (الهجاء).

وكلام الشاعر هنا إخبار . وللخبر أغراض بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن الأحوال وأحوال المقامات ، وغرض الهجاء والتهكم والسخرية هنا هو الغرض الذي خرج إليه إخبار الشاعر ، ودلّ عليه الكلام والسياق وقرينةالحال والمقام .

- وقال الحصين بن الحمام :

٢١- ولا غرْوَ إلاّ الخُضْرُ خُضْرُ مُحاربٍ * يَمْشُونَ حَوْلي حاسِراً و مُلأَمـا

أراد بالخضر: السُّود؛ لأنهم يقولون : أخضر القفا : يريدون به مَنْ ولدتْه أَمَةٌ سوداء . وأراد بقوله :(حاسراً ومُلأَما) : اللابس الدرع، وغير اللابس له .

وقد دلّ التبريزي – فيما نقله عن المرزوقي – على الغرض البلاغي لهذا الخبر الذي أورده الشاعر، وأنه لم يُرِد به الإخبار المجّرد ، وإنما غرضه منه الهجاء والسخرية ؛ يقول التبريزي:

« .. وقال هذا الكلام مُتهكِّماً وساخراً.» (٤١)

---

(٤٠) انظر شرح اختيارات المفضل١/٣٨٢، ٣٨٣ وحاشيتها .

(٤١) شرح اختيارات المفضل١/٣٣٦ وحاشيتها.

فالشاعر هنا ينفي العجب إلا العجب الذي مصدره هؤلاء الرجال السود من بني محارب الذين يتهادون حوله ذاهبين آيبين ؛ فليس غرض الخبر هنا مجرد الإخبار بهذا العجب أو التعجب من هؤلاء ، لكن غرض الشاعر من سوق هذا الخبر التعجبي: الهجاء والسخرية والتهكم بهؤلاء الرجال السود والترفّع عليهم ؛ولذا عبَّر عن ذلك بهذه الصورة الفنية الساخرة!.

أما الأنباري فلم يقف عند غرض الشاعر من إخباره في هذا البيت ، فلم يبيّن مراد الشاعر بوصف القوم بلفظ(الخضر) ، وأنه يعني به السواد؛ إشارة إلى تحقيق غرض الهجاء والسخرية والتهكم بهؤلاء القوم!.[٤٢]

ويحسن التنبيه في هذا المقام بأن الهجاء والسخرية والتعيير بالألوان مما نبذه الإسلام ونهى عنه ؛ يقول الله سبحانه :(...إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

- وقال تابط شراً :

٥ - هما خُطّتا إمّا إسارٌ ومِنّةٌ * وإمّا دمٌ والقتلُ بالحرّ أجْدرُ

خرج الخبر الذي يدل عليه كلام الشاعر هنا عن مقتضى غرضه الأصلي إلى غرض بلاغي آخر اقتضاه الحال والسياق؛ وهو : إرادة التهكم والهزء والسخرية .

وهذا مانبّه عليه المرزوقي بقوله:

« وفي هذا الكلام تهكّم وهزء.»[٤٣]

ووافقه التبريزي في ذلك فقال:

« وهذا كله تهكّم وهزء.»[٤٤]

ولا فرق بين قوليهما إلا بين صدريهما ، أما المعنى ، والدلالة على الغرض البلاغي للخبر فواحد عندهما . لكن المرزوقي والتبريزي لم يذكرا مصطلح (الخبر) ومصطلح (الغرض البلاغي للخبر) ؛ إذْ لم يبيّنا أن دلالة كلام الشاعر على التهكم

---

(٤٢) انظر شرح المفضليات ١١٢.

(٤٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٨١.

(٤٤) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٧٩.

والهزء نوع من أنواع الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر عن غرضه الأصلي. وهذا قصور في البحث البلاغي فيما يتعلق بتحديد المصطلحات البلاغية والنص عليها في الاسم والاصطلاح ، وإن كان في كلامهما مايدل ضمناً على مصطلح (الخبر) ، وما يدل ضمناً كذلك على الغرض البلاغي الذي خرج إليه الخبر في بيت الشاعر؛ ففي قول المرزوقي : « وفي هذا الكلام » وقول التبريزي : « وهذا كله » دلالة ضمنية على الخبر؛ لأن سياق البيت يتضح فيه مساق الخبر وقصد الشاعر إلى الإخبار . وفي قولهما معاً : « تهكّم وهزء» دلالة على الغرض البلاغي لهذا الخبر؛ لأن غرضي الخبر الأصليَّين معلومان ظاهران ، فما عداهما فهو غرض بلاغي.

٦ - الدعـــــاء:

- قال أبو الغول الطهوي:

١ - فدتْ نفسي وما ملكت يميني * فوارِسَ صَدَّقوا فيهم ظُنوني

خرج إخبار الشاعر هنا عن مقتضى ظاهره وغرضه الأصلي إلى غرض بلاغي آخر اقتضاه الحال؛ وهو : إرادة الدعاء لهؤلاء الفوارس الذين عناهم الشاعر، وهذا ماعبّر عنه المرزوقي بقوله:« لفظه لفظ الخبر، والمعنى معنى الدعاء ؛ يقول: تفدي نفسي مالي أجمع فوارس يكونون عند الظّنّ بهم في الحرب.»[٤٥]

وقد أحسن المرزوقي في تبيين الغرض البلاغي للخبر في هذا البيت مع نصه على مصطلح الخبر والغرض .

ووافق التبريزيُّ المرزوقيَّ في بيان طبيعة الخبر وصيغته ؛ فقال: « قوله : (فدتْ نفسي) لفظه لفظ الخبر ، والمعنى معنى الدعاء.»[٤٦]

وهو نص ماقال به المرزوقي ؛ نقله عنه !.

---

(٤٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٩/١.

(٤٦) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢٩/١.

وغرض الدعاء أحد الأغراض البلاغيةالتي يساق لها الخبر ، وتفهم من سياق الكلام أو قرينةالحال.

٧ - الخبر بمعنى الدعاء الجاري مجرى اليمين :

- قال الأشتر النخعي:

١ - بَقَّيتُ وَفْرِي وانْحرفْتُ عن العُلا * ولقيتُ أضيافي بوجْهِ عَبوسِ

وقال معدان بن جواس الكندي:

١ - إنْ كان مابلَغْتِ عنِّي فلامني * صديقي وشلّتْ من يديَّ الأناملُ

ذكر المرزوقي أن في بيت الأشتر خبراً في ظاهر لفظ البيت ، ولكن معناه: الدعاء؛ إذْ هو يخبر عن نفسه في ظاهر سياق دلالات ألفاظ البيت ، ولكن معنى هذا الخبر خرج عن غرضه الأصلي من مجرد الإخبار المحض إلى غرض الدعاء ، فكأنه يدعو على نفسه بما ذكره في البيت ، غير أن هذا الدعاء غير مقصود في ذاته؛ إذ هو دعاء يُلْمَح من معنى البيت وفحواه دون أن يكون هذا الدعاء غرضاً مقصوداً لدى الشاعر ؛ لأنه لم يكن يريد الدعاء على نفسه ، وإنما غرضه في الحقيقة وباطن الأمر القسم واليمين ، بدليل البيت الذي بعد هذا البيت ؛ وهو قوله :

٢ - إن لم أَشُنَّ على ابن حربٍ غارةً * لم تَخْلُ يوماً من نهاب نُفُوسِ

ففي البيت الأول إذن إخبار في الظاهر ، وقد آل هذا الإخبار إلى غرض آخر؛هو دعاء الشاعر على نفسه ، وإن كان دعاء غير مقصود في ذاته وحقيقته ؛ إذ مقصود الشاعر معنى القسم وغرضه معنى اليمين لا الدعاء على نفسه في حقيقة الأمر وواقع الحال.

وفي هذا التدرج من الإخبار إلى الدعاء إلى القسم تدرّج بليغ ، وبخاصة أن الإخبار والدعاء أمران مرادان في الظاهر ، وغير مرادان في حقيقة الأمر وغرض الشاعر ، وإنما المراد القسم؛ كأن الإخبار والدعاء قوة وسند لهذا الغرض البلاغي المقصود من هذا الخبر ؛ وهو غرض القسم ؛ مما يؤكد هذا الغرض البلاغي

المقصود ويُقوّيه ؛ وبذا تحصل بلاغة الخبر المتمثلة بقوة السَّبك وتماسك التراكيب ولطافتها ، وبهذا الإبداع المتمثل بذلك التدرج البليغ ؛ من حيث الإخبار لأجل غرض الدعاء ظاهراً ، ثمّ لغرض القسم حقيقةً وقصداً .

يقول المرزوقي في بيان موجز لذلك أثناء شرحه البيت الأول للأشتر:

« ... وهذا من الأيمان الشريفة، واللفظ لفظ الخبر ، وظاهره الدعاء ، ومحصوله القسم.»[٤٧]

ونقل التبريزي هذا الكلام عن المرزوقي بنصه تماماً !.[٤٨]

وقد فسّر المرزوقي هذا البيت بتفسير يؤيد ماقرّره بشأنه من مبحث بلاغي فني يتصل بخبر البيت وغرضه البلاغي ؛ على نحو ماتقدم ذكره وإيضاحه؛ قال المرزوقي في تفسير البيت :

« ادّخرتُ مالي ولم أُفرِّقه فيما يَكْسِبُ لي حمداً ، فعل البخلاء، وزهدت في اكتساب المعالي والمآثر زهد الأدنياء ، وتلقيتُ الأضياف بوجه رجل كالح إن لم أفعل كذا.»

قال : « ومثله في اليمين قول النابغة :

* إذاً فلا رَفَعَتْ سوطي إليَّ يدي* »[٤٩]

على أنك إذا أنعمت النظر وأمعنت التأمل في البيت ، وفي الأبيات التي بعده وجدت الشاعر يلوِّح بمعانٍ أخرى تستشفها من السياق وقرائن الحال من البيت والأبيات بعده ؛ وهذه المعاني أو الأغراض هي : المدح والفخر والهجاء ؛ فهو يمتدح نفسه ويفخر بها ويهجو نِدَّه وخصمه ، وإن كانت هذه الأغراض غير ظاهرة بقوةٍ

(٤٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٩/١. وقول المرزوقي عن قول الشاعر: إنّه من الأيمان الشريفة قول مردود ولا يصح ولا يستقيم ؛ لمصادمته مقتضى عقيدة التوحيد التي تحرّم القسَم بغير الله ؛ قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمة الله عليهم - : « وأجمع العلماء على أن اليمين لاتكون إلا بالله أو بصفاته ، أجمعوا على المنع من الحلف بغيره . قال ابن عبد البر : لايجوز الحلف بغير الله بالإجماع.» تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ٥٩٦.، وإنما مثل هذا من الأيمان الشريفة في الجاهلية وعند الجاهليين !.

(٤٨) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٤٥/١ .

(٤٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٩/١.

ظهورِ غرض الدعاء ؛ الغرض الأول الظاهر غير المقصود ، أو بقوة ظهور غرض القسم ؛ الغرض الثاني الباطن المقصود؛ لكنها - على أيٍّ حال - أغراض بلاغية من أغراض الخبر يدل عليها السياق وتشهد لها قرائن الحال بوجه عام.

على أن هذه الأغراض البلاغية جميعاً ؛ الظاهرة منها والخفية تشير إلى غرض بلاغي آخر يتصل بنفس الشاعر وتجربته الشعورية؛ ذلك هو غرض: التحسر والحزن والشعور بالمرارة والأسى . ويفهم هذا الغرض من كلام الشاعر بصفة عامة. وقد ردّ المرزوقي بيت معدان الآنف ذكره ؛ وهو قوله :

إن كان مابُلِّغتِ عني فلامنـــي * صديقي وشلَّتْ من يَدَيَّ الأناملُ

إلى بيت الأشتر الذي دار حوله البحث البلاغي الآنف ذكره ، وبيت الأشتر هو قوله :

بقَّيت وَفْري وانحرفتُ عن العُلا * ولقيتُ أضيــــافي بوجهِ عَبوسِ

وقال المرزوقي : إن بيت معدان من جنس بيت الأشتر:

« في أن لفظه لفظ الخبر ، والمعنى معنى الدعاء ، والمراد : القسم .»[٥٠]

وقد نقل التبريزي أيضاً كلام المرزوقي بنصه على بيت معدان - كما نقل عنه كلامه على بيت الأشتر - ، إلا أنه تصرف هنا في كلام المرزوقي قليلاً ؛ بحذف صدر كلامه ؛ وهو قوله : « وهذا من الجنس الأول في أن » ، وجاء ببقية كلامه المهم؛ وهو قوله :« ولفظه لفظ الخبر ، والمعنى معنى الدعاء ، والمراد: القسم.» ![٥١]

وقد بدا المرزوقي ذا جهد طيب في بحث هذا الغرض البلاغي للخبر من خلال بيت الأشتر وبيت معدان ؛ فقد نصّ على مصطلح الخبر ، وغرض الدعاء ، وغرض القسم ، فكان دقيق النظر عميق التحليل الفني والبلاغي لمبحث الخبر وأغراضه البلاغية المتداخلة على النحو الذي رأيت ، كما أحسن الاستشهاد بالنموذج المماثل ؛ أعني بيت النابغة . بينما كان التبريزي عالة عليه في كل ذلك !.

---

(٥٠) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/١٥٢.
(٥١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/١٤٨.

- ومثل قول الأشتر ، وقول معدان وقول النابغة قولُ بعضهم :

٢ - أكلتُ دماً إن لم أَرُعْكِ بضرَّةٍ * بعيدةِ مهوى القرط طيِّبة النَّشْرِ

فظاهر هذا الكلام إخبار ، لكنه خرج عن غرضه الأصلي إلى غرض بلاغي ، هو : الدعاء.

وغرض الدعاء هنا مما يجري مجرى اليمين ، وهذا مما يفهم بقرينة السياق ودلالةالحال؛ فليس غرض الشاعر أن يدعو على نفسه بما ذكر ، لكن غرضه أن يثبت لها صدق عزمه وتصميمه على أن يتزوج على هذه المرأة أخرى ، ويضارَّها بضرَّة ؛ إذْ دلالة السياق في البيت الذي قبل هذا البيت ؛ وهو قوله:

١ - دِمَشْقُ خُذيها واعلمي أنَّ ليلةً * تَمُرُّ بعُودَيْ نَعْشِها ليلةُ القدْرِ

- دلالة السياق في هذا البيت تدل على حاله الضَّجِرة بها ، وطلبه الخلاص منها ، ولا تدل على أنه يريد الدعاء على نفسه بما دعا به ، وإنما هذا إخبار بمعنى الدعاء الجاري مجرى اليمين ؛ كالنماذج الآنفة الذكر.

يقول المرزوقي:«.. وقوله : (أكلت دَماً) يجري مجرى اليمين ، وإن كان لفظه لفظَ الدعاء.»[٥٢]

وأورد التبريزي هذا الكلام عنه بنصه!.[٥٣]

وقد عبَّر الشاعر بالإخبار بالماضي : (أكلت) مع أن الفعل مضارع مستقبل الوقوع ليدل به على صدق نيَّته ومضاء عزيمته في مضارَّته لها بضرة ؛ على سبيل المبالغة في تحقُّق وقوع الفعل المنوي فِعله !.

وأذكر الآن الحال الثانية من أحوال الإسناد الخبري في شروح الاختيارات الشعرية ، وهي :

---

(٥٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/١٨٦٧.

(٥٣) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/٣٥٨.

ب - أضرب الخبر:

يجري الكلام في موضوع (أضرب الخبر) - الذي يمثّل أحد الموضوعات في باب (الإسناد الخبري) - على مقتضى الظاهر؛ من جهة خلوّ الكلام من التوكيد، أو استحسان توكيده ، أو وجوب توكيده بمؤكد فأكثر، وتسمى هذه الأحوال الخبرية الثلاثة (أضرب الخبر) ؛ أي أنواع الخبر من حيث التوكيد وعدمه .

ويُلقى النوع الأول منها – وهو الخالي من التوكيد- لخالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر. ويسمّى (ابتدائياً). أما النوع الثاني فيلقى للمخاطب المتصوّر لوجود الحكم لأحد طرفي الخبر، ولكنه متردّدٌ في إسناد أحدهما إلى الآخر، وهنا يستحسن أن يُلقى إليه الخبر مُقَوىً بمؤكد واحد. ويسمى هذا النوع (طلبياً) . ويلقى النوع الثالث للمخاطب المنكر للخبر أصلاً الحاكم بخلافه ، وهنا يجب توكيده له بمؤكد فأكثر بحسب درجة الإنكار . ويسمّى هذا النوع من أضرب الخبر (إنكاريا).[٥٤]

ولم أجد لشارحي الاختيارات الشعرية كلاماً على أضرب الخبر ؛ لانظرياً ، ولا تطبيقياً على الأبيات الشعرية التي شرحوها في تلك الاختيارات الشعرية غيرَ نموذجين تطبيقيين وردا عند العبيدي، وكلاهما من الضرب الإنكاري. وأول هذين النموذجين **قول أبي فراس:**

فإن يَجْفُ في بعض الأمور فإنّنِي * لأشكر النُّعْمى التي كان أوْدَعا

شرح العبيدي البيت ثم قال :

« ... فأكدّ الشكر بإنّ واللاّم ليدلّ على ردّ الإنكار.»[٥٥]

فكأن الشاعر تخيّل منكراً ينكر عليه عدمَ وفائه لمخاطبه الذي كانت له يدٌ عليه من المعروف سابغة، أو انه تصدّى لمنكر عليه – على الحقيقة – فردّ عليه هذا الإنكار بأنّ صاحبه وإن جفاه الآن ولم يصله ببعض الشؤون فإنه يحتفظ له بودّه القديم ، ويقدّر له

(٥٤) انظر الإيضاح تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ٩٢، ٩٣.
(٥٥) شرح المضنون به على غير أهله ٤٢٩.

معروفه في بعض الملمّات ، كما يشكر له معروفه الطيب الذي أودعه إيّاه في سابق عهده . وكأنما يريد هذا الشاعر بذلك أن يثبت لصاحبه ولمن يتهمه أو ينكر عليه كرمَ معدنه ونبلَ أصله وعمقَ وفائه وعدمَ كفرانه المعروف مهما تقاصر امتداده إليه ؛ ولذلك أكَّد هذا الخبر ، ولم يكتف بمؤكد واحد ، وإنما أكده بمؤكدين ؛ هما : إنّ واللام حتى يردَّ على هذا المنكر ، ويثبت لصاحب المعروف عليه صدقَ مودته ووفائه، وحفاظَه على الودّ القديم والعهد الكريم .

وهذا أحد أضرب الخبر التي يُلقى فيها على مقتضى الظاهر؛ وهو النوع الثالث منها : (الإنكاري) ، وقد أكّده هنا بمؤكدين على حسب ماتقتضيه درجة الإنكار في ذهن الشاعر، وواقع حال المخاطب.

- وأما النموذج الآخر من الضرب الإنكاري كذلك عند العبيدي أيضاً فقول الفرزدق في هجاء جرير:

فإنّيَ للمَوتُ الذي هو نازِلٌ * بنفسكَ فانْظُر أيُّ شيءٍ يعادِلُهْ

قال العبيدي في شرح البيت ، وبيان جملة الخبر ومؤكّديها وغرض الشاعر من هذا التوكيد:

« يقال: عادلت بين الشيئين إذا سوّيته بينهما ، فأكّد الجملة بإنَّ واللام حتى حقّقه بأنه الموت . ثم قال : إذا كنتُ أنا الموت فانظر أيَّ شيء يماثله ويتمكّن من مقاومته؟»[٥٦].

والشاعر هنا في مقام هجاء لندٍّ مُعاند مكابر فأراد أن يحشد له من الحجج والأدلة مايجعله في مأزق نفسي حَرِجٍ حتى يُسلِّم له بما يريد إثباته ؛ ليتحقق للشاعر بعد ذلك مايرومه ويقصد إليه من تفوّق وعظم منزلة وجليل خطر؛ ولذلك فكّر هذا الشاعر فلم يجد إلاّ أن يقول لمهجُوه : أني الموت بذاته الذي سينزل به فلا يستطيع دفعه أو مقاومته ؛ لأنه لاشيء كالموت في القضاء المبرم على الحياة والأحياء. ولم يقل الشاعر بأنه كالموت على التشبيه ؛ لأن هذا الأسلوب ضعيف في هذا المقام الذي

---

(٥٦) شرح المضنون به على غير أهله٤٧٦.

يتطلب إقامة الحجة والدليل ؛ لأنه مقام عناد ونكران وإنكار . ولم يقل كذلك : أنا الموت ؛ هكذا دون توكيد ، كما أنه لم يكتف بمؤكد واحد فيقول : إنّي الموت ؛ لأن المؤكد الواحد لايتناسب مع مقام الإنكار الشديد هنا ، ومايستدعيه من تأكيد بأكثر من مؤكد واحد ؛ لذلك أكده بمؤكدين هما : إن واللام ؛ فقال : فإنِّيَ لَلمْوت ! .

ج - خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

ويقصد بخروج الكلام على مقتضى الظاهر تلك الأحوال المتعلقة بأحوال المتلقّين للكلام الخبري ؛ من حيث تردّد المتلقي في قبول الخبر ، أو إنكاره إياه ، سواء في حالات الإثبات أو النفي .

فقد ينزِّل غير السائل منزلةالسائل المتردِّد : إذا قُدِّم إليه مايُلوِّح له بحكم الخبر فيستشرف لمعرفته.

وقد ينزِّل غير المنكر منزلة المنكر : إذا ظهر على متلقي الخبر غير المنكر له شيءٌ من أمارات الإنكار ودواعيه.

وقد ينزل المنكر للخبر منزلة غير المنكر له : إذا كان الدليل على صدق ماينكره قوياً ظاهراً بحيث لو تأمّله لارتدع عن إنكاره .

ولكل من هذه الحالات أحوال ومقامات تقتضيها أحوال المتلقين ومقاماتهم. وقد فصّل علماء البلاغة القول في ذلك وضربوا له الأمثلة والشواهد.[٥٧]

على أني لم أجد لدى شراح الاختيارات الشعرية مايصلح شاهداً أو نموذجاً لأيٍّ من حالات خروج الكلام على مقتضى الظاهر المذكورة آنفاً ؛ سواء كان ذلك بذكرهم للمصطلحات البلاغية الصريحية في هذا الجانب ، أو مايقرب منها ، أو بما يشير إليها أثناء شروحاتهم.

د - الإسناد الحقيقي والمجازي:

لم أجد لدى شراح الاختيارات الشعرية دراسة لمبحث (الإسناد الحقيقي والمجازي) من حيث صلتها بمبحث (أحوال الإسناد الخبري) ؛ إذْ لم أجد عندهم

(٥٧) انظر الإيضاح ٩٤، ٩٥، ٩٦.

نصًا على هذا المصطلح ؛ أعني (أحوال الإسناد الخبري) ، أو نصاً على مصطلح (الإسناد الحقيقي أو المجازي) الداخل في مبحث (أحوال الإسناد الخبري) . عدا ماسيرد بحثه - إن شاء الله تعالى - في مبحث الحقيقة والمجاز - من مباحث علم البيان - ؛ وبخاصة ماسيرد في تلك المقدمة التي ستكون بمثابة مدخل لمبحث : (الحقيقة والمجاز)؛ وعنوانها : (اللفظة بين الحقيقة والمجاز) ، وما سيرد - كذلك - في مبحث (المجاز العقلي وعلاقاته) الوثيق الصلة بالإسناد وأحواله ؛من جهة الإضافة والنسبة.(٥٨)

ثانياً - أحوال المسند إليه:

هذا هو المبحث الثاني من مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية، ويتناول البحث في هذا المبحث؛ أعني :(أحوال المسند إليه) ، في شروح الاختيارات الشعرية المباحث الجزئية التالية:

١ - ذكره وحذفه .

٢ - تعريفه وتنكيره .

٣ - تقديمه وتأخيره .

٤ - جريه على خلاف مقتضى الظاهر؛ ويشمل:

أ - وضع المضمر موضع المظهر.

ب - وضع المظهر موضع المضمر.

ج - وضع الضمير المنفصل موضع المتصل.

د - الالتفات وما يجري مجراه.

وسأتناول عرض هذه المباحث الجزئية ودراستها في جانبها التطبيقي عند شرّاح الاختيارات حسب النماذج التي أجد لهم - أو لبعضهم - فيها وقفات بلاغية أثناء شروحهم لبعض الأبيات الشعرية :

---

(٥٨) انظر ص٣٩٤ وما بعدها، ٢٨٨ وما بعدها من هذا البحث.

ا - ذكره وحذفه:

- قال المرار بن منقذ:

فإنكِ إنْ ترَيْ إبلاً سوانا * ونُصْبِحُ لاتريَنَ لنا لَبونا

فإنّ لنا حظائرَ ناعماتٍ * عطاءَ اللهِ ربِّ العالَمينا

أوجز التبريزي معنى البيتين بقوله :« يقول: إن رأيت الإبلَ لغيرنا ، ولم تري لنا لبوناً ، فإنّ لنا نخلاً .»[٥٩]

وقد نقل معنى البيتين عن الأنباري مع تصرف يسير؛ لأنه أورد ماقاله الأنباري بنصه . إلا أن الأنباري قال :« ...فإن لنا سوى الإبل.»[٦٠] ، وتصرّف التبريزي قليلاً ، حين فسّر ماأبهمه الأنباري بقوله : « سوى الإبل» ؛ فقال التبريزي: « ... فإن لنا نخلاً».ثم عقّب التبريزي على ماأوجزه من معنى البيتين بقوله :« ... والوجه الجيد أن يُقدَّر : إنْ ترىْ نوي إبل سوانا . فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه».[٦١]

وفي هذا التعقيب من التبريزي إشارة إلى حذف المسند إليه ، وهو ماأشار إليه التبريزي بتقديره الجملة ، وبقوله بعد: « فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .» ؛ فجملة المضاف المحذوف والمضاف إليه المذكور:(نوي إبل) هي المسندإليه، وجملة المضاف والمضاف إليه الأخرى المذكورة :(سوانا) هي المسند؛ أي لاتري أصحابَ إبلٍ غيرَنا ، بمعنى أصحاب الإبل نحن ، أو : لايوجد غيرنا أصحاب إبل . وقد جاء حذف المسند إليه عند الشاعر هنا لتحقيق غرض بلاغي؛ هو الاختصار ، والاحتراز عن العبث؛ بناءً على الظاهر ، مع ضيق المقام - وهو الشعر هنا - عن الذكر .[٦٢]؛ لأن المقام مقام اعتذار وامتداح ؛ بوجود العوَض والخَلَف الحسن من المال عند فَقْد حَسَنٍ آخر من المال تمتّع به آخرون ؛ ولذلك قال الشاعر في الشطر الثاني :« ونصبح لاتَرَيْن...» فعبّر بلفظ الجمع - ونصبح - عند مخاطبته لائمتَه التي لامته على فقده الإبل ذوات اللبن ، وأثبت أن له بدلاً منها مالاً ورزقاً حسناً ؛ هو الحدائق الناعمات والبساتين المخصبات من النخيل الباسقات ذوات الطلع النضيد الهضيم.

---

(٥٩) شرح اختيارات المفضل ٣٥٦/١.

(٦٠) شرح المفضليات ١٢٤.

(٦١) شرح اختيارات المفضل ٣٥٦/١.

(٦٢) انظر الأغراض البلاغية لحذف المسند إليه في الإيضاح ١٠٩. ويصلح هذا الشاهد أيضاً شاهداً على الإيجاز بطريق الحذف.

ولهذا - أيضاً - فسّر الأنباري قول الشاعر : (سوانا) أي عند غيرنا، وهذا التفسير يؤكد حذف المسند إليه ؛ المضاف: (نوي) وفق ماذهب إليه التبريزي .
وإذا كان التبريزي أشار هنا إلى مسألة الحذف والذكر للمضاف والمضاف إليه دون أن يشير إلى أن حذف المضاف حذف للمسند إليه فإن الأنباري لم يتكلم هنا - حين شرحه هذا البيت - على مسألة الحذف فيه ألبتة!.[٦٣]

- وقال ذو الأصبع العدواني:

لِيَ ابنُ عمٍّ على ماكان من خُلُقٍ * مختلفان فأقْليهِ ويقليني

قال التبريزي في شرح البيت وإعراب بعض أجزائه ؛ وهو مما نقله عن المرزوقي :« قوله : (مختلفان) خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه قوله :(لي ابن عم)؛ كأنه قال : ونحن مختلفان على ماوقع وحدث من الأخلاق.»[٦٤]

هذا هو شرح البيت عند التبريزي ؛ وليس بشرح كامل بقدر ماهو بيان جزئي أعرب فيه بعض أجزاء البيت. وإذا كان المحذوف هنا هو المبتدأ الذي قدّره الشارح بقوله :(ونحن) هو المسند إليه ، وأن الخبر ؛ وهو قوله :(مختلفان) هو المسند- فيكون الشاهد في هذا البيت على حذف المسند إليه - وهو المبتدأ المحذوف - وإقامة المسند - وهو الخبر - مقامه ؛ لوجود مايدل على المسند إليه المحذوف، وهذا الدليل هو قوله في صدر البيت : (لي ابن عم)٠

ولم يتحدث الأنباري عن حذف للمسند إليه أو ذكر للمسند، وإنما قدّر المبتدأ في الشرح فقال:« أراد : أخلاقهما مختلفة، ولما قال :(ابن عمّ) عُلم بأنهما اثنان مختلفان هو وابن عمه ، وقوله : (على ماكان من خُلُق) أي من تخالُق : أي أخالقه ويخالقني ونحن في تخالقنا مختلفان .»[٦٥].

ولا يبعد شرح الأنباري ـ من حيث تقدير المحذوف والإشارة به إلى المسند إليه ـ عما ورد عند التبريزي من ذلك ؛ فكلاهما أشار إلى المبتدأ المحذوف المقدر وهو

---

(٦٣) انظر شرح المفضليات ١٢٤.
(٦٤) شرح اختيارات المفضل ٧٤٨/٢ وحاشيتها.
(٦٥) شرح المفضليات ٣٢١.

المسند إليه وإقامة المسند وهو الخبر مقامه دون أن ينصّا على مصطلح المسند إليه أو المسند ، أو مصطلح الحذف أو الذكر في هذا الإسناد، كما لم يذكرا علة الحذف هنا، وإن كانا قد دلاّ على التركيب الدال على حذف المبتدأ ، فقد جاءت الدلالة صريحة عند التبريزي بقوله : « دلّ عليه قوله :(لي ابن عم) » ، وجاءت هذه الدلالة غير صريحة مباشرة في الدلالة عليه عند الأنباري ، وإنما أشار إليه بقوله :« ولما قال : (ابن عم) عُلِمَ بأنهما اثنان مختلفان هو وابن عمه».

كذلك لم يذكرا الغرض البلاغي لحذف المسند إليه أو المبتدأ الذي ورد عندهما في تقدير الجملة ، والعلة البلاغية لحذف المسند إليه هنا هي : الاختصار والاحتراز عن العبث ؛ بناء على الظاهر؛ ودلالة قرينة لفظية في دَرْج الكلام ، مع مراعاة ضيق المقام ووزن البيت.

-قال جبهاء الأشجعي:

٦ - فويل أمِّها كانت غبوق طارق * ترامى به بِيدُ الإكام القراوِحُ

يرى التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن جملة (ويلُ أُمّها) مبتدأ ؛ مضاف ومضاف إليه ، محذوف الخبر على سبيل التعجب؛ فكأنه قال : (ويلُ أمها حاصلٌ)[٦٦] .

ولم يشر الأنباري إلى حذف الخبر في هذا التركيب كما أشار التبريزي والمرزوقي إليه ، غير أن الأنباري أشار إلى أسلوب المدح والتعجب في هذه الجملة.[٦٧]

وعلى هذا فالأنباري لم يشر إلى مصطلح المسند وهو الخبر المحذوف ؛ لأنه لم يشر إلى هذا الخبر أصلاً ، كما أنه لم يشر إلى مصطلح المسند إليه وهو المبتدأ: (ويل أمها).

كما أن المرزوقي والتبريزي لم يشيرا إلى مصطلح المسند إليه أو المسند، وإنما أشارا إلى مصطلح الخبر الذي هو المسند. وذِكْر المسند إليه يكون لعلة أصلية

---

(٦٦) انظر شرح اختيارات المفضل ٢/٧٨٥ وحاشيتها .
(٦٧) انظر شرح المفضليات ٣٣٢.

أو بلاغية . والعلة هنا: أصلية؛ وهي كون ذكره الأصل ولا مقتضى للحذف.[٦٨]

- وقال طرفة بن العبد :

٤٨ - نداماي بِيضٌ كالنجوم وقينةٌ * تروحُ إلينا بين بُردٍ ومُجْسَدِ

قال الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم في أثناء شرح البيت :« ... والقينة: ترفع بإضمار: ولنا قينة ، وعندنا قينة...»[٦٩]

ولم يزد على هذا . ومنه يعلم : أن المبتدأ محذوف وتقديره ماذكره الشارح آنفاً . وهذا من باب حذف المسند إليه وذِكْرِ المسند؛ وهو الخبر المذكور في البيت ؛ وهو قوله :(قينة).

ومسوغ حذف المسند إليه هنا : العلم به ، وطلب الاختصار ، مع ضيق المقام عن الذكر ؛ لأن المقام مقام وزن شعري؛ والحذف لايُفوِّت قيمةً مع استقامة الوزن بهذا الحذف الذي يعلمُ مقدَّراً ويتحقق به الاختصار.

ولم أجد نماذج لذكر المسند إليه أو حذفه عند شرّاح الاختيارات الشعرية غير ماأوردته هنا لشارِحَي المفضليات ؛ الأنباري والتبريزي ، وشارح القصائد السبع الطوال أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري!.

٢ - تعريفه وتنكيره:

من الأحوال النحوية والبلاغية التي تعرض للمسند إليه تعريفه وتنكيره . ولا يكون تعريفه أو تنكيره إلا لنكتة بلاغية يقتضيها المقام أو الحال.

وآتي الآن على ذكر ماوجدته من نماذج تطبيقية في شروح الاختيارات الشعرية لتعريف المسند إليه أو تنكيره وغرض التعريف أو التنكير:

---

(٦٨) انظر الإيضاح ١١١.

(٦٩) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٨٩.

١ -التعريف بالإضمار:

- قال بشامة بن عمرو بن معاوية:

٦ - فبادَرَتاها بمُسْتَعْجِـلٍ * من الدمع ينْضَحُ خداً أسيلا

أراد : بادرت عينا المرأة بإسالة الدمع على خدّها ، وقد أضمر الشاعر المسند إليه ولم يجر له ذكر ، فأعاد ضمير التثنية في قوله : (بادرتا) إلى العينين.

والإضمار قبل أن يكون ثمّة ذكر سائغ مشهور في لغة العرب. وقد أشار الأنباري إلى الإضمار قبل الذكر عند الشاعر؛ واستشهد عليه بشاهدين للبيد وطرفة.[٧٠]

كما أشار التبريزي – نقلاً عن المرزوقي – إلى مسألة الإضمار قبل الذكر في البيت ؛ فقال: « أي : بادرتها العينان بإسالة الدمع ، فأضمر ولم يجر لهما ذكر.»[٧١]

والإضمار قبل الذكر سائغ مشهور في كلام العرب – كما ذكرت – ، وهو مما يصنف في مباحث (أحوال المسند إليه) ؛ من حيث التعريف والتنكير في مبحث : التعريف بالإضمار.

وقد سوّغ التعريف بالإضمار عند الشاعر أن المقام مقام غَيبة ؛ لكون المسند إليه في حكم المذكور ؛ لقرينة حالية تدل عليه[٧٢] ، وهذه القرينة يدل عليها سياق الأبيات ومقتضى حال الشاعر وقصته مع هذه المرأة في الأبيات التي قبل هذا البيت .

---

(٧٠) انظر شرح المفضليات ٨١.

(٧١) شرح اختيارات المفضل ٢٨١/١، وحاشيتها.

(٧٢) انظر في أنواع تعريف المسند إليه والمسوغات البلاغية لهذا التعريف : الإيضاح ١١٢ وما بعدها .

٢ -تعريف المسند إليه بالموصولية:

- قال أبو علي بن مقلة :

فما كان لو سالتَنا كيف حالُنا * وقد دَهمتْنا نكبةٌ هي ماهيا

كان مما قاله العبيدي في شرح البيت :

«.. والحال قد أصابتنا نكبةٌ من نكبات الدهر، ودهمتنا حادثةٌ هي في الشدائد التي هي ، ولم أقدر أن أصفها ، وهذا يقال على عظائم المحنة وشدائد النكبة هي ماهي!.»[٧٣]

وجملة (هي ماهيا) في محل رفع صفة لنكبة الواقعة فاعل دهمتْ . وهي مبتدأ. وما موصولة ، صلتها (هي) وماقُدِّر بعدها من وصف مطلق تذهب النفس في تقدير فظاعته كل مذهب.

وهذا من باب تعريف المسند إليه ؛ وهو (هي) بالموصولية ؛ وهي (ما) ومابعدها من صلة . غير أن العبيدي لم يشر إلى مصطلح المسند إليه ، ولا إلى تعريفه بما الموصولية ، وغرض تعريفه بها ؛ وأنه للتفخيم في عائد الصلة؛ حتى تذهب النفس فيه كل مذهب بلا حدود في تصوير فظاعة أمره وشدة بلائه وعظم رزيته!.[٧٤]

وقال آخر من فَقْعَس:

فإنْ تَغْمزْ مفاصلنا تجدْها * غِلاظاً في أناملِ مَنْ يَصولُ

قال المرصفي:

«(في أنامل من يصول) يريد: في أناملك ، وقد أظهره بالموصول ليتمكن من وصفه بالصِّيال؛ وهو : التطاول على الناس..»[٧٥]

---

(٧٣) شرح المضنون به على غير أهله ٤٥٥ .

(٧٤) انظر في بلاغة التعريف بالموصولية : الإيضاح ١١٥.

(٧٥) أسرار الحماسة ٨١/١.

والنكتة البلاغية هنا لاتتحقق بالقول في أن الشاعر أظهر(المسند إليه) بالاسم الموصول؛ (مَنْ يصول) بدل إضماره الذي تركه؛ (أنا ملك) ؛ لاتتحقق بالقول في ذلك بقدر ما تتحقق في أن يقال : إن الشاعر قد آثر مقاماً من مقامات تعريف (المسند إليه) على تعريفه بمقام آخر؛ لقد آثر الشاعر هنا تعريف (المسند إليه) بالاسم الموصول بدل تعريفه بالضمير؛ لأن تعريفه بالاسم الموصول يحقّق غرضاً بلاغياً لايحققه التعريف بالضمير؛ وهو الوفاء بفن(التعريض) ؛ فقد أراد الشاعر أن يعرّض بظلم خصمه ، وتطاوله على الناس؛ فأطلق القول ؛ حين قال:(في أنامل من يصول) وهو يريده هو ، وهذا مالايمكن أن يتحقق بحال فيما لو عرّفه بضمير الخطاب الضعيف المباشر؛ (في أناملك)!.

وكما رأيت لم يذكر المرصفي مصطلح (المسند إليه) أو (تعريفه بالاسم الموصول) ، وإنما ذكر مصطلح (الإظهار بالموصول) مشيراً إلى ترك الإضمار في الخطاب إلى الإظهار بالاسم الموصول، مبيناً العلة البلاغية لذلك .

٣ - تعريفه بـ (ال) :

- قال عويف القوافي:

١ - ذهب الرقادُ فما يُحَسُّ رُقادُ * مما شجاك ونامتِ العُوّادُ

قال المرزوقي في تفسير البيت : « يقول : طار النوم فلا يُعرف له أثر مما دهاك وحَزَبك ، ونام الذين كانوا يعودونك ولم يسهروا لك . والمعنى : إني اختُصِصتُ فيك بما عَرِيَ منه عوّادك، وتحمّلتُ من الجزع ماسقط عنهم وخف عليهم .»

ثم بين معنى الرقاد ونوع تعريفه بألْ ؛ فقال:

« والرُّقاد؛ والرُّقود : النوم بالليل. وعرّف الأول تعريف الجنس، ونكّر الثاني ؛ لأنه أراد نوعاً من الجنس؛ كأن المراد: ذهب النوم على اختلافه حتى ما يُرى لنوعٍ منه مختص أثَرٌ[٧٦].

(٧٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٢٦٢، ٢٦٣.

وإذا كان تعريف المسند إليه ؛ وهو (الرقاد) الواقع فاعلاً بأل التي لاستغراق الجنس فإن تعريف المسند إليه الآخر في البيت - الواقع فاعلاً كذلك ؛ وهو (العوّاد) - بأل ، لكنها هنا للعهد الذهني.

أما تنكير المسند إليه هنا ؛ وهو نائب الفاعل :(رُقادُ) فلأنه أراد نوعاً من أنواع الجنس ؛ كما ذكر المرزوقي ؛ أي فلا يُستَمْتَع بأي جزء من أجزاء النوم المعروف أو بنوع من أنواعه(٧٧) .

وقد أجاد المرزوقي في كشف علة التعريف للمسند إليه الأول ، وعلة التنكير للمسند إليه الثاني ، لكنه لم يذكر نوع تعريف المسند إليه الثالث؛ وهو (العُوَّاد) ، كما أنه لم ينص على مصطلح المسند إليه في المواضع الثلاثة !.

وقد نقل التبريزيُّ كلام المرزوقي في ذلك بنصه !(٧٨) .

تلك نماذج تعريف المسند إليه في شروح الاختيارات الشعرية؛ تعريفه بالإضمار عند الأنباري والتبريزي في شرح المفضليات، وتعريفه بالموصولية عند العبيدي. وتعريفه بأل عند المرزوقي والتبريزي في شرح ديوان الحماسة. ولم أجد نماذج لتعريفه بالعلمية أو الإشارة أو الإضافة عند هؤلاء الشرّاح الذين سبق ذكرهم، كما لم أجد لأبي بكر الأنباري في شرحه المعلقات ، أو ابن النحاس في شرح المعلقات أيضاً ، أو لأبي عبد الله النمري في شرحه معاني أبيات الحماسة، أو للمرصفي في شرحه (أسرار الحماسة) - أيَّ نموذج لتعريف المسند إليه في نوع من أنواع تعريفه المذكورة آنفاً.

---

(٧٧) انظر في تنكير المسند إليه وأغراض التنكير : الإيضاح ١٢٦.

(٧٨) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٢٥٣، ٢٥٤.

أغراض تنكير المسند إليه في شروح الاختيارات الشعرية :

وأما أغراض تنكير المسند إليه في شروح الاختيارات فلم أجد سوى الأغراض التالية :

١ - تنكيره لغرض الدعاء :

- قال الحارث بن وعلة الجرمي:

ا - فِدىً لكما رِجْلَيَّ أمي وخالتي * غـداةَ الكُلَابِ إذْ تَحُزُّ الدَّوابِـرُ

أشار التبريزي إلى علة تنكير المسند إليه ؛ وهو قوله : (فدىً) الواقع مبتدأ ، وذكر أن ذلك لغرض بلاغي سوّغ تنكيره ؛ وهو غرض (الدعاء).

قال التبريزي:« ابتدأ بـ (فدى) وهو نكرة ؛ لأن فائدته فائدة المعارف ؛ وذاك أنه دعاء ، ومعنى الدعاء مفهومٌ منه.»(٧٩)

لكن التبريزي لم يذكر مصطلح (المسند إليه) وتنكيره !. وهو قصور في البحث البلاغي عنده فيما يتصل بالجانب الاصطلاحي.

أما الأنباري فلم يشر إلى شيء من ذلك ألبتة ؛ لاعلة تنكير المبتدأ ولا إلى المصطلحات البلاغية ؛ فهو أشد تقصيراً من التبريزي في البحث البلاغي هنا !.(٨٠)

٢ - تنكيره لغرض التعريض:

- وقال آخر:

ا - فلو أنّ حياً يقبل المالَ فِديةً * لسُقْنا لكم سيلاً من المالِ مُفْعَما

٢ - ولكن أبى قومٌ أُصيبَ أخوهُمُ * رضى العار واختاروا على اللبن الدَّما

نكّر الشاعر المسند إليه (حيّاً) في البيت الأول ، و(قوم) في البيت الثاني مع

---

(٧٩) شرح اختيارات المفضل٢/٧٧٥.

(٨٠) شرح المفضليات ٣٢٧، ٣٢٨

أنه يقصد حياً من العرب بعينه ، وقوماً منهم بأعيانهم؛ وذلك لأنه مفهوم عند من عرف القصة أنه يقصد أولئك بأعيانهم . فغرض تنكير المسند إليه في البيتين واحد،وهو محمول محمل التعريض بهم.

هذا ماذكره المرزوقي عن سرّ تنكير هذين اللفظين في البيتين ، ولكنه لم يذكر مصطلح (المسند إليه) ، وإنما كشف عن غرض الشاعر من تنكير هاتين اللفظتين على نحو ماسبق ذكره.[٨١]

وقد نقل التبريزيُّ كلام المرزوقي في الموضعين ، مع تصرف يسير فيهما ؛ فقد حذف من آخر كلامه في بيان علة التنكير في البيت الأول قولَه: « فجعله كالتعريض».[٨٢]

وهذه الجملة التي حذفها من كلام المرزوقي هي الأدل في بيان الغرض البلاغي لهذا التنكير، وإن كان ماقبله من كلام يفهم منه - فهم فحوى ومضمون - دلالة هذا الغرض أو السر البلاغي لتنكير المسند إليه ، لكنه ليس كدلالة ماذكره المرزوقي وترك التبريزي نقله ؛ إذْ دلالته على هذا الغرض ظاهرة مباشرة !.

وغرض التعريض أحد الأغراض البلاغية لتنكير المسند إليه والتي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال؛ فإذا كان الشاعر نكّر (حيّاً) مع أنه يقصد حياً من العرب وقبيلاً منه بعينه ، لكنه عدل عن التعريف بهم ؛ لأنه مفهوم عند من يعرف قصتهم فلا مسوِّغ لتعريفه ، مع مافي التنكير من تعريض يستصحب التحزن والتحسر والتوجّع!.

---

(٨١) انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٦/١.

(٨٢) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢١٦/١، ٢١٧.

٣ - تنكيره لغرض الإفراد والنوعية :

- قال البُعيث بن حريث :

١ - خيالٌ لأمِّ السلسبيل ودُونَها * مَسيرةُ شَهْرٍ للبريد المُذَبْذَبِ

أوضح المرزوقي أن علة تنكير المسند إليه ؛ (خيالٌ) الإفراد والنوعية؛ كأنه كان يتخيّل أن خيالها يُتصوّر على هيئات متعددة مختلفة فأراد أن يخص واحداً من هذه الخيالات بعينه ونوعه المرتسم في ذهنه فنكّره لذلك ؛ فقال : خيال؛ أي خيالٌ واحد مخصوص معروف لي زارني.

وغرض الإفراد والنوعية أحد أغراض تنكير المسند إليه [٨٣] .

وفي هذا يقول المرزوقي :« خبر الابتداء محذوف ، كأنه قال : خيال لهذه المرأة أتاني أو زارني وبيني وبينها مسيرة شهر للبريد المسرع المتعجّل ..... فإن قيل : لم نكّر ؛ فقال: خَيال لأم السلسبيل؟ قلت : يجوز أن يكون كان يرى خيالها على هيئات مختلفة فاعتقد لاختلاف هيئته أنه عدة خيال؛ فلذلك نكّره ، كأنه قصد إلى واحد منها، ومثله :

خيالٌ لزينب قد هاج لـــي * نُكاساً من الحب بعد انْدمال » [٨٤]

وقد تابع التبريزيُّ المرزوقيَّ في ذلك ؛ فنقل عنه نص كلامه الآنف ذكره مع تصرف يسير فيه !.[٨٥]

غير أن المرزوقي والتبريزي لم يذكرا مصطلح (المسند إليه) ، وإنما ذكرا علة تنكير المبتدأ ؛ (خيال) ، وهو (المسند إليه) .

---

(٨٣) انظر الإيضاح ١٢٦.

(٨٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٣٧٧.

(٨٥) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٣٥٢ .

٤ - تنكيره لغرض التعظيم :

- قال هلال بن رزين :

٣ - وأيقنتِ القبائلُ من جنابٍ * وعامرَ أن سيمنعُها نصيرُ

يرى المرزوقي أن تنكير الشاعر للفظ(نصير) أبلغ في الدلالة عل عظم النصرة؛ قال: «...وجعل اللفظ نكرةً ليكون أبلغ في تعظيم النصرة؛ لأنه أراد (نصيرٌ) من النُّصّار : أي كاملٌ في معناه ، وجعلهم كلهم نصيراً لا نصّاراً لاتفاق كلمتهم وأهوائهم.»[٨٦]

وورد كلام المرزوقي هذا عند التبريزي بنصه عدا الجزء الأخير منه الدال على سرّ إفراد نصير دون جمعه[٨٧]

و(نصير) وقع فاعلاً ليمنع؛ فهو المسند إليه ؛ فقد أسند المنع إلى النصير أو الناصر.

وتنكير المسند إليه لغرض التعظيم والتهويل أحد نكات تنكيره المعروفة عند البلاغيين [٨٨]

- وقال آخر:

ياسيِّداً طَبْعُهُ فَضْلٌ وإنعامُ * ورأيُهُ عند فَصْلِ الحُكْمِ صَمْصامُ

ذكر العبيدي أنّ علة تنكير الشاعر المسند إليه ؛ وهو قوله : (سيداً) إنما كانت لغرض بلاغي ؛ هو : تعظيم شأن الممدوح وتفخيمه ؛ فقال في بيان ذلك : « ياسيداً منادى نكرة لفظاً، وإنما نكّره ليدل على تعظيم شأنه؛ اي سيداً كاملاً في السيادة.»[٨٩]

ولم ينصص العبيدي على ذكر مصطلح (الإسناد) أو (المسند إليه) في البيت؛ شأنه في ذلك شأن غيره من الشرّاح !. وإنما يكتفون ببيان الغرض البلاغي لتنكير اللفظ الواقع بحسب إعرابه وإسناده في نسق الكلام مسنداً إليه .

---

(٨٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٤١/١.

(٨٧) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣٢٣/١.

(٨٨) انظر الإيضاح ١٢٧.

(٨٩) شرح المضنون به على غير أهله ٢٠١ .

ولم أجد شيئاً في تنكير المسند إليه وأغراض هذا التنكير عند النمري في شرحه (معاني أبيات الحماسة) ، كما لم أجد ذلك عند الأنباري أو ابن النحاس في شرحيهما للمعلقات أو المرصفي في (أسرار الحماسة).

٣ - تقديم المسند إليه وتأخيره:

يكون تقديم (المسند إليه) بناءً على أن ذكره أولاً الأهمّ؛ لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، أو ليتمكن الخبر في ذهن المتلقي ، لكون المبتدأ مُشوِّقاً إليه ، أو لتعجيل مسرّة أو مساءة ، ونحو ذلك من الأغراض البلاغية التي تقتضيها مقامات الأحوال.

وأما تأخير (المسند إليه) فيكون لاقتضاء المقام تقديم المسند.[٩٠]

ولم أتبيّن نماذج تصلح لتقديم المسند إليه أو تأخيره لدى شرّاح الاختيارات الشعرية ؛ لأنهم لم ينصّوا أصلاً في شروحهم على مصطلحات الإسناد ؛ فلست تجد لديهم مصطلح (المسند إليه) ، أو (المسند) ، أو (تقديم المسند إليه) أو تأخيره) !.

حتى المرصفي على تأخر عصره لاتكاد تجد عنده هذه المصطلحات بصورة صريحة مباشرة ، ولكن قد تجد في ثنايا شرحه الإشارة إلى شيء من ذلك بصورة غير مباشرة ، من مثل وقفته عند قول رجل من بني كلب:

- هنيئاً لابنِ عمِّ السُّوءِ إنّي * مجاورَةُ بني ثُعَلٍ لَبُوني

حيث قال المرصفي:

« (مجاورة بني ثعل لبوني) اللَّبون : الناقة ذات اللبن؛ يريد هذا الجنس . وقد أسند إليها المجاورة ؛ إظهاراً لمعنى التأسّف والتحسر على مافاتها من خِصب تلك الديار.»[٩١]

---

(٩٠) انظر الإيضاح ١٣٥، ١٣٦، ١٥٤.

(٩١) أسرار الحماسة ١/١٠٠.

فقد أشار بقوله : (وقد أسند إليها المجاورة) إلى أن قوله : (لبوني) هو المسند إليه ، وأن (مجاورة) هو المسند . وقد وقعت (لبوني) مبتدأ مؤخراً ، و(مجاورة) خبراً مقدّما؛ لذا فقد قدّم الشاعر (المسند) وأخّر (المسند إليه) ؛ لعلة بلاغية اقتضى المقام فيها تقديم المسند ، وتأخير المسند إليه ؛ والعلة البلاغية لذلك هي التي أشار إليها المرصفي بقوله :« إظهاراً لمعنى (التأسف والتحسر) على مافاتها من خصب تلك الديار .».

٤- خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر:

يخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وفق أحوال ومقامات مخصوصة يراعى فيها تحقيق غرض بلاغي . ومن هذه الأحوال التي يخرج فيها المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر:

١ – وضع المضمر موضع المظهر.

٢ – وضع المظهر موضع المضمر.

٣ – وضع الضمير المنفصل موضع المتصل.

٤ – الالتفات ، ومايجري مجراه.

وإليك نماذج لهذه الأحوال من شروح الاختيارات الشعرية:

ا - وضع المضمر موضع المظهر:

- قال مقّاس العائذي:

أولى فأولى ياامرأ القيس بعدما * خَصَفنَ بآثار المطي الحوافرا

في هذا البيت تخريج للمسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ بطريق(وضع المضمر موضع المظهر) ؛ فقد حذف المسند إليه ، الواقع فاعلاً ، وهو اسم ظاهر ناب عنه ضمير الرفع المقدّر في قولــه (خصفن) ؛ وهو الضمير(هنّ) الذي ناب عن

الفاعـــل الاسم الظاهر؛ أي: خصفن هن أي: الخيل . وقد ساغ حذف المسند إليه الظاهر (الخيل) ، وإنابة ضمير الفصل المقدّر مكانه مع أنه لم يتقدم ذكر للخيل ؛ لوضوح المعنى المراد وكونه مفهوماً من سياق الكلام ؛ لأن ذكر المسند إليه مع العلم به من سياق الكلام قد يكون عبثاً وإطالة في الكلام دون داع .

يقول التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - في بيان هذا بياناً عاماً :

« .. والضمير في (خصفن) للخيل ، ولم يجر لها ذكر ، وساغ ذلك لأن المراد مفهوم ، والمعنى : وطئت الحوافر أخفاف الإبل ؛ لأنها تقدمت فهي تتبعها .»[٩٢]

ولم يقف الأنباري عند شيء من ذلك!.[٩٣]

- وقال أبو كبير الهذلي:

٣ - ممّن حملنَ به وهنَّ عــــواقِدٌ * حُبُكَ النِّطاق فشبَّ غير مُهبَّلِ

يذكر المرزوقي أن ضمير الفاعل في الفعل (حملن) يعود إلى النساء اللائي لم يجر للفظهن ذكر ، وجاز أن يعود الضمير إلى مالم يجر ذكر لمرجعه ؛ لأن المعنى المراد مفهوم بدون ذكر الاسم الظاهر؛ قال المرزوقي:

« والضمير في(حملن) للنساء ولم يجر لهن ذكر ، ولكن لما كان المراد مفهوماً جاز إضمارها .»[٩٤]

وقد نقل التبريزي كلام المرزوقي بنصه !.[٩٥]

ومثل هذا البحث يتصل في مبحث خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر بطريق وضع الضمير موضع الإسم الظاهر؛ فالمسند إليه ؛ الضمير (هن) واقع موقع الفاعل الحقيقي وهو الإسم الظاهر المقدر ؛ أعني (النساء) .

---

(٩٢) شرح اختيارات المفضل ١٣١٤/٣، ١٣١٥.
(٩٣) انظر شرح المفضليات ٦٠٩.
(٩٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٥/١.
(٩٥) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٨٤/١.

- وقال الحارث بن حلِّزة اليشكري:

١٣ - فترى خلفها من الرَّجع والوقـ * ـع منيناً كـأنَّه إهْباءُ

قال ابن النحاس في شرح البيت :

« ويروى :(فترى خلفهن من شدة الوقع منينا).»

ثم تكلم على خروج المسند إليه عند الشاعر على خلاف مقتضى الظاهر؛ وفق هذه الرواية؛ بإضماره ضمير الجمع في قوله: (خلفهن) دون أن يسبق ذكر ، وبوضعه هذا الضمير موضع الاسم المظهر الذي يعود إليه ؛ وهو (الإبل) . وقد ذكر ابن النحاس علة هذا الخروج على مقتضى الظاهر؛ وأنه معلوم من السياق وقرائن الحال أن ناقته تسير في جمع من الإبل ؛ ولذا اكتفى بذكر الضمير وأوقعه موقع الإسم الظاهر، كما استشهد على صنيع الشاعر بشاهد من القرآن الكريم؛ فقال في ذلك:

«.. ومن روى :(فترى خلفهن) فالمعنى عنده : فترى خلف الإبل ، فإن قيل: فلم لم يذكر الإبل فالجواب أنه قد ذكر ناقته وسيره عليها فقد عُلم أنها تسير مع غيرها فحمل الضمير على المعنى ، وقال الله جلّ وعزّ : ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ فقد علم أن المعنى: إنا أنزلنا القرآن.»[٩٦]

ولم يكن في كلام ابن النحاس نص على مصطلحات الإسناد هنا ؛ فلم يذكر(المسند إليه) ، ولا (خروجه على خلاف مقتضى الظاهر) ، ولا(وضع الضميرموضع المظهر) ، ولكن فحوى تعليقه وتساؤله يدل على ذلك كله .

- وقال طرفة بن العبد:

٣٩ - على مثلها أمضي إذا قال صاحبي * ألا ليتني أفديكَ منها وأفْتدي

قال ابن الأنباري في بيان خروج الشاعر على خلاف مقتضى الظاهر في باب المسند إليه ووضعه المضمر موضع المظهر الذي لم يتقدم له ذكر:

---

(٩٦) شرح القصائد المشهورات ٢/٥٨.

« وقوله :(ألا ليتني أفديك منها) معناه: من الفلاة ؛ فجاء بمكنيّها ولم يتقدم لها ذكر؛ لدلالة المعنى عليها ؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ حتى توارت بالحجاب﴾[٩٧]؛ فكنى عن الشمس ولم يجر لها ذكر . وقال حُميد :

وحمراءَ منها كالسفينة نضَّجتْ * به الحملَ حتى زاد شهراً عديدُها

أراد : وحمراء من الإبل ، ولم يجر لها ذكر.»[٩٨]

وابن الأنباري في طبيعة جهده في دراسة الإسناد كابن النحاس في النموذج الذي سبقه ؛ لم يكن صريحاً في ذكر المصطلحات . وقد استعمل الكناية هنا بمعنى الإشارة.

٣ - وضع المظهر موضع المضمر:

- قال عامر بن الطفيل:

٣ - ألم تعلمي أني إذا الإلفُ قادني * إلى الجَوْرِ لا انقادُ والإلفُ جائرُ

قال المرزوقي في بيان تخريج الشاعر المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ بوضعه المظهر موضع المضمر:

« .. وكان يجب أن يقول: لاأنقاد وهو جائر ، فوضع الظاهر موضع المضمر.»[٩٩]

وقد نقل عنه التبريزي هذه العبارة بنصها !.[١٠٠]

ومثل هذا من تخريج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ بوضعه الاسم الظاهر موضع الضمير ؛ فقد وضع الشاعر لفظ (الإلف) ؛ الاسم الظاهر في موضع ماحقه الإضمار ؛ فقد كان ينوب عن كلمة (الإلف) الضمير؛ فيقول : (وهو جائر) بدلاً من قوله : (والإلف جائر) ، لكنه توخّى في هذا العدول غرضاً بلاغياً ؛ هو أنه أراد بذكره لفظ (الإلف) وإعادته مظهراً مزيداً من الفخامة،

---

(٩٧) سورة ص آية ٣٢ .

(٩٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٨٢.

(٩٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٧١٢/٢.

(١٠٠) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢٣٧/٢.

والتمكن في نفس السامع ، مع القصد إلى بيان فظاعة أمر هذا الإلف ، والدلالة على شناعة فعله!.

والمرزوقي وإن لم ينص على مصطلح (الإسناد) هنا - حيث لم يذكر مصطلح (المسند إليه) أو (خروجه على خلاف مقتضى الظاهر) ؛ بوضع الشاعر المظهر موضع المضمر- فإنه قد نصّ على مصطلح (وضع المظهر موضع المضمر)، وأن الشاعر خالف الأصل الذي ينبغي أن يجري كلامه وفْقَه . لكن المرزوقي - أيضاً - لم يبيّن الغرض البلاغي للشاعر حين خالف مقتضى الظاهر ، وكل هذا قصور منه في البحث البلاغي الذي يُعنى بتحديد المصطلحات والبحث في النكات البلاغية !.

- وقال خُليد مولى العباس بن محمد:

٤ - فإن هم أطاعوكِ فطاوعيهم * وإن عاصوكِ فاعصي من عصاكِ

مقتضى الظاهر كما يقتضيه سياق الكلام أن يعيد الضمير في قوله : (فإن عاصوك فاعص من عصاك) فيقول: فإن عاصوك فاعصيهم ؛ لأنه أتى بضمير غيبة يتضمنه قوله: (فإن عاصوك) أي: هم ، فكانت ملاءمة السياق تقضي أن يعيد الضمير مع جملة جواب الشرط ؛ فيقول: فاعصيهم؛ ليشتمل هذا الفعل على غيبة كما اشتمل عليه الفعل قبله ؛ وهو (عاصوك) أي: هم . ثم إن في الإتيان بضمير الغيبة في هذه الجملة - أعني جملة الشرط التي تضمنها الشطر الثاني - مجاراةً لضمير الغيبة في جملة الشرط الأولى وجوابها الواقعة في صدر البيت ؛ وهي (فإن هم طاوعوك فطاوعيهم).

إلا أن الشاعر عدل عن ذلك وأتى بخلاف مايقتضيه سياق الكلام لعلة بلاغية قصد إليها ؛ وهي أنه إنما لجأ إلى الإظهار بدل الإضمار ليكون في الكلام مزيد تشنيع بهؤلاء الذين يأمرونها بما لايرضونه لأنفسهم ، وإنما قصدوا إيذاء الشاعر والنيل منه فأراد أن يشنع بهم ويقطع عليهم طريق الوشاية، وأن يظهر فساد رأيهم وقبح طريقتهم!.

والعدول إلى الإظهار بدل الإضمار؛ بوضع المظهر موضع الضمير الذي يقتضيه السياق - داخل في أحوال المسند إليه ؛ من جهة خروجه على خلاف مقتضى الظاهر ؛ بطريق وضع الاسم الظاهر موضع الضمير تحقيقاً لغرض بلاغي.

وقد تكلم المرزوقي في هذا الموضوع كلاماً دقيقاً يدل على تفهم وبصر في أحوال الإسناد وسياق الكلام ومقتضاه . وفي ذلك يقول :

« .. وكان الواجب في قضية سياق الكلام أن يقول: (وإن عاصوك فعاصيهم) فعدل عن الإتيان بالضمير إلى ذكر الظاهر ؛ ليبيّن فيه مايشنّع به عليهم، وليظهر السبب الموجب للإغراء بهم ، والانصراف عن رأيهم . ولو قال : فاعصيهم لم يبن ذلك فيه .»(١٠١)

وقد تابع التبريزيُّ المرزوقيَّ في ذلك ؛ فنقل كلامه فيه بنصه مع تصرف يسير جداً فيه !.(١٠٢)

وكلام المرزوقي في هذا كلام علمي دقيق ؛ فقد أشار إلى مصطلح (مقتضى الظاهر) بقوله : (في قضية سياق الكلام) ، كما أشار إلى (الخروج عن مقتضى الظاهر) إلى وضع المظهر موضع المضمر؛ وذلك بقوله بعد:(... فعدل عن الإتيان بالضمير إلى ذكر الظاهر). كما أجاد المرزوقي بعد ذلك في الكشف عن السر البلاغي الكامن وراء عدول الشاعر إلى الخروج عن مقتضى الظاهر هنا.

- وقال آخر:

وَنُبِّئْتُ ليلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إليّ فهلاّ نفسُ ليلى شفيعُها

كان الأقرب لهذاالشاعر في استعمال الكلام أن يقول:(فهلاّ نفسها شفيعها)؛ فيُضمر ولا يُظهر؛ لدلالة الكلام على الإضمار، ومعرفة الاسم الظاهر المعني بهذا الضمير من سياق الكلام ، لكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار ؛ فأظهر الاسم بدل أن يدل عليه بالضمير ؛ رغبة في تحقيق غرض بلاغي؛ وهو قصده إلى التفخيم بتكرير اسمها . وهذا ماعناه العبيدي حين قال في ذلك :« ... ولو قال : (هلاّ نفسها

---

(١٠١) شرح ديوان الحماسة ١٣٧٧/٣.

(١٠٢) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢١٥/٣.

شفيعها) لكان أقرب في الاستعمال، إلا أنه قصد إلى التفخيم بتكرير اسمها.»[(١٠٣)]
وقد أحسن العبيدي في بحث هذه المسألة من مسائل خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ أعني مسألة: (وضع المظهر موضع المضمر).

٣ - وضع الضمير المنفصل موضع المتصل:

- قال زياد بن حمل:

١١ - لم ألقَ بعدهم حياً فأخْبرَهُم * إلا يزيدُهُــم حُبّاً إلـيّ هُــمُ

في هذا البيت خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر، بطريق (وضع الضمير المنفصل موضع المتصل) قياساً على وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، ووضع المضمر موضع المظهر عند أمن اللبس.

وهذا ماذكره المرزوقي بقوله:

« ... وارتفع (هم) الأخير بيزيد ، وقد وضع الضمير المنفصل موضع المتصل ؛ لأنه كان الوجه أن يقول: إلا يزيدونهم حباً إليّ . وهذا كما يوضع الظاهر موضع المضمر والمضمر موضع الظاهر إذا أُمن الالتباس.»[(١٠٤)]

وأورد التبريزيُّ كلام المرزوقي في هذا بنصه تماماً . إلا أنه زاد في آخره وقفة نقدية بموازنةالمماثلة؛ فقال:« .. ومثله لطرفة :

أصرمْتَ حَبْلَ الحيِّ إذْ صرموا * ياصاح بل صَرَمَ الوِصالَ هُمُ

حدّ الكلام أن يقول : ياصاح بل صرموا الوصالَ.»[(١٠٥)]

---

(١٠٣) شرح المضنون به على غير أهله ٢٣١.
(١٠٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣٩٣/٣.
(١٠٥) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣٢٦/٣، ٣٢٧.

٤ - الالتفات وما يجري مجراه :

ومما يخرج إليه المسند إليه على خلاف مقتض ظاهر الكلام مايعرف عند البلاغيين بفن (الالتفات) وما (يجري مجرى الالتفات) . وسأعرض نماذج لفن الالتفات أولاً ودراسته عند شرّاح الاختيارات الشعرية. ثم أعرض نماذج مايجري مجراه في شروح الاختيارات:

أ - الالتفات

- قال الحارث بن حلزة:

وَيَئِسْتُ مما قد شُغِفْتُ به * منها ولا يُسْلِيكَ كاليأس

ذكر التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - في شرح البيت فنّ الالتفات بمصطلحه الفني البلاغي الدقيق؛ فقال: « .. وقوله (ولا يسليك كاليأس) التفات ؛ كأنه قد التفت إلى رفيقه ، فقال ذلك رامياً مرمى الأمثال.»(١٠٦)

لكنهما - التبريزي والمرزوقي - لم يبينا صفة الالتفات هنا أو نوعه، ولعلهما تركا بيان ذلك لوضوحه من صيغة البيت ودلالة أسلوبه وتركيبه عليه .

ومثل هذا الالتفات الوارد في البيت التفات من التكلم إلى الخطاب؛ وهو ظاهر، وذلك على طريقة الجمهور.

ولم يذكر الأنباري فن الالتفات في هذا البيت أو يشر إليه مع وضوحه ؛ فكان ذلك منه تقصيراً في البحث البلاغي هنا !.(١٠٧)

وللأنباري والتبريزي - في شرح المفضليات - جهود في بحث الالتفات بمصطلحات أُخر غير مصطلحه الصريح - كما في هذا البيت الآنف ذكره - ؛ ومن المصطلحات التي وردت عند الأنباري أو التبريزي في الدلالة على فن الالتفات وبحثه

---

(١٠٦) شرح اختيارات المفضل ٢/٦٣٦، وحاشيتها.

(١٠٧) انظر شرح المفضليات ٢٦٤.

في شرحيهما للمفضليات مصطلحُ : (العدول) ومصطلح (الترك) و (الانتقال) و(الرجوع) . وقد يرد بحثهما هذا الفن بتحديد وجه الانتقال فيه دون نص صريح على مصطلح (الالتفات).

أما المرزوقي والتبريزي في شرح الحماسة فقد ذكرا هذا الفن (الالتفات)وبحثاه بذكر مصطلحه الصريح عدا موضع واحد جاء ذكره بمصطلح : (الترك) .

أما أبو عبد الله النمري فذكر الالتفات بتحديد وجه الانتقال فيه دون نص منه على مصطلحه الصريح .

وورد بحث الالتفات عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات بذكر مصطلح (الرجوع) دون نص على مصطلح الالتفات .

أما العبيدي فقد جاء بحثه عنده بذكر مصطلحه الصريح .

وقد ورد بحث فن الالتفات عند المرصفي بالنص على ذكر مصطلحه الصريح. كما ورد عنده دون نص عليه ، ولكن بذكر وجه الانتقال فيه .

وأورد الآن نماذج لبحث هؤلاء الشراح فنَّ الالتفات وفق ماذكرته آنفاً :

- قال سلامة بن جندل:

يادار أسماءَ بالعلياء من إضَمِ * بين الدكادكِ من قَوٌّ فمعصوبِ

كانت لنا مرةً داراً فغيَّرها * مرُّ الرِّياح بسافي التُّربِ مَجلوبِ

نقل التبريزي عن المرزوقي في شرح البيتين أن الشاعر التفت من الخطاب - بطريق النداء - إلى الغيبة - بطريق الإخبار - ؛ فقال أولاً : (يادار مية...) ؛ ثم قال: (كانت لنا مرة داراً...) .

واستشهد على وقوع مثل هذا الالتفات بوقوعه عند النابغة ؛ حين قال :

يادار ميـة بالعليـاء فالسنـد

ثم قال : أقوتْ فطال عليها سالفُ الأمَدِ

يقول التبريزي في ذلك :

« ..ألا ترى أنه عدل عن الخطاب إلى الإخبار ؛ فقال:

كانت لنا مرة داراً فغيّرها * ... ...

وهذا كما قال النابغة : يادار مية بالعلياء فالسند . ثم قال: (أقوت)..»[١٠٨]

فقد نص التبريزي والمرزوقي هنا على مصطلح (العدول) للدلالة على مصطلح فنّ (الالتفات) ، وقد ذكرا أن الشاعر عدل عن الخطاب إلى الإخبار .وظاهر أن الخطاب كان بطريق النداء . أما الإخبار فكان بطريق الغيبة.

- قال المسيب بن علس:

٣٤ - أنتَ الوفيُّ فما تُذَمُّ وبعضُهُم * تُودي بذمّته عُقابُ مَلاعِ

٣٥ - وإذا رماهُ الكاشحون رماهُمُ * بمعابلٍ مذْروبةٍ وقِطاعِ

أشار الأنباري إلى مضمون فن (الالتفات) وطبيعته دون أن يذكر مصطلحه الفني الذي عُرف به ، وهو (الالتفات)، لكنه توسّع إلى حدّ ما في شرحه وذكر شواهد له ، ودلّ على كثرته في القرآن الكريم ، وكلام العرب؛ فقال قُبيل انتهائه من شرح البيت الثاني :

« ... قال: (أنت الوفي) فخاطب ، ثم قال: (وإذا رماه الكاشحون رماهم) فترك الخطاب وجاء بالغيبة؛ كما قال الآخر:

إلى هَوْذةِ الوهّاب أعملت مدحتي * أُرجّي عطاءً فاضلاً من نوالكا

وقال الله عز وجل : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾، ومثله قول عنترة:

حلّتْ بأرض الزائرين فأصبحتْ * عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَم

قال : فأصبحتْ ، ثم قال : طلابك . وهذا كثير في القرآن والكلام.»[١٠٩]

ولم يقف التبريزي ألبتة عند فن (الالتفات) في أسلوب الشاعر هنا ببحث ؛ لا بطريق مصطلحه الصريح ولا غيره كمصطلح العدول أو الترك الذي ورد عند الأنباري آنفا!.[١١٠]

---

(١٠٨) شرح اختيارات المفضل ٢/٥٩٠ وحاشيتها ، ولم يرد لهذا البيت ذكر عند الأنباري في قصيدة سلامة المثبتة عنده : انظر شرح المفضليات ٢٢٤-٢٤٥.

(١٠٩) شرح المفضليات ١٠٠.

(١١٠) انظر شرح اختيارات المفضل ١/٣٢٠.

- قال عبد الله بن عنمة التَّيميُّ :

٦ - إذا الحارثُ الحَرابُ عادى قبيلةً * نكاها ولم تَبْعدْ عليه بلادُها

٧ - سموتَ بِجُردٍ في الأعِنَّة كالقنا * وهُنَّ مطايا لايَحِلُّ فِصادُها

بيّن التبريزي نوع الالتفات في البيت الثاني ، وأنه التفات من الإخبار إلى الخطاب. وقد دل على مصطلح فن الالتفات بغير مصطلحه الصريح المشهور به عند البلاغيين فذكره بمصطلح (الانتقال) .

يقول التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - في صدر شرح البيت الثاني:

« انتقل إلى الخطاب من الإخبار.»[(١١١)]

ولم يتكلم الأنباري على فن الالتفات في هذا البيت !.[(١١٢)]

- قال الحارث بن حلزة اليشكري:

١ - طرق الخيالُ ولا كليلة مُدْلِجٍ * سَدِكاً بأرْحُلِنا ولم يتعرَّجِ

٢ - أنّى اهتديتِ وكنتِ غير رجيلةٍ * والقَومُ قد قطعوا متان السَّجْسَجِ

قال الأنباري - عن أبي جعفر أحمد بن عبيد - : « ... وأنَّث ؛ لأنه رجع بالمخاطبة إلى المرأة ، وترك الخيال.»[(١١٣)]

والرجوع بالخطاب من حال إلى حال التفات ؛ فإذا كان الكلام أولاً عن غائب، أو مافي معناه؛ وهو الخيال، ثم رجع بالخطاب إلى المخاطَبة ؛ وهي المرأة ؛ فقال: أولاً : (طرق الخَيال) ؛ ثم قال: (اهتديتِ وكنتِ..) فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والأنباري وابن عبيد وإن لم يصرحا بذكر مصطلح (الالتفات) هنا فقد دلاّ عليه بما ذكراه من مصطلح (الرجوع) الوارد في عبارتهما الآنفة الذكر؛ لأن ترك الكلام عن الخيال - وهو في حكم الغيبة - والرجوع بالخطاب إلى امرأة مخاطَبة تحوُّلٌ بالكلام عن طريقه الأول ؛ وهذا هو معنى فن (الالتفات) .

---

(١١١) شرح اختيارات المفضل ٣/١٥٤٤.

(١١٢) انظر شرح المفضليات ٧٤٤.

(١١٣) شرح المفضليات ٥١٥.

وقد جاءت عبارة التبريزي التي نقلها عن المرزوقي موحيةً بمصطلح (الالتفات) دالّة عليه وإن لم تكن صريحة أو مباشرة ، على أنها أقل في الإيحاء أو الدلالة على مصطلح (الالتفات) من دلالة عبارة الأنباري وابن عبيد المتقدمة ؛ يقول التبريزي - عن المرزوقي - في بيان وجه الالتفات عند الشاعر في هذين البيتين:

« وأجرى الخيال في طروقه مُجرى صاحبة الخيال، فصار يتعجب من هدايتها، وقطع المسافة مع نَعمتها.»(١١٤)

فأنت تلحظ الضعف في الدلالة على فن الالتفات عند الشاعر ، وكل ما في عبارتهما هذه دلالة على التحوّل أو التحويل بالإجراء النيابي؛ بأن جعل صاحبة الخيال بديلاً عن الخيال نفسه في الخطاب.

وكما جاءت العبارة خالية من الإشارة الصريحة إلى مصطلح فن الالتفات جاءت كذلك خالية من الإشارة إلى مصطلح الخطاب أو الغيبة أو التكلم.

ولست أعني بالإشارة هنا مجرد الدلالة على ذلك دلالة غير صريحة أو مباشرة ، وإنما أعني ذكر ذلك بعبارات صريحة تدل عليه دلالة مباشرة.

- قال المسيب بن علس:

٣ - إذْ تَستبيكَ باصْلتيٍّ ناعمٍ * قامتْ لتَفْتِنَـــهُ بغيرِ قناعِ

قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي -: « ... وقوله : إذْ تستبيك) خطاب، و(لتفتنه) إخبار . وساغ ذلك ؛ لأن المراد أنها تفعل بمحبوبها الأمرين جميعاً ، وكذلك (قامت) مع قوله : (تستبيك) ، وأحد الفعلين للمضي، والآخر للاستقبال أو الحال.»(١١٥)

ولم يرد عند التبريزي أو المرزوقي من خلال الكلام الآنف ذكره نص على مصطلح فن (الالتفات) ، وإنما ورد فيه تحديد وجه الانتقال في هذا الالتفات من

---

(١١٤) شرح اختيارات المفضل ١١٣٨/٣، وحاشيتها.

(١١٥) شرح اختيارات المفضل ٣٠٥/١ وحاشيتها. ولم يشر الأنباري - أثناء شرحه البيت - إلى مافيه من صورة الالتفات ! انظر شرح المفضليات ٩٣.

الخطاب إلى الغيبة الواردة بطريق الإخبار في قوله: (لتفتنه) ، ومن المضيّ إلى المستقبل أو الحال بين قوله: (قامت) و(تستبيك).

وتحديدهما وجه الانتقال بين صور الالتفات على هذا النحو فيه دلالة قوية على مصطلح فن (الالتفات) . ولكن يبقى البحث البلاغي لديهما هنا قاصراً بعض قصور بدون النص على هذا المصطلح أو مايقوم مقامه من المصطلحات التي ترددت عندهما من خلال النماذج المتقدمة؛ كمصطلح (العدول) و(الترك) و(الرجوع) و(الانتقال) ، وإنك لتعجب كيف يحددان وجه الانتقال بهذه الدقة دون أن ينصا على مصطلح (الالتفات) أو مصطلح (الانتقال) ، أو غيرهما مما يقوم مقامهما من المصطلحات الأخرى ؟!.

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام أن المرزوقي والتبريزي قد أحسنا جداً في بيان السر البلاغي الذي سوغ صحة التفات الشاعر وانتقاله من الخطاب إلى الغيبة بين قوله :(تستبيك) وقوله : (لتفتنه)؛ حين ذكرا ذلك السر بقولهما بعد بيان وجه الالتفات على النحو المذكور آنفاً: « ... وساغ ذلك ؛ لأن المراد أنها تفعل بمحبوبها الأمرين جميعا » .

كما أنه مما لايحسن ترك التنبيه إليه هنا أن المرزوقي – وتابعه التبريزي – قد عدّ التعبير بالمضي في قوله : (قامتْ) بعد التعبير بالمستقبل أو الحال في قوله : (تستبيك) – من صور الالتفات.

والمشهور عند الجمهور أن فن (الالتفات)هو : التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة؛ وهي الغيبة أو التكلم أو الخطاب بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.(١١٦)

وقد ذهب المرزوقي في هذا الرأي مذهب التوسع في فن الالتفات ؛ ومبنى هذا المذهب أن يكون في اختلاف صور التعبير دلالة على تحقيق فن الالتفات ، وبخاصة إذا كان اللجوء إلى مثل هذه الصورة الانتقالية من صور التعبير ميزة بلاغية يحققها التعبير فيها .

---

(١١٦) انظر الإيضاح ١٥٧.

وممن جرى على هذا المذهب ابن الأثير الذي عدّ من أقسام الالتفات : الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعكسه.(١١٧)

- قال حجر بن خالد يمدح النعمان:

فسيق إليه الغيثُ من كلّ بلدةٍ * إليكَ فاضحى حول بيتك نازلا

مدار المعنى في البيت على الدعاء للممدوح بالخصب.

ذكر ذلك النمري . كما بين وجه الالتفات فيه بقوله :

« .... وقوله : (فسيق إليه الغيث) ثم قال بعده :(من كل بلدة إليك) فكنى مرة ، وواجه بالخطاب مرة. والعرب تفعل ذلك كثيراً.»(١١٨)

ولم يُرِد النمري بالكناية هنا المصطلح البلاغي البياني المعروف ، ولكنه أراد بها التعبير بلفظ الغيبة ؛ إذ الكَنُّ ستر وحجاب وهو بمثابة الخفاء والغيبة.

وعلى هذا يكون أسلوب الشاعر التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

وقد اقتصر النمري في بحث الالتفات عند الشاعر على تحديد وجه الانتقال في هذا الالتفات دون أن يذكر مصطلح (الالتفات).

- **قال الحارث بن وَعْلَةَ الذُّهلي:**

٣ - لاتأمننّ قوماً ظلمتَهم * وبدأتَهُمْ بالشَّتْم والرَّغْمِ

قال المرزوقي في مطلع شرحه البيت :

« حوّل الكلام عن الإخبار توجعاً - على عادتهم - إلى الخطاب متوعدا »(١١٩)

وقد كان الشاعر تكلم في البيت الأول والثاني قبل هذاالبيت على قصته مع قومه الذين قتلوا أخاه ، وتحرجه بين الثأر له أو العفو عنهم، وقد ساق ذلك مساق التوجع والتحسر والتفجع ؛ كما أشار المرزوقي.

وجاء حديثه عن ذلك في البيتين بطريق الإخبار المتضمن صورة الغيبة فلما جاءالبيت الثالث تغيرت صورة التعبير فانتقل من صورة الغيبة التي تضمنها الإخبار

---

(١١٧) انظر المثل السائر ٢/١٩٤-١٩٩.

(١١٨) معاني أبيات الحماسة ٢٧١.

(١١٩) شرح ديوان الحماسة١/٢٠٤.

في البيتين إلى صورة الخطاب خروجاً من حرج الفجيعة والتحسر والتوجع إلى التنفيس عن ذلك بمعالجة العزة والكرامة ومطاولة التهديد ومقارعة الوعيد ؛ كما أشار المرزوقي أيضا .

وقد أخبر المرزوقي أن تحويل الكلام من عادة العرب وسننهم في كلامهم لكنه لم يذكر مصطلح الالتفات صريحاً إنما ذكره بمصطلح : (التحويل) ؛ حين قال : إن الشاعر حوّل الكلام ، وبين المرزوقي أن تحويل الكلام كان بتحديد صور تحويله التي هي صور الانتقال وصور الالتفات فيه .

وقد أحسن المرزوقي حين ذكر الوجه البلاغي للإخبار بطريق الغيبة ، ثم بالتفاتة الشاعر إلى الخطاب بعد الغيبة ، وذكره السر البلاغي لهذا الوجه من الالتفات ؛ وهو الخطاب ؛ فذكر أن السر البلاغي لهذا الالتفات بطريق الخطاب كان للوعيد ، وأوضح في شرح البيت الرابع الذي يلي هذا البيت ؛ وهو قوله :

أن يأبروا نخلاً لغيرهمُ * والقولُ تحقرهُ وقد ينمي

أوضح أن الشاعر: « جَعل هذاالكلام وعيداً في مفارقة القوم الذين وصفهم إيّاهم وتقويتهم لأعدائهم بعد الانتقال إليهم وإصلاحهم الفاسد من فخرهم وأمرهم نُصرةً لهم، وجعل قوله : (أن يأبروا) كناية عن هذا المعنى.»[١٢٠]

ونقل التبريزي عبارة المرزوقي الأولى في بيان وجه الالتفات مع تصرف يسير فيه حذف منه النص على غرض الإخبار ، وأنه للتوجع، كما حذف قول المرزوقي :(على عادتهم) الذي دل به على أن الالتفات من فنون القول عند العرب وسننهم فيه.[١٢١]

- **وقال بعض بني جَرم من طيء:**

١ - إخالكَ موعدي ببني جُفيف * وهالةَ إنني أنهاكِ هالا

صرح المرزوقي بذكر مصطلح الالتفات في هذا البيت أثناء شرحه وبيانه وجه الالتفات فيه ، فذكر أنه يسمّى التفاتاً . وقد أفاض في تفسير هذا الفن ، وشرح طبيعته وسنن العرب فيه ؛ فقال :

---

(١٢٠) شرح ديوان الحماسة١/٢٠٥.
(١٢١) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي١/٢٠٠.

« ... يقول: أحسبكَ تُهدّدني ببني جُفيف وبهالة، ثم أقبل على هالة فقال: إني أزجرِكِ عن التحكك بنا، ونصرة من ينابذنا. ومثل هذا الكلام يُسمّى التفاتاً . والعرب قد تجمع في الخطاب أو الإخبار بين عِدّةٍ ، ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم ، أو أحسنهم سماعاً لما يُلقى إليه ، أو أخصهم بالحال التي تنطق بالشكوى بينهم فتفرده بكلام . على هذا بيت الهذلي:

أحيا أباكُنَّ ياليلى الأماديحُ

فقال: أباكُنَّ ، ثم قال : ياليلى.»[١٢٢]

ونقل التبريزي هذاالكلام نصّاً عدا كلمات أسقطها أو بدّلها ، مع تركه لآخر كلام المرزوقي المتصل بزيادة الإيضاح والاستشهاد عليه ببيت الهذلي.[١٢٣]

وهذا الالتفات الذي ذكره المرزوقي في بيات الشاعر الجرمي هو غير الالتفات بصورته المشهورة التي تدور بين صور التكلم والغيبة والخطاب. لكن هذاالالتفات الذي أراده المرزوقي في بيت الشاعر هو التفات فرعي ؛ بمعنى أن الكلام أولاً دائر على الخطاب أو الإخبار العام ، ثم ينبثق منه خطاب خاص؛ فهذا الشاعر خاطب مَنْ يتوعده أولاً وأخبره بعلمه بتهديده إيّاه بقبيلتين من قبائل العرب ، ثم انصرف بالخطاب إلى خطاب قبيلة واحدة ممن أخبر عنهما مخاطَبُه ومُوعِده . فكأن الشاعر اصطفى من المخاطبين أو من تضمنهم الخبر واحداً فالتفت إليه بالخطاب وميّزه فيه للعلة البلاغية التي ذكرها المرزوقي ، وهي كونه أكبرهم ، أو أحسنهم سماعاً لمايُلقى إليه ، أو أخصّهم بالحال التي تنطق بالشكوى بينهم.

وهذا توسع في فهم معنى فن الالتفات لم أجده عند من درس هذا الفن من البلاغيين ؛ لأنه التفات فرعي منبثق عن التفات عام تناوله خطاب عام أو إخبار ، كما أنه يخالف المتعارف المشهور عن فن الالتفات وصوره عند جمهور البلاغيين . ففي تسميته التفاتاً تسمُّح وتجوّز .

---

(١٢٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٤٨/١.

(١٢٣) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي٢٤١/١.

لكن الالتفات في بيت الشاعر واضح في صور أخرى غير ماذكره المرزوقي .

وهــذه الصــور أوضح وأولى بأن تسمّى التفاتاً ، وهي : صورة الخطاب الأول في قوله : (إخالكَ) ، ثم صورة التكلم في قوله :(إنني) ، ومنه إلى الخطاب الآخر في قوله : (أنهاكِ هالا) .

وأغرب من هذا الفهم للالتفات والتوسع في إطلاقه عند المرزوقي ماورد عنده في كلامه على قول القطامي:

٤ - اغرن من الضِّباب على حُلولٍ * وضبّةَ إنّه من حانَ حــــانا

حيث قال:« .... وقوله : (إنه من حان حانا) يسمّى الالتفات ؛ كأنه التفت إلى إنسانٍ فقال: إنه من هلك بغزونا فقد هلك .»[(١٢٤)]

وذكر التبريزي هذاالكلام بنصه !.[(١٢٥)]

وليس مثل هذا التفاتاً ولا شبيهاً به مما يجري مجراه ؛ فتخيُّلُ أن الشاعر التفت إلى إنسان وخاطبه بهذا الكلام لايجعله في فن الالتفات ولا في دائرته !. لأن هذا تمحّل لامسوغ له .

وتسمية هذا التفاتاً يخالف مااشتهر عند جمهور البلاغيين في فن الالتفات . وإن كان قد يتفق - بعض اتفاق- مع مذهب قدامة بن جعفر في مفهوم هذا الفن الذي جعله من نعوت المعاني، وذكر أن بعضهم يسميه (الاستدراك) ، ثم حدّه بقوله:« ... وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إمّا شكٌّ فيه ، أو ظنٌّ بأن راداً يرد عليه قوله ، أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً على ماقدّمه ؛ فإمّا أن يؤكّده ، أو يذكر سببه، أو يحل الشكّ فيه .»[(١٢٦)]

وعلى هذا المذهب جعل المرزوقي أيضاً قول عبد الشارق الجهني:

١ - ألا حُيِّيتِ عنا يارُدَيــــنا * نُحيّيها وإن كرُمــــتْ علينا

من فن الالتفات فقــال في آخر شرحه البيت : « .. وقوله :(نحيــيها وإن كـــرمت)

---

(١٢٤) شرح ديوان الحماسة١/٣٤٩.

(١٢٥) انظر شرح ديوان الحماسة١/٣٣٠.

(١٢٦) نقد الشعر١٤٦، ١٤٧.

يسمّى التفاتاً ، كأنه التفت إلى مَنْ معه فقال ذلك .»[١٢٧]

ومثل هذا لايسمّى التفاتاً ، لأنه مبني على التخيّل ، وعده من الالتفات لايخلو من التّمحُّل والتعسّف . ويمكن عدّه منه على مذهب قدامة؛ كما سبق بيانه آنفاً.

لكن الالتفات ظاهر في البيت من غير هذا الوجه الذي ذكره المرزوقي ؛ أعني الالتفات من صورة الخطاب في قوله : (ألا حُيِّيتِ..) إلى صورة التكلم في قوله : نحيِّيها...).

ولو أن المرزوقي اكتفى بقوله في صدر شرح البيت :« هذا على كلامين، و(ألا) افتتاح . والتحية: قال بعضهم : هي الوداع ههنا ؛ يقول: ألا أُبْلغتِ وداعَنا ياردينة. ثم قال: (نحييها) أي نودعها وإن عزّتْ علينا مفارقتها.»[١٢٨]- لكان ذلك أولى له هنا؛ لأن في هذاالقول إلماحاً إلى مصطلح الالتفات وبياناً لوجه الانتقال فيه عند الشاعر؛ بين صورة الخطاب إلى التكلم . وبخاصة أن المرزوقي افتتح كلامه هذا بقوله:(هذا على كلامين) ثم أخذ في بيان ذلك.

لكن المرزوقي لم يكتف بذلك ، وإنما أعقبه بما يشعر بمناقضته إياه؛ حين قال عبارته الأخيرة التي نص فيها على مصطلح الالتفات في قول الشاعر:« نحييها وإن كرمت » وقال: إن هذا يسمى التفاتاً ، ثم أوضح هذا الالتفات وطبيعته بقوله:« كأنه التفت إلى مَن معه فقال ذلك.» ، فلو سلم المرزوقي من هذه العبارة الأخيرة واكتفى بكلامه الأول لكان أقرب إلى تحقيق القول في فن الالتفات في هذا البيت !.

ولم يشر التبريزي إلى الالتفات في البيت من قريب أو بعيد!.[١٢٩]

- قال الصِّمَّة بن عبد الله القشيري:

٣ - قفا ودّعا نَجْداً ومَنْ حلَّ بالحمى * وقلَّ لنجْدٍ عندَنا أنْ يُودّعا

٤ - وليستْ عشيّاتُ الحِمى برواجعٍ * ولكنْ خلِّ عينيكَ تدمعا

صدّر المرزوقي شرح البيت الأول ببيان وجه الالتفات فيه ناصاً على مصطلحه ،

---

(١٢٧) شرح ديوان الحماسة ٤٤٣/١.

(١٢٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤٤٣/١.

(١٢٩) انظر شرح ديوان الحماسة١٨/٢، ١٩.

وقد كان في هذا البيان أصرح وأصدق تناولاً في بحث فن الالتفات ؛ قال : « يخاطب صاحبين له يستوقفهما ويكلّفهما توديع نجدٍ معه ، والنازلِ بالحمى منه . ثم استأنف فقال ملتفتاً : ويقلّ لنجد وساكنه التوديع منا ؛ لأن حقهما أعظم من ذلك ، ولكنّا لانقدر على غيره.»(١٣٠)

فصورة الالتفات في هذا البيت هو الانتقال من وجه الخطاب إلى الإخبار بطريق الغيبة والتكلم ؛ أما الخطاب ففي قوله :(قفا ودّعا...) ، والإخبار في جملة الشطر الثاني:(وقلَّ لنجد عندنا أن يودّعا).

أما كون هذا الإخبار بطريق الغيبة والتكلم فلأن في قوله :(... لنجد...أن يودّعا) تعبير بطريق الغيبة ، وفي قوله :(عندنا) تعبير بطريق تكلم بصيغة الجمع.

ولم يتكلم التبريزي على هذا الالتفات بشيء ألبتة!.(١٣١)

وفي البيت الثاني التفات بالنظر إلى ماقبله في البيت الأول؛ ففيه تحوُّل إلى الخطاب في قوله :(ولكن خلّ عينيكَ تدمعا) ؛ فقد خاطب الشاعر بعد أن أخبر - في الشطر الثاني من البيت الأول - بطريق الغيبة والتكلم، وبعد أن أخبر بطريق الغيبة عن استبعاد رجوع عشيات الحمى ؛ في الشطر الأول من البيت الثاني.

ولم يذكر المرزوقي هذا الالتفات في البيت الثاني أو يقف عنده بشيء!(١٣٢)

وتابعه التبريزي في ذلك ؛ حيث نقل شرحه بتصرف يسير ، دون أن يذكر مافي البيت من التفات ، على النحو الذي أوضحته آنفا.(١٣٣)

- قال آخر:

١ - إذا كان أولادُ الرِّجال حزازةً * فأنتَ الحلالُ الحلوُ والباردُ العذْبُ

٢ - لنا جانبٌ منهُ دَميثٌ وجانبٌ * إذا رامهُ الأعداء مُمْتَنِعٌ صَعْبُ

بين المرزوقي الالتفات ووجهه في البيتين ، وعبر عنه هنا بمصطلح :(العدول)،

---

(١٣٠) شرح ديوان الحماسة ٣/١٢١٦، ١٢١٧.

(١٣١) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/١٩٧.

(١٣٢) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/١٢١٧.

(١٣٣) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/١٩٨.

وبمصطلح (التحوُّل) . وذكر أن العرب تلجأ إلى هذا الفن طلباً للافتنان في القول؛ لما فيه من سهولة انقياد الألفاظ ، وتلاؤم مذاهب النظم والسبك ؛ قال المرزوقي:

« خاطب في الأول ثم عدل في الثاني إلى الإخبار ، وهذا عادتهم إذا افتنّوا في كلامهم، نظموا أو نثروا ؛ لما في التحول من سهولة تجاوب الألفاظ ، وتلاؤم طرائق النظام.»(١٣٤)

ولم يشر التبريزي إلى الالتفات عند الشاعر في هذين البيتين ؛ لابمصطلح الالتفات ولا بغيره مما يدل عليه !.(١٣٥)

وقد حاول المرزوقي في كلامه الآنف ذكره أن يتصيد علة فن (الالتفات) ونكتته البلاغية ، وعزا ذلك إلى مافي هذا الفن من مرونة يسهل معها التعامل مع الألفاظ وسبك التراكيب واستجابة النظم ، ومن شأن ذلك أن يلائم طرائق النظم في الشعر والنثر.

وقد وفّق المرزوقي في تصيُّد النكتة الفنية والبلاغية لفن الالتفات ؛ لأن في سهولة تجاوب الألفاظ لتتلاءم مع طرائق النظم أو النظام تحقيقَ غاية فكرة النظم التي تحقق فصاحة الألفاظ وسبك التراكيب ورصفها في تلاؤم متين وتناسق متقن يؤول إلى بلاغة المعاني وتميزها في عمق الدلالة وبعد التأثير.

- قال جعفر الحارثي:

٤ - فلا تحسبي أنّي تخشّعْتُ بعدكُمْ * لشيءٍ ولا أنّي من الموت أفْرَقُ

أوضح المرزوقي فن الالتفات عند الشاعر في هذا البيت بالنسبة لما قبله ؛ فذكر أنه كان يخبر عن مخاطبته فيما سبق من أبيات ، ثم ترك الإخبار والتفت إليها يخاطبها . وقال المرزوقي : إن هذا الفن من الالتفات عند الشاعر جارٍ على مذهبهم المعتاد في التنقل في الكلام والتفنّن في التصرف فيه ؛ يقول في بيان ذلك:

« ترك الإخبار عنها وأقبل عليها يخاطبها جرياً على عادتهم في التنقّل والافتتان

---

(١٣٤) شرح ديوان الحماسة١/٢٧٢.

(١٣٥) شرح ديوان الحماسة ١/٢٦٤.

في التصرف .»[١٣٦]

ونقل التبريزي – حين شرح البيت – هذا النص عن المرزوقي إلا أنه استبدل قوله: «على عادتهم في تصرفهم في الكلام» بقول المرزوقي: «على عادتهم في التنقّل....»[١٣٧]

والالتفات هنا كان من الإخبار ـ بطريق الغيبة ـ إلى الخطاب. وقد استعمل المرزوقي مصطلح (الترك والإقبال) للدلالة على فن الالتفات في البيت. وقد أحسن في قوله عنه: إنه من مذاهب العرب المعتادة في التصرف في فن القول، والتّفنّن فيه .

ولم تخرج علته التي ذكرها في بلاغة هذا الفن عمّا ذكره من قبل؛ وهي توخّي حسن نظم الكلام الجامع بين الفصاحة والبلاغة . ولعل مما يدل على حسن تفهم المرزوقي لفن الالتفات وتقديره لغايته البلاغية ماساقه من بيان لمعنى البيت ؛ حيث قال:« ... يقول مستهيناً بما اجتمع عليه من الحبس والتقييد، ومُتبجِّحاً عندها بالصبر على الهوى والتهالك فيه – وبهذا دخلت الأبيات في الحماسة – : لاتظنِّي أني تكلّفت الخشوع بعدكم لشيء عارض، ولا أني أخاف من الموت.»[١٣٨]

وقد كان المرزوقي أعظم جهداً من التبريزي في بحث فن (الالتفات) من خلال شرحيهما لديوان الحماسة. بل لم يكن للتبريزي جهد يذكر في ذلك لأنه بين إهمال لبحث مواضع الالتفات أو نقل عن المرزوقي فيها ؛ كما يتضح ذلك من النماذج التي سبق عرضها ودراستها.

أما في شرح المفضليات فقد كان التبريزي أيضاً عالة على المرزوقي فيما عرض له من مباحث فن الالتفات !.

وأذكر الآن مارأيت لأبي بكر الأنباري وابن النحاس من بحث لفن الالتفات في شرحيهما للمعلقات . وماكان من بحث لهذا الفن عند العبيدي والمرصفي :

---

(١٣٦) شرح ديوان الحماسة١/٥٤.
(١٣٧) شرح ديوان الحماسة١/٥٤.
(١٣٨) شرح ديوان الحماسة١/٥٤.

- قال عنترة :

٦ - حلّتْ بأرض الزائرين فأصبحتْ * عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

ذكر أبو بكر الأنباري فن الالتفات في هذا البيت ، لكنه ذكره بمصطلح (الرجوع) ، محدداً وجه الانتقال فيه من الغيبة إلى الخطاب، ذاكراً أن ذلك سمت العرب في كلامها، وقد توسّع الأنباري في بحث صور الالتفات مستشهداً عليها بشواهد من القرآن الكريم والشعر ؛ فقال مثيراً بحث هذا الفن عند الشاعر بطريق التساؤل اللطيف:

« فإن قال قائل : كيف قال : حلّتْ بأرض الزائرين فذكر غائبة ، ثم قال : طلابك ابنة مخرم ؛ فخاطب ؟ قيل له : العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة ؛ فالموضع الذي رجعوا فيه من الغيبة إلى الخطاب قول الله عز وجل : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاءً ﴾ فرجع من الغيبة إلى الخطاب . قال لبيد :

باتت تشكّى إلى النفس مُجهشةً * وقد حملتُكَ سبعاً بعد سبعينا

فرجع من الغيبة إلى الخطاب . والموضع الذي رجعوا فيه من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ معناه : وجرين بكم ؛ فرجع من الخطاب إلى الغيبة . قال أوس بن حجر:

لازال مسكٌ وريحانٌ لــه أرجٌ * على صداكَ بصافي اللون سلسال

يسقي صداه وممساهُ ومُصْبَحُهُ * رِفهاً ورمسكَ محفوفٌ بأظلال»[١٣٩]

ووقف ابن النحاس عند هذا البيت فبين فن الالتفات فيه نقلاً عن أبي عبيدة الذي ذكره بمصطلح (الرجوع) أيضاً ، محدداً وجه انتقال الشاعر فيه من الإخبار - بطريق الغيبة - إلى الخطاب، ذاكراً أن العرب من عادتها الرجوع أو الالتفات من الإخبار إلى المخاطبة ، ومن المخاطبة إلى الإخبار، مستشهداً على ذلك بشواهد من

---

(١٣٩) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٣٠٠. والآيتان الأوليان من سورة الإنسان آية٢١، ٢٢. والآية الأخيرة٢٢ من سورة يونس..

القرآن الكريم والشعر.

قال ابن النحاس : «... ويذهب أبو عبيدة : إلى أنه رجع من الإخبار إلى المخاطبة. والعرب ترجع من الإخبار إلى المخاطبة ، ومن المخاطبة إلى الإخبار ؛ فمما رُجِع فيه من الإخبار إلى المخاطبة قوله عزوجل : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهورا ﴾ ثم قال : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾ ولم يقل : (لهم) . وقال الأعشى :

عنده الحزمُ والتُّقى وأسى * الصَّدْعِ وحَمْلٌ لِمُضْلِعِ الأثقالِ
ووفاءٌ إذا أَجَرْتَ وما غُرَّتْ * حِبالٌ وَصَلْتَها بحبالِ

فقال : (أجرت) ولم يقل : أجار .

ومما رجع فيه من مخاطبة الشاهد إلى الغائب قوله جلّ وعزّ : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾، والمعنى- والله أعلم - : وجرين بهم يامحمد .»[١٤٠]

وبهذا التقدير للمعنى يحصل وجه آخر للالتفات ؛ بين الغيبة إلى الخطاب ، وقد وقع بين قوله : (وجرين بهم) ونداء الخطاب في التقدير المذكور : (يامحمد) .

أما وجه الالتفات الصريح في الآية فهو ماساق أبو عبيدة وابن النحاس الآية لأجله ؛ وهو الالتفات من الخطاب في قوله :(كنتم) إلى الغيبة في قوله : (وجرين بهم) ؛حيث لم يقل موافقاً : وجرين بكم.

لكن أبا بكر الأنباري وابن النحاس لم يذكرا من أوجه الالتفات في كلام العرب وصوره إلا وجهين ؛ وهما : الالتفات من الغيبة أو الإخبار إلى الخطاب ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة أو الإخبار. مع أن أوجه الانتقال وصور الالتفات تكون في صور ثلاث ؛ هي الغيبة والخطاب والتكلم ، وبين كل واحدة منها مع الأخرى[١٤١].

---

(١٤٠) شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ٢/١٠.
(١٤١) انظر الإيضاح ١٥٧.

- قال أبو فراس:

أعــان عليَّ الدَّهرَ إذْ حكَّ بَرْكَهُ * كفى الدهرُ لو وكَلْتَهُ بِيَ كافيا

يشكو أبو فراس هنا من أذى ابن عمه سيف الدولة، ويصرّح بأذاه إيّاه.

ذكر ذلك العبيدي في صدر شرحه البيت . وبيّن مافيه من التفات فقال : « ... ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب إظهاراً للجزع من فعله ؛ فقال: لو اتخذتَ الدهر وكيلاً لكَ واعتمدت عليه دون أن تباشر مساءتي بفعلك لكفاك .»(١٤٢)

وقد نصّ العبيدي على مصطلح الالتفات ؛ فذكر مصطلحه الصريح المعروف به عند البلاغيين ، كما كان دقيقاً في تحديد وجه الالتفات ، بل لقد أجاد في كلامه على السر البلاغي لهذا الالتفات ؛ حين بيّن أن الغرض منه إنما كان لإظهار الجزع من فعل ابن عمه معه ومساء ته له .

- وقال أيضاً :

لعاً ياأخــي لامسَّكَ السُّوءُ إنَّهُ * هو الدهر في حاليه بؤس وأنعُمُ

بيّن العبيدي مافي البيت من التفات من الخطاب إلى الغيبة ، وقد نصّ على مصطلح فن الالتفات ، ووجه الالتفات فيه ؛ فقال : « .. والضمير في (إنه) ضمير الشأن ؛ هو الدهر تفسيرُه ، وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة...»(١٤٣)

- وقال آخر:

اللهُ يعلمُ إنّي لستُ أذكُرُهُ * وكيفَ يذكُرُهُ مَنْ ليس ينساهُ

---

(١٤٢) شرح المضنون به على غير أهله ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(١٤٣) شرح المضنون به على غير أهله ٤١٢ .

قال العبيدي في شرح البيت وبيان وجه الالتفات فيه :

« ذكر الشيء يكون بعد النسيان فإذا لم يوجد نسيان لم يوجد ذكر ؛ فلهذا أقسم عليه فقال : الله يعلم إني لست أذكره ، ثم التفت من التكلّم إلى الغيبة فقال : وكيف يذكره من ليس ينساه ؟ فإذا لم يكن النسيان منه لم يوجد الذكر . »[١٤٤]

وقد أحسن العبيدي في مواضع فن الالتفات التي بحثها مما سبق عرضه ودراسته ؛ إذْ قد نص على مصطلح هذا الفن باسمه المباشر المعروف عند البلاغيين، كما كان دقيقاً في بيان أوجه الانتقال وتحديد صور الالتفات في هذه الشواهد التي كانت أوجه الالتفات فيها عنده أكثرَ من غيره وأشمل.

- قال الشنفري:

لاتَقْبُروني إنَّ قبري مُحرَّمٌ * عليكمْ ولكنْ أبْشِري امَّ عامرِ

يرى المرصفي أنه لا التفات في البيت ؛ لأن الشاعر إنتقل من خطاب إلى خطاب ؛ من مخاطبة القوم إلى مخاطبة الضّبع التي تُكْنى بأمّ عامر.

ونقل المرصفي رأياً آخر صدّره بصيغة الزعم منكراً إيّاه ؛ ويرى هذا الرأي وقوع الالتفات في البيت ؛ قال المرصفي:

« وزعم بعض الناس أن الشاعر انتقل من خطاب القوم إلى مخاطبة الضبع يبشّرها بتناول جثّته .»[١٤٥]

---

(١٤٤) شرح المضنون به على غير أهله٢٨٤.

(١٤٥) أسرار الحماسة ١/٤٥.

ومبنى حكم المرصفي بأنه لاالتفات في البيت ماذكرته آنفاً من أن وجه الالتفات وصيغة الانتقال لم تتغير ؛ فهي من خطاب إلى خطاب، ولايؤثر عنده تغير جنس مَنْ توجّه إليه الخطاب في تقدير فن الالتفات طالما أن الخطاب لم تتغير وجهته إلى غيبة أو تكلم. أما مَنْ زعم بوجود الالتفات فقد نظر إلى اختلاف جهة الخطاب وطبيعة مَنْ توجه إليه وجنسه ؛ إذْ هو في الأول إلى قوم يعقلون ، وهو في الثاني إلى مالايعقل.

والفصل في هذا متوقف على تقدير منطلق كل فريق في حكمه؛ فإن قيل برأي المرصفي فهو متفق مع رأي الجمهور الذي لايرى التفاتاً إلا ماكان المتكلم فيه منتقلاً بين أوجه الالتفات الثلاثة المعروفة ، من غيبة أو خطاب أو تكلم ، وليس مافي هذا البيت من ذلك . وإن أُخذ برأي من زعم بوجود الالتفات في هذا البيت فمبناه التسمّح والتجوز في النظرة إلى فن الالتفات ؛ من جهة كون المنطلَق في تقديره منطلَقاً عاماً يتسع لدخول كل ماغيَّر في لهجة الكلام أو الخطاب في فن القول، ولاشك أن لهجة الكلام أو الخطاب في البيت مختلفة؛ فالشاعر خاطب قوماً ، ثم تركهم وخاطب ضبعاً ، وهذا التفات ؛ بالنظر إلى اختلاف طبيعة مَنْ توجّه إليه الخطاب ، وإلى اختلاف صيغة النظم والتركيب في البيت ؛ فهو التفات باعتبار المفهوم العام لمعنى الالتفات ؛ لابمفهومه البلاغي الدقيق . وهذا الرأي – في عمومه – يلتقي مع مذهب المرزوقي وابن الأثير وقدامة المبني على التسمّح والتجوز في تفهُّم فن الالتفات وتقدير صور أوجه الانتقال فيه ؛ على نحو مامرّ بيانه.(١٤٦)

- وقال آخر من فقعس:

أيَبْغي آلُ شدّادٍ علينـــــا * وما يُرْغى لشـــــدّادٍ فَصِيلُ

فإن تَغْمِزْ مفاصِلَنا تجِدْها * غِلاظاً في مفاصِلِ مَنْ يصولُ

قال المرصفي :« ...(فإن تغمز) حوّل الكلام إلى الخطاب.»(١٤٧)

هذا ماقاله في بحث الالتفات في هذين البيتين . ولم يذكر هذا الفن هنا بمصطلحه الصريح ، وإنما ذكره بمصطلح (التحويل) ، فأشبه بـذلك مصطلحات

---

(١٤٦) انظر ص١٠١ ، ١٠٢ من هذا البحث.

(١٤٧) أسرار الحماسة ٨١ .

القدماء من النقاد والبلاغيين اللغويين ؛ على نحو مامر عند الأنباري والتبريزي والمرزوقي ، وأبي بكر الأنباري وابن النحاس؛ كمصطلح (العدول) و(الترك) و(الانتقال) و(الرجوع) ؛ حين أطلقوا هذه المصطلحات على فن (الالتفات).

وظاهر أن مقصودالمرصفي أن الشاعر حول الكلام فالتفت من الإخبار بطريق الغيبة - الذي تضمنه الاستفهام الإنكاري وجملة النفي المتضمنة لمعنى الهجاء في البيت الأول - إلى الخطاب الذي تضمنه الشطر الأول من البيت الثاني ، وما يتعلق به من تتمة لازم معنى ذلك الخطاب في الشطر الثاني منه.

ب - مايجري مجرى الالتفات :

مايجري مجرى الالتفات يعتبر فناً ثنائياً ليس بالأصل ، وإنما هو فرع عن الفن الأصل الذي هو فن (الالتفات) ذاته ؛ فما يجري مجرى الالتفات فن متفرع عن فن (الالتفات) وليس به أصلاً وحقيقة؛ فمثله في ذلك مثل : (مايجري مجرى المثل) بالنسبة لفن (المثل) . وسيأتي قريباً إيضاح ذلك أثناء الكلام على أول نماذج مايجري مجرى الالتفات في شروح الاختيارات الشعرية.

وسأعرض ثلاثة نماذج رأيتها عند التبريزي في شرح المفضليات ولم يتكلم عليها الأنباري، ونموذجين عند المرزوقي في شرح الحماسة ولم يتكلم عليهما التبريزي، ونموذجاً عند العبيدي . ولم أر لأبي عبد الله النمري في شرح الحماسة ، أو لأبي بكر الأنباري أو ابن النحاس في شرح المعلقات، أو سيد المرصفي في شرح الحماسة شيئاً من دراسةٍ لما يسمى مايجري مجرى الالتفات.

- قال تابط شراً :

٣ - يَسْري على الأينِ والحيّاتِ مُحْتَفِياً * نفسي فِداؤُكَ مِن سارٍ على ساقِ

تكلم التبريزي على فن الالتفات وما يجري مجراه أثناء شرحه البيت - نقلاً عن المرزوقي بتصرف يسير- ؛ فذكر التبريزي أن قوله : (نفسي فداؤك) كلام مستأنف جار مجرى الالتفات ؛ كقول جرير:

متى كان الخيام بذي طُلوحٍ * سُقيتِ الغيثَ أيّتُها الخيــامُ[١٤٨]

وفي بيانه معنى بيت تأبط شراً أورد مايفيد تضمّن البيت فن (الالتفات) مع أنه قال أثناء شرحه - الذي نقله بما فيه بيان معناه عن المرزوقي - إنه جار مجرى الالتفات !. يقول التبريزي في معنى البيت :« يسري هذا الخيال - على مايعرض له من تعب وإعياء ووطء حيات - حافياً ، ثم التفت إليه فقال: تفديك نفسي من سار على شدّة.»[١٤٩]

والصحيح أن في البيت التفاتاً صريحاً من الغيبة إلى التكلم؛ فهو يتحدث عن شيء غائب ؛ وهو الخيال الساري ، وذلك في قوله :(يسري على الأين...) ، ثم التفت عن كلام الغيبة إلى التكلم؛ حين قال :(نفسي فداؤك...)، فهو إنما يتحدث عن نفسه ؛ فكأنه يقول: أنا بنفسي أفديك ، أو نفسي أنا تفديك.

ولست أدري علةً لقول التبريزي والمرزوقي أولاً عن ذلك : إنه جار مجرى الالتفات مع إطلاقهما مصطلح (الالتفات) بعد ذلك في أثناء بيان المعنى ، ولم يقولا عنه :إنه مما يجري مجرى الالتفات كما قالا ذلك من قبل؟!. إن في ذلك تناقضاً وعدم وضوح ودقة في تحديد المصطلحات عند الرجلين !. إلا أن يكون عندهما (الالتفات) و(مايجري مجراه) بمعنى واحد ود لالة واحدة!. وليس ببعيد أن يكون ذلك كذلك ؛ بدليل إيرادهما مصطلح (مايجري مجرى الالتفات) في كلامهما أولاً ثم التعقيب عليه ثانياً بمصطلح (الالتفات) ؛ مما يشير إلى أنهما يعنيان بهذين المصطلحين أمراً أو فناً واحداً .

لكن الذي يظهر لي ، والذي تشهد به الفوارق الفنية الدقيقة أن (الالتفات) فنٌّ صريح مستقل أصيل ، به يتقلّب كلام المتكلم في صور شتّى ؛ من غَيبة إلى خطاب إلى تكلم ، ثم تأخذ كل واحدة من هذه الصور صورة مقابلة مع الأخرى ؛ كما هو المشهور من رأي الجمهور.

---

(١٤٨) انظر شرح اختيارات المفضل ٩٨/١ وحاشيتها ، ١٠٠.
(١٤٩) شرح اختيارات المفضل١/ ١٠٠.

أمّا (مايجري مجرى الالتفات) فهو فن ثنائي ليس بالأصل وإنما هو فرع عن فن (الالتفات) ملحق به وليس بفن أصيل أو حقيق. إن مَثَل مايجري مجرى الالتفات بالنسبة للالتفات مَثَلُ مايجري مجرى المثل بالنسبة للمثل ذاته ؛ فهناك (مَثَلٌ) وهناك (مايجري مجراه) مما لايصح تسميته مثلاً ؛ لأنه ليس بذي مورد ومضرب ، لكنه أخذ معنى المثل وفكرته وحِكمته ؛ حينما صِيغ في كلام متّسق فصار مُشبهاً المثل؛ وليس به ولا بقوته ، غير أنه استمد شيئاً في طبيعة تركيبه وقوته في مضمون المعنى والحكمة من طبيعة المثل في ذلك حتى صار الاستشهاد به أو تضمينه في دَرْج الكلام في القوة الثانية بعد قوة المثل . وما يجري مجرى الالتفات ليس بالالتفات أصلاً وحقيقة - كما ذكرت من قبل - ، لكنه استمد بعض صوره وصِيَغه الخطابية والكلامية والغَيبية من الالتفات ،فتعاورت فيه هذه الصيغ فيما بينها تعاوراً وتقابلاً ليس بالصريح الواضح صراحةً ووضوح فن (الالتفات) ذاته ؛ بصيغته الصريحة المعروفة ذات الدلالة المباشرة في صور الخطاب والغيبة والتكلم ، وما بينها من أوجه التقابل .
وإذْ قد عرفت ذلك فقد بدا التناقض واضحاً لدى التبريزي في معالجته فن (مايجري مجرى الالتفات) ، واضطرابه في تحديد المصطلح بين فن (الالتفات) و (مايجري مجراه) ؛ على نحو مامرّ في عبارتيه الآنفتي الذكر ؛ في شرح البيت وبيان معناه ؛ لقد قال أولاً عن قوله : (نفسي فداؤك ...) : إنه جار مجرى الالتفات ، ثم قال عنه إنه : « التفت إليه ...» ؛ هكذا بذكر المصطلح الفني الصريح ، بعد أن قال فيه : إنه جار مجرى الالتفات ! .

ومن عجب أنه قد يذكر أحياناً مصطلح (مايجري مجرى الالتفات) بمصطلحه الدقيق ودلالته الحقيقية ، وأنه فن آخر غير فن (الالتفات) - وإن كان مبنياً عليه متفرعاً عنه - ؛ اقرأ قوله وتعليقه على قول جابر التغلبي:

١٢- وكانوا هُمُ البانين قبْلَ اختلافهم * ومَنْ لايَشِدْ بنيانه يتهدّم

حيث قال في شرح هذا البيت : « ... أي كانت تغلب قبل وقوع الخلاف بينهم يبتنون المكارم، ويتعاونون على اكتساب المعالي، ولا يتضاغنون . ثم قال : (ومن لايشد بنيانه يتهدم) . وهذا يجري مجرى الالتفات .»[١٥٠]

هذا هو كلام التبريزي- ونقله عن المرزوقي أيضاً - وقد نُصّ فيه - كما ترى - على مصطلح (مايجري مجرى الالتفات) نصاً صريحاً ، وكان المرزوقي والتبريزي هنا واضحين صريحين ، فلم يتناقضا مع نفسيهما في المصطلح أو تحديده أو تختلط عليهما مفهومات المصطلحين كما تناقضا فيه واختلط عليهما في البيت الأول .

ومصدر الإصابة والدقة في عدِّ المرزوقي والتبريزي قولَ جابر التغلبي مما يجري مجرى الالتفات وليس من صريح الالتفات - أن الأسلوب في البيت قد تحوّل من أسلوب غيبة إلى صيغة أخرى أشبه بصيغة الخطاب وإن لم يكن خطاباً صريحاًمباشراً ، وهذا مايفهم من قوله :(ومَنْ لايَشد...) ، فكلمة :(ومَنْ..) تشير بأن عند الشاعر مخاطَبين يتوجّه إليهم بالخطاب، مع أنه قد يكون عنده مخاطبون من قومه أو سواهم ، وقد لايكون عنده أحدٌ ألبتة، فهو على إطلاقه عموم كلام موجّه هو أشبه بالخطاب إلى كل عاقل .

هذا هو التحديد الدقيق والمفهوم الواضح لفن مايسمّى : (مايجري مجرى الالتفات) لا ماتناقض فيه التبريزي والمرزوقي وخلّطا في بيت تأبط شراً الآنف ذكره ودراسته .

ولئن كان التبريزي مصيباً ودقيقاً في تحديد مفهوم مصطلح (مايجري مجرى الالتفات) في بيت جابر التغلبي ، وكان مخلِّطا متناقضاً في تحديد مفهوم هذا

---

(١٥٠) شرح اختيارات المفضل ٩٤٧/٢ وحاشيتها.

المصطلح في بيت تأبط شراً فإن ذلك مردّه إلى إصابة المرزوقي ودقته في تحديد هذا الفن في بيت جابر ، وإلى تناقضه كذلك في تحديده في بيت تأبط شراً ؛ لأن التبريزي عالة على المرزوقي في شرح البيتين كليهما!.

ولئن عُذِر التبريزي في ذلك ؛ لأنه ناقل، ولأنه لغوي أكثر منه أديب ناقد بلاغي فإن المرزوقي لايعذر ؛ لأنه الأصل المنقول عنه ، ولأنه - وإن كان لغوياً كذلك - أكثر أدباً وأعمق حِساً وفناً من التبريزي.

وإن كان للمرزوقي من عذر يُلْتَمس له ويخفف عنه هذا الغلط والتناقض والتخليط فإنما هو في طبيعة الرجل نفسه ؛ من جهة كونه لغوياً نحوياً أديباً ، وليس ناقداً بلاغياً متخصصاً يعنيه مايعني المتخصصين؛ ويفهم من أسرار البلاغة والنقد مايعالجه ويفهمه المقتصرون على هذا الفن . ثم إن نضج المصطلحات البلاغية في وقته كان أقل ، فلعل له بعض العذر في ذلك .

ولم يقف الأنباري عند بحث فنّ (مايجري مجرى الالتفات) أو يشر إليه في البيتين معاً ؛ ولذلك فقد سلم من التخليط فالتناقض الذي وقع فيه المرزوقي والتبريزي!.

- قال الحصين بن الحمام :

جزى الله عنّا عبدَ عمرو ملامةً * وعدوانَ سَهْم ماأدقّ وألأما

قال التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - : « ... و(ماأدقّ وألأما) يجري مجرى الالتفات . والمراد: أمر عظيم سلّمكم للدِّقة واللؤم ياقوم»[(١٥١)]

ولم يقف الأنباري عند هذا البيت بشيءٍ حول هذا الفن!.[(١٥٢)]

ولعل مراد التبريزي والمرزوقي في جريان مثل هذا الكلام مجرى فن(الالتفات) أنه صار بمعنى الخطاب بعد أن كان كلامه الأول في معرض الدعاء بصيغة الغيبة ؛

---

(١٥١) شرح اختيارات المفضل ٢٤٣/١ وحاشيتها.

(١٥٢) انظر شرح المفضليات ١١٨.

في قوله في الشطر الأول من البيت ، ثم ظاهر كلامه في الشطر الثاني منه الدعاء بحال الغيبة أيضاً بمقتضى العطف ظاهراً على جملة الشطر الأول ، لكن باطن الأمر بعد التأمل يحمل الاستئناف وقطع الشطر الثاني عن الأول ؛ ليصف الشاعر أولئك القوم بالحرص والأنانية واللؤم بعد أن دعا على عبد عمرو في الشطر الأول ؛ يدل على هذا ويؤكده تفسير التبريزي المعنى المراد من الشطر الثاني؛ حيث ورد هذا التفسير بصيغة الخطاب؛ حين قال:« والمراد : أمر عظيم سلّمكم للدقة..» ؛ ولذلك وصف المرزوقي والتبريزي هذا التركيب البلاغي في قوله :(... ماأدق وألأما) بأنه جار مجرى الالتفات ؛ لأن الدلالة الظاهرة في البيت لاتفيد الالتفات ، بل توحي ظاهراً بأن الكلام جار على وتيرة واحدة؛ هي الغيبة؛ بمقتضى العطف في قوله في مطلع الشطر الثاني:(وعدوانَ سهم ماأدق....) ، إلا أنه بالحمل على القطع والاستئناف، وبالرجوع إلى التفسير الوارد للمعنى المراد للشطر الثاني يفيد الكلامُ التَّحوُّلَ من الغيبة إلى الخطاب، وهذا التحول في الكلام من حال إلى حال بطريق : (الغيبة أو الخطاب أو التكلم) هو مدار فنّ الالتفات ؛ ولذلك قال: بأنه جار مجرى الالتفات ؛ لأنه لايدل على فن الالتفات بل الظاهر بمقتضى العطف أنه لاالتفات -كما رأيت - ، وإنما دلّ الكلام على الالتفات بجريانه مجراه بدلالة فحوى القطع عن العطف ، وبدلالة التفسير لهذا التركيب تفسيراً مبنياً على القطع والاستئناف على نحو ماسبق بيانه .

- وقال عمرو بن الأهتم:

٥ - لقد أَوْصيتُ رِبْعِيَّ بنَ عمرو * إذا حزبتْ عشيرتكَ الأمورُ

٦ - بأنْ لاتُفسِدَنْ ماقد سعينا * وحِفظُ السُّورة العلْيا كبيرُ

نبّه التبريزي على تحوّل الشاعر في كلامه من الخطاب إلى حال أخرى هي أشبه بالغيبة . ولما كانت هذه الحال المُتَحوَّل إليها ليست حال غَيبة محضة عبّر

التبريزي عن ذلك بأنه مما يجري مجرى الالتفات ؛ أي ليس التفاتاً محضاً وإنما هو مما يجري مجراه ؛ لأن حال التحول - كما ذكرت - لم تكن إلى حال غيبة محضة، ولكنها أشبه بحال الغيبة وليست بها على الحقيقة؛ قال التبريزي في ذلك:

« و(حفظ السورة) يجري مجرى الالتفات . والسُّورة : المنزلة .»(١٥٣)

ولو تأملت لوجدت أن في البيتين التفاتتين صريحتين قبل أن يأتي مايجري مجرى الالتفات في آخر البيت الثاني ؛ فقد تحوّل الشاعر ملتفتاً من التكلم في قوله:(لقد أوصيتُ...) إلى الخطاب في قوله : (حزبتْ عشيرتكَ...) ، وفي قوله : (لاتفسدن...) ثم عاد فالتفت من الخطاب إلى التكلم بصيغة الجمع في قوله :(ماقد سعينا)، ثم أخيراً تحول من ذلك كله إلى مايشبه الغيبة في قوله :(وحفظ السورة العليا كبير) على نسق مايجري مجرى الالتفات . ولكن فات التبريزي التنبيه إلى هاتين الالتفاتتين الصريحتين واكتفى ببيان مايجري مجرى الالتفات في الشطر الثاني من البيت الثاني بالنسبة لما قبله ؛ على نحو ماسبق إيضاحه.

ولم ينبّه الأنباري إلى مافي البيت من التفاتات صريحة أو غير صريحة مما يجري مجراه!.(١٥٤)

- وقال آخر:

١ - داوِ ابنَ عمِّ السُّوءِ بالنأيِ والغِنى * كفى بالغنى والنأيِ عنهُ مُداويـا

خاطب الشاعر أولاً بقوله:(داو ابنَ عم السوء بالنأي والغنى) ، ثم انتقل من الخطاب إلى صيغة شبيهة بصيغة الإخبار أو هي إخبار؛ وذلك في قوله بعد: (كفى بالغنى والنأي عنه مداويا)؛ وهذا الإخبار يعني صيغة الغيبة ويحتملها ؛ فيكون الانتقال من خطاب إلى إخبار بطريق الغيبة . ولكون الخطاب في قوله : (داو ابنَ عمِّ السوء...) خطاباً غير مباشر أو صريح؛ لأنه بصيغة الأمر الذي يصح أن يكون خطاباً لكل أحد ممن يعنيه هذا الأمر ويحسن له الأخذ بهذه الحكمة التي تضمنها هذا البيت ، و لأن الخطاب كان بهذه الصيغة واحتمل هذه الطبيعة ساغ أو

---

(١٥٣) شرح اختيارات المفضل ١٦٤٥/٣.

(١٥٤) انظر شرح المفضليات ٨٣١، ٨٣٢.

صحّ أن يُطلق عليه المرزوقي - مع مابعده من إخبار في الشطر الثاني- مصطلحَ مايجري مجرى الالتفات ؛ يقول المرزوقي في ذلك :

« يقول: عالج مابينك وبين ابن عم السوء من التضاغن والتباين والتغايظ والتحاسد بالبعد منه ، والاستغناء عنه. ثم قال : وكفى بهما من مداوٍ معه . وهذا يجري مجرى الالتفات . وهو تنبيه على أنهما الغاية فيم يُحسَم به شرّه ، ويدفع به ضيْره.»(١٥٥)

وكما بيّن المرزوقي أن هذا التركيب الذي تضمنه الشطر الثاني من البيت مما يجري مجرى الالتفات بيّن كذلك أنه مما يجري مجرى التأكيد لما دعا إليه في الشطر الأول ؛ يقول المرزوقي:

« والكلام يجري أيضاً مجرى التأكيد فيما دعا إليه ، والتحقيق لغناءِ ماأشار به.»(١٥٦)

ولقد أجاد المرزوقي في بيانه عن هذا الفن وأصاب في الحكم؛ حين عدّه مما يجري مجرى الالتفات ، وحين عدّه أيضاً مما يجري مجرى التأكيد لما تضمنه الشطر الأول من دعوة دعا إليها بطريق خطاب الأمر.

أما التبريزي فلم يشر إلى ماتضمنه البيت من فن (مايجري مجرى الالتفات)!.(١٥٧)

- وقال المقنّع الكندي:

٩ - ولا أحملُ الحِقدَ القديمَ عليهمُ * وليس رئيسُ القومِ مَنْ يحمل الحقدا

قرّر المرزوقي أن قوله في الشطر الثاني:(وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا) تركيب جار مجرى الالتفات؛ وذلك بالنسبة لما ورد في الشطر الأول من أسلوب جاء بصيغة التكلم ، ولكن المرزوقي يرى أن صورة الانتقال بين التركيبين كانت من تكلم

---

(١٥٥) شرح ديوان الحماسة١/٢٩٢.

(١٥٦) شرح ديوان الحماسة١/٢٩٢، ٢٩٣.

(١٥٧) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٨٣.

إلى خطاب غير مباشر أوصريح ؛ فالخطاب عنده مبني على التصور أو التخيل بأن هناك مخاطباً أقبل عليه الشاعر فقال بعد كلامه عن نفسه :(وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا)؛ ولذلك عدّه مما يجري مجرى الالتفات وليس بالتفات صريح ؛ يقول المرزوقي :

« وقوله : (وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا) يجري مجرى الالتفات ؛ كأنه أقبل على مخاطب فقال: إني لاأتجمَّل بترك مؤاخذتهم ، واطّراح الحقد في مساوقتهم فإن الرئيس يحب لتَبَعه ذلك عليه في شروط الرياسة.»[١٥٨]

ولم يتحدث التبريزي عن هذا الفن ولا غيره في هذا البيت بشيء!.[١٥٩]

وليس هناك مايمنع أن يكون الانتقال في البيت من تكلم إلى إخبار بطريق الغيبة؛ فيكون من فن (الالتفات) الصريح المباشربدل أن يُتَكلَّف الأمر ؛ بأن يُبنى على التصور والتخيل لمخاطب يقبل إليه الشاعر فيقول له : (وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا)، ثم يقال: إنّ هذا من فن (مايجري مجرى الالتفات)، مع أن في الأمر سعة ومندوحة عن ذلك ؛ بأن يكون من فن (الالتفات) ذاته لا مايجري مجراه؛ لأن مابني على التخيل والتقدير لايسوغ أن يُصار إليه مع إمكان مالايحتمل تخيلاً ولا تقديراً مما يلائم الحقيقة والواقع!.

- **قال دودان بن سعة:**

مِن الأبْعد الأقصى وإن كان ذا ندى * كريماً ولم يخبركَ مِثْلُ مُجرِّبِ

عدّ العبيدي قول الشاعر:(ولم يخبركَ مِثْلُ مجربِ) مما يجري مجرى الالتفات،

---

(١٥٨) شرح ديوان الحماسة٣/ ١١٨٠، ١١٨١.

(١٥٩) انظر شرح ديوان الحماسة٣/ ١٧٣.

وذكر أن الغاية البلاغية لهذا التركيب الجاري مجرى المثل هنا هي : توكيد الخبر الذي ساقه الشاعر وقرره في البيت الأول؛ وهو قوله:

ألا إنَّ رَهْطَ المرء خيرُ بقيَّةٍ * عليه وإنْ عالوا به كُلَّ مركبِ

ومراده بهذا التوكيد الذي تضمنه هذا التركيب: أن يُثبت الشاعر بالتحقيق أن ماقاله سابقاً – في البيت الأول المذكور آنفاً وصدر البيت الذي تضمن هذا التركيب – إنما صدر عن تجربة وخبرة لاعن سماع وخبر.(١٦٠)

وعَدُّ العبيدي هذا التركيب ؛ (ولم يخبركَ مثل مجرب) مما يجري مجرى الالتفات صحيح ؛ لأن التحول في هذا التركيب كان من إخبار بطريق الغيبة إلى خطاب غير مباشر ولا صريح ؛ فهو لايخاطب أحداً بعينه ، وإنما يخاطب كل أحد بهذه الحكمة التي تضمنها هذا التركيب الجاري مجرى المثل ؛ فصح لذلك أن يكون تركيباً جارياً مجرى الالتفات ؛ لعدم مباشرة الخطاب فيه وصراحته في التوجّه إلى واحد بعينه.

ثالثاً - أحوال المسند:

هذا هو المبحث الثالث من مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية.

ويتناول البحث في هذا المبحث المباحث الجزئية التالية:

أ – حذفه وذكره.

ب – تقديمه وتأخيره.

ج – تقييد الفعل بأدوات الشرط.

د – الجملة الفعلية والاسمية.

وسأتناول- بإذن الله تعالى - عرض هذه المباحث ودراستها في جانبها التطبيقي عند شارحي الاختيارات الشعرية حسب النماذج التي أجدها لهم في هذه المباحث من خلال وقفاتهم البلاغية أثناء شروحهم الأبيات الشعرية:

---

(١٦٠) انظر شرح المضنون به على غير أهله٨٦ ، ٨٧ .

أ - حذف المسند وذكره:

يحذف المسند كما يحذف المسند إليه وللعلل البلاغية التي تكون لحذف المسند إليه أيضاً ؛ من تخييل العدول إلى أقوى الدليلين ، ومن اختبار تنبه السامع عند قيام القرينة ، أو الاختصار ، أو الاحتراز عن العبث ، ونحو ذلك مما يقتضيه المقام وتدل عليه قرائن السياق والأحوال.(١٦١)

أما ذكر المسند فيذكر كما يذكر المسند إليه ، لنكت بلاغية يرومها المتكلم ؛ مثل : زيادة التقرير، أو التعريض بغباوة السامع ، أو الاستلذاذ، أو التعظيم ، أو الإهانة ، أو الدلالة على الثبوت إذا كان المسند إسماً، أو الدلالة على التجدد إذا كان فعلاً ، أو احتماله الثبوت أو التجدد إذا كان ظرفاً ، أو نحو ذلك مما يقتضيه المقام وتشير إليه قرائن السياق والأحوال.(١٦٢)

ولم أجد في شروح الاختيارات الشعرية نماذج تطبيقية صريحة لحذف المسندأو ذكره؛ فالشرّاح لايذكرون مصطلح (الإسناد) كُلّيةً فهم لايذكرون مصطلح : (المسند إليه) أو (المسند) أو ذكرهما وحذفهما، والنكت البلاغية للذكر أو الحذف . ولكن هناك بعض النماذج القليلة التي يمكن عرضها هنا ودراستها على أنها نماذج تطبيقية غير مباشرة ، لعدم نَصّ مَن وردت عندهم على مصطلح المسند وذكره أو حذفه ، وإنما يذكر الشارح في بعض الشواهد أن الخبر محذوف أو مضمر ، وقد يذكر علة الحذف أو نكتته البلاغية أو يهملها!.

وما ينطبق على مبحث حذف المسند وذكره ينطبق على بقية مباحثه المذكورة آنفاً ؛ أعني من جهة عدم نَص هؤلاء الشّراح على المصطلحات البلاغية لهذه المباحث، ومن حيث طريقتهم في دراسة هذه المباحث ؛ من خلال النماذج التي تعرّضوا لهذه المسائل فيها .

---

(١٦١) انظر الإيضاح ١٦٩ - ١٧٥.
(١٦٢) انظر الإيضاح ١٧٥.

وإليك نماذج من بحثهم لحذف المسند وفق منهجهم الذي ذكرته:

قال جُبَيهاء الأشجعي:

٦ - فويلُ أمِّها كانت غَبُوقةَ طارقٍ * تراسى به بِيدُ الإكام القراوحُ

يرى التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - أن جملة : (ويل أمّها) مبتدأ محذوف الخبر، وأن حذفه جاء لنكتة التعجب ؛ فقال في ذلك :

« ... وقال هذا : (ويلُ أمِّها) فأضمر الخبر ، كأنه قال: ويلُ أمها حاصلٌ ، على طريق التعجب . وذِكْر الويل هنا كذكر القتال في قولهم: قاتله الله ماأشجعه، وما أفرسه.»(١٦٣)

ولا أرى في حذف المسند وهو الخبر المضمر: (حاصل) مايفيد نكتة التعجب أو يشير إليه - كما قد يُفهم من عبارة المرزوقي والتبريزي الآنفة الذكر- ، لكن التعجب حاصل من معنى التركيب الذي تضمن جملة المبتدأ والخبر ودلالته كله ، مع دلالة نظم البيت كله أيضا، ولذلك قاسه بتركيبين آخرين؛ حين جعل ذكر الويل هنا كذكر القتال معهما ؛ وهما قولهم: قاتله الله ماأشجعه؛ وما أفرسه . أما أن يكون هذا المسند المحذوف المقدّر بقوله: (حاصل) يدل في ذاته على التعجب أو تكون النكتة البلاغية لحذفه نكتة التعجب فذلك غير صحيح ولا يستقيم هنا. والصحيح أن نكتة حذفه هنا : الاختصار ، والاحتراز عن العبث؛ لضيق المقام واعتبار الوزن الشعري، وتيسّر العلم به من دلالة السياق.

وقد أشار الأنباري إلى أسلوب المدح في هذه الجملة: (ويل أمها) ، وإلى أسلوب التعجب فيها دون أن يشير إلى حذف الخبر- كما فعل المرزوقي والتبريزي -؛ قال الأنباري: « العرب تقول للرجل: ويلُ أُمِّه وويلِ أُمِّه : تمدحه بذلك ؛ ويلُ أمِّه ماأشجعه ، ماأحذقه، ويروى : ويلُ أمِّها ، قوله : وويلُ أُمِّها : يتعجب منها .»(١٦٤)

وبين التمدح والتعجب علاقة ؛ من جهة أن مايمتدح به شخص قد يكون مصدر

---

(١٦٣) شرح اختيارات المفضل ٢/٧٨٥ وحاشيتها .

(١٦٤) شرح المفضليات ٣٣٢.

تعجب ، وأنّ مايتعجب منه قد يكون سبب امتداح.

لكن الأنباري حين جمع بين المدح والتعجب فإنما أراد أنّ هذا التركيب ؛ (ويل أمها...) يدل عليهما ؛ ولذلك قاسه بما قاسه عليه المرزوقي والتبريزي ؛ من تراكيب مماثلة تدل على التعجب. ولم يُرد الأنباري أن المدح أو التعجب كان من بلاغة الخبر المحذوف أو المسند المضمر كما قد يُفهم من كلام المرزوقي والتبريزي في جملة المبتدأ والخبر المقدر.

وهكذا - كما رأيت - لم يكن للتبريزي والمرزوقي جهد صريح واضح في دراسة حذف المسند هنا ، ولا في ذكر غرضه البلاغي ، إلا من جهة قولهما : إن الخبر مضمر ، وتقديرهما إيّاه . وهذا بعيد عن البحث البلاغي الذي يُعنى بذكر المصطلحات البلاغية ووجوه بلاغاتها وأسرارها !.

أما الأنباري فلم يتكلم ولو على الخبر المحذوف وتقديره !.

- وقال الأخنس بن شهاب:

١٨ - ونحنُ أناسٌ لاحِجازَ بأَرْضنا * مع الغيث مانُلْقى ومَنْ هو غالبُ

قال الأنباري - عن أبي عكرمة - : « قوله : (لاحجاز بأرضنا) أي نحن مُصحرون لانخاف أحداً فنمتنع منه . وقوله : (مع الغيث مانُلقى) أي كلما وقع الغيث في بلد صرنا إليه وغَلَبْنا عليه أهلَه : أراد :مع الغيث نُلقى ، وجعل(ما) صلة. وقوله : (من هو غالب : أي من هو غالب كذلك ؛ فأضمر الجواب.»[١٦٥]

فالخبر أو الجواب أو المسند مضمر أو محذوف.

وورد عند التبريزي برواية (مانُلفى) ، وساق كلام الأنباري الآنف ذكره - في شرح البيت وتقدير الخبر- بنصه ، إلا أنه قال بدل قول الأنباري: (فأضمر الجواب) : (فأضمر الخبر)![١٦٦]

وهكذا - عندهما معاً - كان البحث في (حذف المسند) ؛ من غير ذكر

---

(١٦٥) شرح المفضليات ٤١٨.

(١٦٦) انظر شرح اختيارات المفضل ٢/٩٣٣.

لمصطلح الإسناد أو المسند أو الغرض البلاغي لحذف المسند أو الخبر أو الجواب!.

وغرض حذف المسند في بيت الأخنس بن شهاب هو الاختصار والاحتراز عن العبث؛ لوجود قرينة تدل عليه بناءً على الظاهر ، كما أن هناك غرضاً أو مسوغاً آخر لهذا الحذف ؛ هو ضيق المقام ؛ لضرورة الشعر وتعديل الوزن الشعري في القافية والروي .

- وقال البَعيثُ بن حُرَيث:

١ - خيالٌ لأم السلسبيل ودونها * مسيرة شهرٍ للبريدِ المُذَبْذَبِ

قال المرزوقي في شرح البيت وتقدير الخبر المحذوف :

« خبر الابتداء محذوف ؛ كأنه قال: خيال لهذه المرأة أتاني أو زارني وبيني وبينها مسيرة شهر للبريد المسرع المتعجِّل . كأنه استطرف من الخيال ماكان يستطرفه من المرأة لو زارتْ.»(١٦٧)

فالمسند - وهو الخبر المقدر هنا - محذوف ، وعلة حذفه بلاغةً : طلب الاختصار والاحتراز عن العبث بذكره صراحةً مع العلم به ، لدلالة البيت الذي بعده عليه ، وهو:

فقلت لها أهلاً وسهلاً ومرحباً * فردّتْ بتأهيل وسَهْل ومَرْحَبِ

ولا يكفي في الكلام على حذف المسند وذكر علة حذفه أن يقول المرزوقي:إن خبر المبتدأ محذوف ويُقدِّره دون أن يبيّن أن هذا الخبر المحذوف هو المسند وأن ينص على العلة البلاغية لحذفه ؛ لأن هذا قصور في البحث البلاغي .

وقد جرى التبريزي على شاكلة المرزوقي ؛ فنقل عنه تقدير الخبر المحذوف بنصّه دون ذكر لمصطلح (المسند) ، أو الغرض البلاغي لحذفه!.(١٦٨)

---

(١٦٧) شرح ديوان الحماسة١/٣٧٧.

(١٦٨) انظر شرح ديوان الحماسة١/٣٥٢.

- وقال آخر:

٣ - قُلْ للذي عابها من عائب حَنِقٍ * أقْصِرْ فرأسُ الذي قد عِيبَ والحجرُ

قدر المرزوقي الخبر محذوفاً في قوله : (فرأس الذي قد عيب والحجر) ؛ فقال: « وعطْف الحجر على الرأس على أحد وجهين : إما أن يريد: رأسُه والحجرُ مقرونان على طريق الدعاء لا الإخبار؛ فحذف الخبر لأن المراد مفهوم ؛ وهذا كما يقال : كل امرىء وشأنه ، وإما أن يريد بالواو معنى مع ؛ كأنه قال : رأسه مع الحجر ؛ وحينئذٍ يكون الخبر في الواو ، وهذا يكون كقولهم : الرجال وأعضادها ، والنساء وأعجازها ؛ لأن المراد : الرجال بأعضادها ، والنساء بأعجازها .»[١٦٩]

وأورد التبريزي هذا الكلام بنصه مع تصرف يسير جداً فيه !.[١٧٠]

وإذا كان حذف الخبر لايوقع في لبس ؛ لأن المراد بعد حذفه مفهوم جاز حذفه . وهذا مانص عليه المرزوقي حين قال : « فحذف الخبر ؛ لأن المراد مفهوم » ؛ فلقد نص المرزوقي على العلة البلاغية والنحوية لحذف الخبر أو المسند هنا ، لكنه لم ينص على مصطلح (المسند) الذي هو الخبر المحذوف .

ولم أجد نماذج تطبيقية لحذف المسند عند النمري في شرح الحماسة ، ولا أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، والمرصفي في شرح

---

(١٦٩) شرح ديوان الحماسة٤/١٨٧١، ١٨٧٢ .

(١٧٠) انظر شرح ديوان الحماسة٤/٣٦٣.

الحماسة.(١٧١)

أما ذكر المسند فلم أجد نماذج له عند الجميع ؛ فلم أجد له نماذج صريحة بذكر المصطلحات عند الأنباري والتبريزي في شرح المفضليات ولا المرزوقي والتبريزي في شرح ديوان الحماسة ولا النمري والمرصفي في شرح الحماسة أيضا ، كما لم أجد له نماذج عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات .

ب - تقديمه وتأخيره:

من أحوال المسند التي تعتريه تقديمُه خلافاً للأصل ، لنكتة بلاغية أو تأخيره حسب الأصل ، ولا مقتضى للتقديم.

ومن النكات البلاغية التي يحققها تقديم المسند: تخصيصه بالمسند إليه. والتفاؤل . والتشويق إلى ذكر المسند إليه (١٧٢) وغير ذلك من الأغراض والمقاصد البلاغية التي قد يقتضيها المقام أو يدل عليها السياق وقرائن الأحوال.

ولم يكن لأصحاب الشروح كلها جهود صريحة واضحة في بحث تقديم المسند أو تأخيره؛ شأنهم في ذلك شأنهم في مباحث المسند كلها ، أو المسند إليه ، أو مباحث الإسناد إجمالاً ؛ ذلك بأنهم يتناولون هذه المباحث تناولاً عاماً يفتقر إلى ذكر

---

(١٧١) تحدث ابن النحاس في مواضع من شرح بعض أبيات المعلقات عن حذف الخبر؛ فقال : إن الخبر في قول طرفة مثلاً :

٩٧ - لعَمرُكَ ما أمري عليَّ بِغُمَّةٍ * نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

- محذوفٌ . وذكر تقديره ، وعلة الحذف ؛ قال:« .. وعَمرك : مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف ، لعلم السامع ، والمعنى : لعمرك قسمي.» شرح القصائد المشهورات ٩٣/١ ، وانظر نماذج لحذف الخبر عنده - على هذا النهج - في ١٢٤/١، ١٣١/٢، ١٣٢.

فالمسند في هذا النموذج هو الخبر ، وقد حذف اختصاراً ؛ للعلم به ؛ لكن ابن النحاس لايذكر مصطلح الإسناد - بأن يذكر المسند -، وحذفه ، والعلة البلاغية لذلك الحذف . والكلام على الخبر أو الفعل وحذفهما لايجدي في البحث البلاغي دون النص على مصطلح المسند، وما يلزم الحديث عنه من مصطلحات بلاغية !.

(١٧٢) انظر الإيضاح ١٩٣. وانظر البلاغة فنونها وأفنانها ١٧٠ - ١٧٣.

المصطلحات البلاغية أو ذكر الأغراض البلاغية التي تكمن وراء التعبير بها ، وذلك أهم شيء يمكن الاستناد عليه في البحث البلاغي!.

وسأعرض بالدراسة ماوجدته من نماذج عند هؤلاء الشراح يمكن عدّها من مبحث تقديم المسند أو تأخيره :

- قال مُزرِّد بن ضرار:

وعندي إذا الحربُ العوانُ تلقّحتْ * وأبْدتْ هواديها الخطوبُ الزَّلازلُ

طِوال القَرا قد كاد يذهب كاهلاً * جوادُ المدى والعَقْبِ والخَلْقُ كاملُ

قال التبريزي – عن المرزوقي-: « ... وقال: (عندي): يريد أن عيشه من الغارة ، وهمّه إعداد آلاتها. ثم أخذ يذكرها واحداً بعد واحد، ويصفها بأبلغ نعوتها إيذاناً بمعرفته بها وممارسته لها.» .ثم قال مبيناً المبتدأ من الخبر، وموضحاً معنى البيت :

«..و(طوال القرا) مبتدأ ، و(عندي) من البيت الأول : خبره . والمعنى : إذا اشتدّ الزمان عندي فرسٌ مديد القامة طويل الظهر ، أغلب شيء عليه ارتفاع كاهله.»[١٧٣]

وقد اكتفى التبريزي والمرزوقي بالتنبيه على مسألة التقديم والتأخير في البيتين دون أن يذكر المصطلح البلاغي الذي يؤول إليه كل من المقدَّم أو المؤخر بل دون نص على مصطلح التقديم أو التأخير فكيف بذكر مصطلح (المسند) أو (المسند إليه) ؛ ومحاولة التعريف بهما؛ ومن ثمَّ التماس الغرض البلاغي لتقديم المسند وتأخير المسند إليه !.

إن في البيتين تقديماً وتأخيراً – كما أشارا – ؛ تقديم المسند؛ وهو الخبر ؛ (عندي) ، وحقه التأخير ، وتأخير المسند إليه ؛ وهو المبتدأ ، (طوال القرا)، وحقه التقديم؛ لأنه بحكم المبتدأ؛ إذ هو صفة لموصوف محذوف هو المبتدا في الأصل؛ وهو (فرسٌ) وتقدير الكلام(وعندي فرس طوال القرا) بل التقدير بعد مراعاة الأصل في التقديم والتأخير :(وفرس طوال القرا عندي).

---

(١٧٣) شرح اختيارات المفضل ٤٥٣/١، ٤٥٤، وحاشيتيهما.

أما الغرض البلاغي من تقديم الشاعر المسند على المسند إليه هنا فيتمثل في الأهمية، وتوكيد فخر الشاعر بنفسه ، وإثبات خبرته وتجربته في الغارات ، وأن معيشته متوقفة على هذه الغارات ، وهمُّه إعداد آلاتها التي أخذ في ذكرها وتعدادها، وفي وصفها بأبلغ نعوتها مُدِلاً بمعرفته بها وممارسته إياها!.

ولم يشر الأنباري إلى شيء مما يمت إلى مبحث تقديم المسند هنا[(١٧٤)]

- قال عامر بن الطفيل:

فلو كان يُغني أن يُرى المرءُ جازعاً * لحادثةٍ أو كان يغني التذلُّلُ

لكان التعزيّ عند كلّ مصيبةٍ * وحادثةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ

فكيف وكلٌّ ليس يَعدو حِمامَهُ * ومالامرئٍ عما قضى اللهُ مَزْحَلُ

في البيت الثاني تقديم وتأخير ؛ وتقدير الكلام : لكان أولى بالحر وأجملُ التعزِي.

أشار إلى ذلك العبيدي أثناء شرحه الأبيات ، لكنه لم يذكر مصطلح المسند؛ وأنه واقع هنا : خبر كان ؛ وهو (التعزي)، كما لم يذكر العلة البلاغية لتقديم المسند![(١٧٥)]

والعلة البلاغية لتقديم المسند هنا هي : التوكيد على أهمية الصبر والتعزي والتسلي، وأنه أجدر شيء يليق بالإنسان وأجمله، مع مايقتضيه وزن الشعر وقافيته من حاجة لتقديمه وتأخير المسند إليه إلى آخر البيت .

- وقال أبو هلال العسكري:

فتىً على نَفْسِهِ من نفسه رَصَدٌ * يَصُدُّهُ أنْ يَطورَ الشين والذاما

---

(١٧٤) انظر شرح المفضليات ١٦٤.

(١٧٥) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٤١، ٤٢.

قال العبيدي : « ... ورصدٌ : مبتدأ . وتقديم الخبر مخصص له ، ويصدّه : صفة رصد ؛ يقول : هو فتىً له رصدٌ ورقيب على نفسه من نفسه يمنعه من أن يقرب ويصل إليه القبحُ والعيب ، ولا يكون رقيب خارج من نفسه بل فطرته مجبولة على أن يمنع الخصال الذميمة والفعال القبيحة من نفسه .»(١٧٦)

لقد قدّم الشاعر المسند ؛ وهو الخبر ؛ أي قوله : (على نفسه من نفسه) على المسند إليه ؛ وهو المبتدأ ، قوله :(رصَدٌ) ، وسرّ ذلك التقديم وبلاغته هو ماأشار إليه العبيدي في قوله : (وتقديم الخبر مخصص له) ؛ أي أنه لإفادة تخصيص المسند- وهو الخبر ؛ (على نفسه ..) - بالمسند إليه - وهو المبتدأ ؛ (رصد) - ؛ أي تخصيص نفس هذا الشخص الممدوح وذاته ليكون رصداً على نفسه.

ومزية بحث العبيدي هنا تكمن في إشارته إلى الغرض البلاغي لتقديم المسند؛ لكنها إشارة لغوية نحوية لم ينص فيها على أن هذا غرض بلاغي لتقديم المسند على المسند إليه !.

تلك هي النماذج التطبيقية التي وجدتها لأصحاب الشروح في تقديم المسند؛ وهي جهود ضعيفة غير صريحة بذكر المصطلحات البلاغية؛ كما رأيتها عند الأنباري والتبريزي في شرح ديوان المفضليات ، وعند العبيدي في شرح المضنون به على غيرأهله !.

أما بقية الشرّاح فلم أجد لهم شيئاً مما يمكن ذكره في هذا الشأن ، فلم أجد لأبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، أو النمري أو المرزوقي أو التبريزي أو المرصفي في شرح ديوان الحماسة - شيئاً يمت بصلة لمبحث تقديم

---

(١٧٦) شرح المضنون به على غير أهله ١٥٣ ، ١٥٤.

المسند ، وعلة ذلك التقديم من الوجهة البلاغية !.

أما فيما يخص مبحث تأخير المسند فلم أجد لشرّاح الاختيارات الشعرية جميعهم شيئاً فيه!.

ج - تقييد الفعل بأدوات الشرط:

من مباحث أحوال المسند : تقييد الفعل بالشرط ؛ وذلك لأن الفعل حدث يُمثِّل إسناد المسند إلى مسند إليه ؛ من فاعل ونحوه.

قال القزويني:« وأما تقييده بالشرط فلاعتبارات لاتُعرف إلا بمعرفة مابين أدواته من التفصيل. وقد بُيِّن ذلك في علم النحو ، ولكن لابد من النظر هاهنا في (إن) و(إذا) و(لو).»[(١٧٧)]

وذكر أنّ أداة الشرط(إن) و(إذا)لتحقيق الشرط في المستقبل إلا أن الأصل في(إن) أن تكون في شيء غير متيقّن أو غير متحقق الوقوع؛ كقولك لآخر:(إن تكرمني أكرمك) وأنت لاتقطع بأنه سيكرمك. أما الأصل في (إذا) فأن يكون جوابها في شيء متحقق الوقوع متيقّنه؛ كقولك : (إذا زالت الشمس آتيك).[(١٧٨)]

على أنّ (إن) قد تستعمل مكان إذا - في مقام القطع بوقوع الشرط- ؛ لنكتة بلاغية ؛ كالتجاهل بالعلم بالشيء إن استدعاه المقام ، وكعدم جزم المخاطب، وكتنزيله منزلة الجاهل، وغيرها من النكات والمقاصد التي قد يقتضيها المقام.[(١٧٩)]

أما أداة الشرط (لو) فيتقيد بها الفعلُ أو حَدَثُ الإسناد لتدل على تعليق الجزاء أو

---

(١٧٧) الإيضاح ١٧٨.

(١٧٨) انظر الإيضاح ١٧٨ . وانظر بدائع الفوائد١/٤٦-٤٩.

(١٧٩) انظر الإيضاح ١٨٠ . وانظر البلاغة فنونها وأفنانها ٢٦٠ -٢٦٨.

الجواب بحصول الشرط؛ أي يلزم معها انتفاء الجزاء أو الجواب ؛ للقطع بانتفاء الشرط المُعلَّق بلو.[١٨٠]

ولكن البحث في هذه الأدوات الشرطية وتقييد الفعل بها يتصل بالبحث اللغوي والنحوي أكثر منه في البحث البلاغي؛ ولذلك يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في تعليقه على عبارة القزويني الأولى الآنفة الذكر ، حين قال القزويني : « ... وقد بُيِّن ذلك في علم النحو...» ؛ قال الصعيدي معلقاً : « لايخفى أن تلك الاعتبارات اعتبارات نحوية ليست في شيء من اعتبارات البلاغة إلا أن ينظر إلى دلالة أدوات الشرط على تعليق الجزاء بالشرط في أخصر عبارة ؛ فتكون نظير حروف العطف فيما سبق، وذلك وجه ضعيف من وجوه البلاغة.»[١٨١]

ولم أجد شيئاً في شروح الاختيارات الشعرية يتصل بمبحث تقييد الفعل بأدوات الشرط ؛ إذْ لم يتناول الشرّاح هذا الموضوع من وجهة بلاغية تتصف بالكلام على المصطلحات أو النكات البلاغية؛ ولهذا ، ولكون الموضوع ذا صبغة نحوية – كما أسلفت – لم يحظ بالدراسة التطبيقية هنا.

د - الجملة الفعليّة والاسميّة

ومن مباحث أحوال المسند مبحث : كون جملة المسند جملة فعلية أو اسمية . وقد شاع عند اللغويين والنحويين والبلاغيين أن الجملة الفعلية تفيد التجدد للحدث وتدل عليه ، وأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت وتدل على الاستمرار.[١٨٢]

وقد وجدت لهذا المبحث نموذجاً واحداً عند العبيدي تكلم فيه على سمة كل من الجملة الاسمية والفعلية من حيث الثبوت أو التجدد ؛ وذلك في شرحه لأحد الأبيات ؛

---

(١٨٠) انظرالايضاح ١٨٥، ١٨٦.

(١٨١) بغية الإيضاح ١/ حاشية ص ٢١٥.

(١٨٢) انظر الإيضاح ١٩١.

وهو قول الشاعر:

سلامٌ عليكم عِلمُكُمْ باشتياقنا * ينوبُ لكم عن شرحه في الرسائل

لأمرين : عجزي عن تفاصيل بعضه * وأنّ لديكم منه أقوى الدلائل

فقد ذكر ان جملة : (سلام عليكم) وردت بصيغة الرفع لتكون جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام ؛ إذ اصل الكلام : سلّمت سلاماً ، لكنه عُدِل عن ذلك حتى لاتكون الجملة فعلية لاتحقق الثبوت والاستمرار ؛ لأنها تتصف بالتجدد والحدوث ؛ وذلك لايناسب التحية أو الدعاء الذي يراد له الثبات والدوام ، وهو ماتحققه الجملة الاسمية . يقول العبيدي :

« سلام : مبتدأ ، وعليكم : خبره . والمبتدأ نكرة تختص بنسبته إلى المُسلِّم ؛ إذْ أصله : سلّمتُ سلاماً ، ثم حذفوا الفعل ، فبقي سلاماً عليكم ، ثم عُدل عن النصب إلى الرفع لغرض الثبوت ؛ لأنه إذا كان مرفوعاً يكون جملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لاتدل على الثبات ؛ لأن مدلولها الزمان وهو غير ثابت . ومعناه في حال الرفع على ماكان عليه في حال النصب ، وقد كان مُخصّصاً بالنسبة إلى المُسلِّم فوجب أن يكون مُخصّصاً في حال الرفع .»(١٨٣)

وبَحْثُ العبيدي لوظيفة الجملة الفعلية والاسمية وغرضهما البلاغي بحث دقيق مفصل - كما رأيت - ؛ عُنِي فيه بالتحليل والتوضيح أثناء شرحه البيت الآنف ذكره .

ولم أجد لغير العبيدي من شرّاح الاختيارات الشعرية نماذج بحثوا فيها حال المسند إذا كان جملة فعلية أو اسمية ، والغرض البلاغي لذلك ! .

---

(١٨٣)- شرح المضنون به على غير أهله ٥٤٩.

رابعاً : أحوال متعلقات الفعل:

ومن مباحث علم المعاني : البحث في أحوال متعلقات الفعل. ويقصد بمتعلقات الفعل: المفعول ، والحال ، والجار والمجرور ، والظرف، لأن لكل من هذه المتعلقات صلة بالفعل أو الحدث المُلقى في الكلام .(١٨٤)

ولهذه المتعلقات أحوال تتردد بينها تبعاً لمقتضيات نظم الكلام ومراعاة بلاغته ومقاصده التي يرمي إليها المتكلم في نظم كلامه حسب حال من هذه الأحوال دون غيرها ؛ فالمتكلم لايقدم شيئاً من هذه المتعلقات أو يؤخره ، أو يحذفه أو يذكره ، أو يعرِّفه أو ينكِّره إلا لعلة بلاغية يرومها ؛ لأن هذه الحال التي أورد كلامه وَفْقَها من شأنها أن تحقق تلك النكتة البلاغية التي رامها دون غيرها من الأحوال.

ولهذا فأحوال متعلقات الفعل هي :

أ - التقديم والتأخير.

ب - الحذف والذكر .

جـ - التنكير والتعريف.

وسأعرض بالدراسة لكل حال من هذه الأحوال من خلال شروح الاختيارات الشعرية :

أ - التقديم والتأخير :

- قال بعض بني بولان :

تستوقد النَّبْلُ بالحضيض وتصْـ * طادُ نفوساً بُنَتْ على الكـــرم

أراد الشاعر أن نبالهم تفعل الفعلين معاً ؛ القتل ، والإيقاد؛ وذلك في رمية واحدة . وقد قدّم الشاعر وأخر هنا ؛ إذ القتل هو الفعل الأول المقصود؛ وبعده يكون إيراء النار بأرض الجبل، لكنه قدّم وأخّر ؛ كما تقول مثلاً : زارني عبد الله وعبد الرحمن مع أن عبد الرحمن هو السابق في الزيارة. ومن النظم المعجز قول الله تبارك

---

(١٨٤) انظر البلاغة فنونها وأفنانها ١٧٣.

وتعالى : ﴿ يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ ؛ فقدم السجود على الركوع ؛ لشرف السجود على الركوع[١٨٥]

ذلك مضمون ماذكره النمري في أثناء شرحه البيت . ثم قال : « ... وهذا البيت كبيت النابغة :

يَجُذُّ السَّلُوقيُّ المضاعفَ نسجُهُ * ويُوقِدِ بالصُّفَّاح نــارَ الحُباحبِ

إلا أن هذا البيت على ترتيب، وذاك على تقديم وتأخير.»[١٨٦]

لكن أبا عبد الله النمري لم يبيّن السر البلاغي لتقديم الفعل الأول على الثاني في البيت الأول ، كما أنه لم يبين الوجه البلاغي لتقديم السجود على الركوع في الآية الكريمة.!.

ولعل النكتة البلاغية لتقديم الفعل الأول على الثاني في البيت أن الشاعر أراد إثبات شجاعة أولئك القوم وشدة بأسهم وتسديد سهامهم نحو أعدائهم ؛ حيث إن إيراء النار وتوقّدها في أرض السهل تحت الجبل بعد صيد الهدف دليل على ماأراد الشاعر تقريره من أمر شجاعة أولئك . وبيت النابغة يدل على ذلك ، وإن كان نظم البيت عنده على ترتيب دون تقديم أو تأخير . كما ذكر ذلك النمري.

أما النكتة البلاغية في تقديم السجود على الركوع في الآية فهو ماذُكر ؛ من شرف السجود؛ لأنه الهيئة التي هي أقرب في الدلالة على العبودية والخضوع لله سبحانه وتعالى والقرب إليه.[١٨٧]

---

(١٨٥) انظر معاني أبيات الحماسة ٤٤.

(١٨٦) معاني أبيات الحماسة ٤٤، ٤٥ . ورواية البيت في ديوان النابغة :

تقدُّ السلوقيُّ المضاعفَ نسجُهُ * وتُوقد بالصُّفَّاح نارَ الحباحب

ذكر هذا محقق شرح النمري: معاني أبيات الحماسة . انظر حاشية ٤٤. وهذه الرواية هي المشهورة.

(١٨٧) وقد نقل الدكتور عبد الله عسيلان كلاماً لأبي حيان في تفسيره البحر المحيط علّل فيه سبب تقديم السجود على الركوع لايخرج مضمونه عما ذُكر ؛ انظر معاني أبيات الحماسة حاشية ص٤٤، وانظر البحر المحيط٢/٤٥٦.

ب - الحذف والذكر :

قال تأبط شراً :

كأنما حَثْحثوا حُصّاً قوادمُهُ * أو أمَّ خِشْفٍ بذي شَثٍّ وطُبّاق

حذف الشاعر هنا المفعول به ، وهو الموصوف ؛ وأقام الصفة مقامه ؛ والتقدير : (كأنما حثحثوا ظليماً حُصّاً قوادمه) . وحذف المفعول به أحد مباحث أحوال متعلقات الفعل من حيث (الذكر والحذف) .

وقد سوّغ حذفَ المفعول به ؛ وهو الموصوف هنا : (ظليماً) وإقامة الصفة مقامه؛ (حُصّاً قوادمه) العلمُ به ، ودلالة القرائن والسياق عليه ، مع أمن اللبس بالحذف.

قال التبريزي:« ... وجاز أن يقيم الصفة مقام الموصوف في قوله :(حُصّاً قوادمه) لأنه بما صحبه من القرائن ارتفع اللبس عنه وعُلم المراد منه ، ولو قال قائل : رأيت طويلاً ؛ يريد : رجلاً طويلاً لم يجز ؛ لاشتراك الطِّوال كلها فيه ، وانتفاء التبيين منه.»(١٨٨)

وقد أصاب التبريزي في ذكر مسوغ حذف المفعول به وكان في ذلك دقيقاً ، لكنه لم ينص على المصطلحات البلاغية الأخرى لمبحث متعلقات الفعل ؛ أعني أنه لم يذكر مصطلح (حذف المفعول به) ، وإنما دل عليه بمصطلح (الموصوف) الذي أقام الصفة مقامه ، كما أنه لم يذكر الغرض البلاغي لحذف المفعول به ، مع وضوح غرض حذفه هنا ؛ وهو طلب الإيجاز.

ولم يكن الأنباري بأجود من التبريزي في بحث المتعلق في هذا البيت فيما يتصل بحذف المفعول به ، ومسوغ الحذف ، وغرضه البلاغي ؛ بل كان أقل منه

---

(١٨٨) شرح اختيارات المفضل ١/١١١.

جـداً في بحث ذلك ؛ فإذا كان التبريزي قد جاء في كلامه مايدل على حذف المفعول به ويشير إليه والنص على مسوغ حذفه ؛ على نحو ماسبق بيانه فإن الأنباري لم يرد عنده مايدل على أيٍ من ذلك ! فكيف بالنص على المصطلحات البلاغية ؛ مثل : (متعلق الفعل) ، و (حذف المفعول) و (الغرض البلاغي لحذفه) ؟!.

لقد ورد عند الأنباري قول أبي عكرمة في أثناء شرح البيت :« وقوله : حصّاً قوادمه) يعني الظليم ، والأحص الذي تناثر ريشه ...» ، وكلامٌ آخر نقله عن غير أبي عكرمة ذكرفيه الظليم ونقداً لغوياً حوله ؛ فقال:« ... وإنما جعل الظليم أحصّ ؛ لأنه أخفّ له»[١٨٩]

فليس في قوله الأول : (... يعني الظليم) ، وقوله الآخر:(.. جعل الظليم ...) مايدل على حذف المفعول به ، أو تسويغ حذفه ، أو النص على المصطلحات البلاغية كذكر متعلق الفعل، وحذف المفعول ، والغرض البلاغي لحذفه. وأنّى تدل هذه العبارات الموجزة العامة على شيء من ذلك ؟!.. قد يقال: إن فيها إشارة خفيفة لطيفة غير مباشرة إلى أن المفعول به محذوف ؛ لأنه ذَكَر الظليم في الشرح فدلّ به على أنه المحذوف في البيت . ولكن ذلك لايغني ولا يجدي مما نحن فيه أو نطلبه في مبحث بلاغي شيئاً!.

- وقالت امرأة :

له ذَفَرٌ كصُنان التَيـوس * أعيا على المسْك والغاليهْ

ذكر المرزوقي أن مفعول (أعيا) محذوف ، وقدّره ؛ فقال:« ... ومفعول (أعيا)

---

(١٨٩) شرح المفضليات ٨ .

محذوف ، أي : أعجز ذلكَ الذَّفَرُ مايستعمل من الطيب.»[(١٩٠)]

فكأنه قال : أعيا ذلك الذفرُ المسكَ والغالية. فلقد دلّ المرزوقي على أن متعلق الفعل – وهو مفعول (أعيا) هنا– محذوف ، وقدّر المفعول المحذوف ، واكتفى بهذا ، دون أن يذكر مسوغ الحذف هنا وغرضه البلاغي.

ومسوغ حذف المفعول به هنا وغرضه البلاغي هو : العلم به ؛ لدلالة الكلام المذكور بعد الفعل عليه وإشارته إليه ، وأمن اللبس بحذفه ، واقتضاء نظم البيت وترتيبه ذلك الحذف ، مع طلب الاختصار بحذفه ؛ حيث لامانع .

وقد ورد نصّ كلام المرزوقي المذكور آنفاً عند التبريزي!.[(١٩١)]

والقصور في البحث البلاغي ظاهر عند المرزوقي على نحو ماأوضحته ، وعلى المتابع – أعني التبريزي – دَرَكُ التقصير في ذلك ، وهوان التقليد والمتابعة !.

وقال خطّاب بن المعلى :

٣ - أبكانِيَ الدَّهرُ ويارُبَّما * أضحكني الدهرُ بما يُرْضي

حذف الشاعر متعلق الفعل (أبكى) ؛ لأنه معلوم مفهوم من السياق المتأتِّي من دلالة التركيب ذاته ؛ وهو (أبكاني الدهر) ؛ إذ لايُبكي إلا بما يسوء ، أو من دلالة النظر المستفادة من مقابلة ذلك بمتعلق الضد المذكور في الشطر الثاني: (أضحكني الدهر بما يرضي)؛ إذْ يفهم من إضحاك الدهر بما يرضى فيما مضى من الزمان أن يكون إبكاؤه له بما يسخط في آنه وحاضره . وهذا مايدل عليه قول المرزوقي :

« قوله : (بما يرضي) يدل على أنه أضمر مع قوله : (أبكاني الدهرُ) شيئاً

---

(١٩٠) شرح ديوان الحماسة ١٨٤١/٤.

(١٩١) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٣٣/٤.

يكون في مقابلته ، وحذف لأن المراد مفهوم . والمعنى : أبكاني الدهرُ بما يُسخط............. ومعنى البيت : أبكاني الدهر بما أسخطني، وياقوم : ربما أضحكني الدهر فيما مضى بما أرضاني.»(١٩٢)

وورد هذا الكلام بنصه عند التبريزي ، دون زيادة أو نقص!.(١٩٣)

وكلام المرزوقي في هذا مفيد جداً في بحث حذف متعلق الفعل في هذا البيت ؛ إذْ ذكر مصطلح (الحذف) ، وعلة الحذف ومسوغه ، وقد أوضح ذلك جيداً بما ذكره من معنى لتركيب جملة المتعلق أولاً ، ثم في معنى البيت آخراً .

وذِكْرُ المرزوقي لعلة الحذف هنا ومسوغه فيه دالٌّ على النكتة البلاغية لذلك الحذف؛ إذْ يدل حذف المتعلق هنا لكونه معلوماً ومفهوماً من دلالة السياق في البيت على أنّ ذلك قد كان طلباً للإيجاز ، ولأمن اللبس مع حذفه ، واستقامة نظم البيت بدونه ، بل إن استقامة البيت ومقتضى نظمه ورصفه يستدعي ذلك الحذف.

وقد دلّ مضمون كلام المرزوقي الآنف ذكره على جملة متعلق الفعل ، لكنه لم يذكر مصطلح (متعلق الفعل) ، كما أنه لم يبين نوعه هنا . ومتعلق الفعل هنا هو ماقدّره المرزوقي بقوله : (بما يسخط) أو بقوله:(بما أسخطني)، وهو جملة مؤلفة، من الجار؛ وهو (الباء)؛ والمجرور؛ وهو (ما) الموصولة ، وصلة الموصول؛ وهو الفعل والفاعل والمفعول ؛ في قوله : (أسخطني) ؛ فمتعلق الفعل المحذوف هنا هو : الجار، والموصول المجرور ، وصلة الموصول .

---

(١٩٢) شرح ديوان الحماسة ٢٨٦/١.

(١٩٣) انظر شرح ديوان الحماسة ٢٧٧/١.

ج - التنكير والتعريف:

- قال حاتم الطائي:

٢ - إذا ماصَنَعْتِ الزادَ فالتمسي له * أكيلاً فإنّي لستُ آكِلَهُ وحْدِي

٣ - أخاً طارقاً أو جارَ بيت فإنّني * أخاف مذمّاتِ الأحاديث من بعدي

ومن أحوال متعلقات الفعل تنكير متعلق الفعل أو تعريفه ، ولا يكون تنكير هذا المتعلق إلا لنكتة بلاغية توخّاها ناظم الكلام في رصفه وتأليفه إيّاه ، كما لايكون تعريفه المتعلق إلا لنكتة توخاها المتكلم ، و يدلُّ عليها - كما يدل على نكتة التنكير أيضاً - سياقُ الكلام أو قرائنُ الحال.

وقد نكّر الشاعر هنا متعلق الفعل (التمسي) ؛ وهو قوله : (أكيلاً) الواقع مفعولاً به لهذا الفعل لغرض بلاغي توخّاه الشاعر؛ يقول المرزوقي في بيان هذا الغرض :

« فإن قيل: كيف نكّره ، وقال : التمسي له أكيلاً ؟ وهلاّ قال : أكيلي؟ قلتَ:لايمتنع أن يكون قد عُرِف بمواكلته عِدَّةٌ ؛ فأراد التمسي من أجله بعدما هيّأتِهِ واحداًمن المعروفين بمواكلتي ؛ ألا ترى أنه قال مُفصّلاً لما أجمله، وشارحاً لما أبهمه : (أخاً طارقاً أو جار بيت)، فأبدل من الأول ؛ وهو أكيلاً ماأبدل ، والمراد: التمسي أكيلاً من أحد هذين النوعين ؛ طارقاً آخيناه ، أو جار بيت باسطناه»[١٩٤]

فغرض تنكير الشاعر المفعول به هنا : التكثير ، ويدل عليه قول المرزوقي: «..لايمتنع أن يكون قد عُرِف بمواكلته عِدَّةٌ ..» ، كما أن من غرضه النوعية ، ويدل عليه بقية قول المرزوقي أيضاً:«..فأراد التمسي من أجله بعدما هيّأتِه واحداً من المعروفين بمواكلتي..» . فالتكثير والنوعية هما غرضا تنكير المفعول به ؛ (أكيلاً) عند الشاعر في هذا البيت ، وقد دلّ المرزوقي على هذين الغرضين بكلام لم يدل دلالة

(١٩٤) شرح ديوان الحماسة ١٦٦٩/٤.

مباشرة صريحة على هذين المصطلحين حسب ماعرفا به عند البلاغيين ، لكنه استطاع أن يدل عليهما دلالة قوية، وأن يشير إليهما إشارة غير خفيّة بعبارتيه الفنيتين البليغتين الآنفتي الذكر. وذلك مما خفّف عنه درك التقصير في هذا الجانب!.

وقد نقل التبريزي عن المرزوقي كلامه المتقدم بنصه ، مع تصرف يسير فيه!.[١٩٥]

ولم يتكلم المرزوقي أو التبريزي على تعريف المفعول به الذي في الشطر الأول ؛ وهو قوله : (الزاد) ؛ فهو متعلق الفعل (صَنعتِ) ، وقد وقع مفعولاً ، وعرّفه بـ (ال). ولا مسوغ لهذا التعريف إلا الدلالة على العهد العلمي أو الحضوري ؛ أي الزاد المعلوم عندي وعندكِ ؛ الحاضر في الذهن علمه ومعرفته ؛ فهو يشمل أيَّ زاد تصنعه هذه المرأة لهذا الشاعر في عامّة الأوقات المتعارف عليها لتقديم الزاد للأكل في اليوم والليلة.

وقال المُثلّم بن رياح :

٦ - إني مُقسِّم ما ملَكتُ فجاعلٌ * اجراً لآخرةٍ ودُنْيا تَنْفَعُ

أوجز المرزوقي معنى البيت ؛ فقال: « ... ثم قال : إني أُقسِّم ماأملكه بين أمرين: مدُّخر للآخرة ، ومنتفع به في الدنيا.»[١٩٦]

ثم بين وجه تنكير الشاعر الجار والمجرور في قوله : (لآخرة) ، وفي كلمة (دنيا) المعطوفة على (آخرة) ؛ فقال:

« وجعل قوله : لآخرة ودنيا نكرتين ، وقد جاء في غير هذا المكان دنيا في صورة

---

(١٩٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/٢٠٦.
(١٩٦) شرح ديوان الحماسة ٤/١٦٥٧.

المعرفة ؛ قال :

* في سعي دُنْيا طالَ ماقد مُدَّتِ*

ووجــه التنكيــر فيهــا وفي آخرة أن يُراد :أجرٌ عائــد فــي أمــد مــن آماد الآخـرة ، ومنفـعـةٌ في مـثلـه من الدنيـا ، وكان الواجـب أن يقـول : ومنفـعـةً لدنـيا ؛ حـتى يكـون لِفْقَ الأول فيمـا ساقـه مـن الكـلام ، وتفسيـراً لما قَسَمَــه مــن مـصــارف المــال إلا أنــه رمـــى بالكــلام على مـاترى لمّا لم يلتبــس .»[١٩٧]

وظاهرٌ أن الفعل الذي تعلّق به الجار والمجرور الأول : (لآخرة) ، والذي تعلّق به الجار والمجرور الثاني المقدّر : (ومنفعة لدنيا) فعلٌ غيرُ مذكور صراحة ، وإنما هو مقدّر دلّ عليه اسم الفاعل المذكور قبلهما ؛ (فجاعل)، وتقدير المتعلق فيهما : (أجراً أجعله لآخرة) ، (ومنفعةً أجعلها لدنيا) . أما وجه التنكير وغرضه البلاغي الذي ذكره المرزوقي في عبارته الآنفة الذكر فغير صريح ولا ظاهر الدلالة على مايدل عليه تنكيرهما من غرض بلاغي ؛ إذْ كلامه لايدل على مصطلح مباشر صريح من مصطلحات الأغراض البلاغية المعروفة للتنكير. ثم إنه يدل – بعد إنعام النظر فيه – على التقليل ؛ لأنه وَصَفَ الأجر العائد إلى الآخرة بأنه أجر عائد في أمد واحد من آماد الآخرة الكثيرة الطويلة بل السرمدية ، ووصف المنفعة العائدة للدنيا بمثل ماوصف به الأجر العائد إلى الآخرة؛ أي منفعة عائدة في أمدٍ واحد من آماد الدنيا المتعددة. وليس ذلك – في ظني – معنى أو غرضًا يريده الشاعر؛ إذْ مطلب الشاعر وغرضه أن يكون مالُه شطرين؛ شطراً يدّخره لأجر الآخرة وطلب السعادة والحبــور

---

(١٩٧) شرح ديوان الحماسة ١٦٥٧/٤، ١٦٥٨. وقصد المرزوقي بمجيء كلمة : (دنيا) في صورة المعرفة؛ – في الشاهد الذي ذكره – ورودَها فيه مُعرَّفة بالإضافة وبالوصف؛ فذاك مجيئُها في صورة المعرفة.

الذي لاينقطع – بإذن الله – في أمد من آمادها ، بل يكون أبدياً سرمدياً . تلك غاية الشاعر وغرضه وأمنيته ؛ حين شطر لذلك مايملكه من مال في الصدقات وفي سبيل الله ونصرة دينه ونفع عيال الله في الأرض . والشطر الآخر جعله لقوام دنياه وحياته ومَنْ يعول، وما يتبع ذلك من منافع ومصالح يتعهّدها من أجل قيام ذلك وصلاحه.

ذلك هو مراد الشاعر أو هو الذي ينبغي أن يكون مراده على الحقيقة، لا أن يكون ماذهب إليه المرزوقي من كلام يدل على القلة والنزر اليسير ٠ وإنما يستقيم ماذكرت من مراد الشاعر بالنظر إلى غايةالشاعر وغرضه الذي يؤدي إليه كلامه ويوحي به نظم بيته ورصفه ، و بالنظر إلى سعة رحمة الله ، وما أعدّه للمنفقين في سبيله!.

ولذلك فإنّ غرض التنكير في الموضعين للدلالة على التعظيم والتكثير معاً !.

ولم يشر التبريزي إلى غرض التنكير في الموضعين عند الشاعر ، أو يحاول أن يذكر الوجه البلاغي في تنكير الكلمتين أو في أحدهما ؛ لابنحو كلام المرزوقي ولا بغيره ، مع أنه نقل عن المرزوقي بعض كلامه المتعلق في نقد الشاعر بسوء النظم والرصف؛ حين لم يُتْبع (دنيا) لآخرة في وصلها بلام الجر![(١٩٨)]

هذا ماوجدته من مباحث في أحوال متعلقات الفعل الثلاثة والتي عرضتها ودرستها على نحو ماسبق ؛ مما وجدته للأنباري والتبريزي في شرح المفضليات، ولأبي عبد الله النمري والمرزوقي والتبريزي في شرح ديوان الحماسة.

أما المرصفي في شرح الحماسة ، وأبو بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، والعبيدي في شرح المضنون به على غير أهله فلم أجد لهم شيئاً في مباحث أحوال متعلقات الفعل!.

---

(١٩٨) انظر شرح ديوان الحماسة٤/١٩٧.

خامساً : القصر:

مفهوم القصر:

القصر لغة: الحبس ؛ يقال قصرت نفسي على الشيء: إذا حبستها عليه وألزمتها إياه ، وبه جاء قول الله تعالى:﴿حور مقصورات في الخيام ﴾ ؛ أي محبوسات في خيام من الدُّرِّ مُخدَّرات على أزواجهن في الجنات ، كذا ورد في اللسان ، وأورد تفسير الفراء لقوله :(مقصورات) « قال : قُصِرْن على أزواجهن أي: حُبسن فلا يُردنَ غيرهم ولا يطمحن إلى سواهم»[(١٩٩)]

أما القصر في اصطلاح البلاغيين فعرّفه السكاكي بأنه :« تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ .»[(٢٠٠)]

وقال صاحب المطوّل:« تخصيص شيء بشيء بطريق معهود .»[(٢٠١)]

فالقصر عندهم : «تخصيص امر بامر بطريق مخصوص»[(٢٠٢)] .

والقصر: أحد الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام ، ويدعو إليها حال المخاطب، لكنه لايؤتى به دائماً ، وإنما يؤتى به عند الحاجة والضرورة إليه ؛ ذلك بأن غرضه البلاغي الذي يؤديه غرض جوهري رئيس يتعلق بنظم الكلام ومعاني الجمل ، فهو من دقة النظم والتركيب والترتيب بمكان بحيث إن المعنى يختلف كثيراً بمجرد تقديم كلمة في نظام تركيبه أو تأخيرها[(٢٠٣)]

---

(١٩٩) اللسان : مادة : قَصَر٣/٩٩. والآية ٧٢ من سورة الرحمن.

(٢٠٠) مفتاح العلوم ١٢٥.

(٢٠١) المطول للتفتازاني ٢٠٤.

(٢٠٢) البلاغة فنونها وأفنانها٢٧٧.

(٢٠٣) انظر البلاغة فنونها وأفنانها ٢٧٦، ٢٩٢.

وتأمل في قولك :(إنما السعداء الأتقياء) تجد أنك قد قصرت السعادة على الأتقياء، فالسعادة صفة ؛ وهي مقصورة على موصوف ؛ وهم السعداء . وإذا قلت : (إنما الأتقياء السعداء) فقد قصرت الأتقياء على السعادة فهو من قصر الموصوف على الصفة.

ولو أردنا أن نتحدث عن شاعرية حسان - رضي الله عنه - وأنه شاعر فحسب لاكاتباً ولا خطيباً فقلنا : (ماحسانٌ إلا شاعر)؛ فقد قصرنا حساناً على صفة الشعر وحده دون غيره من الكتابة أو الخطابة .

ونحو ذلك من الجمل والتراكيب التي تدل على دقة فن (القصر) وأهميته وخطورته.

أ - أنواع القصــــر:

للقصر أنواع مختلفة وأقسام متعددة بحسب الأحوال والاعتبارات المتنوعة ، وبحسب المقامات والقرائن في سياق الكلام . فهو ينقسم باعتبار طبيعة المنفي؛ من حيث العموم والخصوص إلى نوعين :

١ - قصر حقيقي إذا كان المنفي عاماً .

٢ - وقصر غير حقيقي إذا كان المنفي خاصّاً ٠ ويسمى القصر الإضافي ٠

فإذا قلت: (لاخالق إلا الله) فهذا قصر حقيقي ؛ لأنه لاخالق في حقيقة الأمر وواقعه غير الله . وإذا قلت : (مامحمد إلا رسول) فهو قصر إضافي ؛ إذ الواقع يشهد بأنه - عليه الصلاة والسلام - له صفات كثيرة ، صفة الرسالة واحدة منها ، وإن كانت هي أهمها؛ ولذلك فهو قصر إضافي ؛ أي بالإضافة إلى تلك الصفات الأخرى.[٢٠٤]

---

(٢٠٤) انظر المطول ٢٠٤، وانظر البلاغة فنونها وأفنانها٢٧٩.

أما بالنسبة إلى حال المخاطب فينقسم القصر إلى ثلاثة أنواع:

١ - قصر إفراد ٢ - وقصر قلب ٣ - وقصر تعيين

ويُلقى قصر الإفراد لمن يعتقد اجتماع صفتين أو أكثر في موصوف واحد؛ في قصر الموصوف على الصفة ، أو يعتقد اجتماع موصوفين أو أكثر في صفة واحدة؛ في قصر الصفة على الموصوف؛ فتقول مثلاً : (مازيد إلا كاتب) لمخاطب يعتقد اتصافه بالكتابة والشعر؛ وتقول: (ماكاتب إلا زيد) لمن يعتقد اشتراك زيد وعمرو في الكتابة.

أما إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي أثبته المتكلم، وأراد المتكلم أن يقلب عليه اعتقاده ، ويثبت له أن الصحيح عكس مايعتقد فهذا هو الذي يُسمى قصر القلب، فيقول : مازيد إلا قائم لمن يعتقد اتصافه بالقعود لا القيام ، ويقول : (ماشاعر إلا زيد) لمن يعتقد أن الشاعر عمرو دون زيد.

أما إذا تساوى عند المخاطب الأمران ؛ بأن كان متردداً بالحكم بأحدهما دون الآخر ، وأراد المتكلم أن يُعرِّف المخاطب بعين الحكم الصحيح؛ ليزيل تردده فيه فيسمى قصر تعيين ؛ فيقول: (مازيد إلا خطيب) لمن يعتقد أنه شاعر أو كاتب . ويقول: (ماخطيب إلا زيد) لمن يعتقد أن الخطيب إما زيد وإما عمرو، دون أن يعرف أيّهما الخطيب على التعيين.[٢٠٥]

وينقسم القصر باعتبار طبيعة القصر ولفظه إلى نوعين :

١ - قصر موصوف على صفة . ٢ - وقصر صفة على موصوف.

وقد تبيّن ممّا مضى من الأمثلة والشواهد إيضاح هذين النوعين من أنواع القصر ؛ فلا داعي للاسترسال في إيضاح ظاهر.

---

(٢٠٥) انظر المطول ٢٠٧، ٢٠٨.

ب - طرق القصر في شروح الاختيارات الشعرية:

طرق القصر المشهورة أربعة:

١ - العطف : بحروف العطف :(لا ، بل ، لكن) . والمقصور عليه معها هو مابعد (بل ، ولكن) وما قبل(لا) ، المقابل لما بعدها .

٢ - النفي والاستثناء : ويكون بـ (ما و إلا). والمقصور عليه مابعد(إلا) غالباً.

٣ - إنما : ويليها المقصور، ويليه المقصور عليه .

٤ - التقديم ؛ أي تقديم ماحقه التأخير ؛ كخبر المبتدأ ومعمولات الفعل . والمقدّم هو المقصور عليه دائماً ، والمقصور هو المؤخر.(٢٠٦)

وبالبحث عن هذه الطرق في شروح الاختيارات الشعرية رأيت بعض شرّاح هذه الاختيارات يذكرون طريقاً واحدة من هذه الطرق فقط! ؛ فقد ذكر التبريزي - دون الأنباري - في شرح المفضليات ، وفي نموذج واحد طريق القصر بأداته (إنما)، دون أن يصرح بأنها طريق من طرق القصر، أو حتى يصرح بمصطلح (القصر) أصلاً !، لكنه ذكر وظيفة(إنما) في كلام ساقه يدل على أن مؤدى هذه الوظيفة هو مؤدى وظيفة القصر نفسه .

ومثله صنع المرزوقي في شرح الحماسة ؛ حين ذكر أداة القصر بطريقه: (إنما) على سبيل وصف وظيفتها وغرضها دون أن يذكر مصطلح القصر أو مصطلح طريقه!. وتابعه التبريزي فنقل عنه كلامه في هذا بتصرف يسير جداً!.

ولعل العبيدي خير من ذكر طريق القصر(إنما) دالاً على أنها أداة تدل على الحصر ، فدلّ على مصطلح (القصر) بمصطلح آخر مشابه له في الدلالة ؛ هو (الحصر)، لكنه لم ينص على أن (إنما) طريق من طرق القصر!.

---

(٢٠٦) انظر الإيضاح ٢١٥-٢١٧. والمطول ٢١٠-٢١٤، والبلاغة فنونها وأفنانها ٢٨٢، ٢٨٣.

وإليك عرضاً تطبيقياً لجهود هؤلاء الشراح في هذا من خلال النماذج الشعرية التي شرحوها:

- قال الكلحبة العرني

٣ - وقلت لكاسٍ : ألجميها فإنما * نزلنا الكثيبَ من زَرُودَ لِنَفْزَعا

(إنما) أداة تستعمل في إيجاب مابعدها ونفي ماسواه.

هذاماذكره التبريزي في قوله أثناء شرح البيت :« ... والمراد بقوله: (إنما نزلنا) أن ذلك واجب عليه فإنه لايَتحمَّد به ؛ لأن لفظة: (إنما) يستعمل في إيجاب المذكور بعده ، ونفي ماسواه من خلافه.»(٢٠٧)

وكلام التبريزي عن إنما بعبارته الأخيرة يدل على وظيفة هذه الأداة التي تستعمل للقصر ، وإن كان التبريزي قد قصَّر في عدم ذكره لمصطلح (القصر) ، لكنه قد دلّ عليه دلالة غير مباشرة ، بذكر وظيفة تلك الأداة وحكمها مع مابعدها ؛ وأنها توجب حكم مابعدها قصراً وتنفي ماعداه عن حكم القصر.

وطريق القصر في البيت :(إنما) والمقصور مابعدها ؛ وهو (نزول الكثيب) ، والمقصور عليه : الفزع؛ أي لم يكن نزولنا الكثيب إلا لنفزع ونُغيث، وهو من قصر الموصوف على الصفة ؛ أي قُصروا بصنيعهم هذا على النجدة وإغاثة المستصرخ . وظاهرٌ أنه من القصر الإضافي.

وجهد التبريزي هنا جهد مقبول - إلى حدّ ما - ؛ ذلك بأنه حدّد فيه وظيفة (إنما) تحديداً يدل على قصر الحكم بطريق هذه الأداة على مابعدها ونفي غيره . غير أنه لم ينصّ على المصطلحات البلاغية المعروفة في مبحث القصر عند علماء

---

(٢٠٧) شرح اختيارات المفضل ١/١٤٥.

البلاغة المتأخرين، وأعني مصطلحات:(القصر) و(طريق القصر) وطرفا القصر:(المقصور والمقصور عليه) ،(قصر الموصوف على الصفة) ونوع القصر من حيث المنفي ؛ وهو هنا : (القصر الإضافي)، وقد سبق بيان ذلك .

وهذا كله لايكفي فيه أو يغني عنه الدلالةُ على وظيفة (إنما) التي وردت في تركيب الشاعر !. وإن كانت تلك الدلالة على تلك الوظيفة تشير إلى مبحث القصر في البيت!.

لكنه في هذا خير من الأنباري الذي لم يتطرق ألبتة إلى الحديث عن أداة القصر أو طريقه:(إنما) أو حكمها ووظيفتها في تركيب الشاعر؛ حين شرحه البيت ، وإن كان قد فسّر المعنى العام للبيت تفسيراً موجزاً دلّ فيه على أسلوب القصر حتى صار أشبه بشاهد من شواهده ؛ حيث قال في ذلك : «.. يقول: مانزلنا في هذا الموضع إلا لنُغيث من استغاث بنا ونجيب الداعي.»(٢٠٨)

لكنه لم يذكر أيًا من مصطلحات القصر الآنفةالذكر بل لم يذكر حتى وظيفة (إنما) مثل التبريزي!.

- قال خطّاب بن المعلّى:

٦ - وإنما أولادُنا بيننـــا * أكبادُنا تَمْشي على الأرضِ

قال المرزوقي في طريق القصر في هذا البيت :(إنما):

« ... وقوله : (إنما) يدخل لتحقيق الشيء على وجه مع نفي غيره عنه.»(٢٠٩)

وهذا بيان دل فيه على وظيفة (إنما) في الكلام، وأنها تأتي لغرض تحقيق أمر

---

(٢٠٨) شرح المفضليات ٢٢.

(٢٠٩) شرح ديوان الحماسة ٢٨٨/١.

وتخصيصه بآخر على وجه من الوجوه مع نفيها غير ماخُصِّص بها أن يتحقق أو يثبت حكمه؛ فهذا أشبه بالحدّ لهذه الأداة ، ووصف وظيفتها في الكلام وبيان غرضها فيه.

وإذا تأملت كلام المرزوقي وجدته يدل على معنى القصر ومفهومه وأن الأداة (إنما) إحدى طرقه، لكن دلالة كلامه على ذلك دلالة فحوى يفهم من مضمون كلامه ومؤدّاه؛ أعني أنه لم ينص على مصطلح (القصر) أو مصطلح (طرق القصر). وهذا وجه القصور في البحث البلاغي عند المرزوقي هنا ؛ وهو قصور كبير ؛ لأنه يتعلق بذكر المصطلحات البلاغية وتحديدها ، وذلك هو مايعني البلاغيين والبحث البلاغي.

وقد أورد التبريزي كلام المرزوقي الآنف ذكره في التعريف بأداة القصر(إنما)؛أورده بنصه نقلاً عنه مع تصرف يسير جداً لايكاد يذكر!.[٢١٠]

فقد تابعه في ذلك دون أن يحدد مصطلحات البلاغة المتصلة بمبحث القصر في البيت؛ فلم يذكر مصطلح القصر ، أو طريقه ، ولا نوع القصر فيه الذي هو من قصر الموصوف على الصفة ؛ فقد قصر الأولاد على الأكباد، وهو من القصر الإضافي لا الحقيقي ، وإنما غرضه من هذا القصر بيان منزلة الأولاد عند الآباء ومقدار محبة آبائهم لهم وعطفهم وحنانهم عليهم ؛ لأن الكبد رمز إلى القيمة الكبيرة ذات المنافع والوظائف المتعددة في حياة الكائن الحي، من إنسان أو حيوان.

- قال آخر:

أفارِقُكُمْ ياأهلَ وُدِّي وإنّما * حياتي على حبِّ الحياةِ أفارِقُ

قال العبيدي في بيان وظيفة(إنما):

« ..و(إنما) كلمة دالة على الحصر؛ أي ماأفارق إلا حياتي.»[٢١١]

وقد أحسن العبيدي في هذا البيان الذي أفاد به أن (إنما) أداة أو طريق من

(٢١٠) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٧٨. وتغييره النص بقوله:(تدخل) بدلاً من (يدخل)!.

(٢١١) شرح المضنون به على غير أهله ٤٠٢.

طرق القصر. وإن كان لم يصرح بمصطلح الأداة أو يذكر مصطلح (طرق القصر)، وأن(إنما)إحدى هذه الطرق، لكنه دلّ بقوله عنها: (كلمة دالة على الحصر) على ذلك. مع أنه لو قال:(أداة) بدل (كلمة) لكان أولى له وأدقّ لكلامه . على أنه قد أحسن جداً حين دلّ على مصطلح(القصر)، مع أنه دلّ عليه بمصطلح (الحصر) ، لكنه مصطلح علمي فني دقيق يدل على القصر بل ينوب عنه في الدلالة. وإن كان الشائع بين البلاغيين استخدام مصطلح (القصر) لا الحصر. وأيّاً ما كان فقد كان دقيقاً في تحديد مصطلح القصربمصطلح آخر مشابه له في الدلالة اللغوية ؛ على نحو ماأوضحته آنفاً.

وبهذا يكون العبيدي خير من بحث القصر؛ بالدلالة عليه بمصطلح علمي دقيق، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ؛ في أثناء التعريف بجهود شرّاح الاختيارات في بحث (القصر) قُبيل عرض النماذج التطبيقية لجهودهم في ذلك.

تلك نماذج طرق القصر في شروح الاختيارات الشعرية ؛ على النحو الذي رأيت عند التبريزي في شرح المفضليات ، وعند المرزوقي والتبريزي في شرح الحماسة، وعند العبيدي في شرح المضنون به على غير أهله.

أما بقية الشرّاح فلم أجد لهم نماذج بحث لأيٍّ من طرق القصر؛ فلم أجد للأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، ولا للنمري في شرح معاني أبيات الحماسة، ولا للمرصفي في أسرار الحماسة شيئاً من ذلك!..

سادساً: الإنشاء

ومن مباحث علم المعاني مبحث الإنشاء، وهو - في عمومه - يقابل مبحث الخبر، في عمومه أيضاً.

والإنشاء ضربان : طلبي وغير طلبي.

والإنشاء الطلبي هو : مايستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، كالتمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء .

أما الإنشاء غير الطلبي فهو صيغ إنشائية أخرى أشبه بصيغ الخبر؛ نحو: أفعال المقاربة وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود والقسم ، ولعل وربّ وكم الخبرية ، ونحو ذلك.

والمقصود بالنظر والدرس عند البلاغيين : الإنشاء الطلبي؛ لاختصاصه بزيادة مباحث لم تذكر بين مباحث الخبر، ولأن كثيراً من صيغ الإنشاء غير الطلبي هي أخبار في الأصل نُقلتْ إلى معنى الإنشاء؛ ولهذا يرى بعض البلاغيين أن السابق في الاعتبار : الخبر والطلب فالإنشاء.[(٢١٢)]

أنواع الإنشاء الطلبي ، وأغراضها البلاغية في شروح الاختيارات:

للإنشاء الطلبي أنواع هي :

١ - التمنـــي.

٢ - الاستفهام.

٣ - الأمـــر.

٤ - النهـــي.

٥ - النـــداء.

---

(٢١٢) انظر الإيضاح ٢٢٧، وانظر المطول ٢٢٤.

ولكل من هذه الأنواع ألفاظه وصيغه التي يؤدي بها معناه الأصلي، كما أن لكل منها استعمالاته التي يخرج بها عن غرضه الأصلي إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال.

وسأقف عند كل نوع من هذه الأنواع ، وما خرج إليه من أغراض بلاغية في شروح الاختيارات الشعرية، حتى نتبيّن جهود الشراح في ذلك.

١ - التمني:

- قال أحدهم:

وأعلمُ أنَّ وصلكَ لايُرجّى * ولكِنْ لاأقلُّ من التَّمنّي

عرّف العبيدي كلاً من (التمني) و(الترجّي) ذاكراً مابينهما من فرق يزول به الظّنّ بأنهما كالشيء الواحد ؛ فقال في ذلك حين شرح البيت: « التمني: يقع في الأمور المتنعة؛ مثل : أن يتمنى أحدٌ الطيران إلى السماء؛ وفي الأمور الممكنة أيضاً ؛ مثل: المواصلة إلى الحبيب.

والترجي: لايقع إلا في الأمور الممكنة.»[٢١٣]

ثمّ شرح البيت على هذا الأساس من التعريف ؛ فقال: « فلهذا قال: أعلم أن وصلك لايُرجّى ؛ لأنه ليس من قبيل الممكنات ، ولكن لايبعد من أن أتمنّى؛ لأن التمني قد يقع في الأمور المتنعة. وقبل هذا البيت :

أُعلِّلُ بالمُنى نفسي لعلّي * أُروِّحُ بالأماني الهمَّ عنِّي»[٢١٤]

وهذا البحث من العبيدي كان في بيان معنى هذين المصطلحين (التمني) و(الترجي) ودلالتهما ، والفرق بينهما . لكنه لم يتحدث عن الدلالة البلاغية لمصطلح (التمني)على أنه أحد مباحث الإنشاء الطلبي في علم المعاني، وأن له أدوات تدل عليه دلالة أصلية، ودلالة بلاغية تستفاد من السياق وقرائن الحال.

---

(٢١٣) شرح المضنون به على غير أهله ٣٢٧. والذي حدا بالعبيدي إلى التمثيل للتمني في الأمور الممكنة بمواصلة الحبيب تضمّن البيت الذي يشرحه ذلك.

(٢١٤) شرح المضنون به على غير أهله ٣٢٧.

وعلى هذا فكل ترجٍ تمنٍّ ؛ لأن الرجاء يكون في شيء ممكن والممكن داخل في التمني، وليس كل تمنٍّ ترجٍّ ؛ لأ من التمني مايكون في ممتنع، والممتنع غير داخل في الترجي.

ولهذا يُتمنى بحرف الترجي (لعل) فتأخذ حكم(ليت)(٢١٥)

- قال الحصين بن الحمام:

٨ - فليت أبا شِبْل رأى كرَّ خيلنا * وخيلِهِم بين السِّتار وأظلَما

(الستار) و(أظلم) جبلان في الحجاز .

وقد تمنى الشاعر أن يكون أبو شبل حاضراً ليشهد وقعةَ الخزي والعار بين قوم الشاعر ومَنْ عناهم بقوله :(وخيلهم)، وليرى ماضُيِّع من واجب ، وما أهدر من كرامة في سبيل هذه الفتنة التي أُوقعتْ بين القبيلة.

ويرى التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن هذا التمني إنما جرى على معنى التحسر والفجيعة على ماوقع بين الطرفين ، فليس التمني هنا على وجهه الحقيقي أو غرضه الأصلي، ولكنه لإظهار التحسر والتوجع والتفجع على ماوقع.(٢١٦)

وقد استعمل الشاعر هنا الحرف الموضوع للتمني أصلاً ؛ وهو ليت. واستطاع الشاعر ببلاغته أن يعبر عمّا أراد من معانٍ ومقاصد في البيت والأبيات التي تليه .

ولم يتكلم الأنباري على مسألة (التمني) هنا، أو شيئاً عن نكتته البلاغية . وهذا قصور في البحث البلاغي لديه!.(٢١٧)

---

(٢١٥) انظر الكلام على (لعل) في التمني وإعطائها حكم ليت في الإيضاح ٢٢٨.

(٢١٦) شرح اختيارات المفضل ١/٣٢٨. وحاشيتها.

(٢١٧) انظر شرح المفضليات ١٠٥، ١٠٦.

- قال أبو دهبل:

ياليت أنّي باثوابي وراحلتي * عبدٌ لأهلكِ هذا الشهر مُؤْتَجِرُ

يتمنى الشاعر أن يكون عبداً أجيراً لمدة شهر عند أهل هذه المرأة التي ابتُلي بحبها وفتن بها بل لقد ذهب به ذلُّ المعصية إلى أبعد من ذلك ؛ حين اشترط على نفسه أن يرشوها راحلته ويعطيها ثيابه من أجل أن يحقق ماتمناه !.

قال النمري في شرح البيت وبيان مراد الشاعر في هذا التمني:

« .. وهذا الشاعر تمنّى أن يكون عبداً مُؤْتَجَراً لأهل هذه المرأة ، ويرشو أثوابه وراحلته . ومعنى قوله :(أثوابي وراحلتي) أى بتعويض هذين ، كقولك : ليت الله أرانيكَ بما أملكه) ، وكقولك :(مايسرُّني بكذا حُمر النَّعَم وسُودها) أي : بأن أفقده وأعتاضَها. ومن زعم أن قوله : (باثوابي وراحلتي) أي : ومعي ، كقولك : (ليتني لقيت زيداً بسيفي)؛ ومعي سيفي فهذا خطأ.»[٢١٨]

وما تمناه الشاعر جار على حقيقته ؛ إذْ إن ماتمناه ممكن الحصول، وفرط الشوق لديه ورغبته في لذة اللقاء هو مادعاه إلى تمني ماتمنّاه ؛ على هذا النحو من التمني الذي رأيت !.

واستخدم الشاعر الحرف الموضوع للتمني؛ (ليت) ولم يكتف بهذا بل استصحبه بحرف النداء إغراقاً في الطلب، وتوغلاً في التمني؛ حتى يدل بذلك على مايكابده من ألم الشوق وضَنْك الفراق!.

---

(٢١٨) معاني أبيات الحماسة ١٨٣ .

- قال قُراد بن غُوَيَّة :

ألا ليتَ شِعْري مايَقولَنْ مُخارِقٌ * إذا جاوب الهامُ المُصَيَّحُ هامتي

بيّن أبو عبد الله النمري أن الشاعر يحضّض ابن أخيه مخارقاً على طلب ثأر عمِّه - الشاعر - إذا قُتل وقَبرَه ابن أخيه.

لكن النمري لم يتكلم على (التمني)هنا؛ إذْ لم يذكر مصطلحه ، كما أنه لم يذكر أن (ألا) للتحضيض، و(ليت) للتمني، ولكنه أشار إلى ذلك إشارة خاطفة بقوله: « .. فيقول: مايقول ابنُ أخي إذا قُتلتُ وقَبَرَني ؟ أيطلب بثأري ؟ يُحضِّضه على طلب ثأره.»[(٢١٩)]

لقد أشار بقوله :(يحضّضه على طلب ثأره) إلى مدلول (ألا) ، وعلى غرضها ، مع حرف التمني الأصلي(ليت) ؛ وهو التحضيض؛ فأفاد بذلك أن التمني هنا للتحضيض والاستشراف. لكنه لم ينص نصاً مباشراً على ذلك ، وإنما يفهم من كلامه إشارة ولمحاً !.

وإتيان الشاعر في هذا التمني بلفظه الموضوع له ؛ وهو (ليت) وبأداة التحضيض؛ (ألا) مكّن صيغة التمني هنا فجاءت قوية بليغة ، إذْ تضافر فيها أداتان من أدوات التمني ؛ أحدهما : أداة أصلية في باب التمني، والأخرى فرعية جاءت للعرض والتحضيض؛ فكان الشاعر - بذلك-موفّقاً في طريقته هذه لإثبات مايريده من صدق العاطفة، والبعث على التحضيض والاستشراف - برغبة وإصرار- إلى حصوله على مايتمناه !.

---

(٢١٩) معاني أبيات الحماسة ١٤٢.

- قال عنترة بن الأخرس:

١ - لعلك تُمنى من أراقمِ أرضِنا * بأرقمَ يسقي السّمَّ من كل مَنْطَف

قال المرزوقي :« الأراقم : الحيات . والكلام دعاء على المخاطب، وإن كان لفظه ترجّياً وتأميلا.»(٢٢٠)

وقال التبريزي:« هذا دعاء على المخاطب وإن كان لفظه ترجياً»(٢٢١)

وهو معنى كلام المرزوقي ولفظه بتصرف يسير واختصار!.

فكلام الشاعر في ظاهر لفظه الترجي (إلا انه يدعو على مخاطَبه بما ذكره؛ من هلاكه بسمّ حيّة يرشح جلدها بالسم ويقطر به!.

فالغرض البلاغي لهذا التمني - بطريق الترجي بلعل - هو الدعاء ، وقد حُمل هذا الكلام على محمل الدعاء مع أنه تمنٍّ وترجٍّ ظاهر؛ لأنه كان تمنياً في الشر وترجياً في السوء ودّه الشاعر لمخاطبه ، ولا يتمنى المرءُ الشرَّ لأحد ولا يرجو له السوء يصيبه إلا إذا كان من أعدائه . ولما كان التمني هنا في الشر والترجي في السوء عُلِمَ أنه لعدوّ يستحقه - على تقدير المتكلم في الأقل - فصار خروج هذا التمني والترجي هنا عن ظاهر لفظه ومعناه إلى غرض الدعاء على المخاطب سائغاً مقبولاً لذلك.

وقد أحسن المرزوقي في هذا البيان الذي أوضح فيه غرض الترجي أو التأميل. وهو وإن لم يذكر مصطلح (التمني) إلا أنه دلّ عليه بمصطلح (الترجي) أو (التأميل) ، كما دل عليه بقوله عن لعل إنها : « طمع وإشفاق ».(٢٢٢)

---

(٢٢٠) شرح ديوان الحماسة٤/١٨٠٥.
(٢٢١) شرح ديوان الحماسة٤/٣٠٥.
(٢٢٢) شرح ديوان الحماسة ٤/١٨٠٥.

- قال المثقب العبدي:

٢ - فلو أنها من قبلُ دامتْ لُبانةً * على العهد إذْ تصطادني وأصيدُها

٣ - ولكنها ممَّنْ يَميــــطُ بِوُدِّهِ * بشاشةُ أدنـــى خُلَّةٍ يستفيدُهـــــا

قال التبريزي في بيان ظاهر البيت وحقيقته ، وقد عزا الكلام إلى المرزوقي:

«... قال المرزوقي : هذا الكلام وإن كان ظاهره شرطاً فإنه يمتزج به التمني ، كأنه كان يودّ ذلك منها ويتمناه ، ومثله قول السَّمهري:

ألا حبَّذا والله لو تَعلمـــانِهِ * ظِلالُكـــما يا أيُّها العَلَمـــانِ

كأنه كان يحبّ عِلمَ حاله منهما ويتمناه.

ولهذا المعنى الذي أخرج الكلامَ عليه استغنى (لو) عن الجواب ، كما يستغني عنه في قولك : لو رأيت زيداً شاباً ؛ لقرينة الحال.»[٢٢٣]

وتعليل المرزوقي لاستغناء(لو) عن الجواب وأنها لذلك تحمل معنى التمني لامعنى الشرط وتعليله لذلك بدلالة سياق الكلام وقرينة الحال يدل على فهمه العميق لدلالات النصوص وتركيب نظمها ، وتحكيمه سياق الكلام ومخرجه الذي أخرج عليه وقرائن الأحوال قبل حكمه على معاني الشعر وأغراضه البلاغية التي أرادها الشاعر ورمى إليها .

وقد صرح التبريزي والمرزوقي - في النص الآنف ذكره - بذكر مصطلح (التمني) وكرّره بلفظه وبمعناه مراراً . لكنه لم يذكر الغرض البلاغي لتمني الشاعر هنا بلو. وغرضه من ذلك : الرغبة في إظهار البعيد المنال في صورة القريب الحصول، مع مافيه من تَوجُّد ؛ بتبريح الشوق والحزن أسفاً على مافاته من أيام اللذة والسرور ، ومحاولته الترويح عن نفسه وتعليلها بذلك .

---

(٢٢٣) شرح اختيارات المفضل ٧٠٦/٢، ٧٠٧.

قال صاحب المطول في وظيفة(لو) التي للتمني ، ونيابتها عن ليت : « ... وكما يُفرض بلو غير الواقع واقعاً كذلك يطلب بليت وقوع مالاطماعية في وقوعه.»[٢٢٤]

هذا ولم يذكر الأنباري أثناء شرحه بيتي المثقب العبدي شيئاً عن (لو) في البيت الأول ؛ لامعناها الظاهر ولا المعنى الباطن البلاغي ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي والتبريزي !.[٢٢٥] . وذلك قصور في البحث البلاغي لدى الأنباري!.

-قال المرقش الأكبر:

١٠- هلاّ سالتِ بنا فوارسَ وائلٍ * فلَنحن أسْرَعُها إلى أعدائها

ذكر التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن (هلاّ) للتحضيض ، ثم أوضح غرض الشاعر من حضّه مخاطبته على هذا السؤال وسرّ اختياره الأجانب لتسألهم عنهم ؛ قال :« (هلاّ) تحضيض، وإنما يبعثها على الفحص عن أخبارهم إزالةً للظِّنَّة فيما عدّده عن نفسه ؛ لأنه إذا كان المخبر من الأجانب صحبه التصديق؛ لما في شهادته من الاعتراف والتحقيق.»[٢٢٦]

فقصد الشاعر وغرضه من هذا التمني بطريق التحضيض أن يُقرِّر ثقته بنفسه في صدق مادّعاه من شجاعة قومه وقوة بأسهم ، وعز قبيلته التي هو واحد منها ؛ ولذلك حضّها على السؤال عنهم وتقصّي أخبارهم ، وأن تسأل كرام الناس ووجوهها البعيدين عنه ؛ فذلك أدعى لإزالة الشك في إخباره هو عنهم ، وأولى بالتصديق وقبول شهادة أولئك الأباعد فيهم.

وإنما جعل مدخول (هلاّ) فعلاً ماضياً مشعراً بالتنديم فقال: (هلاّ سألت ...) - مع أنها لاتكون للتحضيض إلا إذا كان مدخولها فعلاً مضارعاً ؛ (هلا تسألين..)[٢٢٧]- مبالغةً في الحضّ على السؤال والرغبة في التعجيل فيه حتى لكأنه قد

(٢٢٤) المطول ٢٢٥.

(٢٢٥) انظر شرح المفضليات ٣٠٣.

(٢٢٦) شرح اختيارات المفضل ١٠٤٤/٢ وحاشيتها ، ١٠٤٥.

(٢٢٧) انظر الكلام على خصائص حروف التنديم والتحضيض وتضمنها معنى التمني ، واختصاصها في التنديم مع المضي، والتحضيض مع المضارع والاستقبال؛ انظر ذلك في الإيضاح ٢٢٧، ٢٢٨.

حصل منها وتمّ ؛ فقال: سألت بالماضي؛ ليكون ذلك أدل على صدق خبره ودعواه ، وألاّ يتطرق إليها شكٌّ فيما يخبر به أو يدّعيه ، أو لئلا تتردد في السؤال عنهم إن لم يكن ثمّة تصديق بخبره ، وليحصل لها من التندُّم مايحصل إذا هي أساءت الظن بهم قبل سؤالها الذي تبيّن به صدق قوله ، وسوءُ ظنّها!.

ولم يتحدث الأنباري عن هذا التمني بطريق التحضيض في هذا البيت بشيء ، بل لم يشرح البيت ألبتة، وإنما ساقه ومابعده غُفْلاً من أي شرح أو تعليق!.[٢٢٨]

وعلى هذا لم يكن للأنباري جهد مطلقاً - على نحو ماسبق بيانه - في بحث صيغة (التمني) ؛ فيكون التبريزي خيراً منه في ذلك ؛ حيث عرض بالدرس لنماذج التمني كلها ؛ سواء منها التي شاركه فيها الأنباريُّ ، وماشارك هو فيه المرزوقيَّ ، وإن كان في ذلك عالة على المرزوقي في نماذج التمني التي وردت في شرح المفضليات ، وعلى المرزوقي - كذلك - في نموذج التمني الذي ورد في شرح الحماسة ؛ كما سبق بيان ذلك في مواضعه!.

وقد مرّ بك جهد العبيدي في بحث صيغة (التمني) ؛ من خلال تعريفه لكل من مصطلح (التمني) و (الترجي) وتفريقه بينهما .

كما سبق بيان جهد النمري في بحث هذه الصيغة ؛ من خلال نموذجين كان أحدهما بأداة التمني الأصلية ؛ (ليت) ، والآخر بأداة التحضيض؛ (ألا) مع (ليت).

ولم أجد نماذج لصيغة التمني عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، ولا عند المرصفي في شرح الحماسة.

---

(٢٢٨) انظر شرح المفضليات ٤٨١.

٢ - الاستفهـــام:

صيغة الاستفهام أكثر صيغ الإنشاء خروجاً عن غرضها الأصلي إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وهي أكثرها كذلك في شروح الاختيارات الشعرية، إذْ وجدت فيها ثلاثة عشر غرضاً بلاغياً لصيغة الاستفهام ، وهذه الأغراض البلاغية هي :

أ - الإنكار. ب - التعجب. ج - التقريـــر.
د - التهكم والتحقير. هـ - التعظيم . و - الاستبعاد.
ز - التوبيخ والتقريع . ح - التوجُّع والتحسُّر . ط- الشكوى.
ي - التجلد والتصبر. ك - التمني. ل - النفـــي.
م - الاستلطاف.

وسأورد ماوجدته من نماذج لكل من هذه الأغراض في شروح الاختيارات الشعرية شارحاً ومحللاً طبيعة جهد الشرّاح في دراسة هذه الأغراض البلاغية لصيغة الاستفهام ؛ حسب المنهج المتبع في البحث:

أ - الإنكار :

- قال مُتَمِّم بن نويرة:

٣٨ - افبعد مَنْ ولَدَتْ نُسَيبة اشتكي * رزء المنيّة او أُرى أتوجَّـــــعُ؟

أفاد التبريزي أن الإستفهام هنا لغرض (الإنكار) ؛ ينكر على نفسه أن يشتكي من صروف الدهر ، أو أن يُرى متوجعاً وقد فُجِع بإخوته ورحلوا عنه بالموت ؛ قال التبريزي فيما نقله عن المرزوقي بتصرف يسير:

« ... اللفظ استفهام ، ومعناه الإنكار ، يريد : أأشتكي صروف الزمان أو أُرى

متوجعاً ، وقد فُجِعتُ بإخوتي ؛ أي مات هؤلاء ولا بقاء لي بعدهم ؟.»[٢٢٩]

وقد قصّر الأنباري حين لم يذكر هذا الاستفهام وغرض الشاعر منه ؛ أثناء شرحه البيت !.[٢٣٠]

- وقال أبو ذؤيب الهذلي:

١ - أَمِنَ المنونِ ورَيبِها تَتَوَجَّعُ * والدهر ليس بمُعتبٍ مَنْ يجزعُ

أوضح التبريزي أن الاستفهام عند أبي نؤيب الهذلي في هذا البيت على غير حقيقته ، وأنه خرج لمقتضى آخر ونكتة بلاغية هي :(الإنكار) ؛ بطريق النهي، وأن المعنى : أتتوجع؟ ؛ ينكر عليه التوجع وينهاه عنه.

وقد أوضح ذلك التبريزي بتفصيل حسن يحسن الوقوف عنده بنصه ؛ لجودته، ولأنه من جهده البلاغي الخاص:

« ألف الاستفهام يطلب الفعل ، والمراد به هنا :(الإنكار) على طريق النهي ؛ كأنه قال: أتتوجّع من حوادث الدهر ، والدهر لايُعْتِب وإن عتَبْتَه طويلاً ؟ ؛ وهذا مثل قول العجاج:

* أطَرَباً وأنتَ قِنْسرِيٌّ*؟

كأنه أنكر طربه على تناهي عمره . والذي يدل على أن المراد (الإنكار) لاطلب الإفهام أنه لايقتضي جواباً ، وأنه وجّه الكلام نحو نفسه وهو لايستفهم.»[٢٣١]

ومن الغريب حقاً ألاّ يتوقف الأنباري عند الاستفهام في هذا البيت حين شرحه!.[٢٣٢] ووجه الغرابة أمران : أحدهما : شهرة البيت وقيمته الفنية . والآخر:

---

(٢٢٩) شرح اختيارات المفضل ٢٧٢/١ وحاشيتها.

(٢٣٠) انظر شرح المفضليات ٧٧.

(٢٣١) شرح اختيارات المفضل ١٦٨٢/٣.

(٢٣٢) انظر شرح المفضليات ٨٥٠، ٨٥١.

وضوح الغرض البلاغي للاستفهام فيه ؛ والحاجة إلى بيانه ؛ لأنه مما يخدم المعنى وإيضاح المراد !.

- وقال سبرة بن عمرو الفقعسي:

١ - أتنسى دفاعي عنكَ إذْ أنتَ مُسْلَمٌ * وقد سال من ذلٍّ عليكَ قَرَاقِرُ

أشار المرزوقي إلى خروج الاستفهام في البيت عن مقتضى ظاهره وحقيقته إلى غرض بلاغي ؛ هو (الإنكار) ؛ فقال في صدر شرحه البيت :« لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار ؛ أي: لِمَ تتنسى مدافعتي عنك حين كنتَ مخذولاً لاناصر معك ، وقد امتدَّ سيلُ الذل نحوك فسال عليك.»[٢٣٣]

وقد أورد التبريزي هذا الكلام بنصه مع تصرف واختصار يسير؛ إذْ اكتفى من كلام المرزوقي إلى قوله في بيان المعنى :« ... لاناصر معك»!.[٢٣٤]

- قال أبو النضر الأسدي:

هلِ الدهرُ إلاّ ماأتاني حديثُهُ * وخُبْرَتُهُ كانتْ لذاكَ أوائِلُهْ

يرى العبيدي أن الاستفهام في البيت على غير حقيقته ، وأنه جاء لغرض (الإنكار) ؛ قال: « فهل استفهام معناه الإنكار ؛ كقوله تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾.»[٢٣٥]

وقد اشترطوا في مجيء الاستفهام لغرض التقرير والإنكار أن يلي المقرَّرُ به أو

---

(٢٣٣) شرح ديوان الحماسة١/٢٣٧.

(٢٣٤) انظر شرح ديوان الحماسة ١/٢٣٢.

(٢٣٥) شرح المضنون به على غير أهله ٨٣.

المُنكَرُ الهمزةَ ؛ بمعنى أن تسبق همزةُ الاستفهام المُنكَرَ أو المقرَّبه[٢٣٦] وقد ولي المنكرُ هنا حرفَ الاستفهام (هل) لا (الهمزة) ؛ فلا يكون الاستفهام للإنكار ولا للتقرير ، وإنما يكون الغرض منه (النفي).

وقد أكّد الشاعر هذا النفي بالقصر ؛ بطريق النفي والإثبات المستفاد من الإجابة ؛ أي ليس الدهر وأحواله إلا ماأتاني حديثه ووصلت إلينا أخباره - وقد فسّره العبيدي بذلك !..؛ وفي الآية الكريمة يكون تقدير الجواب: لاخالق إلا الله ، وإن كان هذا النفي المسوق بطريق القصر في الآية يتضمن معنى الإنكار وتسجيل التقرير على المكذبين ؛ توبيخاً وتقريعاً لهم على إنكارهم وعنادهم . وعلى هذا يكون الاستفهام في البيت لغرض النفي أو تقرير النفي أما الإنكار فلا وجه له؛ لما بينته ، ولأن الشاعر لايريد معنى الإنكار ولايقصد إليه هنا؛ إذ إنّ الحال والسياق لايؤيده ألبتّة.

- وقال جَحْظة:

مابالُ داركَ حينَ تَدْخلُ جنّةٌ * وبباب داركَ مُنكرٌ ونكيرُ

يرى العبيدي أن غرض الشاعر من هذا الاستفهام التعجب ؛ قال في شرح البيت وبيان غرض الاستفهام فيه :

« ماستفهامية؛ أيْ : أيُّ شيء حالُ دارك حين تدخلُ فيها جنّة ، والحال أن المنكر والنكير واقف بباب دارك ؛ أي : البوّاب والحاجب ؛ والعادة أن المنكر والنكير يسألان الميت في القبر؛ فيتعجب من وقوفهما على دار الممدوح ؛ فيجوز أن يكون (ما) التعجبية.»[٢٣٧]

---

(٢٣٦) انظر الإيضاح ٢٣٧.

(٢٣٧) شرح المضنون به على غير أهله ٤٤٨.

وليس غرض الاستفهام في البيت التعجب بقدر ماهو الإنكار عليه بطريق التعجب؛ إن الشاعر ينكر على ممدوحه صنيعه وطريقته في استقبال المقربين إليه من أصحابه ، فما دام أنه في خير وسعة وفضل فلا ينبغي له أن يجعل دون أصحابه الحُجب والأستار ؛ لأن ذلك لايليق بكرام الناس وأهل الفضل والإحسان منهم؛ ولذلك استصحب الشاعر هذا الإنكار الذي قد يجده المخاطب أو ممدوحه قاسياً عليه ، ولايناسب المقام - استصحبه بطريقة لبقة خفية؛ طريق التعجب أدباً معه وتودُّداً إليه وتلطفاً إلى قلبه ومراعاة لمقتضى المقام . ولذلك فغرض الاستفهام عند الشاعر هو : الإنكار بطريق التعجب أو الإنكار التعجبي وليس التعجب المحض كما ذكر العبيدي؛ لأن التعجب المحض لايخدم غرض الشاعر من هذا الكلام الذي لم يدفعه إلى قوله ومخاطبة ممدوحه به إلا تبرُّمه بحاله مع الممدوح وضيقه بمعاملته الأصحاب الخلّص الذين لايليق بهم إلا إحسان الظن ورفعهم عن مواطن الرِّيب والظنون السيئة والمسارعة إلى إكرامهم ، وعدم امتهانهم ؛ بإراقة ماء وجوههم ، والمحافظة على عزتهم وكرامتهم.

ب - التَّعجب:

- قال الأسود بن يعفر:

١٦ - مابعد زيدٍ في فتاةٍ فُرِّقوا * قتلاً ونفياً بعد حُسنِ تآدي؟

نقل التبريزي عن المرزوقي في شرح البيت أن الاستفهام فيه على غير حقيقته، وأن غرض الشاعر منه التعجب والإنكار، وبيّن المعنى المراد على أساس هذا الغرض؛ فقال:« مابعد زيد . استفهام على طريق التعجب والإنكار. والمعنى ، أيُّ غاية بعدهم من العِبَر؟!.»[٢٣٨]

---

(٢٣٨) شرح اختيارات المفضل ٢/٩٧٢ ، وحاشيتها.

ولم يتحدث الأنباري عن هذا الاستفهام أو غرضه بشيء!.[(٢٣٩)]

وغرض التعجب الذي قصد إليه هذا الشاعر من وراء هذا الاستفهام ظاهرٌ ؛ فقد دل عليه البيت ومعناه وسياق الحال وقرائنه المعلومة من مناسبة دلالة بينة؛ فقد نقل التبريزي عن المرزوقي مناسبة البيت والبيت بعده ؛ فقال:

« قال أبو عبيدة : كان المنذر بن ماء السماء خطب على رجل من اليمن من أصحابه امرأة من بني زيد بن مالك بن حنظلة فأبوا أن يزوّجوه، فنفاهم من أرضه ودياره وفرّقهم ، فنزلوا مكة بعد أن نكأ فيهم وبدد شملهم وكانت المرأة أم كهف ، ولها نسب في النساء.»[(٢٤٠)]

فمن يتأمل قصة البيت وخبره ، ويتأمل المعنى العام المذكور آنفاً في معنى الاستفهام وغرضه ؛ وهو قول التبريزي :« والمعنى : أيُّ غاية بعدهم من العِبَر.» - يجد أن غرض الشاعر من هذا الاستفهام يدور على التعجب وحده ولا يخرج عنه لا إلى إنكار ، ولا إلى غيره من الأغراض؛ وعلى ذلك لاصحة لما ذكره المرزوقي والتبريزي من أن الاستفهام جاء على طريق التعجب والإنكار معاً إلا أن يُراد بالإنكار الشيء المنكر الغريب الذي يُنكر السمع وقوعَ مثلِه والقلبُ أن يألفه ويأنس به ؛ أي معنى الإنكار المشابه للتعجب، لا الإنكار الذي يُنكر فعله ويراد الإقلاع عنه وترك الوقوع في مثله . وحتى لو كان المراد إنكاراً مشابهاً للتعجب فليس هناك مايدعو للجمع بينه وبين غرض التعجب في غرض واحد لهذا الاستفهام ؛ وذلك لظهور غرض التعجب جلياً في استفهام الشاعر ، ولعدم الحاجة إلى التعسُّف في الجمع بينه وبين الإنكار الذي يكون من جنس ذلك التعجب.

---

(٢٣٩) شرح المفضليات ٤٥٠، ٤٥١. وقد ذكر مناسبة القصيدة وخبرها الذي يرد بعد .

(٢٤٠) شرح اختيارات المفضل ٩٧٢/٢ وحاشيتها.

- قال الزمخشري:

يافضلُ لاكنتَ إن لم تُعطني شرفاً * أزهى به بين أعمامـي وأخوالي

أمنكَ أطلب إقبالـي ولستُ أرى * سواكَ من سبب في فَقْد إقبالي

ذكر العبيدي أن الاستفهام في قوله :(أمنك أطلب...) على غير حقيقته وأنه لغرض التعجب ، وقد بيّن ذلك بقوله :

«... والاستفهام في (أمنك) للتعجب ؛ أي: أتعجب من طلبي الإقبال والشرف منك يافضل والحال أني لست أرى سبباً سواك في فقد إقبالي؛ لأن الناس أكثرهم جُهَّال؛

* والجاهلون لأهل العلم أعداء»(٢٤١)

وغرض التعجب في هذا الاستفهام ظاهر من سياق البيتين ، وقرينة حال الشاعر الشاكية الضجرة ، ففي هذا الاستفهام تعجب مشوب بالشكوى والضجر، وقد ولّد ذلك في نفس الشاعر اليأس والقنوط، والعياذ بالله!.

- وقال الحسين بن مطير الأسدي:

وياقبرَ معْنٍ كيف واريتَ جُودَهُ * وقد كان منهُ البرُّ والبحر مَتْرعا

يرى العبيدي أن الشاعرخاطب القبر بهذا الاستفهام ؛ فقال: (كيف واريت جوده؟) ؛ لأن غرضه من هذا التعجب على سبيل الإنكار.

قال العبيدي:« ... ثم أخذ يتعجب ويقول مُنكراً : كيف سترتَ جوده وقد ملأ البر والبحر مَترعاً معاً ؟ ، وفي طريقه قوله :(عجباً لأربع أذرع) . »(٢٤٢)

والقول بأن غرض الاستفهام هنا التعجب صحيح . أما أنه تعجب على سبيل الإنكار ففيه نظر ؛ لأن الإنكار لايكون على مَنْ لايعقل، والقبر ليس ممن يمكن أن يُتوجّه إليه بالخطاب ويعي مايُقال أو ينكرعليه به حتى نسمع منه الجواب أونُعذرَإليه

---

(٢٤١) شرح المضنون به على غير أهله ١٢٠.

(٢٤٢) شرح المضنون به على غير أهله ٣٥٩. هكذا ورد في النص: لأربع أذرع !. والصواب : لأربعة أذرع ؛ بعكس المعدود تذكيراً وتأنيثا.

بالخطاب ! . والأوفق الأظهر أن يكون غرض الشاعر في استفهامه هذا التعجب لا على سبيل الإنكار ، ولكن على سبيل التمدح المشوب بالتلهّف والتحسر ؛ فهو تعجب تمدح وتلهّف وتحسر.

ج - التقرير:

- قال جابر التغلبي :

١٨ - ألا تَسْتَحي منّا ملوكٌ وتتّقي * محارِمَنا لايبَوءُ الدمُ بالدمِ

ذكر التبريزي في شرح البيت الذي نقله عن المرزوقي أن الاستفهام في قوله : (ألا تستحي...) لغرض التقرير ؛ قال التبريزي:

« .. وقوله : (ألا) هو (لا) أدخل عليه ألف الاستفهام تقريراً . وإنما يُذكِّر بهذا الكلام الملوكَ الذين ذكرهم[وأشار إلى أياديهم عندهم ونعمهم عليهم] ، وأنهم يستحقون منهم الاتّقاءَ لمحْرَمهم، وترك التعرّض لهم في أسبابهم ، وقوله : (لايبوء الدم بالدم) ؛ يقال: فلان بَواءٌ لفلان :إذا أُقيد به فكان كفواً له ، كأنه يدعي الفضل عليهم، ويكون قوله :(لايبوء الدم) منقطعاً مما قبله؛ يريد أن بين دماء المقتولين بيننا تفاضلاً ، فراجعوا أنفسكم ، وتأمّلوا الحال، وأنصفوا ؛ فلا سواء.»[(٢٤٣)]

ومعنى هذا أن غرض الشاعر من استفهامه هنا التقرير بطريق العرض والإغراء والتحضيض، وهو تقرير مسوق لغرض آخر غير مباشر؛ ذلك هو التهديد والوعيد؛ تهديد الشاعر وقومه ووعيدُهم لأولئك الملوك الذين لم يرعوا حرمتهم وفضلهم وسابق معروفهم عليهم، وقد أشعر بغرض التهديد والوعيد مقامُ التهويل والتعظيم والانتصار للعزة والكرامة؛ كما يوحي به البيت وترمز إليه الأبيات التي بعده.

ولم يقف الأنباري عند هذا الاستفهام ومعناه أو غرض الشاعر منه بشيء![(٢٤٤)]

---

(٢٤٣) شرح اختيارات المفضل ٩٥١/٢، ٩٥٢ وحاشيتها. وما بين المعقوفتين في هذا النص زيادة عند المرزوقي أسقطها التبريزي حين نقل عنه.

(٢٤٤) انظر شرح المفضليات ٤٢٦.

- وقال مُتَمِّم بن نويرة :

٤٥ - ألم تأتِ أخبارُ المُحِلِّ سراتَكم * فيغضبَ منكم كلُّ مَن كان مُوجَعا

هذا الاستفهام مسوق لغرض التقرير والإثبات ؛ قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - : « ظاهره تقرير ؛ وباطنه إغراء وتحضيض ، ومثل هذا يكون تقريراً في الواجب ؛ لأن الاستفهام كالنفي ، ونفي النفي إيجاب.»(٢٤٥).

وغرض التقرير في استفهام البيت واضح ، يدل عليه سياق البيت وطبيعة تركيبه ؛ على نحو ماذكر التبريزي والمرزوقي ، ولكن غرض التقرير هنا غرض ظاهر يكمن وراءه غرض بلاغي آخر ، هو ماذكره التبريزي بقوله:« وباطنه إغراء وتحضيض» ؛ ذلك بأن مقصد الشاعر من سوق هذا الاستفهام مساق التقرير أن يُغري بمن يَعتِب عليه ويتلوَّمُه ؛ وهوالمُحلّ المذكور الذي أغرى به الشاعر ؛ ونشر سوءة أخباره ، ووبّخه كثيراً في الأبيات التالية لهذا البيت ، ونعى عليه قصور همته، وتضييعه الحق ، والاستهانة بأمر الثأر لقتيله ؛ فهو لذلك كأنما يُغري به ، ويُحضِّض رجال قومه وعشيرته على نبذه وإسقاط اعتباره ؛ وبهذا يتضح أن غرض الاستفهام في البيت مسوق للتقرير ظاهراً من أجل الإغراء والتحضيض.

أما الأنباري فلم يتحدث عن هذا الاستفهام في هذا البيت أثناء شرحه بشيء، وذلك قصور في البحث البلاغي فيما يتصل بمباحث الإنشاء!.(٢٤٦)

- قال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي؛ وقيل السموأل بن عاديا اليهودي:

٥ - وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا * عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

أجاز المرزوقي أن تكون (ما) حرف نفي ؛ بمعنى : (لم يضرنا) ، كما أجاز أن يكون المراد بها اسماً مُستَفهماً به على طريق التقرير؛ والمعنى : أيُّ شيء يضرنا؟(٢٤٧)

---

(٢٤٥) شرح اختيارات المفضل ١١٨٩/٣ وحاشيتها.

(٢٤٦) انظر شرح المفضليات ٥٤٣. وقد ورد عنده البيت برواية : (ألم تأت أخبار) بتاء التأنيث في الفعل بدل الياء، والخلاف يسير!.

(٢٤٧) انظر شرح ديوان الحماسة١١٢/١، ١١٣.

ونقل التبريزيُّ عن المرزوقي ماقاله كله في معنى (ما) ؛ على النحو الذي سبق ذكره!.[٢٤٨]

وعلى الوجه الآخر لتفسير معنى (ما) تكون استفهامية استُفْهم بها عن اسم مقدّر ؛ على نحو مامرّ من تقدير معناها على هذا الوجه ، فيكون الاستفهام (بما) هنا قد خرج عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي يفيده السياق وقرينة الحال؛ وهو إثبات المعنى المستفهم عنه وتقريره في ذهن السامع ؛ لأن المقام مقام افتخار وتمدح؛ وتقدير الاستفهام على هذا الوجه التقريري: أيُّ شيء يضرنا؟ وجوابه المراد: لاشيء!.

-قال امرؤ القيس

٣٠ - أغَرَّكِ منّي أنّ حُبَّكِ قاتلي * وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ

بين أبو بكر الأنباري وجه الاستفهام هنا موضحاً أنه خرج عن ظاهره لتحقيق غرض التقرير، ثم وازنه ببيت آخر مشابه في الصيغة والغرض ؛ فقال في ذلك :

« قوله :(أغرّك مني) لفظه لفظ الاستفهام ومعناه معنى التقرير ، وهو بمنزلة قول جرير :

ألَسْتُمْ خيرَ من ركب المطايا * وأندى العالمينَ بُطونَ راح

فاللفظ لفظ الاستفهام ، والمعنى : أنتم خير من ركب المطايا .»[٢٤٩]

ولم يذكر ابن النحاس شيئاً عن هذا الاستفهام أثناء شرحه البيت !.[٢٥٠]

مع أن غرض الاستفهام فيه بيّن ، والكلام عليه يزيد المعنى العام للبيت وضوحاً ، ويؤكد مافيه من مسائل البلاغة ونكاتها!.

ولقد أحسن أبو بكر الأنباري في كشفه معنى الاستفهام وغرضه البلاغي عند الشاعر، كما أحسن في موازنته النقدية ببيت جرير . وغرض امرىء القيس بهذا الاستفهام التقريري أن يُثبت تَدلُّلها عليه ، ويُقرِّر وَلَهَه الشديد بحبها ، وهذا من

(٢٤٨) انظر شرح ديوان الحماسة١/١١١.

(٢٤٩) شرح القصائد السبع الطوال ٤٥.

(٢٥٠) انظر شرح القصائد المشهورات ١٦.

أعمى عمايات الحب والعشق وضلالاتهما !.أعاذنا الله من ذلك.

- وقال لبيد بن ربيعة:

١٦ - بل ماتَذَكَّرُ مِن نَوارَ وقد نأتْ * وتقطّعتْ أسبابُها ورِمامُها

تكلم أبو بكر الأنباري على وجه الاستفهام الذي دل عليه قوله (ماتذكر...) ؛ فذكر أنه على غير حقيقته من ظاهر الاستفهام ، وأن تأويله وغرضه التقرير، وذكر وجهين من التقدير على هذا التأويل لمعنى التقرير. ثم ذكر رأياً عزاه إلى بعضهم في تفسير(ما) على معنى الصلة، ولكنه استبعد ذلك الوجه ، وفي ذلك يقول الأنباري:

« .. و(ما) ظاهرها ظاهر الاستفهام ، وتأويلها تأويل التقرير ، وتقديرها بل ويحكَ أيَّ شيء تذكُّر؟! ، ويجوز أن يكون في موضع رفع بما عاد من الهاء المضمرة؛ ويكون التقدير: أيٌّ شيء تذكّره من نوار؟ . وقال بعضهم: (ما) صلة. وهذا عندي بعيد؛ لأن التذكُّر لايُوقَع على مفعول وهو يطلبه.»[٢٥١]

وقد خصّ ابن النحاس(ما) بحديث في أثناء شرحه البيت ، وهو حديث يتصل بإعرابها ومعناها، لكنه لم يتطرق إلى أنها استفهامية ؛ أعني لم ينص على مصطلح استفهاميتها ، ولا على حقيقةالاستفهام فيها ، أو غرضه الذي خرجت إليه، وإن كان يفهم أنها للاستفهام من تقديره لمعناها وموقعها من الإعراب، لكنك لاتفهم من هذا التقديرغرض الاستفهام البلاغي إلا بربطك إيّاه مع المعنى العام وسياق البيت حيث لم ينصص على بلاغة هذا الاستفهام بل لم يذكر مصطلح (الاستفهام) أصلاً ، كما أوضحت ؛ قال ابن النحاس في ذلك :

« ... والمعنى : ماتذكُّر من نَوار وقد تقطّع جديد وصلها وقديمه، ....، و(ما) في قوله :(تَذكُّر من نوار) في موضع نصب؛ والمعنى : أيَّ شيء تذكُّر.»[٢٥٢]

ففات ابن النحاس بذلك ماأدركه أبو بكر الأنباري ؛ من عناية بالمصطلح البلاغي، وبيان نكتته في هذا الموضع والذي قبله ؛ على نحو مامرّ بيانه !.

---

(٢٥١) شرح القصائد السبع الطوال ٥٣٣.

(٢٥٢) شرح القصائد المشهورات ١٣٨.

وإذا كان الغرض البلاغي للاستفهام بـ(ما) ومابعدها عند الشاعر لإثبات التقرير للمعنى المراد عند الشاعر، على الوجه المذكور آنفاً فإن وراء هذا الغـرض البلاغي التقريري غرضاً آخر مراداً عند الشاعر في خطابه لمخاطبه بهذا الاستفهام التقريري؛ وهو إرادة التوبيخ له وتبكيته وتقريعه؛ بتنبيهه إلى غوايته وضلاله وبُعد عقله عن الصواب والرشاد. وهو غرض مُراد في نفس الشاعر تجاه مُخاطَبه؛ يدل عليه سياق البيت والأبيات قبله وبعده ، وقرينة الحال. ولعله قصد نفسه بهذا الاستفهام والخطاب؛ على طريقتهم في ذلك ؛ وهو مايسمى فنّ (التجريد) في البديع المعنوي عند البلاغيين.

- قال آخر:

أفي كلِّ دارٍ لي صديقٌ أودُّهُ * إذا ماتَفَرَّقْنا حَفِظْتُ وضيَّعا

قال العبيدي في صدر شرح البيت :« هذا استفهام على سبيل التقرير.»[٢٥٣]وقد أحسن في كلامه على هذا الاستفهام وبيان غرضه البلاغي الذي خرج إليه .

ويرمي الشاعر من إثبات هذا التقرير بصيغة الاستفهام هذه إلى تحقيق غرض بياني آخر يُحمل على محمل التأنيب والعتاب ؛ ذلك هو غرض (التعريض) الذي قصد إليه الشاعر من وراء هذا الاستفهام الذي أخرجه مُخرج التقرير؛ ولذلك قال العبيدي في آخر شرح البيت :« ... أي : إذا تفرق أحدنا من الآخر حفظتُ العهد والود كما كان حال الحضور ، وضيّعه الصديق ، وهذا تعريض أيضاً إلى سيف الدولة بعدم مراعاة الودّ والعهد!.»[٢٥٤]

---

(٢٥٣) شرح المضنون به على غير أهله٤٢٧.

(٢٥٤) شرح المضنون به على غير أهله ٤٢٧.

د - التهكم والتحقير:

- قال بعضهم :

١ - أعاذلُ ماعُمْري وهلْ لي وقد أتَتْ * لِداتي على خمسٍ وستِّينَ مِن عُمري

خرجت صيغة الاستفهام في قوله:(ماعمري...) عن معناها الأصلي الذي وُضعتْ له ؛ من مجرد طلب الإجابة عن السؤال وَفق حقيقته إلى غرض بلاغي قصده الشاعر حين طرح هذا السؤال أو الاستفهام ؛ ذلك هو غرض (التحقير) الذي دل عليه السياق وقرينة الحال في خطابه عاذلته التي كانت تعتب عليه وتلومه على الإنفاق وتخوّفه العواقب ؛ فقال لها : (أعاذل ماعمري...) ؛ قال المرزوقي مبيناً ذلك في صدر شرح البيت :

« وقوله : (ماعمري) استفهام على طريق التحقير والاستقلال؛ فكأن العاذلة كانت عتبت عليه في تبذير وإنفاق ، وخوّفته العواقب وما تؤدّي إليه باتّفاق؛ فأخذ يجيبها ويقول: ياعاذلة: أيُّ شيء عمري وكيف يدوم بقائي حتى أُخوَّف بالفقر؟ ، وهل لي عُمرٌ وأقراني يَعُدُّون خمساً وستين سنة. ثم أخذ يَذُمُّ الحريص على الدنيا وأعراضها ، ويقصُّ ماتستوي فيه أقدام الخلائق من إرصاد الفناء لها...»(٢٥٥)

وقد ورد هذا الكلام عند التبريزي بتصرف واختصار يسير!(٢٥٦)

ولقد أحسن المرزوقي في بيانه هذا ؛ فقد قرّر أن الاستفهام على غير حقيقته ؛ وأنه لغرض (التحقير والاستقلال) ، كما كشف عن طبيعة هذا الغرض، وكيف دلّ عليه السياق وقرينة الحال بما أوضحه من شرح وبيان ذكَر فيه هذه العاذلة ، وبين أن مناسبة قول البيت والأبيات التي بعده إنما كان رداً عليها سفاهة رأيها -كما يراه الشاعر- ثم حقَّر عمره ، وأنه عمر حقير قليل لايستحق كل هذا العتب والعذل منها. فهو عمر حقير ؛ لأنه عمره وحده وليست أعمار كثيرة، ولما كان عمره الذي يستقل

---

(٢٥٥) شرح ديوان الحماسة٣/١١٥٦. وذمّ الشاعر الحرص على الدنيا وموعظته في ذلك الشأن كان في بيتين تليا هذا البيت.

(٢٥٦) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/١٥٤.

به هو وحده فهو قليل مهما طال لن يتجاوز مايعدّه لداته وأقرانه من أعمارهم. ولذلك كان غرض الاستفهام مبنياً على (التحقير والاستقلال) بل وعلى (التهكم) بهذه العاذلة اللائمة له!.

ولم أتبيّن نماذج للاستفهام في غرض (التهكم والتحقير) عند الأنباري والتبريزي في شرح المفضليات ، ولا عند النمري في شرح الحماسة، ولا عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات ، ولا المرصفي في أسرار الحماسة ، ولا عند العبيدي في شرح المضنون به على غير أهله.

هـ - التعظيم:

- قال المرقّش الأصغر:

٣٢ - أمِنْ حُلُمٍ أصبحتَ تَنْكُتُ واجماً * وقد تعتري الأحلامُ مَنْ كان نائما

صدّر التبريزي شرح البيت بكلام نقله عن المرزوقي ؛ يقول فيه :

« قوله : (أمن حلم) كلام مُستعظِمٍ لأمر مُنِي به ، وخطب اتفق عليه ، حتى صار كأنه يرى في المنام ماجرى عليه ....كأنه راجع نفسه نادماً ؛ فقال: أحُلْمُ نائمٍ مـاأرى بنفسي حتى صرت أفعل مايفعله الحزين النادم؛ من قَرْع السِّنِّ ونكت الأرض..»[٢٥٧]

والتبريزي والمرزوقي لم يُصرِّحا بذكر مصطلح الاستفهام ولا غرضه الذي خرج إليه . وهذا قصور لايصله أو يكمله مايُشعر به بعض تراكيب نصّهما المذكور آنفا من نوع دلالة على هذا الاستفهام وغرض التعظيم فيه .

ولئن كان المرزوقي والتبريزي قد ألمّا بهذا الاستفهام وغرضه البلاغي من خلال هذا النص فإن الأنباري لم يتكلم على هذا الاستفهام أو يشر إليه بشيء؛ لامن قريب أو بعيد ؛ فباء بالقصور في البحث البلاغي هنا كاملاً ؛ كما هو سمته في عامة

---

(٢٥٧) شرح اختيارات المفضل ٢/١١٠٥ وحاشيتها ، ١١٠٦.

مباحث الإنشاء وأغراضه التي تقدمت!.[٢٥٨]

وهذا النموذج - على علّاته - هو مارأيته للاستفهام بغرض (التعظيم) في شروح الاختيارات الشعرية.

و - الاستبعـــاد:

- قال مُتَمِّم بن نويرة :

٣٩ - ولقد علمتُ ولا محالةَ أنني * للحادثاتِ فهــلْ تريـــني أجْزَعُ؟

أوضح التبريزي - إيضاحاً غير مباشر- أن الاستفهام في البيت ؛ في قوله: (فهل تريني أجزع ؟) خارج عن معناه الحقيقي أو الأصلي إلى تحقيق غرض بلاغي رامه الشاعر في هذا الاستفهام ؛ وهذا الغرض البلاغي هو (الاستبعاد) ، وهو غرض يستفاد من سياق الكلام وقرينة الحال؛ وهي مقام الافتخار والتمدح وإظهار الصبر والجلد ، وغيره ؛ مما دلّ عليه الأبيات التي قبله وبعده .

يقــول التبريـزي في بيــان الغرض البلاغي لهذا الاستفهام عنــد الشاعــر: « استبعد أن يكون جَزَعٌ منه مع حصول مالامَعدِل عنه.»[٢٥٩]

وقد اكتفى التبريزي بهذا الكلام شرحاً للبيت ، وبياناً للاستفهام فيه وغرضه، وإن كان لم يصرّح بمصطلح الاستفهام أو غرضه صراحة، لكن ذلك يفهم ضمناً من كلامه الموجز عليه ، ولا يغني ذلك عن عدم التصريح؛ لأهمية النص على المصطلحات البلاغية ونكاتها في البحث البلاغي.

وأيّاً ماكان فهو أفضل جهداً من الأنباري الذي لم يقف عند هذا البيت ببيان معنى الاستفهام فيه ، وغرضه البلاغي، ولو كان ذلك بطريق غير مباشر كالذي ورد عند التبريزي آنفا!.[٢٦٠]

---

(٢٥٨) انظر شرح المفضليات ٥٠٣.

(٢٥٩) شرح اختيارات المفضل ٢٧٣/١.

(٢٦٠) انظر شرح المفضليات ٧٨.

ز - التوبيخ والتقريع:

- قال مزرّد بن ضرار:

١ - ألا يالَقَومِ والسفاهةُ كاسْمها * أعائدتي مِن حُبُّ سلمى عوائدي؟

وقف التبريزي عند استفهام الشاعر في قوله : (أعائذتي) فبيّن أن الاستفهام هنا خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ وتفظيع الشاعر أمر نفسه وتقريعها بأن ترعوي عن غيِّها وتماديها في الهوى ؛ يقول التبريزي؛ نقلاً عن المرزوقي في ذلك:

« ... وقوله : (أعائذتي) لفظه استفهام ومعناه التقريع والتفظيع، ....،...،

والمعنى: أتعودني العوائد ؛ لافتتاني بهذه المرأة وحُبِّي لها؟ ..»(٢٦١)

وقد كان المرزوقي والتبريزي دقيقين؛ حين تكلما على الاستفهام في هذا البيت مستصحَبين ذكر مصطلحه والغرض البلاغي الذي خرج إليه.

أما الأنباري فلم يذكر شيئاً عن هذا الاستفهام ألبتّة!.(٢٦٢)

ولقد أحسن الشاعر في تصوير ضلاله وضياعه؛ حين أجاد جداً في نظم هذا البيت وسبكه ورصفه ؛ فبدأه بقوله :(ألا يالَقوم) عارضاً لقومه مستنجداً بهم مستغيثاً ، ثم تصويره البديع في قوله :(والسفاهة كاسمها)؛ حين جعل من اسم السفاهة دليلاً على قبحها ونفور النفس منها، ثم في جملة الاستفهام التي اشتمل عليها الشطر الثاني من البيت ، ولقد جاءت جملة الاستفهام هذه في موقعها مؤدية غرضها ؛ حيث دلّتْ بقوة على غرض التقريع والتفظيع مع توبيخ الشاعر لنفسه وتبكيتها بهذا الضلال والغي الذي يخشى وروده وملاحقته إياه في كل لحظة وحين ، وإنّ مما زاد في قوة أداء الشاعر لهذا الغرض الاستفهامي مجيئه بعد التركيبين الأولين في الشطر الأول من البيت اللّذين اشتملا على تصويرين لمعنيين أجاد فيهما كثيراً ؛ على نحو ماسبق بيانه.

---

(٢٦١) شرح اختيارات المفضل ١/٣٦٥ وحاشيتها.

(٢٦٢) انظر شرح المفضليات ١٢٧، ١٢٨.

- وقال المُسَيَّب بن علس:

١ - أَرَحَلْتَ من سلمى بغير متاع * قبل العُطاس ورُعْتَها بوداع؟

الاستفهام في هذا البيت على غير حقيقته ؛ إذ الشاعر لم يرد الاستفهام عمّا ذكر حقيقة؛ لعلمه بذلك ، وبخاصة أنه يخاطب نفسه ، على طريقتهم من مذهب (التجريد) المعروف . لكن الشاعر أخرج هذا الاستفهام إلى غرض بلاغي آخر أراده في نفسه وقصد إليه في نظم بيته ؛ ذلك أنه رجع إلى نفسه يخاطبها موبخاً لها ومُقرِّعاً إياها بما فعله - مما أشار إليه في البيت - على سبيل التّندم والتحسر والتوجع والتشكّي.

وقد نبّه التبريزي إلى غرض الشاعر من هذا الاستفهام ؛ فقال: « الألف من (أرحلت) لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى : التقريع ، والخطاب للنفس.»[٢٦٣]

فالاستفهام لغرض التوبيخ والتقريع ؛ إظهاراً للشكوى بطريق التحسر والتوجع!.

وقد أحسن التبريزي في بيانه الاستفهام وغرضه عند الشاعر، ومع أنه أفاد ذلك من المرزوقي فهو خير من الأنباري الذي لم يشر إلى هذا الاستفهام ، ولا إلى غرضه أو حقيقة الخطاب فيه !.[٢٦٤]

- قال سبرة بن عمرو الفقعسي ، وعيّره ضمرةُ بن ضمرة كثرة إبله:

أعيَّرْتَنا ألبانَها ولُحومَها * وذلك عار يابنَ رَيطةَ ظاهر

يذكر أبو عبد الله النمري أن الألف في (أعيرتنا) ألف (التبكيت). ومعنى هذا أن الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي إلى غرض بلاغي يفاد من السياق وقرينة الحال؛ هوالتقريع والتبكيت .

قال النمري مبيّناً ذلك:

« يقول: إبلنا التي عيّرتَ كثرتها هي للنحر والحلب، أفهذا عيرتنا؟ . وهذه ألف

---

(٢٦٣) شرح اختيارات المفضل ١/٣٠٢ وحاشيتها .

(٢٦٤) انظر شرح المفضليات ٩٢

التبكيت ، وقوله : (عار ظاهر) أي لايستحيا منه فيكُم ، والمعنى : أنه ليس بعار . ويقال:(ظهر بحاجته): إذا لم يُعَنْ بها ، ومنه قوله عزّ وجلّ :﴿واتخذتموه وراءَ كم ظِهْريا﴾، وهذا كقول أبي ذؤيب:

وعيّرها الواشون أنّي أُحِبُّها * وتلكَ شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها»(٢٦٥)

وقد أحسن أبو عبد الله النمري في هذا البيان ؛ للدلالة على هذا الاستفهام وغرضه البلاغي.

وقال شمّاس بن أسود:

١ - أغرّكَ يوماً أن يُقَالَ :ابنُ دارِمٍ * وتُقْصى كما يقصى من البَرْكِ أجربُ

قال المرزوقي في بيان غرض الاستفهام الذي خرج إليه هنا:

« لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى التوبيخ والتقريع.»(٢٦٦)

ومثل ذلك ذكره التبريزي ؛ حين قال: « قوله : (أغرّك يوماً) لفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه التوبيخ.»(٢٦٧)

- وقال حكيم بن قبيصة:

٣ - أقُرصٌ تُصلّي ظَهرهُ نَبَطيَّةٌ * بتنُّورها حتى يـطيرَ له قِشْرُ

٤ - أحبُّ إليكَ أم لِقاحٌ كثيرةٌ * مُعَطَّفَةٌ فيها الجليلةُ والبَكْرُ

خرج الاستفهام هنا عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي؛ هو (التبكيت والتوبيخ والتقريع) ؛ لأن الشاعر أراد تبكيت مخاطبه - وهو ابنه - وتقريعه وتوبيخه على فِعلته التي فعلها ؛ من عصيانه والده ، وتركه إيّاه والبادية إلى الحاضرة. ولقد أجاد المرزوقي في بيان غرض الاستفهام ومراد الشاعر منه ؛ حين قال في ذلك :

« هذا الاستفهام أتى به على طريق التبكيت ، وليُرِيَه الخطأ فيما اختاره من الحضر على البدو ، ومن تَرْك والده والعصيان له أشدَّ ماكان حاجة إليه ، فقال:

---

(٢٦٥) معاني أبيات الحماسة٦٢.

(٢٦٦) شرح ديوان الحماسة٢/ ٥١٠.

(٢٦٧) شرح ديوان الحماسة٢/ ٨٦.

أَقْرصٌ تُنضجه في التَّنُور امرأةٌ خبّازة نبطيّة حتى يصير له قُرافةٌ تتقشَّر عنه أحب إليكَ أم نوق حوامل كثيرة قد عُطفتْ على أولادها ، وفيها الجَلالة الكبيرة والأفتاء القوية ؛ يريد : أن فِعله فعلُ من لايُفرِّق بين هاتين الخصلتين ، ولا يميز الرُّجحان في أيِّ جانبيهما يكون فيختاره.»(٢٦٨)

ولم يردهذا الكلام أو شيء مثله أو قريب منه عند التبريزي في أثناء شرحه البيتين ، مع أنه نقل - بالنّصّ - آخر شرح المرزوقي المتعلق بالمعنى اللغوي لكلمة (تُصلِّي) ، وترك القسم الأول من شرحه المشتمل على الكلام على الاستفهام وبيان غرضه وشرحه الوارد في النص الآنف ذكره عند المرزوقي. أما البيت الثاني فلم يشرحه أو يقف عنده ألبتة !.(٢٦٩)

- قال آخر:

أأكرمُ من ليلى عليَّ فتبتغي * به الجاه أم كنتُ امرءاً لاأُطيعُها؟

بيّن العبيدي أن صيغة الاستفهام في البيت خرجت عن معناها الأصلي أو طلبها الحقيقي إلى غرض بلاغي يدل عليه سياق الكلام وقرينة الحال؛ وهذا الغرض هو التقريع والإنكار؛ قال العبيدي:

« .... ثم قال : (أ أكرم من ليلى عليَّ) فأتى بلفظ الاستفهام ، والمراد : التقريع والإنكار، كأنه أنكر منها استعانتها بالغير عليه وطلب الشفيع فيما أرادتْ لديه.»(٢٧٠)

وقد جمع العبيدي بين(التقريع والإنكار) في غرض الاستفهام ؛ ليدل بذلك على أن الغرض ليس لمجرد الإنكار المحض، أو التقريع المحض، ولكنه تقريع مشوب بالإنكار وعدم الرضا أو القبول بما صَنَعتْهُ مُخاطبةُ الشاعر ؛ ولذلك حاول الشاعر أن يوبّخها توبيخاً لطيفاً ، وينكر عليها - بلطف - هذا الصنيع ؛ لعلها تراجع نفسها وتثق به ؛ فلا تبعث شفيعاً ولا وسيطاً بينهما!.

---

(٦٦٨) شرح ديوان الحماسة٤/١٨٢٦.

(٢٦٩) انظر شرح ديوان الحماسة٤/٣٢٢، ٣٢٣.

(٢٧٠) شرح المضنون به على غير أهله٢٣١.

ج - التوجّع والتحسُّر:

- قال الحارث بن حلّزة اليشكري:

١ - لِمَنِ الديارُ عَفونَ بالحِبْسِ * آياتُها كمهارِقِ الفُرسِ ؟

ذكر التبريزي - نقلاً عن المرزوقي- أن الاستفهام في البيت جاء لغرض التوجع والتشكّي والتحسر؛ « ... قوله :(لمن الديار؟) لفظه استفهام والمعنى : التوجع، لما وجد الدار عليه من الدروس حتى صار في حكم مايشتبه فيُتَشكَّكُ ولا يُعرف.»(٢٧١)

ولم يتكلم الأنباري بشيء على هذا الاستفهام وغرضه البلاغي عند الشاعر؛ حين شرحه هذاالبيت !.(٢٧٢)

- وقال عبدة بن الطبيب:

١ - هل حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ * أم أنتَ عنها بعيدُ الدار مشغولُ

يرى التبريزي رأيَ المرزوقي في أن الاستفهام هنا على غير حقيقته، وأنه أتى لغرض التوجع والتحسر لمّا تعذر وصلها ؛ ولذلك فإن (أم) - عندهما - في قوله : (أم أنت...) هي (أم المنقطعة) التي بمعنى : بل التي للإضراب ، وتجيء للتحول من قصة إلى قصة.(٢٧٣)

أما الأنباري فالظاهر من تعليقه على معنى الاستفهام في البيت أنه يراه جارياً على حقيقته؛ بدليل أنه فسّر هذا الاستفهام بمدلوله الحقيقي؛ حين قال: «يقول: هل تصلها ؟ أم تقطعها لشغلك وبعدك عنها.»(٢٧٤)

على أن الأنباري لم يتكلم على هذا الاستفهام إلا بهذه العبارةالتي أوضح فيها طبيعته ، وأنه على وجهه الحقيقي، ولم يكن لأداء غرض بلاغي، هو (التوجع والتحسر) ؛ على نحو ماذكره المرزوقي والتبريزي ، بل إن الأنباري لم يذكر حتى

---

(٢٧١) شرح اختيارات المفضل ٢/٦٣٢ وحاشيتها.

(٢٧٢) انظر شرح المفضليات ٢٦٣.

(٢٧٣) انظر شرح اختيارات المفضل ٢/٦٤٣، ٦٤٤ وحاشيتها.

(٢٧٤) شرح المفضليات ٢٦٨.

مصطلح (الاستفهام) وإنما اكتفى بهذه العبارة المذكورة آنفاً لتفسيره والدلالة على معناه الحقيقي!.

والصواب ماذهب إليه المرزوقي والتبريزي ؛ من أن الاستفهام خرج عن حقيقته إلى غرض بلاغي ؛ هو (التوجع والتحسر)، ويؤيّد ذلك التأمل الدقيق في سياق البيت والأبيات التي بعده ، وقرينة حال الشاعر التي عبر عنها . و(أم) منقطعة إضرابية ناقلة في حسن تخلّصٍ الكلامَ والمعنى من حال إلى حال أو من قصة إلى أخرى.

- **وقال عويف القوافي:**

٥ - ام مَنْ يُهينُ لنا كرائمَ مالِه * ولنا إذا عُدْنا إليه مَعادُ

قال المرزوقي:

« أم هذه هي المنقطعة. والاستفهام دخل في الكلام على طريق التوجع والتلهُّف لما جرى على عُيينة المذكور . والمعنى : لو فقدناه من كان يبذل لنا عقائل أمواله ، ومتى شئنا وجدنا عنده معاداً فلا يَملُّ السؤال ، ولا يُغِبُّ النوال، وهذا الكلام تنبيه على أنه كان يديم الإحسان ، ولا يحول عطاءُ يومه دون عطاء غده.»[(٢٧٥)]

وكما قرّر المرزوقي فقد خرج الاستفهام في البيت إلى تحقيق غرض (التوجّع والتلهف) بدلالة قرينة الحال والسياق في البيت والأبيات التي قبله ؛ إن الشاعر يتوجع ويتلهف تحسراً على ممدوحه الكريم المفضال الذي وقع له من النكال والتضييق عليه ماوقع فهو يتوجع عليه تحسراً ويتلهف على فقده وعدم من يسد مسده في الملمات وقضاء الحاجات المعوزات.

ولم يزد التبريزي عما ورد عن المرزوقي بل نقله عنه بنصه ؛ أعني مايخص الاستفهام وغرضه في البيت ، دون مايتصل من كلام المرزوقي بشرح المعنى وبيانه وفق غرض الاستفهام ، فقد أتى به التبريزي بعبارة موجزة صاغها من عنده.[(٢٧٦)]

---

(٢٧٥) شرح ديوان الحماسة١/٢٦٤.

(٢٧٦) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٥٦.

ط - الشكوى :

- قال تابط شراً :

٢٠ - يامَنْ لعذَالةٍ خذَالةٍ أشِبٍ * حرّق باللّوم جلدي ايَّ تَحْراقِ

خرج معنى الاستفهام - مع النداء - هنا ؛ في قوله : (يامَنْ لعذّالة..؟) إلى غير حقيقته فأفاد غرضاً بلاغياً هو (الشكوى مع التعجب).

ذكر ذلك التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - مثيراً تساؤلاً لطيفاً عن النكتة البلاغية الكامنة في حذف المنادى في قوله :(يامن لعذالة؟) والأصل في النداء بل في الاستفهام في هذا النداء أن يتوجّه إلى منادى معين !،، وقد أجاب عن ذلك بأن القصد هنا ليس إلى المنادى بذاته ؛ لأن الشاعر يائس من صريخه له وغوثه إياه ؛ فلا فائدة من تخصيصه بالذكر وتعيينه بالاسم ؛ ولذلك حُمِل الكلام على أن المنادى محذوف يُقدَّر بمثل : (ياقوم) ، (ياناس) ، وهو منادى عام غير مخصوص.

وعلى هذا . فإن الاستفهام بطريق النداء هنا إنما قصد الشاعر به إلى إظهار الشكوى والتشكي من أمر خفيَ عليه طريق الخلاص منه ، وأنه عاجز عن إصلاح أمره والخروج من ورَطته ؛ ولذلك فإن غرض الشكوى والتشكي هنا مشوب بشيء من التعجب.

وللتبريزي كلام مستفيض في بيان الغرض البلاغي لهذا الاستفهام مع ماصحبه من نداء ، وفي الإجابة عما أثاره من تساؤل حول المنادى المحذوف ، وهو كلام مفصل دقيق يحسن إيراده بنصه ؛ لأنه جهد حسن لطيف، وإن كان التبريزي نقله عن المرزوقي إلا أنه تصرف فيه من عنده ؛ يقول :

«وقوله:(يامن لعذّالة) المنادى محذوف ؛ كأنه قال: ياقومُ مَنْ لعذّالة؟ والكلام شكوى ، ويشتمل على تعجّب . وقوله : (حرّق باللوم جلدي) جعل للوم حرارة تحرق الجلد بعد تأثيره في القلب. وانتصب (أيَّ تحراق) على المصدر ؛ وفيه معنى التعجب أيضاً ،،،،،،، وهو مَثَلٌ لشدّة تأثير اللوم في جسد المَلُوم . فإن قيل : ماالفائدة في حذف المنادى في قوله : (يامَنْ لعذّالة) والاستفهام الواقع بعده إلى مَنْ تَوجّه والمنادى ليس في الكلام ؟. قلتَ : إن قصد المتكلم بمثل هذا الكلام إلى إظهار

التـألُّم والتـوجُّع من أمـر خَفِي عليـه وجـهه وطريقـة الخـلاص منه ، وفي ذكـر حـرف النداء توصلٌ إلى هذا العذر ، فأما المنادى فهو يائس من غوثه وظهور فرج من عنده، فلا فائدة في تخصيصه بالذكر ؛ ولذلك فُسِّر بأنه أراد: (ياناس) أو (ياقوم). وأما الاستفهام فالمراد منه : بيان العجز عن مداواة ماركبه ؛ فكأنه يريد : قد أعيا دفع هذا العاذل عن النفس، فمن يكفيني أمره أو يقيني شرّه؟.»(٢٧٧)

وقد أورد الأنباري البيت برواية: (بل مَنْ لعذالة) ، وأورد رواية أخرى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ؛ (ثعلب): (بل مَنْ لعاذلةٍ) ، كما أنه أورد رواية التبريزي المذكورة في البيت ؛ (يامَنْ لعذّالة)، وقال عنها : « يريد : ياهؤلاء : من لعذّالة.» . ويرى الأنباري أن الشاعر إنما أراد رجلاً ؛ « وإنما قال: عذّالة وهو يعني رجلاً ؛ أراد المبالغة ، كقولهم علاّمة ونسّابة.»(٢٧٨)

ورواية الأنباري:(بل مَنْ لعذّالة) توافق رواية ديوان المفضليات.(٢٧٩).

كما أن رواية ثعلب؛ (بل من لعاذلةٍ) توافقهما؛ في كونها مجرّدة من (يا) النداء التي سبقت حرف الاستفهام ؛ وعلى هذا يكون البيت خالصاً في الاستفهام دون النداء ، ويكون الغرض منه: إظهار الشكوى المشوب بالتعجب.

ولقد أحسن الأنباري في إيراده هذه الروايات المختلفة وفي كلامه عليها ، لكنه قصّر حينما لم يشر – ولو مجرد إشارة – إلى بلاغة الاستفهام في البيت مع أن البلاغة فيه ظاهرة– كما رأيت – ؛ من أن هذا الاستفهام كان لغرض إظهار الشكوى مع التعجّب.

ولعل مما زاد في إظهار الشكاية بصورة واضحة عند الشاعر في استفهامه هذا – أن صحب النداء الاستفهامَ في قول الشاعر:(يامَنْ لعذّالة؟!.) –وذلك حسب رواية التبريزي–؛ فالنداء يلوِّح بالاستصراخ وطلب الغوث والنجدة ؛ لأمر حلّ بالمنادِي المتكلم . ودلالة هذا النداء مع استصحابه الاستفهام زاد في إظهار غرض الشكاية في البيت .

(٢٧٧) شرح اختيارات المفضل ١/ ١٣٠، وحاشيتها ، ١٣١.
(٢٧٨) شرح المفضليات ١٨.
(٢٧٩) انظر ديوان المفضليات ٣٠.

أماماخالط غرض الشكوى من إرادة التعجب فهو ظاهر كذلك عند أدنى تأمل فيما تلا تركيب الاستفهام والنداء من مفردات البيت وتراكيبه.

ولا ينبغي أن يقولن أحد: إن غرض الشكوى من غرض التوجع والتحسر؛ فليس للتبريزي - أو المرزوقي - أن يُفرد أحدهما عن الآخر ؛ أو ليس لي أن أجعل غرض (التوجع والتحسر) ؛ وغرض (الشكوى) غرضين مستقلين من الأغراض البلاغية لصيغة الاستفهام ؛ ذلك بأن غرض: (التوجع والتحسر والتلهف) أشبه بالغرض العام ينطوي تحته غرض خاص هو (الشكوى) ؛ بمعنى أن كل توجع وتحسر يمكن أن يتضمن شكوى ، وليس شرطاً أن يكون كل شكوى توجعاً وتحسراً؛ فبينهما عموم وخصوص من وجه.

إن غرض (الشكوى) يشوبه أحياناً شيء من التوجع والتحسر كما هو في هذا الاستفهام في البيت ؛ ولذلك قال التبريزي أثناء بيانه عن حذف المنادى :« ...إن قصد المتكلم بمثل هذا الكلام إلى إظهار التألم والتوجع من أمر خفي عليه وجهه وطريقة الخلاص منه...»؛ فسمّى الشكوى توجعاً وتألماً وقد قرّر قبلُ أن غرض الاستفهام الشكوى مع التعجب؛ حين قال:« والكلام شكوى ويشتمل على تعجب»، كما أن قوله بعد - في نصه الآنف ذكره - : « وأما الاستفهام فالمراد منه: بيان العجز عن مداواة ماركبه ؛ فكأنه يريد: قد أعيا دفع هذا العاذل عن النفس؛ فمن يكفيني أمره أو يقيني شرَّه؟!.» ؛ هذا القول من التبريزي - والمرزوقي- يؤكّد أن غرض الاستفهام الشكوى مع التعجب ، وهذا ظاهر؛ بدلالة البيت وسياقه ، وقرينة حال الشاعر، وتفسير التبريزي الواضح المفصل الدقيق.

إن (التوجع والتحسر والتلهف) غرض عميق عام؛ أما عمقه فلاتصاله بأعماق النفس وتباريحها ومعاناتها الخاصة، وأما عمومه فلصحة أن ينطوي تحته أغراض فرعية تتصل بالشكاية وبث الأحزان والأخبار المُؤرِّقةُ المقْلِقة التي تنتاب النفس والشعور بقصد التسلي والتنفيس عن النفس وترويحها.

فغرض التوجع والتحسر ذاتي ، وغرض الشكوى ذاتي غَيْرِيّ ؛ بمعنى أنه يمتد الشعور به إلى الغير؛ لابالعلم به فقط، وإنما - أيضاً- بمحاولة الشاكي أن يجد

له مخرجاً من شكاته وأن يشاركه أحد في حل مشكلته ، وليس في الشعور بها فحسب ؛ وهذا مايشعر به بوضوح الاستفهامُ في بيت تأبط شراً ، محلّ البحث هنا والدرس .

على أن لمسألة السياق وقرائن الأحوال اعتبارات عِدّة تجعل الأغراض البلاغية للاستفهام - وغيره - كثيرةً متعددة . فتحكيم السياق وقرينة الحال واستصحابهما ضرورة ملحة في فهم كثير من أغراض المسائل البلاغية ونكاتها ، كما أنها وراء تداخل كثير من هذه الأغراض والنكات البلاغية بعضها في البعض الآخر.

ولذلك يقول الدكتور/ فضل حسن عباس في خاتمة بحثه صيغة الاستفهام ، وأغراضه البلاغية التي عدّد منها ثمانية عشر غرضاً :

« وأنبهك أخيراً إلى أمرين اثنين:

١ - أن هناك أغراضاً غير هذه يمكن أن تفهم من السياق.

٢ - قد يكون هناك تداخل بين هذه الأغراض،.....»[٢٨٠]

ي - التجلُّد والتصبُّر :

- قال المرقش الأكبر:

٥ - ياخولُ مايدريكِ ربَّةَ حُرَّةٍ * خودٍ كريمة حيِّها ونسائها

٦ - قد بِتُّ مالِكَها وشاربَ رَيَّةٍ * قبل الصباح كريمةٍ بسبائها؟

نقل التبريزي شرح البيت عن المرزوقي ، ومجمل هذا الشرح يدور حول بيان حقيقة وجه الاستفهام فيه ؛ قال:

« (مايدريك) استفهام ، وهذا الكلام تجلُّد ، وقلّة احتفال بفراقها ، وأنه قد سبق إلى فراق مَنْ كان أعظم شأناً منها.»[٢٨١]

أما الأنباري فلم يقف عند البيت إلا بقوله :« يقال : ربَّما، وربَّتما ، وربَما»[٢٨٢]، وهذه

(٢٨٠) البلاغة فنونها وأفنانها١٤٦.

(٢٨١) شرح اختيارات المفضل١٠٤٢/٢ وحاشيتها.

(٢٨٢) انظر شرح المفضليات ٤٨٠.

عادة الأنباري في مباحث أغراض الاستفهام ؛ لايعطيها ماتستحقها من عناية في البحث البلاغي!.

فغرض الاستفهام في البيت هو التجلُّد والتصبر وقلة الاحتفال بالفراق . ودلالة البيت وسياق البيت الذي بعده ظاهران في الدلالة على هذا الغرض.

ك - التمني:

- قال المرقش الأكبر:

١٦ - فهل تُبلِّغني دارَ قومي جَسْرَةٌ * خنوفٌ علَنْدًى جِلْعَدٌ غيرُ شارِفِ ؟

الاستفهام في مطلع البيت وإن كان ظاهره من حيث اللفظ الاستفهامُ وطلب الجواب إلا أنه لايطلب به حقيقة الاستفهام وطلب الجواب، وإنما هو محمول على التمني من قبل الشاعر للقاء قومه إظهاراً للوجد بهم وبديارهم.

هذا بعض مانقله التبريزي عن المرزوقي في شرح البيت فيما يخص مبحث الاستفهام فيه .(٢٨٣)

ونقل التبريزي أيضاً عن الأنباري بعض تفسيره لمفردات البيت . لكن الأنباري لم يذكر الاستفهام أو يشر إلى غرضه !.(٢٨٤)

وعلى هذا فغرض الاستفهام في هذا البيت هو (التمني) ؛ إذْ دلالة سياق البيت وقرينة حال الشاعر يؤيدان أنّ غرض الشاعر من هذا الاستفهام أنه يتمنى أن تُبلِّغه هذه الناقة - التي وصفها بما ذكر - دار قومه وديارهم.

- وقال علقمة بن عبدة :

١٤ - هل تُلْحقَنِّي بأخرى الحيِّ إذْ شَطَنوا * جُلْذِيَةٌ كأتانِ الضَّحْلِ علْكومُ؟

قال التبريزي- نقلاً عن المرزوقي - في بيان غرض الاستفهام في البيت :

---

(٢٨٣) انظر شرح اختيارات المفضل ١٠٣٨/٢ وحاشيتها.

(٢٨٤) انظر شرح المفضليات ٤٧٨.

« (فهل تُلحقنّي) لفظه استفهام ، ومعناه يمتزج به معنى (التّمنّي).»[٢٨٥]
ولم يذكر الأنباري عن غرض هذا الاستفهام شيئاً !.[٢٨٦]
وغرض (التمني) ظاهر من مراد الشاعر بهذا الاستفهام في البيت .

- وقالت امرأة من طيء:

٣ - اما في بني حِصْنٍ مِن ابنِ كريهةٍ * مِن القوم طلّابِ التِّراتِ غَشَمْشَمِ

ذكرالمرزوقي أن الاستفهام في البيت على غير حقيقته ؛ وأنه سيق لغرض (التمني) ؛ على سبيل البعث والتحضيض لأبناء هذه القبيلة بطلب الدم وإدراك الثأر[٢٨٧]

وأشار التبريزي إلى مضمون ماورد عند المرزوقي ، من أن الشاعر يعني البعث على طلب الدم والحضّ على إدراك الثأر . لكنه لم يشر إلى مصطلح الاستفهام، وأنه جاء على غير حقيقته لأداء غرض (التمني) ؛ على نحو ماعند المرزوقي؛ من نصّه على مصطلحي: الاستفهام والتمني. وكلامه عليهما . وهذا قصور عند التبريزي في بحث صيغة الاستفهام هنا وغرضها البلاغي!.[٢٨٨]

- وقال حندج بن حندج:

٤ - متى أرى الصبحَ قد لاحتْ مخايلهُ * والليلَ قد مُزّقَتْ عنه السّرابيلُ

قال المرزوقي :« قوله : (متى أرى الصبح) لفظه استفهام ، ومعناه التمني والتطلع واستبعاد المنتظر المترقّب.»[٢٨٩].

وقال التبريزي:« متى ؟: لفظه استفهام ومعناه التمني.»[٢٩٠]

---

(٢٨٥) شرح اختيارات المفضل ١٦٠٨/٣ وحاشيتها .
(٢٨٦) انظر شرح المفضليات ٧٩٨.
(٢٨٧) انظر شرح ديوان الحماسة ٢١٣/١.
(٢٨٨) انظر شرح ديوان الحماسة ٢١٢/١، ٢١٣.
(٢٨٩) شرح ديوان الحماسة١٨٣٠/٤.
(٢٩٠) شرح ديوان الحماسة٣٢٦/٤.

فغرض الاستفهام عند الشاعر في قوله : (متى أرى الصبح ...) خرج عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي ؛ هو (التمني)، وقد دل عليه سياق البيت والأبيات قبله وبعده ، كما يدل عليه قرينة حال الشاعر الأرِقَة التي طال تململها وانتظارها!.

- وقال أبو فراس الحمداني:

أما ليلةٌ تمضي ولا بعضُ ليلةٍ * أسَرُّ به هذا الفؤاد المفجَّعا؟

قال العبيدي:« دخلت همزة الاستفهام على ما النافية فنقلت معناه إلى التمني؛ فتمنى أن تمضي ليلة أو بعضها أُسَرُّ ببعض الليلة هذا القلب المفجَّع المجروح ؛ يعني لم يمض زمان أُسَرُّ به.»[٢٩١]

فالكلام قبل دخول همزة الاستفهام يُحمل معناه على النفي؛ لسبقه بما النافية.لكن لما دخلت عليه همزة الاستفهام وتقدمت (ما) نسختْ معناه من النفي إلى الاستفهام ، وصار الاستفهام على غير ظاهره وحقيقته - من طلب السؤال المجرد - وإنما كان لغرض بلاغي رامه الشاعر وقصد إليه ؛ وهو غرض (التمني) ، وقرينة حال الشاعر وسياق البيت يدلان على هذا الغرض؛ لأنه شاعر حزين فأصبح يتمنى ليلة أو بعضها ليُسَرَّ أو ليَسُرَّ بها قلبَهُ المفجوع الحزين الكئيب!.

ل - النفي :

- قال سلامة بن جندل:

٣ - هل في سؤالكَ عن أسماءَ مِن حُوب * وفي السَّلام وإهداء المناسيبِ

ذكر التبريزي نقلاً عن المرزوقي أن الاستفهام خرج عن أصله إلى غرض آخر يفيده السياق وقرينة الحال؛ وهو (النفي) .

---

(٢٩١) شرح المضنون به على غير أهله ٤٢٦.

قال التبريزي:« هل : لفظه استفهام ومعناه النفي.»[٢٩٢]

وأوضح معنى البيت بناءً على معنى الاستفهام المسوق للنفي؛ فقال:

« ومعنى البيت : كأنه لمّا وقف على الدار يخاطبها ، ويتألّم مما تداخله منها قال – وهو يخاطب نفسه والمراد الغير– : ليس في السؤال عن حبيب ، والوقوف على داره ، والتسليم عليه ، وإهداء رقيق الغزل ولطيف الشعر إليه إثمٌ كبير.»!.[٢٩٣]

وما كان الحلال والحرام ليؤخذ عن شاعر يقول ما لا يفعل ويتبع هواه بغير هدى من الله؛ إذن لضاع الناس!.

ولم يرد هذا البيت عند الأنباري في قصيدة سلامة بن جندل.[٢٩٤]

– وقال الحارث بن حلزة:

١٠ – وإلى ابْنِ مارِيةَ الجوادِ وهل * شَرْوَى أبي حسّانَ في الإنْسِ

الاستفهام في قوله : (وهل شروى أبي حسان ...) على غير حقيقته ؛ فهو هنا لغرض (النفي) ؛ أي ليس مثل أبي حسان في الإنس أحد!.

وغرض النفي في هذا الاستفهام ظاهر يدل عليه سياق البيت ، وقرينة حال الشاعر الذي دعا نفسه إلى زيارة الملوك ثم عدّدهم بهذا البيت والذي قبله.

وقد ذكر التبريزي – نقلاً عن المرزوقي الذي نقل عنه شرح البيت – أن الاستفهام في البيت بمعنى النفي.[٢٩٥]

وقد اكتفى الأنباري بأن قال:« الشروى : المِثْل؛ والمعنى : وهل مثله أحد.» دون أن يتكلم على هذا الاستفهام وحقيقته أو بلاغته هنا!.[٢٩٦]

---

(٢٩٢) شرح اختيارات المفضل ٥٩٣/٢ وحاشيتها.

(٢٩٣) شرح اختيارات المفضل ٥٩٣/٢.، وحاشيتها.

(٢٩٤) انظر شرح المفضليات ٢٢٤–٢٤٥. وقد بلغت قصيدة سلامة بن جندل عنده(٣٢) بيتاً . بينما وردت عند التبريزي(٤٣) بيتاً ، روى منها التبريزي أولاً (٣٨)بيتاً ، ثم ألحق بها ستة أبيات ذكر أنها أول القصيدة عند المرزوقي وقد وقع هذا البيت ثالثها ؛ انظر شرح اختيارات المفضل ٥٩٠/٢.

(٢٩٥) انظر شرح اختيارات المفضل ٦٣٨/٢ ، وحاشيتها ، ٦٣٩.

(٢٩٦) شرح المفضليات ٢٦٦.

- وقال جابر بن رالان:

٥ - وأيُّ ثنايا المجد لم نَطّلِعْ لها * وأنتم غِضابٌ تَحْرُقون علينا

قال المرزوقي في بيان غرض الاستفهام عند الشاعر، وموضحاً مراده فيه:

« الاستفهام هنا يجري مجرى النفي؛ كأنه قال: ماثنيَّةٌ من ثنايا المجد إلاّ طلعنا لها ......، ....، ......، والمعنى : إنا رددنا على حسدكم لنا وتغيظكم فينا قوةً وشرفاً وعزةً وكرماً حتى لم تبق غاية من المجد إلاّ ارتقينا إليها وعلوناها.»[(٢٩٧)]

وقد ورد المقطع الأول من كلام المرزوقي عند التبريزي بنصه!.[(٢٩٨)]

والمقطع الذي نقله التبريزي هو الأهم هنا؛ لأنه اشتمل على الكلام على الاستفهام عند الشاعر ، وغرضه ، ثم بيان مراد الشاعر ومعناه بإيجاز.

- وقال العسكري في التذكر على البعد:

بل كيف أذكرُ عهداً لستُ ناسِيَهُ * هل يعرض الذكرُ إلاّ بعد نسيانِ

أوضح العبيدي أن الاستفهام في البيت ليس على حقيقته ، وإنما هو لغرض النفي هنا ؛ قال:

« و(هل)استفهام معناه : النفي؛ أي مايعرض الذكر إلا بعد نسيان، وماكان عهدكم نُسي مني فلا يعرض له الذكر.»[(٢٩٩)]

وغرض النفي في استفهام هذا البيت ظاهر من سياق البيت في شطره الأول.

م - الاستلطاف:

- قال المرقش الأكبر:

١١ - بِوُدِّكِ ماقومي على أن هجرتُهُم * إذا أَشْجَذَ الأقوامَ ريحُ أظائفِ

يجوز أن تكون (ما) في قوله :(ماقومي) استفهامية ، ويحمل الكلام حينئذٍ على معنى الاستلطاف والتلطف لقومه.

---

(٢٩٧) شرح ديوان الحماسة١/٢٣٦.

(٢٩٨) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٣٢.

(٢٩٩) شرح المضنون به على غير أهله٢٨٥.

ذكر ذلك التبريزي - عن المرزوقي - ؛ حيث قال :

« و (ما) من قوله : (ماقومي) زائدة، ....، ويجوز أن يكون (ما) استفهاماً ، والكلام استلطاف ؛ كأنه قال: بمودّتكِ أيّ شيء قومي؟ . ويكون (ما) مبتدأ ، (قومي) خبره؛ على التعظيم لهم في الشدائد.»[٣٠٠]

وتأمل في توجيهه الغرض البلاغي للاستفهام حين عدّ(ما) استفهامية، فقد قرّر أن الغرض عندئذٍ يكون للاستلطاف . واستلطاف الشاعر لقومه وتلطّفه لهم أمر وارد جداً ، وهو محمود أيضاً من الشاعر في هذا المقام؛ أما أنه وارد فلأن إضافة الشاعر لفظ قوم إلى ياء المتكلم - الذي هو هو - فيه دلالة على الاستلطاف لهم والاسترفاق بهم والتحنُّن إليهم والتودّد . وأما أن غرض الاستلطاف محمودهنا فلأن الموقف أو المقام مقام تمدّح وافتخار ، وهو مقام يناسبه الاستلطاف أو التلطف ؛ إذ التلطف باب من أبواب المدح ومدخل من مداخل الفخر؛ ولذلك ذكر التبريزي - عن المرزوقي - بعد أن ذكر أن غرض الاستفهام الاستلطاف: أن (قومي) خبر (ما) ؛ على التعظيم لهم في الشدائد. فتأمل كيف جاء بغرض التعظيم بعد غرض الاستلطاف ، وكيف جعل التعظيم مبنياً على الاستلطاف ، والاستلطاف مدخلاً للتمدّح والافتخار؟!.

وإذا كان هذا هو جهد التبريزي في بيان غرض الاستلطاف لصيغة الاستفهام في هذا البيت فهو جهد طيب اتسم بالنص على المصطلحات وعلى الإشارة الدقيقة للربط بين غرضي الاستلطاف والتعظيم ؛ على نحو ماأوضحته.

هذا وإن كان الفضل في ذلك للمتقدم؛ أعني المرزوقي الذي نقل عنه التبريزي شرح البيت كله .

والتبريزي في هذا خير من الأنباري الذي لم يأت بشيء حول هذا الاستفهام في البيت سوى أنه فسّر معنى قوله :(بودّك ماقومي) بقوله:أى بشهوتكِ أو بإلاهكِ -يُحلِّفها بإلهها وُدّ - كيف قومي وكيف وجدتيهم في معاشرتك إياهم على أنك لهم

---

(٣٠٠) شرح اختيارات المفضل ١٠٣٣/٢ وحاشيتها.

مُهاجرة[٣٠١]

وهذا مثل تفسير الشيء بالشيء ؛ بمعنى أنه فسّر الاستفهام باستفهام مثله ، وبما أنه لم يذكر مصطلح الاستفهام أو غرضه البلاغي فكأنه لم يذكر شيئا!.

٣ - الأمر:

خرجت صيغة الأمر في شروح الاختيارات الشعرية عن غرضها الأصلي إلى أغراض بلاغية عدّةٍ تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ؛ وهي :

أ - الاستلطاف والالتماس
ب - التسلية .
ج - التوجُّع والتلهُّف
د - التوبيخ.
هـ - التحذير.
و - الوعيد.
ز - التهكم والتحقير
ح - إظهار اليأس
ط - الإخبار ؛ لغرض التعجب.

وسأعرض لنماذج هذه الأغراض ودراستها في شروح الاختيارات الشعرية حسب المنهج المتبع في البحث ؛ وهو أني أورد لكل مبحث أو جزئية أو غرض ماأجده مناسباً لدى هؤلاء الشراح في شروحهم ، فإن اقتصرت على نموذج لشارح منهم لغرض من الأغراض مثلاً فلأني لم أجد سواه عند غيره ، ولا يخفى أن الأصل إيراد نماذج - لكل مبحث ، أو جزئية ، أو غرض من الأغراض لصيغ الإنشاء مثلاً - من عند كل الشرّاح ، لكن قد تتعذر الحال فأجد نموذجاً واحداً عند كل منهم لهذا الغرض أو ذاك فأقتصر عليه ، وقد أجد نموذجاً واحداً أو أكثر عند واحد أو اثنين أو ثلاثة من الشرّاح دون غيرهم فأورد هذه النماذج دون أن أذكر نماذج أخرى عند بقية هؤلاء الشارحين لعدم وجود نماذج مناسبة عندهم.

---

(٣٠١) انظر شرح المفضليات ٤٧٦.

هذا هو المنهج المتبع الذي أوضحته في مقدمة البحث والذي أشرت إليه في مواضع عدة إشارات تطبيقية ، واعتمدته في دراستي وفق مامضى - وما سيأتي ، بإذن الله - من دراسات تطبيقية في الجانب البلاغي أو النقدي في الفصول اللاحقة من البحث.

فإلى دراسة الأغراض البلاغية لصيغة الأمر من خلال نماذجها التطبيقية في شروح الاختيارات الشعرية ، وفق هذا المنهج المتبع الذي ذكرته:

أ - الاستلطاف والالتماس:

- قال المرقش الأكبر :

١ - قل لأسماءَ أنجزي الميعادا * وانظري أن تُزَوِّدِي منكِ زادا

لم يرد الشاعر بصيغ الأمر في البيت ؛ وهي قوله : (قل، أنجزي، وانظري) أن تكون على حقيقتها من حيث طلب تنفيذ هذه الأوامر تنفيذاً جازماً مقطوعاً به كما هي طبيعة فعل الأمر وحقيقته التي هي طلب تحقيق الفعل وتنفيذه بصيغة صريحة مباشرة ، ومصدره آمر أعلى إلى مأمور أدنى؛ لأن هذا الشاعر لايملك إرغام حبيبه المأمور بتنفيذ أمره ، كما أنه لايضمن منه تحقيق هذا الأمر، ولذلك كان مراد الشاعر بصيغ الأمر هذه الاستشراف إلى مأموره بشيء من المسايسة والتلطف بأن يحقق ماطلب منه ، والتطلع إليه باسترفاق والتماس بأن ينفذ أمره ؛ لأن المقام والحال لايناسبه إلا مثل ذلك ؛ فذلك أدعى لإجابته إلى مايريد منها إنجازه من فجور وفسق!.

وفي بيان الغرض البلاغي لصيغة الأمر عند الشاعر يقول التبريزي عن المرزوقي:« ... وقوله: (وانظري) استرفاق ؛ كأنه طلب ماطلب منها على رفق وجميل نظر.»(٣٠٢)

---

(٣٠٢) شرح اختيارات المفضل٢/١٠٧٢، ١٠٧٣ وحاشيتها.

والاسترفاق والرفق وجميل النظر هو الغرض البلاغي الذي خرجت إليه صيغة الأمر عند الشاعر، وهو بمعنى غرض (الاستلطاف والالتماس).

والتبريزي والمرزوقي وإن لم يصرحا بذكر مصطلح (الأمر) والغرض البلاغي ، بأن يقولا مثلاً : إن الأمر:(انظري) ظاهره أمر ومعناه الاسترفاق - إلا أن ذلك يُفهم ضمناً من كلامهما الآنف ذكره ؛ إذ قولهما:(وانظري) استرفاق يدل على الغرض البلاغي لفعل الأمر المذكور ، وقولهما :(كأنه طلب ماطلب منها على رفق وجميل نظر) يدل على صيغة الأمر ، بقولهما:(طلب ماطلب) ، كما يدل أيضاً على غرض صيغة الأمر؛ وذلك بقولهما :(.. على رفق وجميل نظر) ؛ فدلالة كلامهما على صيغة الأمر وغرضها البلاغي ومصطلحاتهما دلالة قوية وإن كانت تفهم منه ضمناً بطريق غير صريح أو مباشر.

أما الأنباري فلم ترد عنده هذه القصيدة لمرقش الأكبر التي وقع هذا البيت أولها عند التبريزي!.

ب - التسلية:

- قال إبراهيم بن كُنَيف النبهاني:

تَعزَّ فإن الصَّبرَ بالحرّ أجمـلُ * وليس على ريب الزمان مُعوَّلُ

ألقى الشاعر بصيغة الأمر إلى نفسه على سبيل التسلي؛ ومراده أن يُسلّي نفسه ويعزيها بالصبر؛ لأنه أجمل بالحر وأجدى عليه من التخشع والتذلل فيما لايحسن معه إلا الصبر.

ذلك ماأفاده العبيدي في قوله :« الخطاب بهذا الكلام للنفس على طريق التسلية؛ فيقول: تصبّر فإن الصبر بالرجل الكريم أحسن من التخشع فيما لايحسن الخضوع فيه وله .»[٣٠٣]

فدلّ العبيدي على مصطلح صيغة الأمر بقوله: (الخطاب بهذا الكلام...) ودلّ

---

(٣٠٣) شرح المضنون به على غير أهله ٤٠، ٤١.

بقوله : (على طريق التسلية) على الغرض البلاغي الذي خرجت إليه صيغة الأمر عند الشاعر في قوله :(تعزّ...) . ودلالة العبيدي على ذلك ظاهرة قوية؛ بالنسبة إلى الغرض البلاغي ، وهي دلالة ضمنية غير صريحة بالنسبة لمصطلح صيغة الأمر.

ج - التوجّع والتلهّف:

- قال مويلك المزموم يرثي امرأته:

١ - امرُرْ على الجدث الذي حلّتْ به * أمُّ العلاء فَحيِّها لـو تَسْمـعُ

ذكر المرزوقي أن الشاعر يخاطب نفسَه بفعل الأمر في الموضعين ، وهما: (امرر) و(فحيِّها) ؛ على سبيل التوجع والتلهف؛ وفي هذا يقول المرزوقي:

« يخاطب نفسه ويبعثها على زيارة المفقودة والتسليم عليها قضاءً لحقّها وتجديداً للعهد بها ؛ فقال: امرر على القبر الذي دُفنت فيه وسلِّم عليها إن كانت تسمع. وهذا توجّع وتلهّف.»[٣٠٤]

ونقل التبريزي عنه قوله :« يخاطب نفسه .» وترك مابعده من كلام يخص صيغة الأمر ، وغرضها البلاغي- كما يوضحه النص الآنف ذكره -، ثم انتقل فنقل كلام المرزوقي في رواية أخرى لآخر البيت؛ وهي (هل تسمع) ، وساق كلامه في الفرق بين (لو) و (هل) ، وأثر كل منهما في المعنى هنا.[٣٠٥]

ولا يخفى تقصير التبريزي في ذلك ، مع كونه عالة على المرزوقي ، وكان الأجدر به أن يأتي بكلامه كله في هذا الموضع ؛ ليكون له جهد - ولو بالتقليد والمتابعة - في بحث هذه الجزئية المهمة المتصلة بصيغة الأمر هنا ، وغرضها البلاغي.

وقد أحسن المرزوقي في بيان صيغة الأمر عند الشاعر والغرض البلاغي الذي توخّاه من هذا الأمر ؛ وذلك حين ذكر أن الشاعر يخاطب نفسه بفعل الأمر في الموضعين ، وبيّن المعنى المراد ، ونص على مصطلح الغرض البلاغي لها ؛ وهو

---

(٣٠٤) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٠٣.

(٣٠٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٢/ ٣٦٠.

(التوجّع والتلهف) .

د- التوبيخ:

- قال الشاعر:

البَسْ جَديدَكَ إنـي لابسٌ خَلَقي * ولا جَديـدَ لِمَنْ لايلبسُ الخَلَقا

يرى أبو عبد الله النمري أن الأمر في هذا البيت خرج عن حقيقته من طلب تحقيق الفعل المأمور به إلى غرض بلاغي، هو غرض (التوبيخ) ، وأن المقصود بالجديد هنا: هو الصديق الجديد. وبالخلَق: الصديق القديم ؛ يقول النمري:

« ... يقول : على وجه التوبيخ : عليك بالإخوان الجُدُد فإني مستمسك بإخواني القدماء . ثم قال:(ولاجديد لمن لايلبس الخلقا) أي: من لم يُقِم على مودة الصديق القديم لم يقم على مودة الصديق الحديث؛ ومثله قول العَرْجي:

سميتني خَلَقاً لِخَلَّةٍ قَدُمتْ * ولا جديد إذا لم يُلبَسِ الخلق

والناس يظنون أن (الجديد) و(الخلق) ههنا ثوبان ، وهم على خطأ في ذلك.»[٣٠٦]

وقد أحسن أبو عبد الله في نصّه على الغرض البلاغي لصيغة الأمر هنا، كما أحسن في بيان معنى الشاعر ومراده في البيت على أساس من هذا الغرض البلاغي الذي قصد إليه الشاعر في صيغة الأمر هنا.

إن غرض الأمر هنا - كما ذكر النمري - هو التوبيخ والتقريع والتبكيت، لكنه جاء بأسلوب هادىء ارتفع عن كزازة الألفاظ ورعونة الخطاب، حتى استطاع الشاعر بهذا الأسلوب الهادئ المرح أن يجمع بين عنصري التأديب والتهذيب ، ومَرَح العبارة وحُسن توريتها في سبيل إبلاغ هذا الغرض البلاغي وإيصاله إلى المخاطب - بل إلى كل قارىء أو سامع لهذا البيت - في يسر وحسن تقبّل وقوة إقناع!.

---

(٣٠٦) معاني أبيات الحماسة ١٥٨.

هـ التحذير :

- قال دودان بن سعة:

إذا كنت جاراً في اناس ذوي عدىً * فكلْ ماعلُفتَ من خبيث وطيّب

ألقى الشاعر الأمر في قوله :(فكل ماعلفت....) على سبيل التحذير من الاغترار بالأجانب والركون إلى جانبهم وطلب موافقتهم وترك عنادهم لمن هو مقيم بينهم ؛ لأن العقل يقضي بعدم الإدلال معهم أو الأخذ بالمضايقة في أنْعامِهم والاستيفاء منهم.

ذكر ذلك العبيدي في صدر شرح البيت.(٣٠٧)

وهو وإن قال :إن هذا الكلام تحذير من الاغترار بالأجانب... إلى آخر ماذكرت مضمونه آنفاً ؛ فلم يُصرِّح بمصطلح صيغة (الأمر)، وأنّ هذه الصيغة لم تكن على حقيقتها ، وإنما خرجت إلى غرض بلاغي يستفاد من سياق البيت ، هو وإن لم يقل بذلك صراحة إلا أنه مستفاد من قوله:(هذا الكلام تحذير...) ؛ إذْ إنّ مبنى هذا الكلام الذي أشار إليه - على صيغة الأمر؛ في قوله : (فكُلْ ماعلُفِتَ ...) بعد ذكره حال مَنْ يخاطبه في الشطر الأول ، وأن قوله : (... تحذير..) يفهم منه أن صيغة الأمر على غير حقيقتها وأنها لغرض بلاغي هو (التحذير) .

ولاشك أن هذا جهد يحسب للعبيدي في بحث صيغة الأمر هنا وبلاغتها ، وإن كان ينقصه التصريح بالنص على المصطلح البلاغي.

و - الوعيد:

- قال سنان بن أبي حارثة المرّي :

١ - قل للمثلّمِ وابنِ هندِ مالكٍ * إنْ كنتَ رائم عزِّنا فاستَقدمِ

أوضح التبريزي المعنى العام للبيت بقوله:

« والمعنى : إن كنتَ طالباً نيل عزِّنا والقدح فيه فتقدم .» . ثم قال مردفاً :

---

(٣٠٧) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٨٥.

« وهذا وعيد وليس بأمر » ، وقد نقل هذا الكلام عن المرزوقي![٣٠٨]

وأتوقف هنا عند قوله :« وهذا وعيد وليس بأمر » فليس قصده من قوله « وليس بأمر» أن ينفي كون هذا الفعل جارياً على غير صيغة الأمر، ولكن قصده أنْ ليس الأمر هنا على حقيقته وغرضه الأصلي الظاهر، وإنما خرج إلى تحقيق غرض بلاغي يستفاد من سياق الكلام وقرينة الحال ؛ وهو(الوعيد والتهديد) أحد الأغراض البلاغية التي تخرج إليها صيغة الأمر عن غرضها الأصلي .

وقال الأنباري – عن أبي عكرمة الضبي – : « وقوله : (فاستقدم) أي تقدَّم إن كنت تريد قتالنا ؛ يتهدّده بذلك.»[٣٠٩]

وقد حوّم الأنباري حول مصطلح الأمر وصيغته في هذا البيت ، دون أن يصرح بذكر مصطلح الأمر، كما فعل التبريزي والمرزوقي ؛ حين نفيا أن يكون أمراً حقيقياً. لكن الأنباري أفاد بأن الأمر للتهديد، حين فسّر فعل الأمر؛ (فاستقدم) بفعل أمر صريح ، أي تقدّم إن كنت تريد قتالنا ، ثم قال موضحاً الغرض البلاغي لصيغة الأمر هنا:« يتهدّده بذلك. »

ولكن بحث المرزوقي والتبريزي لصيغة الأمر أوضح وأدق من بحث أبي عكرمة الضبي والأنباري لها . مع أن التبريزي – أيضاً – قد نقل كلام الأنباري الآنف ذكره بنصه حين استفتح به شرح البيت !.

ز – التهكم والتحقير:

– قال ذو الأصبع العدواني :

٣٧ – فإنْ عرفتُمْ سبيلَ الرُّشد فانطلقوا * وإن جَهلتُم سبيل الرّشد فائتُوني

قال التبريزي مبيناً معنى البيت وموضحاً أن صيغة الأمر فيه ليست على حقيقتها وأنها لغرض التهكم والتحقير :

---

(٣٠٨) شرح اختيارات المفضل ١٤٥٦/٣ وحاشيتها.

(٣٠٩) شرح المفضليات ٦٨٦.

« ... يقول : إن غَنِيتُمُ عني فاذهبوا لوجْهتكم ، وإن احتَجْتُم إلى رأيي أرشدتكم ، وفي هذا تهكم.»(٣١٠)

وذكر الأنباري كلاماً يتضمن تفسيرات عِدَّةً لمعنى البيت ، ولا تخرج هذه التفسيرات عن مضمون ماذكره التبريزي . لكنه لم يتكلم على الغرض البلاغي لصيغة الأمر في البيت ؛ على نحو ماورد عند التبريزي !.(٣١١)

وغرض التهكم والتحقير ظاهر في صيغة الأمر في هذا البيت بدلالة السياق فيه وفي الأبيات التي قبله والتي بعده ، وبدلالة قرينة الحال على فساد مابينه وبين بني عمه من ودّ ووشائج قربى ومعروف ؛ مما تشهد به القصيدة كاملة.

والتبريزي وإن لم يذكر صيغة الأمر صراحة ، ودلّ على غرضها البلاغي فإن وضوح البيت وابتناءَه على صيغة الأمر قد يغني عن ذكر هذه الصيغة صراحة ، والأهم هو ذكر الغرض البلاغي للبيت الذي هو غرض لصيغة الأمر فيه ؛ لابتناء البيت أو ابتناء فكرته على الأمر، لوقوع فعل الأمر جواباً للشرط في نهاية كل شطر من البيت؛ ولذلك فإن ردّ غرض (التهكم والتحقير) في البيت إلى صيغة الأمر فيه أمر ظاهر بَيِّن لايحتاج إلى دليل . ولو أن التبريزي نصّ على مصطلح صيغة الأمر هنا وردّ الغرض البلاغي إليه صراحة لكان أولى له وأتم، لكن لمّا لم يكن ذلك فإن هذا لاينال من جهده كثيراً والحال ماذكر !.

ح - إظهار اليأس :

- قال المرقِّش الأكبر:

٩ - فاذهبْ فِدىً لكَ ابنُ عمِّكَ لا * خالِــدَ إلاّ شابَــةٌ وإرَمْ

نصّ التبريزي - نقلاً عن المرزوقي- على صيغة الأمر هنا ، وعلى الغرض البلاغي الذي خرج إليه فعل الأمر هنا؛ في قوله (فاذهب) ؛ حيث قال :

---

(٣١٠) شرح اختيارات المفضل ٢/٧٦٠.

(٣١١) انظر شرح المفضليات ٣٢٤.

« (اذهب) إظهار يأس من لبثه ، وليس بأمر ، إنما هو استسلام.»[٣١٢]

وهذا نصٌ صريح نفى به أن تكون صيغة الأمر هنا على وجهها الحقيقي ، ولكنها لغرض بلاغي رامه الشاعر هو : إظهار اليأس والاستسلام.

كما أفاد التبريزي أن قوله : (فدى لك ابن عمك) جملة اعتراضيه ظاهرها إفادة الدعاء ، لكن غرضها البلاغي هنا : أن يبيّن الشاعر رضاه - مدّة حياته - عن فقيده ؛ وهو ابن عمه الذي امتدحه بأبيات قبل هذا البيت .[٣١٣]

أما قول الشاعر : (لاخالدَ إلاّ شابَةٌ وإرَمْ) فذكر أنه محمول على التسلي والرضا بالمقدور.[٣١٤]

وإنما أتى الشاعر بهذا التركيب - (لاخالد إلا شابةٌ وإرَمْ)- الذي أفاد به التسلي وأظهر به الرضا بالمقدور - ليعزّز به من غرض صيغة الأمر ويؤكدها ، إذْ كان غرضها - كما مرّ- إظهار اليأس من خلوده حياً والاستسلام للقضاء المحتوم بموته ؛ فكأن هذا التركيب الآخر معزّز لذلك الغرض مؤكد له ، بل هو كذلك!.

ولقد أجاد المرزوقي أولاً ، والتبريزي ثانياً - حين نقل عنه - في بحث صيغة الأمر وفي بيان غرضها البلاغي عند الشاعر في هذا البيت ؛ وذلك بالتحديد الصريح وبالنص على المصطلح البلاغي ، كما أجادا في البحث البلاغي التالي لصيغة الأمر وغرضها ؛ أعني تراكيب البيت وجُمَلِه المشتملة على معان أو أغراض بلاغية عزّزت من ذلك الغرض الرئيس لصيغة الأمر في البيت .

ولم يقف الأنباري بشيء عند صيغة الأمر في البيت ، لبيان حقيقتها أو غرضها البلاغي عند الشاعر![٣١٥]

---

(٣١٢) شرح اختيارات المفضل ١٠٥٩/٢و وحاشيتها.

(٣١٣) انظر شرح اختيارات المفضل ١٠٥٩/٢.

(٣١٤) انظر شرح اختيارات المفضل ١٠٥٩/٢

(٣١٥) انظر شرح المفضليات ٤٨٧.

ط - الإخبار ؛ لغرض التعجب :

- قال خُفاف بن نُدْبة:

٤ - وأبْغِضْ إليّ بإتيانهـا * إذا أنا لم أنسَها أدفَعُ

خرجت صيغة الأمر هنا في قوله :(وأبغض إليّ...) عن ظاهرها إلى تأدية غرض بلاغي هو : إفادة الخبر بطريق التعجب ؛ لأن معنى الأمر هنا(التعجب)، والتعجب في ذاته ودلالته يفيد الإخبار؛ فصار الأمر هنا يحمل معنى الإخبار؛ بدلالة معنى التعجب عليه .

وهذا ماقرّره المرزوقي وأوضحه بقوله:

« قوله :(وأبْغِضْ إليّ بإتيانها) استُعير فيه بناء الأمر للخبر؛ لأن معناه التعجب، والتعجب خبر ، وهم يستعيرون المباني للمعاني، كما يستعيرون الجُمَل والمفردات . وهذا كما يستعار بناء الخبر للأمر ، كقوله :(والمطلقات يتربصّن .)...، يقول : ماأبغضَ إتيان عَقَبةِ الهجاء واطّلاعها إليّ؛ لأني أربأ بنفسه عنه وقَدْري ، وأصون منه ديني وعرضي وأتناسى فعلَ ذلك فلا يكون من همّي ، ولو لم أتركها تأثُّماً وتكرُّماً ثم أردت مناقضتك ومقاذعتك لكان ماتعاقدنا عليه من تركه يدفعني عنه ويمنعني منه.» (٣١٦).

ولم يأت التبريزي بشيء هنا ، وإنما نقل كلام المرزوقي المتقدم بتصرف واختصار!.(٣١٧)

وقد أحسن المرزوقي جداً في هذا التقرير والبيان ؛ حين قرّر أن غرض صيغة الأمر هنا للإخبار؛ لاشتمال هذه الصيغة على معنى التعجب ؛ والتعجب خبر ، وحين أوضح ذلك بأن مبنى هذا على الاستعارة التي هي هنا بمعنى الإعارة والنقل لتأدية معنى أو غرض بعينه يتم بمعاورة تركيب بتركيب سواء منه مايكون إعارة مبنى لمعنى ؛ كما استُعير هنا تركيب فعل الأمر ومبناه؛ بصيغة التعجب لإفادة معنى الخبر

---

(٣١٦) شرح ديوان الحماسة٢/٦٢٨، ٦٢٩.

(٣١٧) انظر شرح ديوان الحماسة ٢/١٨٢.

وغرضه ، أو مايكون منه إعارة معنى لمبنى ؛ كما استعير معنى الخبر وغرضه لإفادة صيغة الأمر وغرضه ، كما في الآية الكريمة - التي ساقها المرزوقي شاهداً على ذلك - . فإعارة المباني للمعاني، والمعاني للمباني ، ليفيد كلٌ منهمامعنى الآخر وغرضه بطريق المعاورة والمناقلة داخل نُظم أساليب أحوال الخبر وصيغ الإنشاء وعلاقاتهما ببعضهما البعض في دائرة علم المعاني ومسائله ومباحثه ؛ إعارة هذه المباني للمعاني والمعاني للمباني؛ ليفيد كلٌ منهما غرض الآخر داخل هذه النظم والعلاقات والأحوال المعروفة بعلم المعاني - كإعارة الجمل أو المفردات ؛ ليفيد كل منهما معنى الآخر وهيئته ، ويؤدي ذلك بصورة فنية بيانية تتفاوت في الدلالة والتأثير، داخل الصور الفنية وهيئاتها المتمثلة في صور التشبيه والمجاز والاستعارة في دائرة مباحث علم البيان وصوره الفنية.

٤ - النهـــي:

خرجت صيغة (النهي) في شروح الاختيارات الشعرية عن غرضها الأصلي، إلى أغراض بلاغية مستفادة من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وهي :

أ - إظهار اللِّين والتلطُّف . ب - إظهار الفظاظة والغلظة.

ج - الدعـــاء . د - البعث والتحضيض.

هـ - التسلية.

وسأعرض لنماذج هذه الأغراض ودراستها في شروح الاختيارات الشعرية حسب المنهج المتبع في البحث ، وفي دراسة الأغراض البلاغية لصيغ الإنشاء :

أ - إظهار اللّين والتلطُّف:

- قال الشّنفرى:

٣٢ - ألا لاتَعُدْني إنْ تشكّيتُ خُلّتي * شفاني بأعلى ذي البُرَيقَينِ عَدْوتي

أشار التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - إلى أن النهي في قوله :(لاتَعُدْني) خارج عن ظاهر معناه الأصلي أو غرضه الحقيقي إلى غرض بلاغي هو : إظهار اللين والتلطف ؛ وذلك حيث يقول:

« الخلّة: الخليل. ،(لاتَعُدْني) لفظه لفظ نهي والمراد : لايَشُقَّنّ ذلك عليك ؛ فقد اشتفيتُ بعدوتي ، فلا تظنَّنّ أني مُتشكٍّ فتتكلَّف عيادتي.»[٣١٨]

فقد صرّح بمصطلح (النهي) ، وأشار إلى أنه جار على غير ظاهر لفظه إلى معنى أو غرض بلاغي قصده الشاعر؛ وهو ماعبّر عنه بقوله: (والمراد لايشقّن ذلك عليك٠٠) إلى آخر كلامه ؛ حيث يفهم من كلامه هذا في غرض النهي ومراد الشاعر فيه أنه لغرض إظهار اللين والتلطف ؛ لأنه نهاه عن ركوب المشقة والتكلف.

فإن قيل : كيف يصح أن يكون لينٌ وتلطف من العدّائين المتصعلكة ، وهل في مذهب اللصوص لين ولطف؟!. قلتَ : لايبعد أن يكون ذلك منهم أو من أحدهم على مذهبهم في المكر والاحتيال والخديعة، وإظهار اللين واللطف للناس ؛ بنهيهم عن زيارتهم ونحو ذلك تحقيقاً منهم لهذا المذهب ؛ حتى ينخدعوا بهم ويَرِقُّوا لهم ويتعطّفوا عليهم فيأمن المتصعلكة الخوف من طلبهم والظفر بهم ؛ لعدم معرفتهم بأماكن وجودهم !

ب - إظهار الفظاظة والغلظة:

وثمّة غرض بلاغي آخر في بيت الشنفرى أجازه التبريزي - والمرزوقي - ؛ وهو في مقابل معنى الغرض الأول وضده ؛ ذلك هو : إظهار الفظاظة والغلظة.

فكأن الشاعر الصعلوك إنما أراد بالنهي عن زيارته أو عيادته وهو مريض

---

(٣١٨) شرح اختيارات المفضل ٥٣٠/١، ٥٣١، وحاشيتها.

إظهار شدة قسوته وفظاظته وغلظته بما أبداه - في هذا البيت والأبيات التي قبله -؛ من عدم اكتراث بالناس وقلة مبالاة بالموت .

قال التبريزي- عن المرزوقي - في بيان هذا الغرض البلاغي الآخر لصيغة النهي عند الشاعر في هذا البيت :

« ويجوز أن يُحمل الكلام على شدّة قسوته فيكون مثل ماقدّمه ؛ من قلة مبالاته بالموت.»(٣١٩)

وكلا هذين الغرضين البلاغيين لصيغة النهي في بيت الشنفرى - وهما : (إظهار اللين والتلطف) و(إظهار الفظاظة والغلظة)- ممكن جائز من قِبَل الشاعر وواقع البيت ؛ لقيام السياق وقرينة الحال على ذلك ؛ على نحو ماتم إيضاحه آنفاً ووفق إشارة التبريزي والمرزوقي إلى ذلك وقولهما بجواز هذين الغرضين واحتمالهما معاً .

أما الأنباري فقد قال في إيضاح مراد الشاعر:

« قوله : (ألا لاتَعُدْني) يريد : أنه إذا مرض لم يَعُده خليل له ؛ وذلك أنه مُتَطوِّحٌ يلزم القفر مخافة الطلب.»(٣٢٠)

ومعنى هذا التفسير أن صيغة النهي في البيت على غير ظاهر معناها الأصلي؛ من إرادة النهي الحقيقي، وإنما هو لغرض بلاغي هو النهي على وجه الاستبعاد؛ وعدم إمكان أن يعوده أو يزوره أحد إذا مرض؛ لعدم رغبته هو في ذلك؛ ولعدم الاهتداء إلى مكانه ؛ لكونه مُطوِّحاً في الآفاق يلازم القفار مخافة الطلب. وغرض هذا التفسير يلتقي مع الغرضين البلاغيين المذكورين قبله عند التبريزي والمرزوقي؛ فما لان الشاعر وتلطف في نهيه عن زيارته وعدم رغبته في تكليف أحد بعيادته إلا لأنه مستبعد حصول إمكان ذلك ؛ لعدم الاهتداء إليه ، ولعدم رغبته هو في أن يزوره أحد مخافة الظفر به ، وتلك من حيل المتلصّصة المتصعلكة في إظهار اللين والتعطف أو التلطف مكراً ومخادعة ؛ حتى يأمنوا جانب الناس في طلبهم .

---

(٣١٩) شرح اختيارات المفضل ١/٥٣١، وحاشيتها.
(٣٢٠) شرح المفضليات ٢٠٦.

ثم إنه مااستبعد أن يعوده أحد إذا مرض إلا لعدم إمكان ذلك في ظنّه وتقديره؛ تعاظماً في نفسه وأنفة وإظهاراً للفظاظة والغلظة ؛ لعدم اكتراثه بالناس وقلة مبالاته بالموت؛ ولذلك قرّر - بصيغة النهي هذه - أنه لايزوره أحد؛ على سبيل الاستبعاد؛ وتقدير عدم إمكان ذلك ؛ لتهيامه في الصحراء وتَطْواحه في القفار مخافة الطلب والظفر به !.

هذا هو وجه الربط بين تفسير الأنباري لصيغة النهي وبلاغتها في مراد الشاعر وبين تفسير المرزوقي والتبريزي لبلاغة هذه الصيغة بوجهين من الأغراض البلاغية ، وإن كان المرزوقي والتبريزي أصرح في دراسة صيغة النهي هنا والتنويه بوجهي غرضها البلاغي، على حين لم يشر الأنباري إلى صيغة النهي، ولم يصرح بغرضها البلاغي ، وإنما أشار إلى ذلك إشارة ضمنية .

ج - الدعاء:

- قال المنخل اليشكري:

إن كنتِ عاذلتي فسيري * نَحْوَ العراق ولاتَحُوري

قال أبو عبد الله النمري في بيان صيغة النهي وغرضها البلاغي:« قوله : (فسيري) و(لاتحوري) ظاهره أمر ونهي، والأحسن أن يكون قوله : (ولا تحوري) على مذهب الدعاء ؛ كقولك : (افعل كذا وكذا ولا تَشْلَلْ يدُك).»[(٣٢١)]

وقد أحسن النمري في بيان صيغة النهي وغرضها البلاغي الذي خرجت إليه عن ظاهر حقيقتها ومما زاد حسن بيانه لذلك نصُّه على ذكر المصطلحات البلاغية وكلامه عليها بصراحة مباشرة أثناء بيانه هذا .

غير أني لاأستبعد وجهاً بلاغياً آخر لصيغة النهي هنا ؛ فما الذي يمنع أن يكون غرض الشاعر من نهيه هذا بعد أمره في قوله :(فسيري، ولا تحوري)- التهكم والاستهزاء والسخرية ؛ إذ المقام وقرينة الحال تؤيد ذلك أكثر من إرادة الدعاء

---

(٣٢١) معاني أبيات الحماسة ٩٦.

لهذه العاذلة ؛ ذلك بأن المقام مقام عذل ولوم ، وأحوال الشعراء مع العذل واللوم ناطقة بالبغض والكراهية للعذل والعاذل أيّاً كان ؛ ولهذا فإنه من المناسب تمشياً مع المقام وقرينة الحال أن يكون غرض النهي هنا على مذهب التهكم وسبيل الاستهزاء والسخرية بهذه العاذلة التي أكثرت لومه ؛ فأمرها بالسير نحو العراق، ثم نهاها أن تحور أو تضلّ السبيل على سبيل التهكم بها والسخرية . أما أن يكون غرض النهي الدعاء فإنه لاينكر أن يكون غرضاً من أغراض صيغة النهي التي تخرج إليها ، لكنه مُسْتَبعد هنا ؛ لعدم مناسبته المقام الذي تشهد قرينة حال الشاعر بضده ؛ من التهكم والاستهزاء ، كما سبق بيانه .

د - البعث والتحضيض :

- قال القَطَريُّ بن الفُجاءة المازني:

١ - لايَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحْجامِ * يومَ الوغى مُتَخوِّفاً لِحمامِ

أوضح المرزوقي أن قصد الشاعر وغرضه البلاغي من هذا النهي الذي صدّر به البيت - هو الحثّ والبعث والتحضيض على الشجاعة والإقدام على خوض غمار المعارك، وعدم الإحجام أو الركون إلى الدعة والراحة ، وتهييب الموت ؛ قال المرزوقي مبيناً ذلك :

« قصدُه إلى البعث والتحضيض على التغرير بالنفس والتعريض؛ ألا ترى أنه يحث بهذا الكلام على ترك الفكر في العواقب، ورفض التحرُّر خوفاً من المعاطب، وينبّه على أن الحذر لاينجي من القدر ، وأن الأجل إذا جاء لم تُغْنِ معه قوة الأمل ، فيقول: لايميلنّ أحدٌ إلى هَجْر الإقدام والسكون إلى الإحجام في الحرب مُتَخشّعاً من الموت.»[٣٢٢]

وقد أحسن المرزوقي في بيان غرض صيغة النهي بياناً واضحاً شفعه بتفصيل شرحٍ وبيان للمعنى العام لهذا البيت ؛ بمقتضى هذه الصيغة ، وغرضها البلاغي ،

---

(٣٢٢) شرح ديوان الحماسة١/١٣٦.

غير أنه لم ينص على صيغة النهي هنا ، وإنما اكتفى بذكر غرضها البلاغي الذي قصد إليه الشاعر ؛ على نحو ماسبق من كلامه في ذلك . صحيح أن صيغة النهي في البيت ظاهرة ؛ ولذلك بدأ شرح البيت ببيان غرض الشاعر من هذه الصيغة ، ولكنّ النصّ على صيغة النهي ومصطلحها - مهما كان ظهورها- أوفى في البحث البلاغي ، وأتم لجهد المرزوقي فيه وأولى له.

وغرض البعث والتحضيض لصيغة النهي عند الشاعر هنا مستفادة من قرينة الحال وسياق البيت والأبيات التي بعده التي يتحدث فيها الشاعر عن بلائه في المعارك وزعامته في قيادة الجيوش.

ومع أهمية غرض صيغة النهي هنا ووضوحها إلا أن التبريزي لم يذكرها، أو يتحدث عن غرضها البلاغي بشيء ، واكتفى بشرح معاني ألفاظ البيت ودلالتها اللغوية فقط! (٣٢٣)

هـ - التسلية:

- قال آخر:

لايَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ العيشِ في دِعَةٍ * نِزاعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوْطانِ

تلقى بكلّ بلادٍ إنْ حلَلْتَ بها * أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

قال العبيدي في صدر شرح البيت الثاني - بعد أن شرح الأول - مبيناً الغرض البلاغي الذي انطوى عليه :

« هذه تسلية للنفس عن الأهل؛ يقول: تجد بكل بلد تنزل به أهلاً بدلاً من أهلك وجيراناً بدلاً من جيرانك ، والعرب تقول:(هذا بذاك) أي: هو عِوضٌ منه.» (٣٢٤)

ولم ينصّ العبيدي على صيغة النهي في شرح البيت الأول ، كما أنه لم ينص على أن قوله في صدر شرح البيت الثاني : (هذه تسلية للنفس عن الأهل....)؛ لم ينص على أن قوله هذا هو الغرض البلاغي لصيغة النهي عند الشاعر، ومع ذلك فإن

---

(٣٢٣) انظر شرح ديوان الحماسة ١/ ١٣٠، ١٣١.

(٣٢٤) شرح المضنون به على غير أهله ٤٦.

قوله هذا يفهم على أنه غرض لصيغة النهي ، وبخاصة أنه أتى في شرح البيت الثاني الذي وقع كالجواب المُعلّل لصيغة النهي الواردة في البيت الأول ؛ فكأنّ الشاعر لما نهى عن أن يقعد بالمرء نزاعُ نفسه إلى وطنه وأهله عن طلبه رغد العيش وبُلَهنيَتِه علّل لذلك بقوله في البيت الثاني الذي أورده مورد التسلية والتعزية لما سيفتقده من أهل ووطن؛ بأنه سيلقى بكل بلد يطيب له المقام فيه أهلاً بأهله ووطناً بموطنه ؛ حتى صار البيت الثاني بمثابة التعليل الذي أراده الشاعر أن يكون مُقنعاً لما ذهب إليه من دعوة إلى مفارقة الأهل والأوطان طلباً لرغد العيش.

٥ - النـــداء :

خرجت صيغة (النداء) في شروح الاختيارات الشعرية عن غرضها الأصلي إلى أغراض بلاغية مستفادة من سياق الكلام وقرائن الأحوال ؛ وهذه الأغراض هي:

أ - الاستغاثة . ب - التعجب .

ج - الإخبار ، لغرض التعجب . د- التوجع والتحسر.

هـ - التعظيم والتفخيم. و - التهكـــم.

ز - الهجـــــــاء . ح - الشوق والتلذذ.

وأعرض لنماذج هذه الأغراض ودراستها في شروح الاختيارات الشعرية حسب المنهج المتبع في دراسة أمثالها من أغراض صيغ الإنشاء :

أ - الاستغاثة :

- قال مُزرِّد بن ضِرار:

ألا يالَقومِ والسَّفاهةُ كاسْمِها * أعاندتي من حبِّ ليلى عوائدي

ذكر الأنباري- عن أبي عكرمة الضبي - والتبريزي - عن المرزوقي - روايتين

للمنادى ؛ (يالَقوم) ؛ رواية فتح اللام فيكون النداء خارجاً إلى غرض (الاستغاثة) ، ورواية كسر اللام ، ويكون النداء لغرض (التعجب).[٣٢٥]

وقد توسع التبريزي في شرح توجيه الروايتين ؛ فقال - نقلاً عن المرزوقي- في توجيه روايةالفتح على معنى الاستغاثة:

« .. ومعنى : (يالَقوم) : أنه تصوّر نفسه بصورة العدوّ ؛ لمّا تبعتْ هواها ؛ فقال : (يالَقوم) ؛ استغاثة بهم ، والمعنى : أدعوكم ياقومي لبلائي فأغيثوني، و (القوم) هم المنادَون.».

ثم قال في توجيه رواية الكسر:

« .. ومن روى : (يالِقوم) بكسر اللام فالمنادى محذوف ؛ كأنه قال : ياناس أدعوكم للعجب، وهو قوم أنا منهم؛ يعني : أهل الهوى واللّهو.»[٣٢٦]

فغرض الاستغاثة أحد أغراض صيغة النداء التي تخرج إليها عن غرضها الأصلي ، والتي تفهم من سياق الكلام وقرينة الحال، على نحو ماتبين من كلام المرزوقي والتبريزي في شرح هذا الغرض وبيان خروج صيغة النداء إليه في قول مزرّد بن ضرار.

ب - التعجْب:

- قال عوف بن عطية:

٢٢ - فياطَعنةً ماتسوءُ العدوَّ * وتَبلُغُ في ذاك أمراً قرارا

كما خرجت صيغة النداء عن غرضها الأصلي إلى غرض بلاغي آخر ؛ هو غرض (التعجب) في رواية الكسر في بيت مزرد بن ضرار - الآنف ذكره - ؛ في قوله : (يالِقوم والسفاهة كاسمها) على اعتبار رواية كسر اللام من (يالِقوم)؛ كما

---

(٣٢٥) انظر شرح المفضليات للأنباري ١٢٧ ، ١٢٨ . وشرح اختيارات المفضل للتبريزي١/٣٦٤، ٣٦٥ وحاشيتها.

(٣٢٦) شرح اختيارات المفضل١/٣٦٥ وحاشيتها . ونقل المحقق زيادة عن المرزوقي : « ومن كلامهم المحكي: (ياللَماء) بفتح اللام، إذا قلّ الماء فاستغاثوا به . وياللِماء إذا كثر فتعجبوا.»

سبق بيان ذلك في موضعه من النموذج السابق - خرجت كذلك صيغة النداء في هذا البيت إلى تحقيق غرض (التعجب) في قوله : (فياطعنةً....).

وكان خروج صيغة النداء هنا إلى تحقيق غرض (التعجب) خروجاً صريحاًمستقلاً ، أي حسب اللفظ المنادى المذكور دون نظر إلى رواية أخرى له يكون باعتبارها تحقيق صيغة النداء لهذا الغرض البلاغي التعجبي.

وقد قال التبريزي في بيان غرض النداء هنا ؛ في بيت عوف بن عطية المتقدم ذكره : « ومعنى النداء: التعجب.»(٣٢٧)

فالغرض البلاغي الذي خرجت إليه صيغة النداء في قوله : (فياطعنة...) هو غرض التعجب ، كما ذكره التبريزي . غير أنه لم يذكر صيغة النداء ؛ لوضوح معرفتها والعلم بها ، واكتفى بذكر غرض هذه الصيغة الذي خرجت إليه فذكر أنه (التعجب) ، ودل على مصطلح الغرض بمصطلح المعنى ؛ في قوله : (ومعنى النداء : التعجب).

وإذا كان سياق البيت والأبيات قبله وبعده ، وقرينةالحال تدل على غرض التعجب الذي خرجت إليه صيغة النداء هنا فإن السياق وقرينة الحال كذلك تدل على أن غرض التعجب هنا محمول على التهكم والتحقير.

ولم يذكر الأنباري شيئاً عن صيغةالنداء في البيت !(٣٢٨)

- وقالت امرأة :

٥ - نكحتُ المدينيَّ إذْ جاءني * فيالكِ من نكْحَةٍ غاليهْ

قال المرزوقي في بيان صيغة النداء وغرضها البلاغي الذي خرجت إليه :

« وقولها :(فيالك من نكحةٍ غاليهْ) لفظها لفظ النداء ، والمعنى التعجب ، وإنما قالت: (من نكحة غالية) لتُبيِّن أنها مكروهة كما يُكره مايشترى بغلاء.»(٣٢٩)

ولم يذكر التبريزي صيغة النداء ، وما خرجت إليه من غرض بلاغي.(٣٣٠)

---

(٣٢٧) شرح اختيارات المفضل ١٦٦٦/٣.

(٣٢٨) انظر شرح المفضليات ٨٤٢.

(٣٢٩) شرح ديوان الحماسة ١٨٤٠/٤، ١٨٤١.

(٣٣٠) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٣٢/٤.

ولعله ترك بيان ذلك لوضوحه ؛ إذ هو غرض ظاهر من دلالة سياق المقطوعة كلها التي تذكر فيها الشاعرة تجربتها الزوجية مع شيخٍ مُسِنٍّ لم تتوافق معه في الشكل والطباع وفقدت معه استطابة العشرة الزوجية ؛ فلذلك راحت تدعو على الشيوخ كلهم وأشياعهم ممن يرضى مناكحتهم أو يظهر التعصب لهم في ذلك ، وأظهرت من الكره لهم ماأظهرت ؛ فدلالة السياق وقرينة الحال على غرض التعجب لصيغة النداء في البيت ظاهرة جداً.

على أن مبنى غرض التعجب قام على أساسٍ من البغض والكره ، فالبغض والكراهية من هذه المرأة لهذا النكاح غير المقبول - في نظرها - هو سبب معنى التعجب وغرضِه في صيغة النداء التي أطلقتها في قولها متعجبةً : (فيالك من نكحة غاليه) ؛ فهو تعجب مشوب بشيء من التضجر والتوجعُ والتحسر.

ولايلزم صحة تعجبها دائماً ؛ فليس كل شيخ مقلياً بل إن من الشيوخ مَنْ يفوق كثيراً من الشباب في صلاحه وتقواه ونظافته وبَسْط يده وحسن عشرته وقوته وتجد حليلاتهم معهم سعيداتٍ جداً ؛ لما يُوفِّرونه لهن من مطالب مادية ومعنوية وعطف ولطف يعجز عن مثله كثير من الشباب، لكنها تجربة خاصة بهذه المرأة ، ولها مثيلات كثيرات ممن عشن تجربتها ويعشنها ، غير أن الأمر ليس على إطلاقه ولا يستقيم تعميمه بحال.

- وقال آخر :

وأستعينُ العِدى فيما بُليتُ بهِ * ياذلَّ مَنْ جعل الأعداء أعوانا

بيَّن العبيدي وجه النداء وغرضه الذي خرج إليه بقوله:

« .. قوله: (ياذُلَّ مَنْ جعل الأعداء أعوانا) منادى مضاف على سبيل التعجب؛ أي ياذُلُّ مَنْ جعل الأعداء أعواناً احضرْ وتعالَ ؛ فإن هذا وقتٌ لاينكر حضورك فيه!.»[٣٣١]

ولقد أحسن العبيدي في بيان صيغة النداء ، وغرضها البلاغي الذي خرجت إليه ، كما أحسن جداً في التقدير التفسيري الأخير لغرض التعجب .

---

(٣٣١) شرح المضنون به على غير أهله ٣٧٥ .

وغرض التعجب لصيغة النداء هنا يدل عليه سياق الكلام وقرينة الحال التي ألجأته مُرغماً مُكرها- على حد ما يُشْعر به قوله - إلى الاستعانة بأعدائه على مابُلي به . وإنك بالتأمل الدقيق لواجد في غرض التعجب هنا عند هذا الشاعر معنى التضجر ومرارة التحسر؛ بسبب ماحصل له وتعجب منه .

- وقال الفِنْد الزِّماني:

١ - ياطَعْنَـــــــةَ ماشـيخٍ * كبيرٍ يَفَنٍ بـــــــالِ

أوضح المرزوقي صيغة النداء ، وغرضها البلاغي ، مع تفسير لهذا الغرض وشرح لمعناه ، وذلك حيث يقول:

« (ما) من قوله : (ماشيخ) زائدة ، أراد : طعنة شيخ ، وهذا اللفظ لفظ النداء، والمعنى معنى التعجب والتفخيم؛ كأنه أراد : ماأهولها من طعنة ، ويالها من طعنة بدرتْ من شيخ كبير السِّنِّ ، فاني القوى ، بالي الجسم.»[٣٣٢]

وقد دل سياق القصيدة على غرض التعجب والتفخيم الذي خرجت إليه صيغة النداء في البيت .

وقد نقل التبريزي أكثر هذا الكلام عن المرزوقي بنصه ؛ واكتفى في تسمية غرض النداء هنا بمصطلح (التعجب) فقط؛ دون (التفخيم)!.[٣٣٣]

ج - الإخبار ؛ لغرض التعجب:

- قالت امرأة من طيء:

٢ - فياضَيعةَ الفتيانِ إذْ يَعْتلُونَهُ * ببطن الشَّرى مثلَ الفَنيقِ المسَدَّمِ

تحدث المرزوقي عن صيغة النداء والغرض البلاغي الذي خرجت إليه في هذا البيت ، مُبيِّناً - بشيء من التفصيل - وجه هذا الغرض البلاغي؛ فقال:

---

(٣٣٢) شرح ديوان الحماسة٢/٥٣٧.

(٣٣٣) انظر شرح ديوان الحماسة ٢/١١٣.

« ومعنى (ياضيعة الفتيان) – وإن كان لفظه لفظ النداء – معنى الخبر؛ كأنه قال: ضاع الفتيان جداً ؛ فيقول على وجه التعجب والاختصاص: ماأضيع الفتيان في ذلك الوقت وفي تلك الحالة ؛ كأنه لما لم يُنْصر في تلك الحالة ولم يحضره فتى بعينه كان الفتيان ضائعين ؛ إذْ كانوا يُعنفون في قَوَدِهم إيّاه، وهو كأنه فحلٌ مشدود الفم خوفاً من صِياله فلا يُناكر بنفسه ، ولا يُدافع أحدٌ دونه.»[٣٣٤]

وقد أورد التبريزي هذا الكلام مع تصرف يسير فيه ![٣٣٥]

وكما وقع الإخبار ؛ لغرض(التعجب) غرضاً من الأغراض البلاغية التي خرجت إليها صيغة الأمر؛ على نحو مامرَّ الحديث عنه في قول خُفاف بن ندبة:

* وأبغِض إليَّ بإتْيانِها*

حين قال المرزوقي هناك: إنه استُعير بناء الأمر فيه للخبر ؛ لأن معناه التعجب ، والتعجب خبر، إلى آخر ماقاله هناك ، وما أوضحته حول ذلك من إيضاح وتفصيل[٣٣٦]؛ كما وقع الإخبار ، لغرض التعجب غرضاً من أغراض صيغة الأمر هناك وقع أيضاً الإخبار ؛ لغرض التعجب غرضاً من الأغراض البلاغية التي خرجت إليها صيغة النداء هنا ؛ في قول هذه المرأة ؛ (فياضيعةَ الفتيان إذْ يَعْتِلُونه) . فصيغ الإنشاء تتشابه وتتعاور أغراضها البلاغية فيما بينها تبعاً لقرائن الأحوال وسياق الكلام .

ولقد دلت قرينة الحال التي أشارت إليها الشاعرة في البيت وماقبله ومابعده من أبيات ، وسياق الكلام في هذه المقطوعة ؛ كل ذلك يدل على أن غرض صيغة النداء هنا الإخبار ؛ بطريق التعجب .

د – التوجع والتحسر:

– قال خطّاب بن المعلّى:

٣ – أبكاني الدهرُ ويارُبَّما * أضحكني الدهرُ بما يُرضي

---

(٣٣٤) شرح ديوان الحماسة ٢١٢/١.

(٣٣٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٢٠٩/١.

(٣٣٦) انظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ من هذا البحث .

تكلم المرزوقي على صيغة النداء في البيت ، وبين غرضها البلاغي؛ فقال :

« (ياربَّما) المنادى فيه محذوف ، كأنه قال : ياقوم رُبَّما . وهذا النداء على وجه التحسّر والتوجع من معاملة الدهر وسوء تنقُّله.»(٣٣٧)

ونقل التبريزي عنه نصَّ كلامه في هذا!.(٣٣٨)

ودلالة البيت والأبيات التي قبله وبعده من هذه المقطوعة على غرض التوجع والتحسر لصيغة النداء في هذا البيت - أمرٌ بين ؛ إذْ سياق أبيات المقطوعة كلها تساند هذا الغرض وتؤيده لما فيها من التضجر والتشكي الظاهر من حاله في هذه الحياة.

وقد أحسن المرزوقي في كلامه على صيغة النداء ، وخروجها إلى هذا الغرض البلاغي ، كما كان يُحسن في كثير من مواضع صيغ الإنشاء، وبيان أغراضها البلاغية ؛ مما يدل على بصره بالشعر ، وحسن تفهّمه له ، وللابسات قوله ، وإدراكه سياق الكلام بين أبيات القصيدة أو المقطوعة، ووقوفه على قرائن الأحوال التي كانت وراء تلك الأغراض البلاغية لتلك الصيغ الإنشائية.

هـ - التعظيم والتفخيم :

- قال الحسين بن مطير:

فيا عجباً للناس يَسْتَشْرِفُونَني * كأنْ لم يَروا بعدي مُحباً ولا قَبْلي

تكلم العبيدي على الألف التي في صيغة النداء التعجبية في قوله : (فياعجباً للناس...) ؛ فذكر أنه يجوز أن تكون هذه الألف عوضاً عن ياء المتكلم المحذوفة ؛ والتقدير: (ياعجبي).

ويجوز أن تكون هذه الألف ألف الندبة زيدت على صيغة النداء والتعجب؛ ليمتد الصوت بالنداء التعجبي؛ ليكون أبلغ في ندبه حظَّ نفسه ؛ وعلى هذا يكون قوله : (ياعجب) منادى مفرداً ، والألف للندبة مزيدة ، ليمتد الصوت بها رمزاً إلى

---

(٣٣٧) شرح ديوان الحماسة١/٢٨٦.

(٣٣٨) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٧٧.

عظم البليّة وتفخيماً لأمر هذه العجيبة![٣٣٩]

وعلى هذا تكون صيغة النداء صيغة نداء تعجبية لفظاً ودلالة؛ وأعني باللفظ هنا أن صيغة النداء جاء تركيبها وصياغتها بلفظ التعجب الصريح ؛ (ياعجباً) ، أما الدلالة فلأن دلالة صيغة النداء ومعناها جاء لتحقيق غرض التعجب أيضاً ؛ فلفظ صيغة النداء ودلالتها قائمان على التعجب ؛ لفظاً ومعنى ، ولكن مجيء هذا التعجب بهذه الصيغة جاء لتحقيق غرض بلاغي من أغراض صيغة النداء التي تخرج إليها عن غرضها الأصلي ؛ أعني تحقيقها لغرض : التعظيم والتفخيم، وذلك ماأشار إليه العبيدي؛ من أن الشاعر ركّب ألف الندبة مع صيغة التعجب ليمتد الصوت بها ؛ للدلالة على عظم البلية والتفخيم لأمر العجيبة.

وقد أحسن العبيدي في بيان صيغة النداء التعجبي عند الشاعر للدلالة على غرض (التعظيم والتفخيم).

و - التهكم :

- قال مُرَّة بن همام :

٩ - للهِ عوفُ لابساً أثــــوابَهُ * يالهفَ نفسي قِرْنَ مـاإن يُغْلبــا

أوضح التبريزي - نقلاً عن المرزوقي- أن جملة (لله عوف) جيء بها لغرض التعجب ، والغرض منه السخرية.

أما صيغة النداء في قوله : (يالهف نفسي...) فإنه قد جيء بها هنا لتحقيق غرض بلاغي ؛ هو (التهكُّم).

وأجاز التبريزي أن يكون الشاعر نادى نفس اللهف، كما أجاز أن يكون المنادى محذوفاً ، ولم يقدره . وتقديره - في ظنّي - كذا : (يالنفسي من لهف نفسي)[٣٤٠]

---

(٣٣٩) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٢٤٠.

(٣٤٠) انظر شرح اختيارات المفضل ٣/١٣٠٦، ١٣٠٧ وحاشيتها.

أما معنى صيغة النداء بغرض التهكم هنا فقال في تفسيره ؛ نقلاً عن المرزوقي : « كأنه تلهف على نفسه وقد صار مغلوباً معه ، وتلخيص الكلام : لهف نفسي في قِران الغَلَبة !.»(٣٤١)

أما الأنباري فلم يعلق على هذا البيت بشيء حول معنى التعجب، أو صيغة النداء في البيت ، وغرضيهما البلاغيين!.(٣٤٢)

ز - الهجاء:

- قال مزرد بن ضرار:

٢٣ - فيا آل ثوبٍ إنما ذَوْدُ خالدٍ * كنار اللَّظى لاخيرَ في ذود خالدِ

٢٤ - بهنَّ دُرُوءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٍ * لها ذَرِباتٌ كالثُّديِّ النواهدِ

٢٥ - جَرِبْنَ فما يُهْنَأنَ إلا بِغَلْقَةٍ * عَطِينٍ وأبوالِ النساءِ القواعدِ

قبل أن أذكر شيئاً عن صيغة النداء وغرضها البلاغي في هذه الأبيات لابد من وقفة يسيرة عند مناسبة الأبيات أو قصة القصيدة التي منها هذه الأبيات الثلاثة، فقد ذكر التبريزي- عن المرزوقي- من قصتها أن خالد بن عبيد - من بني جحاش بن بجالة- جاور زُرْعةَ بن ثوب أحد بني عبد الله بن غطفان ، وكان لخالد إبل كرام؛فتسفَّه زرعةُ بن ثوب خالدَ بن عبيد حتى استدرجه إلى أخذ ستة عشر من إبله مقابل ستين عنزاً ونعجة، فلما بلغ والدَ خالد الخبرُ انطلق إلى زُرعةَ يطالبه بردّ الإبل فأبى ، فأتى مُزَرِّدَ بن ضرار فاستغاث به على زُرعة ؛ فقال هذه القصيدة وأهداها إلى بني عبد الله فردّوا على الغلام إبله!.(٣٤٣)

---

(٣٤١) شرح اختيارات المفضل ١٣٠٧/٣ وحاشيتها . والضمير في قوله : (معه) عائدإلى (عوف) في أول البيت .

(٣٤٢) انظر شرح المفضليات ٦٠٦. ورواية الأنباري: (ماأن يُغلبا) بفتح همزة (إن) . وقد رجح محقّق شرح اختيارات المفضل للتبريزي هذه الرواية ؛ انظر ٣/حاشية ١٣٠٧.

(٣٤٣) انظر شرح اختيارات المفضل ٣٧١/١ وحاشيتها . وذكر الأنباري القصة مختصرة ، انظر شرح المفضليات ١٢٨. وقد رواها مُسندةً إلى أحمد بن عبيد عن محمد بن عمرو بن أبي عمرو الشيباني.

وعند التأمل في صيغة النداء التي تصدّرت البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة ؛ وهي قوله : (فياآل ثوب...) تجدها لاتحمل غرضاً بلاغياً مباشراً ، أعني ليست دلالتها على غرض بلاغي دلالة مباشرة ، بل إن تحقيقها ذلك الغرض كائن بالنظر إلى مابعدها من كلام حتى نهاية الأبيات الثلاثة، وبالنظر إلى مابعدها كذلك.

ففي البيت الأول تضمن الإشارة إلى كون هذه الإبل بمثابة المغصوبة أو المسروقة ، فهي كنار اللّظى حُرمة ؛ لأنه استجلبها بخديعة ومكر. وفي البيت الثاني أخذ في وصف هذه الإبل بأنها مجمع كل داء وعيب ، وفي الثالث أراد أن يصور مايَلْزَق بهم من عار هذه الإبل ؛ ذلك العار الذي شبَّهه بالجرب الذي لايُذْهبه إلا الغَلْقَةُ وهو دباغ مُنْتن معروف عند أهل اليمن يدبغون به الجلود، أو يُذْهبه أبوال النساء القواعد اللاتي كبرن وارتفع حيضهن ويئسن من الولادة.(٣٤٤)

وفي هذا من إقذاع الهجاء وتشنيعه بطريق التهويل والتفظيع مافيه ! ؛ نقل الأنباري - عن أبي عكرمة الضبي - عن الأصمعي قوله :

« أراد: أن يُهوّل عليهم بالجرب والغَلْقَة، ويُفَظِّعَ بأبوال العجائز.»(٣٤٥)

ونقل التبريزي عن المرزوقي قوله : « وذِكْر العجائز تشنيع»(٣٤٦)

ومعنى هذا أن صيغة النداء في البيت الأول مرتبطة بما بعدها من أبيات في تحقيق غرضها البلاغي الذي قصد إليه الشاعر من هذا النداء، وأن هذا الغرض قد تحقق في غرض (الهجاء) المُقذع المُشنِّع ؛ بطريق التهويل والتفظيع ، وأن سياق الكلام في الأبيات ، وقرينة الحال يُدلاّن على ذلك الغرض دلالة قوية.

ولقد أحسن الأنباري والتبريزي في بيان الغرض البلاغي لصيغة النداء في هذه الأبيات ، وإن كانت الدلالة عليه غير صريحة أو مباشرة ، أعني لم تكن بذكر مصطلح (صيغة النداء) ، ومصطلح (الغرض البلاغي)لهذه الصيغة ، كما أنهما كانا في ذلك عالة على غيرهما ؛ على نحو ماسبق بيانه آنفا.

---

(٣٤٤) انظر شرح المفضليات ١٣٦، ١٣٧، وانظر شرح اختيارات المفضل ١/٣٨٥، ٣٨٦، وحاشيتها ، ٣٨٧، وحاشيتها ؛ حيث ذكر الأنباري والتبريزي في شرحيهما أصول هذه المعاني.

(٣٤٥) شرح المفضليات ١٣٧.

(٣٤٦) شرح اختيارات المفضل ١/٣٨٧ وحاشيتها.

ح - التَّشوُّق والتلذُّذ:

- قال سلامة بن جندل:

١ - يادارَ أسماءَ بالعلياء من إضَمِ * بين الدكادكِ مِن قَوٍّ فَمَعْصوبِ

قد تخرج صيغةالنداء عن غرضها الأصلي إلى غرض بلاغي يستفاد من السياق أو قرينة الحال أو كليهما؛ كما خرج النداء هنا إلى تحقيق غرض التشوق والتلذذ المتضمن إظهار التحسر والتوجع على أمر فائت كان مصدر شوق ولذة . فقد دلّ سياق البيت والأبيات بعده وقرينة حال الشاعر هنا على أن نداءه دار أسماء على غير وجهه الحقيقي؛ فاللفظ لفظ النداء ظاهراً لكن معناه وغرضه البلاغيّ إظهار التشوق والتلذذ؛ إظهاراً للتحسر؛ إنّ دار أسماء لاتُنادى ولاتُسأل وإن هي نوديت أو سؤلتْ فلا تُحير جواباً . ولكن النداء أو السؤال هنا لأجل التشوق إلى مَنْ كان فيها وقت أن كانت آهلة بمن يُنادى ، ولأجل التلذذ باسم هذه الدار ومعالمها واسم مَنْ أُضيفت إليه ، ولأجل التحسر على مافات من لهو والتوجع على مامضى من متعة حقيرة زائلة.

اقرأ قول التبريزي في ذلك ؛ حين ذكر صيغة النداء ، وكشف عن غرضها البلاغي على وجه دقيق مفصّل ، صدّره بقوله:(قال) نسبةً إلى المرزوقي الذي أخذ عنه ذلك مع تصرف يسير:

« قال: نادى الدار شوقاً إلى مَن كان فيها وهي مأهولة؛ تلذُّذاً باسمها واسم معالمها؛ وتحسُّراً على مافاته من اللهو، وغير ذلك فيها ؛ كالنادب في تأبينه إذا نبّه على حاجته إلى حياة مندوبه.»(٣٤٧)

ولقد أجاد المرزوقي - والتبريزي نقلاً عنه - في بحث صيغة النداء وبيان غرض التشوق والتلذذ الذي انطوت عليه ؛ إظهاراً للتحسر والتوجع؛ كدأب المرزوقي والتبريزي في بحث صيغ الإنشاء وأغراضها البلاغية التي أجادا البحث البلاغي فيها

---

(٣٤٧) شرح اختيارات المفضل ٢/ ٥٩٠ وحاشيتها.

جُملةً ، وإن كان التبريزي في أكثرها عالةً على المرزوقي؛ كما ظهر مما سبق من نماذج تمَّ عرضها ودراستها.

وقد أجاد المرزوقي في بحث صيغ الإنشاء وأغراضها البلاغية في شرحه ديوان الحماسة أيضاً كما أجاد فيها في شرحه ديوان المفضليات - فيما نقل التبريزي عنه- ، وكما كان التبريزي عالة على المرزوقي في بحث هذه الصيغ وأغراضها في شرحه المفضليات كان عالة عليه كذلك في شرحه ديوان الحماسة.

أما الأنباري فقد كان أقل الشرّاح جهداً في بحث صيغ الإنشاء وأغراضها البلاغية، بل لم يكن له جهد فيها ألبتة كما اتضح لك مماسبق عرضه ودراسته!.

وكما كان المرزوقي متألقاً في بحث هذه الصيغ وأغراضها كان العبيدي كذلك في عامة هذه الصيغ وأغراضها.

وكان لأبي عبد الله النمري جهد لابأس به في بحث صيغ الإنشاء وأغراضها البلاغية إذا ماقورن بغيره ممن كانوا أقل منه ، وبالنظر إلى طبيعة شرحه المتسم بجلاء غوامض معاني أبيات الحماسة .

أما أبوبكر الأنباري فلم أجد له من نماذج صالحة في صيغ الإنشاء وأغراضها البلاغية غير نموذجين في صيغة الاستفهام : لغرض التقرير؛ على نحو مامر ذكر ذلك وبحثه في موضعه.

ولم يكن لابن النحاس في بحث هذين النموذجين جهد يذكر ، كما سبق بيان ذلك .

كما أني لم أجد له من نماذج أخرى في دراسة صيغ الإنشاء ومباحثه وأغراضه البلاغية!.

أما سيد بن علي المرصفي في (أسرار الحماسة) فلم أقف له على مايستحق التسجيل والدرس من بحث لمباحث صيغ الإنشاء ودراسة أغراضها البلاغية.

سابعاً :الفصل والوصل

ذلك هو المبحث السابع من مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية. والبحث في مسألة(الفصل والوصل) في البلاغةالعربية من أدقّ المباحث وأصعبها وأجلها خطراً؛ ولذلك حصر بعضهم البلاغة بمعرفة فن(الفصل والوصل) ؛ تنبيهاً على دقة البحث فيه ، وعمق النظر في مسائله وأحواله ، وأن من أتقنه فقد أتقن علوم البلاغة ومباحثها كلها[٣٤٨] ؛ يقول عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله-؛ حين افتتح القول في باب(الفصل والوصل):

«اعلم أن العلم بماينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى - من أسرار البلاغة ، ومما لايأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص والأقوام طُبعوا على البلاغة وأُوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد . وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة؛ فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل؛ ذاك لغموضه ، ودقة مسلكه ، وأنه لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحدٌ إلا كَمُل لسائر معاني البلاغة.»[٣٤٩]

وقال عنه في موضع آخر:

« واعلم أنه مامن علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفيٌّ غامض ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف:إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله؛لاتطلب أنفسُهم منه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة!»[٣٥٠]

---

(٣٤٨) كنت في مطلع البحث في فصل السرقات عقدت موازنة بين موضوعي (الفصل والوصل) في البلاغة، و(السرقات الشعرية) في النقد الأدبي : من جهة صعوبة كل منهما ودقة مسلكه وأن من أتقن هذين الموضوعين وفهمهما فقد ضمن فهم مباحث البلاغة وفنونها ، أو مسائل النقد وقضاياه.

(٣٤٩) دلائل الإعجاز ١٧٠، ١٧١.

(٣٥٠) دلائل الإعجاز ١٧٨.

ولقد جرّد قلمه – رحمه الله – ، واستنهض موهبته واستنجد بذوقه في بحث هذا الفصل الخطير من فصول البلاغة حتى كشف غوامضه وفتح مغاليقه مستعيناً بالله ؛ حين افتتح الكلام فيه بـ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تيمُّناً وتبركاً واستعانة ، وكأنما استشعر وهو يتأهب لخوض غمار هذا الباب قول الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – : « كل أمر ذي بال لايُبدأ فيه بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾أقْطَع.»[٣٥١]

مواضع الفصل والوصل في شروح الاختيارات الشعرية:

لم أجد نصاً لدى شرّاح الاختيارات الشعرية على مصطلح (الفصل والوصل)؛ حين بحثهم أو تعرّضهم لماماً لشيء يتصل بهذا الباب الخطير من أبواب علم المعاني ومباحثه.

لقد تردَّدتْ بين شراح الاختيارات الشعرية مصطلحات تتصل بمصطلح (الفصل والوصل) ؛ وهي مصطلحات يفهم منها الإشارة إلى وجهي هذا المصطلح ؛ وذلك في أثناء حديثهم عن بعض الجزئيات بشكل مقتضب تستطيع ردّها – بعد إمعان فكر وإنعام نظر– إلى مواضع الفصل أو مواضع الوصل أو البحث في أحوال أيٍّ منهما. ومن مصطلحاتهم التي تتردد أحياناً في هذا الخصوص: مصطلح : (القطع ، الاستئناف ، العطف ، الربط، الجمع ، الاتصال ، الاشتراك) ، وما شابه ذلك مما سيأتي – إن شاء الله – في أثناء عرضي ودراستي لنماذج شرّاح الاختيارات في دراسة مواضع الفصل أو الوصل.

---

(٣٥١) رواه الإمام أحمد.

أ - مواضع الفصل:

١ - شبه كمال الاتصال :

- قال جابر التغلبي:

١٨ - ألا تستحي منّا ملوكٌ وتتّقي * محارِمَنا لايبوءُ الدّمُ بالدّمِ

نقل التبريزي عن المرزوقي تفسيراً وتعليقاً على قول الشاعر: (لايبوء الدم بالدم)؛ وهو قوله :« ... قوله : (لايبوء الدم بالدم) يقال: فلانٌ بَواء لفلان إذ أُقيد به.». ثم أردف الكلام بقوله:

« ويكون قوله :(لايبوء الدم) منقطعاً مما قبله ؛ يريد : أن بين دماء المقتولين بيننا تفاضلاً ؛ فراجعوا أنفسكم وتأمّلوا الحال، وأنْصفوا فلا سواء.»[٣٥٢]

ولم يشر الأنباري إلى موضوع الفصل والوصل في البيت من قريب أو بعيد![٣٥٣].

وأقف عند قول المرزوقي والتبريزي :« ويكون قوله :(لايبوء الدم) منقطعاً مماقبله» فمعنى هذا أن في الكلام فصلاً دُلّ عليه بمصطلح (القطع) أو (الانقطاع)؛ لقد فصل الشاعر هذه الجملة عما قبلها كما قرّراه .

ولكن ما العلة البلاغية التي دعت الشاعر إلى الفصل هنا ، أو قطع هذه الجملة عما قبلها - كما قالا - ، وأيّ النكات البلاغية سوّغتْ هذا الفصل مما هو معروف في مواضع الفصل؟.

وبالتأمل تجد أن علة الفصل هنا: (شبه كمال الاتصال) ؛ وذلك بأن هذه الجملة الثانية؛ وهي قوله :(لايبوء الدم بالدم) قد فصلت عما قبلها من كلام ؛ لأن هذه الجملة التي قد قطعت عما قبلها كانت بمثابة جواب عن سؤال ناشيء عن الجملة الأولى؛ فكأنه قيل: ولِمَ تستحِ منكم ملوكٌ وتتقِ محارمكم؟ ، أو كأن الشاعر قدّر سائلاً يسأل هذا السؤال المفهوم ضمناً من الجملة الأولى ؛ فقال في الجواب عنه : (لايبوء الدم بالدم)؛ أي: كان هذا ؛ لأنه لايبوء الدم بالدم ، أي: لسنا وإياهم سواء

---

(٣٥٢) شرح اختيارات المفضل ٢/٩٥٢، وحاشيتها.

(٣٥٣) انظر شرح المفضليات ٤٢٦.

فلا تتكافأ دماؤنا وإياهم !.

والشاعر إنما ينطلق في تقديره هذا من نظرة جاهلية. وإلا فإن الناس في الإسلام سواسية ، والمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم.

ولقد كانت الشاعرة في قولها :

٣ - أما في بني حِصْنٍ مِن ابن كريهةٍ * من القوم طَلّابِ التِّراتِ غَشَمْشَمِ

٤ - فَيَقتُلَ جَبْراً بامرئٍ لم يكن لـه * بَـواءً ولـكن لاتَكايُلَ بالدَّمِ(٣٥٤)

أدق وأصدق وأسلم في تقديرها ونظرتها من هذا الشاعر الجاهلي النظرة والحياة؛ ولذلك وَصلتْ هذه الشاعرة بين الجملتين ، ولم تفصل كما فصل هذا الشاعر في قوله هذا!. وقد كان مسوغ الوصل لدى الشاعرة هنا : اتفاق الجملتين في الخبرية ، مع وجود التناسب المعنوي بينهما.

وإنما جاز الفصل - فنًّا - عند الشاعر بناءً على معتقده الخاطيء وزعمه الباطل الذي أجاز لنفسه على أساسه الفصل فتصرف هذا التصرف الفني الشعري؛ فقدَّر سؤالاً تخيله في الجملة الأولى فأجاب عنه في الجملة الثانية التي فصلها عن الأولى على أساس هذا التقدير الذي قدَّره والمعتقد الباطل الذي اعتقده ، ولولا ذلك لكان يبني الجملة الثانية على أساس الوصل ويحوِّرها فناً وتصرفاً شعرياً على بناء الوصل ؛ كما فعلتْ تلك الشاعرة المصيبة في معتقدها وفنِّها!.

- وقال آخر:

وإنا لَنَجفو الضَّيفَ مِن غير عُسْرةٍ * مخافةَ أنْ يَضْرى بنا فيعودُ

ليس بين قوله :(فيعود) وماقبله وصل؛ إذْ ليست الفاء عاطفة، بل استئنافية، والكلام بعدها مبني على الاستئناف؛ والتقدير: (فهو يعود).

قال المرزوقي مشيراً في إعرابه جملة(فيعود) إلى موضوع فصل هذه الجملة عما قبلها ، وبنائها على الاستئناف:

« قوله : (فيعود) لم يعطفه على (أن يضرى بنا) ، لكنه قصد به إلى الاستئناف ،

---

(٣٥٤) البيتان - وبيتان قبلهما - في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٢١١-٢١٣.

والمراد: (فهو يعود).»[٣٥٥]

وأشار إلى ذلك التبريزي بعبارة مماثلة لعبارة المرزوقي .[٣٥٦]

وقد دلّ المرزوقي والتبريزي على مصطلح (الفصل) بقولهما: (لم يعطفه)، كما دلاّ عليه دلالة إشارة بمصطلح (الاستئناف).

ولو أردت أن تلتمس العلة البلاغية في كلامهما لسرّ فصل الشاعر هذه الجملة عما قبلها لما وجدت فيه شيئاً يدل على نكتة الفصل .

وقد كان فصل الشاعر جملة(فيعود) عما قبلها وبناؤها على الاستئناف وعدم عطفه إياها على جملة(أن يضرى بنا) على سبيل الوصل - كان ذلك لعلة (شبه كمال الاتصال)؛ من جهة الاستئناف وتقديره المبني على جواب سؤال عن الجملة التي قبلها والتي تُرك الوصل بها فقُطعتْ عنها فصلاً بالاستئناف المقدّر ؛ أعني أن قوله : (مخافة أن يضرى بنا) كانت جواباً عن سؤال ناشيء عما قبلها ؛ فكأنه لما قال: (وإنا لنجفوا الضيف من غير عسرة) قيل له : ولم ذلك ؟ ، أو من أجل ماذا؟ فقال: (مخافة أن يضرى بنا) ، أي : خوفاً من أن ينقبض عنا.

ولذلك وقعت هذه الجملة الثانية؛ (مخافة أن يضرى بنا) مفعولاً لأجله ، ثم كان تقدير الجملة الثالثة: (فيعود) التي قطعت على الاستئناف؛ (فهو يعود)؛ فكأن التقدير كان : وإذا لم يضرَ بكم الضيف أو ينقبض عنكم فماذا يحصل له أو يكون منه؟ فقال الشاعر: فيعود ؛ أي (فهو يعود إلينا مراتٍ وكرّات)؛ ولذلك بنى كلامه هنا في هذه الجملة الأخيرة على القطع بطريق الاستئناف ، ففصل كلامه ولم يصله لعلة (شبه كمال الاتصال)؛ بطريق الاستئناف.

هذا ويصح تقدير علة الفصل عند الشاعر في هذه الجملة على أساس أن الوصل مخلٌ بالمعنى ؛ ذلك بأن الشاعر لو وصل جملة (فيعود) وعطفها على جملة

(٣٥٥) شرح ديوان الحماسة٤/١٨٥٧.

(٣٥٦) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/٣٤٧.

(مخافة أن يضرى بنا) لما صح المعنى ولما استقام ؛ إذ يصبح المعنى على هذا الوصل أو العطف - لو قيل به -: إنا نجفوا الضيف من غير عسرة أو ضيق بنا خوفاً من انقباضه عنا وعودته إلينا. وهذا معنى غير مراد عند الشاعر؛ لأنه وقومَه إنما خافوا انقباضه عنهم من أجل أن يعود إليهم طلباً لإكرامه وتودّداً إليه ، لازهداً فيه ورغبة عنه؛ ولذلك فصل الشاعر هذه الجملة ولم يصلها بما قبلها مخافة اللبس بل فساد المعنى المترتب على هذاالوصل لو عطف ، وهو معنى غير مراد عند الشاعر؛ لأنه يضيع عليه افتخاره وتمدّحه بمثل هذا الكلام!.

فالفصل هنا لعدم اشتراك الجملتين في الحكم المراد لدى الشاعر .

وكذلك يجوز تقدير علة الفصل عند الشاعر في هذه الجملة على أساس علة (كمال الانقطاع)؛ وذلك لأن الجملتين - هنا - اتفقتا في الخبرية دون رابط معنوي يجمع بينهما ؛ فجملة (يضرى بنا) خبرية، وجملة (فيعود) خبرية - كما أن جملة (لنجفوا) خبرية كذلك- ، ولكنه لارابط معنوي يجمع بين جملة (يضرى بنا) و(يعود) حتى يستقيم الوصل ؛ إذْ قد عرفت التناقض المنبني على الوصل بالعطف ، وكيف يختل المعنى ويخالف مراد الشاعر ؛ لذلك لم يصح الوصل وتعيّن الفصل ؛ لانعدام التناسب المعنوي بين الجملتين وإن اتفقتا في الخبرية.

على أن الشاعر لو جاء بنظم آخر لما اضْطُرّ إلى ركوب هذه المحاذير المُلبِسة، ولبنى كلامه على الوصل؛ فيتحقّق له غرضه ومراده في نظم فني لايتعارض مع أصول البلاغة ودلالات التراكيب ؛ وذلك مثل أن يقول: (وإنا مخافة أن يضرى بنا الضيف لنجفوه من غير عُسْرةٍ ويعود.) ، أو كلاماً على هذا النحو والمعنى يسلكه في نظم بيته.

٢ - كمال الانقطاع:

- قال آخر:

١ - تَخْضِبُ كفاً بُتِكَتْ من زَنْدها

٢ - فتَخْضِبُ الحِنَّاءَ من مُسْوَدِّها

فصل الشاعر بين الجملتين : (تخضب كفًّا) و(بتكتْ من زندها) لأن الجملة الأولى خبر والثانية إنشاء ، بصيغة الدعاء . وإذا اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء وجب ترك الوصل إلى الفصل؛ لعدم التناسب المعنوي بين الجملتين وانقطاع مابينهما؛ لذلك لايعطف بينهما وصلاً وإنما يتعين الفصل. وهذا موضع من مواضع الفصل؛ يسمّى (كمال الانقطاع).

وقد تكلم المرزوقي على هذا بكلام فني دقيق غير أنه لم يستخدم فيه المصطلحات البلاغية المعروفة في باب الفصل والوصل ؛ فقد عبّر بالقطع عن الفصل، وأوضح أن قوله :(بتكت من زندها) منقطع مما قبله ؛ لأنه أخبر في كلامه الأول بقوله:(تخضب كفًّا) ، ثم ترك الإخبار عن خضاب كفها إلى الدعاء عليه بقوله : (بتكت من زندها)؛ أي قُطِعتْ منه . وأخبر أنه لايجوز الاتصال - أي الوصل - بما قبله ؛ لأنه يلزم من الاتصال أو الوصل أن تكون الجملة الثانية واقعة موقع الصفة للأولى؛ والدعاء لايكون صفة ولا صلة ولا خبراً إلا بتأويل.

وهذا نص كلام المرزوقي في ذلك:

« وقوله : (بُتِكتْ من زندها) منقطع مما قبله ؛ كأنه خبَّر عنها ، ثم دعا على كفِّها . ولا يجوز أن يتصل بما قبله ؛ لأنه حينئذٍ يكون واقعاً موقع الصفة للكفّ ، والأمر والنهي والدعاء لاتكون صفات ولا صلات ولا أخباراً إلا بتأويل.»(٣٥٧)

وهذا كلام لغوي بلاغي بصير؛ بنى فيه البلاغة على أسرار اللغة والحرص على صحة القول فيها وإدراك مابين الجمل من وشائج وعلاقات في التناسب المعنوي، أو انعدامه ؛ وهذا هو سرّ الفقه في باب الفصل والوصل .

ولقد وفّى المرزوقي في بيان العلة أو السر اللغوي الذي بنى عليه البلاغيون مسألة وجوب الفصل في هذه الحالة؛ حيث لم يكتف بتغاير الجملتين خبراً وإنشاءً دليلاً على وجوب الفصل بل راح بعيداً إلى أبعد من ذلك؛ وهو التعليل لهذا

(٣٥٧) شرح ديوان الحماسة ١٨٥٧/٤، ١٨٥٨.

الحكم أو العلة البلاغية تعليلاً مبنياً على نكتة أو سرٍّ لغوي نحوي [٣٥٨]؛ وذلك في قوله عن الجملتين هنا: إنه لايجوز أن تتصل الثانية بالأولى حتى لاتكون الثانية واقعة موقع الصفة ؛ والأمر والنهي والدعاء لاتكون صفات ولاصلات ولا أخباراً إلا بتأويل !.

وقد تابع التبريزيُّ المرزوقيَّ في كلامه المتقدم كله فنقله عنه بنصه من غيرزيادةاً و نقص!.[٣٥٩]

ب - مواضع الوصل

ا - اتفاق الجملتين خبراً أو إنشاء مع تحقُّق التناسب المعنوي بينهما:

- قال مُرَّة بن محكان:

١ - ياربَّةَ البيت قُومي غيرَ صاغرة * ضمِّي إليكِ رِحالَ القوم والقُرُبا

٢ - في ليلةٍ من جُمادى ذاتِ أندِيةٍ * لايبصرُ الكلبُ من ظلمائها الطُّنُبا

الأجود الأفصح والأولى المتخيَّر أن توصل الجملة الثانية بالأولى بحرف العطف إذا كانتا متفقتين في الخبرية أو الانشائية ، ووجد بينهما تناسب معنوي. لكن الشاعر هنا ترك الوصل بين جملة (قومي..) و(ضمّي..) ؛ وفصل؛ بترك عطف الثانية على الأولى.

ويرى المرزوقي أن الأجود المتخير الوصلُ ، وأن ترك الوصل إلى الفصل جائز. وقد تكلم على هذا كلاماً دقيقاً أشار فيه إلى سرّ جودة الوصل بين الجملتين هنا - لو أن الشاعر وصل - ، وأن مردّ هذا السرّ البلاغي إلى اتفاق الجملتين في صيغة الأمر، أي كونهما إنشائيتين . وقد ضرب على ذلك بعض الشواهد والأمثلة التي وازنها بقول الشاعر هنا مبيناً أن الأصل هو الوصل، ولكن الشاعر ترك الوصل ففصل بين الجملتين وهو جائز ، كما يقول المرزوقي:

---

(٣٥٨) ومثل هذا الكلام وسواه يؤكد مابين البلاغة وعلوم اللغة العربية بل علم النحو - بوجه خاص - من رابط وثيق ، وأن البلاغة لاتستقيم وتؤثر بدون أساس مكين من صحة الألفاظ ، ودقة نظم التراكيب؛ وجريهما على سنن اللغة ونظام النحو!.

(٣٥٩) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي٤/٢٤٨.

«.. وقوله : (في ليلة)إن شئت جعلت الجارّ مُتَعلِّقاً بضُمِّي، وإن شئت جعلته متعلقاً بقومي ، والأجود في الجمع بين الفعلين في باب الأمر أن يدخل الثاني حرف العطف ؛ كقول الله عزّ وجل :﴿ قم فأنذر ، وربك فكبر﴾ ، و(ادْنُ فاكتُبْ)، وما أشبه ذلك . وهذا قال: (قومي غير صاغرة ضُمِّي إليكِ) ، ولم يأت بالعاطف فيه ، وهو جائز .»(٣٦٠)

وقد نقل التبريزي عن المرزوقي هذا الكلام بنصه مع تصرف يسير!.(٣٦١)

وكما ذكرت آنفاً فإن المرزوقي قد تميز كلامه هذا بالدقة ، لأنه أشار فيه إلى موضع الوصل هنا وكونه الأجود المتخير، ولأنه قد أشار إلى العلة البلاغية للوصل، كما تميز كلامه بموازنته بآي القرآن الكريم ، ثم فيما ذكره أخيراً من جواز هذا الفصل الذي لجأ إليه الشاعر.

غير أن المرزوقي لم يذكر الوجه البلاغي للفصل الذي لجأ إليه الشاعر ، وأجازه المرزوقي ؛ حين قال:« .. وهذا قال : (قومي غير صاغرة ضمِّي إليك) ولم يأت بالعاطف فيه ، وهو جائز » ؛ فاكتفى بالقول بجواز الفصل وإن كان خلاف الأولى أو الأفصح المتخيّر.

ولو تأملت في طلب الوجه البلاغي لجواز الفصل بين هاتين الجملتين عند الشاعر لوجدته في وجهين بلاغيين من مواضع الفصل :

أحدهما : كمال الاتصال ؛ لكون الجملة الثانية متصلة بالجملة الأولى اتصالاً تاماً كاملاً؛ بأن كانت منها عطف بيان؛ وهذا ظاهر؛ فإن قوله : (ضمِّي..) بيان لقوله قبل : (قومي..) وتفسير له .

أما الوجه الآخر فهو : شبه كمال الاتصال ؛ لكون الجملة الثانية واقعة موقع الجواب عن سؤال ناشىء عن الجملة الأولى ؛ فكأن سائلاً سأل ، أو تخــــيَّلَ الشاعر هذه المرأة – التي أمرها بالقيام في الجملة الأولى ؛ حين قال لها: (قومي...) – كأنها قالت : وماذا أفعل؟ فأجابها بقوله :(ضمّي إليكِ رحالَ القوم والقُرُبا).

---

(٣٦٠) شرح ديوان الحماسة ١٥٦٣/٤.

(٣٦١) انظر شرح ديوان الحماسة ١٢٣/٤، ١٢٤.

- وقال مزرد بن ضرار:

٤٨ - ألستَ نَقِياً ماتليقُ بكَ الدُّرى * ولا أنتَ إن طالتْ بكَ الكفُّ ناكِلُ

يرى التبريزي - فيما نقله عن المرزوقي - أن عطف جملة (ولا أنت...) على قوله: (ماتليق..) إنما ساغ لتشابه الجملتين ؛ لأنهما بمعنى (لا الذي يليق)؛ (ولاأنت ناكل)؛ فالجملة الأولى مكونة من فعل وفاعل، والثانية من المبتدأوالخبر.(٣٦٢)

وعلى هذا فهما جملتان خبريتان منفيتان ، وحيث اتفقتا في الخبرية ، وكان بينهما تناسب في المعنى ، ولم يكن هناك مانع من الوصل ساغ الوصل.

وهذا مادل عليه قول المرزوقي والتبريزي-على سبيل الإشارة - في مسوغ عطف الجملة الثانية على الأولى: « ولتشابههما ساغ العطف».

ولم يشر الأنباري إلى مابين الجملتين من تشابه سوَّغ العطف!.(٣٦٣)

- وقال جابر التغلبي :

١ - ألا ياالقومِ للجديد المُصرَّمِ * ولِلحِلم بعد الزلةِ المُتَوَهَّمِ.

بيَّن التبريزي - نقلاً عن المرزوقي- مسوغ عطف الشاعر جملة : (وللحلم بعد الزلة المتوهم) على جملة : (ألا ياالقوم للجديد المصرَّم)، وكيف ساغ عطف الحلم على الجديد، مع أن الظاهر عدم استساغة هذا العطف؛ لأن الحلم والشباب لايكادان يجتمعان؟!. وكيف أن الشاعر جعل الحلم متوهَّما؛ أي : ليس أصيلاً ثابتاً، كما أنه جعله بعد الزلل ، وهذا عجب !. ؛ إذْ أيُّ حِلم يكون بعد الزلة والأصل فيه أن يكون سابقاً لها .

ولكن التبريزي نقل عن المرزوقي تسويغاً لهذا العطف؛ فقال:

« ... وعَطَفَ (الحلم) على (الجديد) وجَعلَه مُتوهَّماً ، لكونه عارضاً ، لاعن رويَّة ، وكما جَعَل الحلمُ مُتوهَّماً جعل الصِّبا زلَّةً أيضاً ؛ لوقوعه عن عَرَض، لاكالذي تجول معه زماناً ويجول معك حتى يصير لزاما»(٣٦٤)

---

(٣٦٢) انظر شرح اختيارات المفضل ٤٧٧/١ ، وحاشيتها.

(٣٦٣) انظر شرح المفضليات ١٧٦.

(٣٦٤) شرح اختيارات المفضل ٩٤١/٢، وحاشيتها.

ومقصود المرزوقي والتبريزي أن جديد الشباب والصِّبا فيه نزوة عارضة قلَّما تُحكم هذه النزوة أو تُلجم بالحلم خلال هذه الفترة من العمر؛ لذا فهي عارضة؛ فصار الحلم فيها عارضاً غير مستقر - كذلك - وغير أصيل ثابت يؤدي مهمته بثبات واستقرار. وإذا كان الحلم مع فترة الشباب ونزوته أشبه بالعارض المُتوهَّم؛ لعدم تمكنه أو تروِّيه في قلب الفتى وصدره؛ لأنه يكابد نزوة شباب عارضة غير مستقرة كان كل منهما - الحلم والشباب- عارضاً غير ثابت ؛ ولهذا ساغ العطف بينهما؛ لكون كل منهما عارضاً غير مستقر وغير أصيل ثابت لازم.

هذا هو مسوغ العطف ؛ على نحو ماذكره المرزوقي والتبريزي ، وهو مسوغ له وجاهته ؛ إذ الظاهر والأعم الأغلب تنافر الحلم مع الشباب فلايكادان يجتمعان إلا بمثل تقدير هذا المسوغ الذي ذكراه .

ولكن المرزوقي أو التبريزي لم يذكر المسوغ الفني البلاغي لهذا الوصل بين هاتين الجملتين بالعطف. ولو تأملته لوجدته في اتفاق الجملتين إنشاءً ، مع مابينهما من تناسب معنوي أشار إليه المرزوقي والتبريزي في الكلام الآنف ذكره.

إن قول الشاعر: (ألا يالَقوم للجديد المصرم) جملة إنشائية مكونة من أداة عرض وتحضيض؛ وهي (ألا) ، ومن النداء المكون من (ياء)النداء ، والمنادى:(يالَقوم) ، ومن استفهام مُقدَّر بعد صيغة النداء ؛ إذ التقدير:(ألا يالَقوم مَنْ للجديد المصرَّم؟!) ؛ إنها جملة إنشائية بل جُمَل إنشائية بصيغ متعددة؛ هي (ألا) التي للعرض والتحضيض وما فيها من معنى صيغة (التمني) ، وصيغة النداء ؛ (يالقوم)، وصيغة الاستفهام؛ (مَنْ للجديد المصرَّم ؟)؛ فكانت صيغاً إنشائية ثلاثاً -لاصيغة واحدة - تضافرت معاً لتكوين جملة إنشائية عامة قويَّة مؤثِّرة ، في تركيبها وبناء نظمها الفني ، وفي تأثيرها البلاغي.

وقد عطف الشاعر على هذه الجملة الإنشائية العامة بصيغها الثلاث جملةً إنشائية عامة بصيغ ثلاث كذلك ؛ مثل الجملة المعطوف عليها في ذلك سواء بسواء. لكنها هنا - أعني الصيغ الإنشائية الثلاث في الجملة الثانية - صيغ إنشائية مُقدَّرة

بمقتضى حكم الوصل بالعطف ، والتقدير:(وألا ياألقوم مَنْ للحلم بعد الزلة المتوهَّم).

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي في بيان المسوغ المعنوي للعطف الذي دلاّ به على مابين الجملتين من تناسب معنوي ساغ به عطف الجملتين والوصل بينهما - على نحو ماسبق بيانه - . لكنهما لم يذكرا مصطلح (الوصل) أو العلة الفنية البلاغية لهذا الوصل؛ على نحو مابينت آنفا.

أما الأنباري فقد نقل كلاماً عن أحمد بن عبيد عن ثعلب قال فيه :« ... الجديد: الشباب يتعجّب من تصرُّمه ويتعجب من حلمه المتوهَّم بعد الزلة؛ يقول: كان ينبغي للحلم أن يكون قبل الزلة، فإنه بعد الزلة ليس بحلم. ثم قال: وللمرْءِ يعتاد الصبابة؛ يتعجب أيضاً ؛ يقول: قد مرّ لصريمته سَنَةٌ فكيف رجع إلى الصبابة بعد حول! ».[(٣٦٥)]

ولم يورد غير هذا ؛ مما يُطمَع في فائدته ، فيما نحن بصدده من بحث في مسألة الوصل في البيت على نحو ماورد عند المرزوقي والتبريزي؛ من بيان للتناسب المعنوي المسوِّغ لمقتضى الوصل بين الجملتين ، أو مابيّنتُه من علة فنية بلاغية لهذا الوصل بين الجملتين عند الشاعر .

- وقال آخر:

٣ - فلاأمٌ فتبْكيهِ * ولا أختٌ فتَفْتَقِدَهُ

ليس قوله : (فتبكيه) ولا (فتفتقده) جواباً للنفي، لأنهما غير منصوبين هنا، ولو كانا جواباً لـ(لا) النافية لكانا منصوبين بها . ولكن قوله :(فتفتقده) معطوف على قوله :(فتبكيه) من باب عطف الجملة على الجملة، وساغ العطف حملاً على اتحاد المعنى ؛ والتقدير: لاأُمّ له فلاتبكيه ، ولا أخت له فلا تفتقده).

وقد تكلم المرزوقي على هذا كلاماً دقيقاً يتصل بالنظم النحوي وتآلفه مع الأداء البلاغي واتساق المعنى بين الجملتين حتى صار مسوغاً للوصل بطريق العطف؛ يقول في ذلك :

« لم يجعل فتبكيه ولا فتفتقده جواباً للنفي؛ لأن الجواب يكون منصوباً ، لكنه

---

(٣٦٥) شرح المفضليات ٤٢٢.

عطف على ماقبله ، وهو عطف جملة على جملة، ومثله في القرآن :﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ ؛ لأن المعنى : لايؤذن لهم ولا يعتذرون، وكذلك هذا معناه: لا أم له فلا تبكيه ، إلا أن الجملة المعطوفة مما في القرآن موافقة للجملة المعطوف عليها ؛ لأن كل واحدة منهما متركبة من فعل وفاعل ، والتي عُطِف عليها هي من ابتداء وخبر . والجمل الخبرية إذا اختلفت مثل هذا الاختلاف يسوغ عطف بعضها على بعض؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول:﴿ سواءٌ عليكم أدَعوتُموهم أم أنتم صامتون﴾؛ فعطف أنتم صامتون وهو ابتداء وخبر على ماقبله وهو فعل وفاعل ؛ لأن المعنى لايختلف ، بل يصير كأنه قال: أدعوتموهم أم صَمَتُّم . وقد جاء على العكس من هذا ؛ لأن الشاعر يقول:

أمُوفٍ بأدْراعِ ابنِ طَيْبَةَ أم تُذَمْ

فعطف (تُذَمّ) وهو من فعل وفاعل بـ (أم) على (مُوف) وهو ابتداء وخبر؛ لأن المعنى : أأنت مُوفٍ محمودٌ أم غادرٌ مذموم؟ . والكلام في (لاأخت فتفتقده) على ذلك ؛ كأنه قال:(لاأخت له فلا تفتقده).»(٣٦٦)

وقد نقل التبريزي عن المرزوقي أول كلامه هذا إلى قوله :« ومثله في القرآن:﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ ؛ لأن المعنى: لايؤذن ولايعتذرون، وكذلك هذا معناه: لاأم له فلا تبكيه.» . وترك بقية كلامه على الرغم من أهميته في هذا الباب!.(٣٦٧)

ولقد أحسن المرزوقي وأفاد في هذا الكلام الدقيق المفصّل الذي دلّ به على موضع من مواضع الوصل بين الجمل لما بينها من توافق في الخبرية ، وتماثل في المعنى وتناسب ؛ فلقد كان هذا واضحاً جداً في كلامه الذي بحث فيه مسألة العطف بين الجملتين عند الشاعر؛ حين بين أنهما من باب العطف ؛ عطف الجملة على الجملة، وضرب لذلك شاهداً من القرآن الكريم تمّ فيه الوصل بين جملتين ؛ لما بينهما من التشابه في الخبرية ؛ والتناسب في المعنى ، وقاس قولَ الشاعر وعطفه

---

(٣٦٦) شرح ديوان الحماسة ٢/٨٩٨، ٨٩٩.

(٣٦٧) انظر شرح ديوان الحماسة٢/٣٥٧.

الجملتين على الآية الكريمة، وبيّن أن الاختلاف في جنس هاتين الجملتين الخبريتين المتعاطفتين لايؤثر على المعنى ؛ مما يسوغ معه العطف ؛ فإذا كانت الآية اشتملت على جملتين تألّف كل منهما من فعل وفاعل فإن ماعند الشاعر تألف من مبتدأ وخبر في جملته الأولى ، ومن فعل فاعل في جملته الثانية المعطوفة على الأولى، وهذا لايؤثر في الجملتين ولا يخرجهما عن سمَة الخبرية الذي يسوغ معه العطف شريطة ألاّ يختلف المعنى بينهما وأن يجمعهما التناسب في ذلك؛ فقد وقع في القرآن الكريم أن عُطفتْ جملة خبرية من مبتدأ وخبر على جملة خبرية من فعل وفاعل، وذلك في قوله تعالى : ﴿ سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ كما جاء في الشعر عكس ذلك؛ وهو قوله: * أموف بأدراع ابن طيبة أم تُذَمْ *

حيث عطف جملة الفعل والفاعل(تُذَمْ) على جملة المبتدأ والخبر؛ وهو (موف)، وتقديره ماقدّره المرزوقي حسب المعنى : (أأنت موف محمودٌ أم غادر مذمومٌ؟) .

كل ذلك من الإيضاح والتفصيل وضرب الأمثلة والشواهد أتى به المرزوقي عن دراية وتفهم وبصيرة.

والمتأمل في كلامه هذا يجد فيه دلالة قوية - وإن كانت غير مباشرة - على أسلوب الوصل عند الشاعر، وعلى العلةالبلاغية لذلك الوصل التي هي : اتفاق الجملتين في الخبرية لتحقق التناسب المعنوي بينهما(٣٦٨)

وقال بعضُ بني عبس:

٢ - وأنّا نرى أقدامَنا في نعالِهمْ * وآنُفَنا بين اللّحى والحواجبِ

٣ - وأخلاقَنا إعطاءَنا وإباءَنا * إذا ماأبَيْنا لاندُرُّ لعاصبِ

لما أراد الشاعر ضمَّ المعنى في البيت الثاني إلى معنى البيت الأول وصل

---

(٣٦٨) للمرزوقي وقفة مشابهة لوقفته هذه ؛ حين أورد مضمون كلامه هذا ؛ وذلك في شرحه قول يزيد ابن الحكم :

والمرءُ يكرمُ للغنى * ويُهانُ للعدم العديمُ

فذكر مابين الجملتين الخبريتين من خلاف بين الإبتداء والخبر، والفعل والفاعل، ومع ذلك عطف الثانية على الأولى لما بينهما من التقارب في المعنى ... انظر ديوان الحماسة ١١٩٤/٣. وتابعه التبريزي في ذلك انظر شرح ديوان الحماسة ١٨١/٣ .

بالعطف بين الجملتين ؛ أعني عطف جملة:(وأخلاقنا) على جملة :(وأنّا نرى أقدامنا...) ؛ فجمع بين معنى البيت الأول ومعنى البيت الثاني ؛ لأنه أراد أن يجعل المشابهة في البيت الأول في الخَلْق ، وفي الثاني في (الخُلُق) مبالغةً في كمال اتصال النسب بين قبيلة الشاعر ومَنْ عناهم في البيت الأول الذي ذكره قبل هذين البيتين.

وكان الواجب أن يقول: وأخلاقنا أخلاقهم ، لكنه لجأ إلى العطف على قوله : (أقدامنا) مكتفياً بذلك ؛ لما فيه من الدلالة على المراد ، من إفادة الاشتراك في الحكم بهذا الوصل بالعطف ؛ يقول المرزوقي في ذلك:

« جعل الشبه في البيت الأول في الخَلْق وهاهنا في الخُلُق تأكيداً للأمر وكان يجب أن يقول: وأخلاقَنا أخلاقهم فاعتمد على أن العطف على قوله : (أقدامنا) يدلُّ ويغني - لما يفيده من الاشتراك - مايغني في قولهم : (قام زيد وعمرو)، و(إن زيداً منطلق وعمرو) ؛ فكأنه قال: وأنا نرى أخلاقنا كأخلاقهم ؛ إذا أعطينا أو أبينا.»(٣٦٩)

ونقل التبريزي هذا الكلام بنصه مع تصرف واختصار يسيرين !(٣٧٠)

وقد دلّ المرزوقي بهذا الكلام على مصطلح الوصل بمصطلح العطف، مع إشارته إلى أن العطف كان بين جملتين خبريتين ، وأن الذي سوغ العطف بينهما مايفيده هذا العطف من الاشتراك في الحكم ، إضافة إلى التشابه بين الجملتين المتعاطفتين في الخبرية.

وعلى هذا فالوصل بين هاتين الجملتين الخبريتين عند الشاعر إنما ساغ لاتفاق الجملتين خبراً ، مع كون الوصل بالعطف مبنياً على التناسب في المعنى -المبني على الاشتراك في الحكم الإعرابي -، وعدم وجود مانع من الوصل.

- وقال عبد الله بن الحشرج:

٤ - ولكنّي امرؤٌ عوّدْتُ نفسي * على عِلاّتها جَرْيَ الجيادِ

---

(٣٦٩) شرح ديوان الحماسة١/٣٢٩.

(٣٧٠) انظر شرح ديوان الحماسة ١/٣١٢.

٥ - مُحافَظَةً على حَسَبِي وأَرْعى * مساعـــي آل وَرْدٍ والرُّقَادِ

أوضح المرزوقي كيف ساغ عطف الفعل:(أرعى) على المصدر: (محافظة) ؛ وبيّن أن مسوغ ذلك : الحملُ على المعنى، وأن الوصل بالعطف كان مبنياً على تقدير أن المصدر بمعنى الفعل؛ قال:

«وقوله :(أرعى) حمله على المعنى فعطف على ماقبله وإن اختلفا؛ أي: أفعل ذلك لأحافظ وأرعى ؛ محافظةً على الشرف وراعياً لمساعي آل وَرْد.»[(٣٧١)]

وورد هذا الكلام بنصه عند التبريزي سوى تصرف يسير فيه !.[(٣٧٢)]

لقد أوضح المرزوقي أن الخلاف بين هاتين الجملتين خلاف شكلي؛ إذْ المصدر المعطوف عليه في معنى جملة فعلية من فعل وفاعل، فصار الوصل بين جملتين فعليتين خبريتين . فنظراً إلى اتفاق هاتين الجملتين في الخبرية ، ونظراً إلى أن القصد بهذا العطف تشريك الجملة الثانية مع الأولى في الحكم الإعرابي؛ لما بينهما من تناسب في المعنى - ساغ الوصل بينهما بالعطف ، وإن كان بينهما مابينهما من اختلاف في الظاهر.

٢ - إذا اختلفت الجملتان خبراً أو إنشاءً وكان الفصل يوهم خلاف المراد:

هذا هو الموضع الثاني من مواضع الوصل ، وضابطه: أن تكون إحدى الجملتين المتعاطفتين خبراً والأخرى إنشاء ، أو العكس . على أن يكون ترك الوصل موهماً خلاف المراد، فيتعين الوصل بين هاتين الجملتين ، وترك الفصل دفعاً للوهم وتصحيحاً للمعنى أن يكون على خلاف مراد المتكلم.

وقد أشار العبيدي إلى هذا الموضع من مواضع الوصل؛ حين تكلم على الواو الواردة في قول الشاعر:

وأُعْرِضُ عن مطاعِمَ قد أراهـــا * فأتْرُكها وفي بَطْني انْطِواءُ

فلا وأَبِيكَ مافي العيش خيرٌ * ولا الدنيا إذا ذهب الحيـــاءُ

---

(٣٧١) شرح ديوان الحماسة٤/١٧٣٩.

(٣٧٢) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/٢٥٨، ٢٥٩.

يعيش المرءُ ماستَحيا بخيرٍ * ويبقى العـودُ مابَقِيَ اللِّحاءُ

أعني الواو الواردة في قوله :(فلا وأبيك...) ؛ حيث قال العبيدي:«و(فلا وأبيك) ردٌّ لكلام مقدّر ؛ لأن النفي قد جاء بعده ، أي : ليس الأمر كما يزعمون؛ فوالله مافي العيش خير، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فلا وربك لايؤمنون﴾ فجواب القسم لايؤمنون. و(إذا) منصوبة بما دلت الجملة عليه ؛ أي: لايفضل العيش إذا ذهب الحياء.....،

والواو في (فلا وأبيك) هي الواو الفصيحة التي وقعت في كلام كاتب هارون الرشيد لما سأله عن شيء فقال: لا وأيَّد الله أمير المؤمنين؛ فخلعه هارون ، ولمّا سمع الصاحب هذا الكلام فقال: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المُرْد الملاح!.»[٣٧٣]

وما كانت تلك الواو لتستحق أن توصف بـ(الواو الفصيحة) لولا مالها من أهمية بالغة في تركيب الكلام وحسن نظمه ، ومالها من أثر في دفع الوهم المخل بالمعنى المخالف لمقتضى مراد المتكلم؛ ولذلك استحقت هذا الوصف العظيم ، واستحق ذلك المترسِّم لخُطى الفصاحة باستصحابها في نظم كلامه أن يخلع عليه أمير المؤمنين – هارون الرشيد– خُلعة، كما استحقت ثناء الصاحب ابن عباد – الكاتب الوزير – عليها بذلك الثناء المبني على غاية الإطراء والتمدح بالحسن والجمال؛ لما لهذه الواو من أثر في نظم الكلام ، وحسن رصفه ، وصحة معناه، وسلامة مقاصده ، ودقة إبداعه ، وعمق تأثيره!.

إنها الواو التي يتعين بها وصل الجملتين المختلفتين خبراً وإنشاءً ؛ إذا كان الكلام بدونها يوهم خلاف المراد؛ فلا يجوز الفصل بين هاتين الجملتين ، وإنما يتعين الوصل بينهما عطفاً بهذه الواو الفصيحة دفعاً لذلك الوهم غير المراد، وتصحيحاً للمعنى المختلّ الذي جرى على غير قصد المتكلم.

وقد أحسن العبيدي في الكلام على هذه الواو؛ حين عرّف بها ، وضرب الشواهد عليها ، وأثنى عليها بما تستحق.

---

(٣٧٣) شرح المضنون به على غير أهله ٥٤.

ولم أجد لهذا الموضع من مواضع الوصل غير ماذكرته في النموذج الآنف ذكره عند العبيدي.

كما لم أتبيّن مايصلح لبحث الفصل والوصل ومواضعهما عند أبي بكر الأنباري ، وابن النحاس في شرحيهما للمعلقات، ولا عند أبي عبد الله النمري ، وسيد المرصفي في شرحيهما لديوان الحماسة.

ثامناً : الإيجاز والإطناب

هذا هو المبحث الثامن - والأخير - من مباحث علم المعاني في شروح الاختيارات الشعرية.

وقد حدّ القزويني الإيجاز والإطناب والمساواة بحدٍّ موجز جامع؛ وذلك بقوله :

« المقبول من طرق التعبير عن المعنى : هو تأدية أصل المراد بلفظ مساوٍ له ؛ أو ناقصٍ عنه وافٍ ، أو زائدٍ عليه لفائدة .»(٣٧٤)

وقد قصد بالمساواة أن تكون الألفاظ بمقدار أصل المعنى المراد؛ دون نقص أو زيادة .

أما الإيجاز : فهو أن يؤدّى أصل المعنى المراد بلفظ أو بألفاظ ناقصة عن الألفاظ المساوية لقدار أصل المعنى المراد، على أن تكون هذه الألفاظ وافية بأداء المعنى المراد غير قاصرة عن أدائه أو مخلّة فيه . وقد يكون نقص الألفاظ في الإيجاز بطريق الحذف أو القِصَر؛ كما سيأتي بيانه في نوعي الإيجاز.

وأما الإطناب فهو : تأدية أصل المعنى المراد بألفاظ زائدة عليه ؛ ولكنها زيادة لفائدة، احترازاً من التطويل أو الحشو ؛ وسيأتي بيان ذلك في مواضعه ؛ بإذن الله.(٣٧٥)

وقبل أن آتي على ذكر الإيجاز ونوعيه ، والإطناب وصوره ، والتطويل والحشو، وبيان نماذج ذلك ودراسة تطبيقاته في شروح الاختيارات الشعرية - يحسن أن أقف وقفة قصيرة أورد فيها كلاماً للمرزوقي في مقدمة شرحه ديوان الحماسة تدور على أن فنّي(الإطناب) و(الإيجاز) مرهونان بمراعاة مقتضى الحال؛ إذْ إنَّ لكل منهما وقته ومقامه الذي لايصلح فيه إلا هو وحده دون غيره.

---

(٣٧٤) الإيضاح ٢٨١.

(٣٧٥) انظر في هذا التفصيل بذكر المقصود بالمساواة والإيجاز والإطناب كتاب الإيضاح ٢٨١، ٢٨٢.

كما أن للمرزوقي وقفة أخرى في خاتمة شرحه وازن فيها موازنة فنية لطيفة بين الإطناب والإيجاز وبين التطويل والتقصير.

قال المرزوقي في بيان أن مدار الإيجاز والإطناب على مراعاة مقتضيات الأحوال ومقاماتها:

«... ومنها : أن يَعْلم أوقات الإسهاب والتطويل، والإيجاز والتخفيف؛ فقد يتَّفق مايحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ، ويتَّفق أيضاً ماتُغْني فيه الإشارة ، وما يجري مجرى الوَحْي في الدلالة.»[٣٧٦]

وقال في موازنته الفنيةاللطيفة بين الإطناب والإيجاز وبين التطويل والتقصير :

« ... كما أن من عرف الفرق بين الإطناب والإيجاز وبين التطويل والتقصير ؛ وعلم أن الإطناب تفخيم وتكميل، كما أن الإيجاز تخليص وتهذيب، وأن التطويل زيادة على الكفاية ، وذهاب عن غاية الحاجة ، كما أن التقصير قصور عن الحدّ المرتاد ، ووقوفٌ دون مدى المراد- حَمِد الإطناب والإيجاز لما نالهما من سهام البلاغة، وذمَّ التطويل والتقصير بما فاتهما من أقسام الفصاحة.»[٣٧٧]

وقد تجوّز المرزوقي - في كلمته الأولى - بإطلاقه مصطلح (الإسهاب والتطويل) على مصطلح (الإطناب) ؛ ذلك بأن التطويل معدود عند البلاغيين في نطاق الحشو ؛ وإن كانت الزيادة فيه غير متعيّنة ، ومع الحشو متعيّنة ؛ لأنّ كلاً منهما معيب في الكلام؛ لمنافاته للفائدة أو النكتة البلاغية المتوخاة في الإطناب وصوره ، كما سبق التنبيه إلى ذلك في مقدمة هذا المبحث، وكما سيأتي - بإذن الله - أثناء الكلام في مبحث التطويل والحشو . ولعل مما يُبَيِّن شيئاً من هذا التجوز أن المرزوقي- في موازنته الفنيّة بين الإطناب والإيجاز وبين التطويل والتقصير - جعل

---

(٣٧٦) شرح ديوان الحماسة١/٢٠. وقد ذكر المرزوقي هذا الكلام في مقدمة شرحه؛ في معرض حديثه عن الشعراء والبلغاء المترسِّلين ، والسبب في قلة البلغاء وكثرةالشعراء ، ونباهة الشعراء وخمول البلغاء ؛ فذكر أن السبب في ذلك أن البليغ المترسِّل محتاج إلى مراعاة أمور كثيرة إن أهملها أو أغفل شيئاً منها رجعت النقيصة إليه وتوجهت اللائمة إليه بحسب ماأغفل أو ترك . وقد عدّ من هذه الأمور : العلم بأوقات الإطناب والإيجاز....

(٣٧٧) شرح ديوان الحماسة٤/١٨٨٥ .

الإطناب والإيجاز في قِران واحد من الفصاحة والبلاغة؛ وجعل التطويل والتقصير في مقابل الإطناب والإيجاز ، في قِران آخر يضاد الفصاحة والبلاغة؛ حين قال عن التطويل: (إنه زيادة عن الكفاية، وذهاب عن غاية الحاجة).

ومعنى هذا أن المرزوقي يُفرِّق بين الإطناب وبين التطويل!.

أما الإسهاب فهل يعني عنده التطويل حين قرنه به ، وعدّهما معاً في مقابل مصطلح (الإيجاز والتخفيف) ؛ ليعنيان - أعني الإسهاب والتطويل - معاً معنى مصطلح (الإطناب) ودلالته؟

أغلب الظنّ أن الإسهاب والتطويل عنده بمعنى واحد يعني مصطلح (الإطناب) ودلالته ؛ بدليل أنه قرنهما معاً ، وجعلهما في مقابلة (الإيجاز والتخفيف)، مع أن بعض البلاغيين يُفرِّق بين الإسهاب والإطناب ؛ فيذكر « أن الإطناب: هو بسط الكلام لتكثير الفائدة ، والإسهاب: بسطه مع قلة الفائدة ؛ فالإطناب : بلاغة ، والإسهاب: عِيّ. والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة تحتوي على زيادة فائدة ، والإسهاب بمنزلة سلوك مايَبْعُد جهلاً بما يقرب .

وقال أهل البلاغة: الإطناب إذا لم يكن منهُ بدٌّ فهوإيجاز. »[٣٧٨]

وبهذا يُعرف أن التطويل غير الإطناب ، وأن الإسهاب هو التطويل ، وكلاهما منافٍ للفصاحة والبلاغة، وأن جمع المرزوقي بين الإسهاب والتطويل وجعلهما في معنى الإطناب في مقابل الإيجاز والتخفيف - تجوُّزٌ منه في غير محلّه ، وأنه من انداح القلم وزلّته في غير موضعه الذي يتطلّب منه إحكام الكلام والدقة في استخدام المصطلحات وتحديد دلالاتها ؛ فهو بهذا إلى التعارض والتناقض أقرب منه إلى التسمُّح والتجوز !.

وأياً ماكان الأمر فقد أحسن المرزوقي في ربطه فنّي (الإيجاز والإطناب) بمقتضيات الأحوال ومراعاة المقامات ، كما أحسن أيضاً في موازنته الفنية بين الإطناب والإيجاز وبين التطويل والتقصير وعدّه الإطناب والإيجاز مما يُحمد ويطلب

---

(٣٧٨) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ٣٢.

فصاحة وبلاغة، وأن التطويل والتقصير مما يُذمُّ ويترك خَطَلاً وعيّاً .

على أن المرزوقي لم يخرج في إحسانه في الموضعين عما قرّره علماء البلاغة قبله أو بعده ، بل هو مما عُرف بينهم بالضرورة واشتهر، بل إن عامة المتلقين . يكادون يعرفون ذلك جِبلّة وسليقة.

١ - الإيجاز ونوعاه

سبق القول بأن الإيجاز هو : تأدية أصل المعنى المراد بلفظ ناقص عن اللفظ المساوي لمقدار أصل المراد على أن يكون هذا اللفظ وافياً بأداء المعنى المراد غير قاصرعنه أو مُخلٍّ فيه ، أو هو باختصار: الوفاء بتأدية أصل المعنى المراد بأقل مايمكن من الألفاظ ، من غير نقص فيه أو إخلال.

على أن فن (الإيجاز) قد يتخذ أحد طريقين لتأديته وظيفته البلاغية:

- طريق الاقتصار من اللفظ على مايُحتاج إليه من المعنى ، دون غيره مما يستغني عنه - وطريق الحذف الذي يكون بإسقاط شيء من اللفظ، على أن يَخْلُفَ اللفظَ المحذوفَ أو المُسْقَط شيءٌ يُستغنى به عنه .(٣٧٩)

وهذان الطريقان هما ضربا الإيجاز عند البلاغيين ونوعاه:

أ - إيجاز القِصَر ب - إيجاز الحذف

وقد حدّ القزويني هذين النوعين فذكر أن:

إيجاز القِصَر : ماليس بحذف.

وإيجاز الحذف : مايكون بحذف.(٣٨٠)

---

(٣٧٩) انظر في الفرق بين الاقتصار والحذف كتاب الفروق في اللغة ٣١، ٣٢. ولافرق بين أن يكون مايخلف اللفظ المحذوف - في إيجاز الحذف- مايدل عليه في الجملة أو التركيب، أو مايقوم مقامه ؛ من موصوف أو صفة أو مضاف إليه أو نحوه.

(٣٨٠) الإيضاح ٢٨٧، ٢٩٠.

وحدُه لهما بهذا هو ماذُكر بشيء من التفصيل آنفا.

وإذْ قدتُبُيِّن الإيجاز ونوعاه فسأقف بالبيان والدرس عندما وجدته صالحاً من نماذج لنوعي الإيجاز هذين ، وتطبيقاتهما في شروح الاختيارات الشعرية :

أ - إيجاز القِصَر:

- قال عصام بن عبيد الله :

١ - أبلغ أبا مَسْمَعٍ عنّي مُغَلْغَلَةً * وفي العتاب حياة بين أقوام

وقف المرزوقي في أثناء شرح البيت عند قوله : (وفي العتاب حياةٌ بين أقوام) بالإيضاح وبيان كيف يكون العتاب مصدر حياة بين الأقوام، وما مراد الشاعر بذلك، موازناً - بطريق المماثلة - هذا القول بقولٍ لأبي تمام، وبمقولة العرب المأثورة في هذا المعنى : (القتل أنفى للقتل)، حتى إذا ماوصل إلى البيان المعجز ؛ في قول الله تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة﴾ وقف عنده موقف المُجِلّ ؛ وذلك حيث يقول:

« ... والمعنى : أنهم ماداموا يتعاتبون فإن نياتهم تعاود الصلاح وتراجعه ، وإذا ارتفع العتاب من بينهم انطوت صدورهم عن الإحن والضغائن ، وظهر الشر على صفحات أقوالهم وأفعالهم ؛ فاهتاجت الحميات ، وأنتجت من سوء عقائدهم البليّات. وفي طريقته قال أبو تمام:

إن الدَّمَ المُغْتَرَّ يَحرِسُهُ الدَّمُ

وقال غيره:(القتل أقلُّ للقتل) فأمّا قول الله تعالى : (ولكم في القصاص حياة) فإن بلاغة القرآن لاتدانيها بلاغة ، وكل كلام وإن علا ينحطُّ دونه.»(٣٨١)

ولم يزد التبريزي على أن بيّن أن قوله : (وفي العتاب حياة بين أقوام) اعتراض ، ثم كشف عن معناه ؛ نقلاً عن المرزوقي بتصرف واختصار، دون أن يوازن هذا القول بقول أبي تمام أو قول العرب أو يقف عند البيان المحكم المعجز في

---

(٣٨١) شرح ديوان الحماسة ٣/١١٢٠، ١١٢١.

الآية الكريمة!.[٣٨٢]

وفي قول الشاعر هنا ؛ في هذا الاعتراض الجميل : (وفي العتاب حياة بين أقوام) نموذج من نماذج إيجاز القِصَر، وقد كان في إيجاز القِصَر هنا فصاحة وبلاغة ؛ تمثلت في الوضوح ، وحسن البيان ، وخفته على اللسان ، وقوة معناه ودلالته ، وعمق تأثيره، ومما زاده بلاغة أن جاء بطريق الاعتراض الذي حسن موقعه هنا لما أفاده من غرض التنبيه ونكتة الاهتمام والتوكيد على رعاية مايقوله من مضمون هذه الرسالة التي أراد لها العمق والتأثير وحملها محمل الجد والاهتمام.

كما أن في النماذج التي ساقها المرزوقي في مقام الاستشهاد بطريق موازنة المماثلة بقول الشاعر - فيها نماذج بليغة لإيجاز القِصَر؛ ففي قول أبي تمام:(إنَّ الدم المغتر يحرسه الدم) نموذج بليغ لإيجاز القصر ، وفي قولهم : (القتل أنفى[٣٨٣] للقتل) بلاغة من بلاغات إيجاز القِصَر ؛ فكلها نماذج بليغة لإيجاز القِصَر؛ لأنها جمعت بين حسن النظم وجمال الرصف وقوة الدلالة وعمق التأثير في المعنى المطلوب بألفاظ قصيرة قليلة دونما حذف أو تقدير .

لكن قول الله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة﴾ النموذج الأمثل الأوفى والأوحد من نماذج إيجاز القِصَر في هذا المعنى ، وكل إيجاز من إيجاز القِصَر في القرآن الكريم فهو النموذج الأوفى والأوحد في بابه ؛ لايُقارن به أيُّ كلام ولا يُماثَل أو يُشابَه ؛ لأنه البيان المُحكم الموجز المعجز، وهو أحسن الحديث ، والذكر الحكيم المنزَّل من لدن حكيم خبير.

ولقد أحسن المرزوقي حين وقف موقف المُجِلِّ لبلاغة القرآن وروعة نظمه ، فوقف مستأنفاً عند هذه الآية مؤكداً حديثه عن عظمة بلاغة القرآن ؛ وذلك حين قال بأسلوب من الموازنة بديع:« فأما قول الله تعالى :﴿ ولكم في القصاص حياة﴾ فإن بلاغة القرآن لاتدانيها بلاغة وكل كلام وإن علا ينحطُّ دونه» ! . وما كان ليكون ذلك

---

(٣٨٢) انظر ديوان الحماسة ١٢٩/٣ .

(٣٨٣) ورد عند المرزوقي بلفظ(أقل) بدل (أنفى) وعلَّق عليه المحقق بقوله :« كذا في النسختين ويروى : (القتل أنفى للقتل) .»١١٢١/٣. وورد بلفظ (أنفى) في الصناعتين ١٩٥ ، وفي الإيضاح ٢٨٧ .

منه لولا عمق إيمانه - رحمه الله - ، وحسن تفهمه وتذوقه لبلاغة آي الذكر الحكيم وروعة نظمه.

وإن كان من تقصير يُحكم به على المرزوقي - في كلامه على هذه الآية - فهو عدم نصّه على مصطلح الإيجاز أو مصطلح إيجاز القصر، على الرغم من أن هذه الآية أجلّ نماذجه؛ - كما سبق التنويه بذلك -؛ ولذلك تتصدر هذه الآية شواهد كثير من البلاغيين في بحثهم لإيجاز القصر ، كما تكلموا على الموازنة ؛ بطريق المقارنة والمفاضلة بين قولهم المشهور: (القتل أنفى للقتل) والآية الكريمة :﴿ ولكم في القصاص حياة﴾ ؛ فذكروا بونا شاسعاً في الفروق الفنية ووجوه الفصاحة والبلاغة تجعل الآية الكريمة في مرتبة لاتُسامى من درجات الفصاحة والبلاغة!.[٣٨٤]

ولم أستبن لشارحي الاختيارات نماذج أخر لإيجازالقِصَر غير ماسبق ذكره ؛ على النحو الذي تمّ بحثه آنفاً عند المرزوقي . وكل ماوجدته لسائر الشرّاح نماذج للنوع الآخر من نوعي الإيجاز ؛ وهو إيجاز الحذف . وسأورد نماذج لهذا النوع من الإيجاز عند هؤلاء الشراح واقفاً عندها بالدراسة؛ بما يتحقق معه معرفة طبيعة بحث هؤلاء الشراح لنماذج هذا النوع من الإيجاز ، حسب المنهج المتبع في مثله :

---

(٣٨٤) انظر ذلك في كتاب الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٣٤٧-٣٥٠، وقد ذكر أن الناس يضربون المثل بقولهم:(القتل أنفى للقتل) استحساناً له فلما نزلت الآية تركوا ذلك!.
وانظر الصناعتين ١٩٥. وانظر ، سر الفصاحة٢٠٠، ٢٠١. والإيضاح ٢٨٧، ٢٨٨ وبديع القرآن ١٩٢-١٩٧. والمثل السائر ٢/٣٨٥، ٣٨٦. ويرى ابن الأثير أنّ قول أبي تمام الآنف ذكره - ؛
وهو قوله : (إن الدّم المغترّ يحرسه الدّمُ) أحسن مما ورد عن العرب من قولهم (القتل أنفى للقتل)، ولم يبين وجه أفضلية الحسن في قول أبي تمام. انظر: المثل السائر ٢/٣٨٦، ٣٨٧.
ولعل مردّ هذا الحسن راجع إلى ماذكره المرزوقي من « أن دم الغافل عن عدوّه يحرسه ماشرعه الدين من القصاص.» . ويرى المرزوقي أن أبا تمام إنما أخذ هذا المعنى من قول الله عزّ وجلّ :﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ ، انظر شرح مشكلات ديوان أبي تمام ١٥٦. بينما يرى ابن الأثير أن أبا تمام أخَذه من كلمة العرب المشهورة.
ولاشك في أن لفظة (يحرسه) الواردة في قسيم بيت أبي تمام كان لها وقع مناسب وأثر في النظم لايخفى!.

ب - إيجاز الحذف:

- قال يزيد بن الحذّاق:

٢ - وداويتُها حتّى شَتَتْ حَبَشِيَّةً * كأنَّ عليها سُنْدُساً وَسُدُوسا

قال الأنباري - عن أبي عكرمة - في شرح البيت متطرقاً في استشهاده على هذا الشرح للكلام على الحذف الذي ذكره بمصطلح (الإضمار)، ودلّ على كثرته في أشعار العرب بضرب الأمثلة والشواهد؛ وفي ذلك يقول:

« الدِّواء: الصَّنْعة للضُمْر؛ كما قال الآخر:

وأهْلَكَ مُهْرَ أبيكِ الـــدِّوا * ءُ ليس لــه من طعامٍ نصيبْ

أي: تَرْك الدواء . وهذا الإضمار في أشعار العرب كثير ؛ قالت الخنساء:

ياصخرُ ورّادَ ماءٍ قد تناذَرهُ * أهلُ الموارد مافــي وِرْدِه عارُ

أرادت : مافي ترك ورده عار ، تُعظِّم شأنه ، أي مثله يُتَهيَّب ومثله خِيفَ وُرودُه فوَرَدْتَه أنت . وقال الآخر:

ليس على طول الحيــاة نَدمْ * ومِنْ وراء المرءِ مايــَعْلَمْ

أي: على فوتِ طولِ الحياة. وهو كثير»[٣٨٥]

وقد عبّر الأنباري بمصطلح (الإضمار) للدلالة على مصطلح (الإيجاز) على طريقة القدامى في تعبيراتهم - أحياناً - عن الإيجاز بالإضمار. غير أن الأنباري لم يذكر من أي أنواع الإضمار أو الإيجاز هذه المحذوفات التي ذكرها في شواهده الثلاثة - التي استشهد بها على كثرة وقوع الإضمار أو الحذف في أشعار العرب ، وهي من إيجاز الحذف، وكلها من حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه ، وساغ الحذف فيها للعلم به ووجود مايدل عليه ، ورغبةً في الاختصار ، ومراعاة وزن الشعر.

ولم يتطرق التبريزي للكلام على الحذف ونوعه ومسوغه أثناء شرحه بيت يزيد ابن الحذّاق الآنف ذكره ، ولعل السبب في ذلك أن بيت النموذج الأساس في البحث

---

(٣٨٥) شرح المفضليات ٥٩٧.

هنا ؛ أعني بيت يزيد لم يكن فيه ذاته بحث في الإيجاز بالحذف ، وإنما كان البحث في الإضمار أو الإيجاز عند الأنباري بسبب شرحه مفردة لغوية فيه ؛ أعني كلمة (داويتها) ، وقد جرّ شرحها إلى الاستشهاد عليها ببيت لآخر ، واستدعى توضيحُ هذه المفردة الواردة في هذا الشاهد تقديرَ الإضمار أو المضاف المحذوف ؛ مما جرّ الأنباري إلى الكلام على الإضمار في أشعار العرب، وكثرته فيها ، وضربه الشواهد عليه ؛ على نحو ماسبق بيانه آنفا.

على أن التبريزي لم يشرح هذه المفردة اللغوية - التي في بيت يزيد بن الحذّاق - ألبتَّة أو يفسر معناها ؛ حتى يستشهد عليها بشواهد يمكن أن تَجُرَّه إلى ماجرّتْ إليه الأنباريَّ من بحث في مسألة الإضمار أو الإيجاز!.[٣٨٦]

وقال عوف بن الأحوص:

١٣ -مَلُوكٌ على أن التحيَّةَ سُوقَةً * ألا ياهُمُ يوفى بها ونُذورُهـــا

قال التبريزي في شرح البيت وبيان معناه العام:

« يقول: أخلاقهم أخلاق الملوك ، لكنهم يُحَيَّون بما يُحيَّا به السُّوقَة لتواضعهم.» . وأردف القول ببيان المحذوف من قوله :(على أن التحية سوقة) ، وأن الكلام على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ قال:

« وقوله :(على أن التحية سوقة) هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ كأنه قال:(على أن التحية تحيَّةُ سُوقَةٍ).»[٣٨٧]

ولم يتحدث الأنباري عن هذا الحذف بشيء!.[٣٨٨]

وقد كان التبريزي دقيقاً ، حين صرّح بمصطلح الحذف ، وأنه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وتقديره أصل الكلام قبل الحذف. لكنه لم يذكر مصطلح (الإيجاز)، ونوعه ، وأنه من إيجاز الحذف ، اكتفاءً منه بذكر مصطلح الحذف ، وتقدير المحذوف ، وأن دلالة الحذف على الإيجاز أمرٌ يدرك بأدنى نظر في

---

(٣٨٦) انظر شرح اختيارات المفضل ١٢٨٣/٣.

(٣٨٧) شرح اختيارات المفضل ٨٢١/٢.

(٣٨٨) انظر شرح المفضليات ٣٥٢.

مثل هذه التراكيب. وإنما ساغ الحذف طلباً للإيجاز في الكلام ؛ لدلالة الكلام أو سياقه على المحذوف. ولم يشر التبريزي - كذلك - إلى مسوغ الحذف وغرضه والدليل عليه. - قال تأبّط شراً :

٦ - كأنما حَثْحَثُوا حُصّاً قوادِمُهُ * أوْ أمَّ خِشْفٍ بِـــذِي شَثٍّ وطُبّاقِ

وقع في هذا البيت ضرب من الإيجاز ؛ وهو إيجاز بطريق الحذف؛ فقد حذف الشاعر المفعول به الواقع موصوفاً ، وأقام صفته مقامه ، وتقدير ذلك : (كأنما حثحثوا ظليماً حُصّاً قوادمه) أو (ظبيةً أمَّ ولد رعتْ منابتَ الشَّثِّ والطُّبّاق).

وإنما ساغ حذف المفعول به الواقع موصوفاً، وإقامة الصفة مقامه ، للعلم به؛ بدلالة القرينة عليه وأمن اللبس بحذفه.

وقد أشار التبريزي - عن المرزوقي - إلى المفعول به المحذوف ، كما ذكر مسوغ حذفه بشيء من الدقة والتفصيل؛ وذلك حيث يقول:

« ... وعنى بـ(حصّ القوادم) ظليماً قد تناثر ريشه ، وعنى بـ(أمّ خِشف)ظبيةً رعتْ منبت (الشّثّ) و (الطُّباق)، ومعنى البيت : كأنما حركوا بتحريكهم إيّاي ظليماً رعى الربيع فانحصّتْ كبارُ ريش جناحيه، أو ظبيةً أمَّ ولد ساعدها الرعيُ ، فقوي عَدْوُها، وخفّتْ قوائمها. وجاز أن يقيم الصفة مقام الموصوف في قوله :(حُصّاً قوادمه): لأنه بما صحبه من القرائن ارتفع اللبس عنه ، وعُلم المراد منه ، ولو قال قائل: رأيت طويلاً ؛ يريد: رجلاً طويلاً لم يَجُزْ لاشتراك الطِّوال كلهِم فيه ، وانتفاء التبيين منه .»(٣٨٩)

ولم يذكر الأنباري في أثناء شرحه البيت حذف المفعول هنا وإقامة الصفة مقامه. غير أنه ورد في شرحه مايشير إلى هذا المفعول أو الموصوف المحذوف إشارة خفيفة ؛ من مثل قوله :«.. وقوله:« حُصًّا قوادمه» يعني الظليم.» ، وقوله : «..أي: كأنما حرّكوا بحركتهم إياي ظبيةً أو ظليماً .» ، وقولـه : « ... وإنمـــا جعل الظليم

---

(٣٨٩) شرح اختيارات ١/١١١، وحاشيتها.

أحصّ ؛ لأنه أخفّ له.»[٣٩٠]

وهذه إشارات خفيفة تدل على أن في الكلام مفعولاً أو موصوفاً محذوفاً . لكنه لم يذكر مصطلح (الحذف) صراحة ، أو يذكر نوعه وصلته بالإيجاز . وقد كان التبريزي والمرزوقي أدق في ذلك منه وأصرح في ذكر مسوغ الحذف. لكن ينقصهما النص الصريح على مصطلح (الحذف)، وتحديد نوعه من نوعي الإيجاز ؛ على نحو ماسبق بيان ذلك .

وحذف المفعول به هنا الواقع موصوفاً داخل في البحث في متعلقات الفعل، وهو حذف المفعول به ؛ للعلم به ، ودلالة القرينة عليه وارتفاع اللبس بحذفه. وقد سبق ذكر ذلك وبحثه في مبحث متعلقات الفعل[٣٩١]

- وقال علقمة بن عبدة :

٤١ - وأنتَ الذي آثارهُ في عَدُوِّهِ * من البُؤسِ والنُّعمى لهنَّ نُدوبُ

ذكر التبريزي مافي البيت من إيجاز بطريق الحذف ، لكنه لم يذكره بمصطلح (الإيجاز) ، وإنما ذكره بمصطلح (الاختصار)، وكذلك لم يذكر مصطلح نوع هذا الإيجاز ، الذي هو من (إيجاز الحذف)؛ فقال في بيان ذلك نقلاً عن المرزوقي:« ...يريد: آثاره من البؤس في أعدائه ، ومن النعمى في أوليائه؛ فاختصر الكلام ؛ لأن المعنى مفهوم.»[٣٩٢]

وقد أراد التبريزي بقوله: (فاختصر الكلام) أنه أوجزه ؛ أي حذفه إيجازاً ؛ لأن مسوغ الإيجاز بالحذف هنا هو : فَهْمُ المعنى والعلم به ؛ لدلالة السياق وقرينة الحال عليه ؛ أما قرينة السياق فمفهومة من مقابلة التضاد؛ أي إذا كانت آثار بؤسه في أعدائه فإن آثار نعماه تكون في أوليائه؛ فيستدل بالمذكور في البيت على المحذوف منه ؛ بطريق القياس بمقابلة المضادة بين المعنيين. وأما قرينة الحال فإن المقام مقام تمدّح ، والمادح يعلم من حال ممدوحه ماقال فيه من آثاره في أعدائه وأوليائه.

---

(٣٩٠) شرح المفضليات ٨ .

(٣٩١) انظر ص ١٣٧ - ١٤٧ من هذا البحث.

(٣٩٢) شرح اختيارات المفضل ١٥٩٨/٣، وحاشيتها.

وقد اكتفى التبريزي والمرزوقي من ذكر مسوغ الحذف بالقول:« واختصر الكلام؛ لأن المعنى مفهوم.»

ولم يبحث الأنباري الإيجاز أو نوعه أو يدل على الحذف في البيت ، لا بمصطلح (الاختصار) ولا بغيره!.(٣٩٣)

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي في الدلالة على الحذف في هذا البيت ، وفي تقدير المحذوف ، وفي ذكر مسوغ الحذف ، وإن كانا ذكراه على سبيل الإجمال.

وقد دلاً على مصطلح الحذف بمصطلح الاختصار، وهو غير دقيق في الدلالة عليه ، مع عدم ذكرهما نوع هذا الاختصار أو الإيجاز.

أما كون دلالتهما على مصطلح (الحذف) بمصطلح (الاختصار) غير دقيق فلأن مبنى هذا على التعاور في الاستعمال بينهما على سبيل المسامحة والتجوُّز ؛ لما بينهما من تقارب عام في الدلالة والمعنى ؛ يقول أبو هلال العسكري في التفريق بين مصطلحي (الاختصار) و(الإيجاز):

« الفرق بين الاختصار والإيجاز : أن الاختصار هو : إلقاؤك فضول الألفاظ من الكلام المؤلّف من غير إخلال بمعانيه ؛ ولهذا يقولون : قد اختصر فلان كتب الكوفيين أو غيرها إذا ألقى فضول ألفاظهم وأدى معانيهم في أقل مما أدوها فيه من الألفاظ؛ فالاختصار يكون في كلام قد سبق حدوثه وتأليفه؛ والإيجاز هو : أن يُبنى الكلام على قلة اللفظ وكثرة المعاني؛ يقال: أوجز الرجل في كلامه إذا جعله على هذا السبيل ، واختصر كلامه أو كلام غيره إذا قصّره بعد إطالة، فإن استعمل أحدهما موضع الآخر فلتقارب معنييهما.»(٣٩٤)

وقد كان أبو هلال-رحمه الله-دقيقاً حقاً في التفريق الفني بين هذين المصطلحين ؛ حيث بيّن أن الاختصار أشبه مايكون بتخليص الكلام من فضوله وتلخيصه باختصاره وكتابته أو إعداده مرةً أو مرات مُهذَّباً عن أصله الأول ، فهو في كلام

---

(٣٩٣) انظر شرح المفضليات ٧٨٦. وترتيب البيت عنده الخامس والثلاثون

(٣٩٤) الفروق في اللغة ٣١.

قد وجد في الأصل وأُلّف من قَبْل، وأما الإيجاز فهو أن يُبنى الكلام أصلاً وابتداءً على قلة الألفاظ وكثرة المعاني دون اختصار منه بعد بحذف الفضول الزائدة . أما أن يستعمل الاختصار ويُراد به الإيجاز - كما حصل من المرزوقي والتبريزي - أو العكس فذلك مبناه على التَّسمُّح والتجوز؛ لما بين هذين المصطلحين من تقارب في المعنى ودلالة المفهوم ؛ كما أشار أبو هلال العسكري إلى ذلك.

- قال الحارث بن حلزة

١٨ - زعموا أنّ كلّ مَنْ ضرب العَيــ * ـرَ موالٍ لنـــا وأنّا الوَلاءُ

تحدث أبو بكر الأنباري عما في البيت من حذف ؛ فنصّ على مصطلح (الحذف)؛ وقدّره ، مشيراً إلى أنه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مستشهداً على أمثال هذا الحذف بالشواهد؛ فقال في ذلك :

« ... وقوله : (وأنّا الوَلاءُ) معناه: وأنّا أصحاب الولاء ؛ فحذف الأصحاب وأقام الولاء مقامه ؛ كما قال الشاعر؛ أنشدناه أبو العباس:

وكيف نُصاحبُ مَنْ أصبحتْ * خِلالَتُهُ كأبــي مَرحــبِ

أراد: خلالة أبي مرحب. وقال الآخر:

وشرُّ المنايا مَيِّت وَسْطَ أهله * كهذا الفتى قد أسلم الحيَّ حاضرُهْ

أراد : وشر المنايا ميتة ميِّت ؛ فحذف الميتة وأقام الميت مقامها .»[٣٩٥]

لكن الأنباري لم يذكر مصطلح (الإيجاز) ، ولا نوعه ، ولا مسوغ الحذف ودليله عند الشاعر. ومصطلح (الحذف) الذي ذكره يدل على مصطلح (الإيجاز)، ونوعه من إيجاز الحذف. أما مسوغ الحذف في البيت وفي الشواهد التي ذكرها شواهد على الحذف فهو العلم به ؛ لدلالة السياق وقرينة الحال عليه ، مع أمن اللبس بحذفه . وقد حُذف المضاف فيها جميعاً وأقيم المضاف إليه مقامه طلباً للإيجاز.

أما ابن النحاس فقد نقل قولاً - عن غير الأصمعي - في تفسير قوله : (وأنّا الولاء) نصّ فيه على مصطلح الحذف؛ حين أشار إلى حذف المضاف وإقامة المضاف

---

(٣٩٥) شرح القصائد السبع الطوال ٤٥١.

إليه مقامه في تقديره تفسير المعنى ؛ وفي هذا يقول ابن النحاس:

« ... وقال الأصمعي: معنى (وأنّا الولاء) نحن ولاتهم على هذا ؛ قال الأصمعي: يقال: وَلِيتُ ألِي ولاءً . وقال غيره : المعنى : (أهل الولاء) ، ثم حذف.»(٣٩٦)

ولم يُبيّن ابن النحاس موقفه من التفسيرين هنا؛ أيرى مايرى الأصمعي أم يرى الرأي الآخر؟!.

وتفسير الأصمعي لايخرج في مضمونه عن التفسير الآخر؛ فما من معنى لتفسير الأصمعي معنى قوله :(أنّا الولاء) بقوله :« نحن ولاتهم على هذا » إلا أن يكون هذا المعنى مافسّره به غيره ؛ أي نحن(أهل الولاء) على هذا الأمر فـ(نحن ولاتهم) تقوم مقام (أهل الولاء) إلا أن (أهل الولاء) أصرح في تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ وهذا ألصق بما نحن فيه من بحث في الإيجاز بالحذف، كما أن كلمة (أهل الولاء) أميز في الاختصاص في الولاء بطريق الإضافة ، على أن الاختصاص بأمر الولاية المراد عند الشاعر موجود في تقدير الأصمعي كذلك؛ حيث صَدّره بكلمة الاختصاص (نحن) ، مع ابتنائه على الابتداء الواقع موقع المسند إليه المختص بأمر المسند، وهو : ولايتهم لأمر مَن عناهم الشاعر، الواقع موقع الخبر بما فيه من مزية اختصاص بالإضافة إلى ضمير الجمع(هم) ؛ (نحن وُلاتهم...) .

- وقال امرؤ القيس:

٣٢ - تصدُّ وتُبدي عن شتيتٍ وتتّقي * بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرةَ مُطْفِلِ

بيّن ابن النحاس مافي البيت من أوجه الإيجاز بطريق الحذف ، وهي من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، أو من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ قال ابن النحاس في ذلك على وجه من التفصيل دقيق:

«.. قوله:(وتبدي عن شتيت) تقديره : عن ثغرٍ شتيتٍ ، ثم أقام الصفة مقام

---

(٣٩٦) شرح القصائد المشهورات ٦٢/٢.

الموصوف، ومَنْ روى : (عن أسيل) فتقديره : عن خدٍّ أسيل؛ أي : ليس بـــــكزّ،
وقوله: (بناظرة) قيل معناه: بعينٍ ناظرةٍ . وقال أبو الحسن بن كيسان: تقديره :
وتتقي بناظرةِ مُطْفِلٍ ؛ كأنه قال : بناظرةِ مطفلٍ من وحشِ وَجْرَةَ ، ثم غلط فجاء
بالتنوين، كما قال الآخر:

رَحِمِ اللّه أعْظُماً دفنوهـــــا * بِسَجِسْتَان طَلْحةَ الطَّلَحاتِ

فتقديره: رحم أعظُم طلحة ، فغلط فنوّن ، ثم أعرب طلحة بإعراب أعظم ،
والأجود إذا فُرِّق بين المضاف والمضاف إليه ألاّ ينوّن ، كما قال:

كأنّ أصواتَ من إيغالهنّ بنا * أواخرَ المَيْس أصـــواتُ الفراريج

كأنه قال: كأن أصواتَ أواخرِ الميس أصواتُ الفراريج.»

قال ابن النحاس:

« وفي بيت امريء القيس تقدير أحسن من هذا ؛ وهو أن يكون التقدير:
بناظرةٍ من وحش وَجرةَ ناظرةَ مُطْفِلٍ ، ثم يحذف ناظرة ، ويقيم مُطفلاً مقامه ، على
قوله عز وجلّ: ﴿واسأل القرية﴾ ، وكذا قوله :(طلحة الطلحات) ؛ كأنه قال : أعظم
طلحة الطلحات ، ثم حذف أعْظُماً ، وأقام طلحة مقامه.»[٢٩٧]

وقد أحسن ابن النحاس فيما أتى به من كلام دقيق مفصل على أوجه
الإيجازبطريق الحذف في بيت امريء القيس؛ على نحو مابيّنه نصُّه الآنف ذكره.

وهو وإن لم ينص على مصطلح الإيجاز ، أو نوعه، أو مسوّغ الحذف أو
دليله، و غرضه البلاغي إلا أنه قد أحسن جداً وأفاد في نصّه على مصطلح
(الحذف)، وفي تقديراته أوجه الحذف ، ثم شموله ثلاثة منها بأنها من باب حذف
الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وإشارته إلى الأوجه الثلاثة الأخرى من أوجه
الحذف بأنها من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ؛ حيث نص في أول
وجه من الثلاثة الأولى على أنه من إقامة الصفة مقام الموصوف ، فشمل الأوجه
الثلاثة بذلك . وقال في تقديره الذي ارتضاه في قول امرىء القيس(بناظرة) : إنه
على حذف ناظرة وإقامة مُطْفلاً مقامه قياساً على قول الله عز وجل: ﴿ واسأل القرية﴾،

---

(٢٩٧) شرح القصائد المشهورات ٢٢، ٢٣.

والآية من الشهرة في الإيجاز بالحذف، وفي المجاز بالحذف بمكان، ثم قاس قوله:(طلحة الطلحات) على ذلك ؛ من أنه على حَذْف (أعظم) وإقامة(طلحَة) مقامه. وهذه التقديرات الثلاثة الأخيرة تدلّ دلالة عملية غير صريحة أو مباشرة على أنها من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه دون نصّ على ذلك .

كما أحسن ابن النحاس في موازناته واستشهاداته على أوجه الحذف التي ذكرها في البيت . ولا تنس إحسانه فيما ذهب إليه من تقدير فضّله على تقدير أبي الحسن بن كيسان في قول امرىء القيس (بناظرة) ؛ حيث بنى تقديره هو على أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . وإذا كان قد فضّل هذا التقدير على التقدير الذي ذهب إليه ابن كيسان فهو كذلك ؛ لما في تقدير ابن كيسان من إطالة وتعسُّف ، على خلاف تقدير ابن النحاس الذي غلب عليه الإيجاز مع الوضوح، وقرب الدلالة على المقصود.

ومادام ابن النحاس قد أحسن كل هذا الإحسان في مبحث الإيجاز هنا فلا يغض منه كثيراً كونه لم ينص على مصطلح (الإيجاز)، أو نوعه ، فمصطلح (الحذف) الذي ذكره يدل على مصطلح (الإيجاز) وأنه بطريق الحذف. أمّا مسوغ الحذف أو دليله فهو من الظهور والوضوح بحيث لايخفى ؛ إذْ معرفة المراد والعلم بالمحذوف بعد الحذف سوغ حذف الموصوف أو المضاف في أوجه الحذف هذه . وأما الغرض البلاغي للحذف فيها فهو طلب الإيجاز مع ضيق المقام مراعاة للوزن الشعري في البيت .

ولئن كان ابن النحاس قد أحسن في بحث أوجه الحذف في البيت ؛ على نحو مارأيت فإن أبا بكر الأنباري لم يبحث شيئاً من أوجه الحذف هذه بشيء ، أو يقف عند أيٍّ منها بما يستحق الذكر والتسجيل ، فلم يدرس أو يذكر المصطلحات الخاصة بمبحث الإيجاز خلال شرحه هذا البيت لامرىء القيس . إنه لم يزد على أن ذكر تقديرات جافّة يقتضيها مقام الشرح والتفسير لبعض تراكيب البيت ؛ من نحو قوله: «قوله:(تصدّ وتبدي) معناه : تُعرِض عنّا وتُبدي عن خدٍّ أسيل ليس بكزّ.» . أو قوله : « (ومطفل) ذات طفل، وهو الغزال.» . ومثل قوله : « وروي (وتُبْدي عن شتيت)

أي عن ثَغْر شتيت.» . وقوله . « وقال السجستاني: (وتتقي بناظرة) معناه: وتُتقينا بناظرة؛ أي بمثل عين مُطْفِل .»(٣٩٨)

- وقال لبيد بن ربيعة العامري، رحمة الله عليه :

٨١- مِن مَعْشَرٍ سنّتْ لهم آباؤُهم * ولكلّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها

بيّن أبو جعفر بن النحاس مافي البيت من حذف ، ناصاً على مصطلح (الحذف)، وموضحاً العلة التي سوّغت الحذف ، مع تقدير الجملة المحذوفة ؛ قال ابن النحاس:

«قال أبو جعفر: في هذا البيت حَذْف ؛ لعلم السامع ، والمعنى : سنّتْ لهم آباؤهم الجودَ والمعروف ؛ لأن السُّنّة تكون في الخير والشرّ، إلا أنه قد عُرف المعنى.»(٣٩٩)

وفي قول ابن النحاس:« .. لأن السنة تكون في الخير والشر، إلا أنه قد عرف المعنى» دليل على تحكيمه السياق وقرينة الحال لمعرفة المحذوف.

وقد استجمع ابن النحاس في بيانه هذا البحثَ في (إيجاز الحذف) هنا؛ من حيث ذكره لمصطلح (الحذف)، وتوضيحه العلة المسوغة ، وتقديره المحذوف ، وإشارته إلى ضرورة تحكيم السياق وقرائن الأحوال لتكون دليلاً على معرفة المحذوف، سوى أنه لم يذكر مصطلح (الإيجاز) ؛ فلم يذكر أن هذا الحذف من الإيجاز بطريق الحذف ، كما أنه لم يذكر غرض الإيجاز بالحذف في البيت ، وهو طلب الإيجاز ، وإقامة الوزن الشعري . وكلا الأمرين - ذكر مصطلح الإيجاز وطريقه، وغرضه البلاغي - ظاهران عند أدنى تأمل ، لكن البحث البلاغي يتطلب دائماً استصحاب المصطلحات البلاغية؛ بالنص عليها ، والنظر فيها بالدراسة والتحليل.

ولم يذكر أبو بكر الأنباري شيئاً مما ذكره ابن النحاس في ذلك ، سوى أنه

---

(٣٩٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٥٩، ٦٠.

(٣٩٩) شرح القصائد المشهورات ١٧٤، ١٧٥.

أشار إلى المحذوف إشارة خفيفة، بطريق التقدير في تفسير معنى قوله :(ولكل قوم سنة) ؛ حيث قال: « معناه: سنَّ لهم آباؤهم سُنَّةً وعلّموهم مثال السنّة .»[(٤٠٠)] هكذا دون أن يذكر أن هذه السنة هي الجود أو أن ذلك المثال الذي علموهم إياه هو المعروف ؛ كما أوضح ابن النحاس. وكذلك فإنه لم يجعل هذا المعنى المقدر لقوله:(سنّتْ لهم آباؤهم) ، وإنما جعل تقدير المعنى المحذوف لقوله « ولكل قوم سنة»!.

وما جاء به ابن النحاس هنا وفي النموذج الذي سبقه يشهد له بعمق النظر وحسن البحث والدرس في مبحث الإيجاز بطريق الحذف ، من حيث الوفاء بالنص على كثير من المصطلحات في هذا الباب ، والتوسع بالعرض والتحليل المفصل لبيان غامض هذا المبحث ، وما يتصل به من تقديرات لأوجه الحذف ، ومن موازنات وشواهد مُوضِحة ، وما يدلي به أحياناً من آراء خاصة يعارض بها - في أدب جمّ - آراء غيره . وهذا من شأنه أن يهوّن مايمكن أن يوجّه إليه من نقد بعدم وفائه بذكر بعض المصطلحات البلاغية ؛ لإمكان معرفتها لظهورها عند أدنى تأمل ، ومع أن النص على هذه المصطلحات من ضرورات البحث البلاغي إلا أن كون الرجل من علماء اللغة الذين يشغلهم تفسير الغريب، والقيام بالأعاريب يجعل ماأتى به في هذا الباب- بالنظر إلى ماتركه فيه - عملاً نافعاً في مبحث الإيجاز بطريق الحذف.[(٤٠١)]

---

(٤٠٠) شرح القصائد السبع الطوال ٥٩٣ .

(٤٠١) انظر نماذج أخر من بحث ابن النحاس في (إيجاز الحذف) في شرح القصائد المشهورات ١٨/٢، ٣٠/٢، وهما من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في الإعراب . وفي ٧٧/٢، وهو من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وفيه أيضاً شاهد على حذف المضاف والمضاف إليه ، والجار والمجرور.

وليس لأبي بكر الأنباري بحث في الإيجاز في هذه المواضع يستحق الذكرسوى ماذكره من تقدير مجرّد دلّ به على بعض المحذوف في الموضع الثالث؛انظر شرح القصائد السبع الطوال ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٤٢ ، ٤٨٧ .

- قال الشميذر الحارثي:

ولكنَّ حُكمَ السيفِ فينا مُسلَّطٌ * فنرضى إذا ماأصبح السَّيفُ راضيا

بيَّن أبو عبد الله النمري مافي قوله : (ولكن حكم السيف فينا مُسلَّط) من حذف ، وقَدَّره ، حين بين مراد الشاعر من كلامه هذا ، وقاس عليه ما وجد في كلام العرب من حذف وتقدير على هذا النحو وفي هذا المعنى . لكن أبا عبد الله لم يذكر مصطلح (الحذف) . ولا (الإيجاز) أو نوعه ، ولا مسوغ الحذف أو دليله ، وغرضه البلاغي. واقتصر من ذلك كله على بيان هذا الحذف بطريق التقدير للمعنى المراد. وفي هذا يقول:

« يريد : فينا وفيكم ؛ كما يقول أحد الحيَّين المتحاربين: (حكم الله فينا نافذ)؛ يريد : فينا وفيكم.»[(٤٠٢)]

ومثل هذا البحث الذي اقتصر فيه على الإشارة إلى إيجاز الحذف عند الشاعر بطريق التقدير للمعنى المراد فقط - يُعدُّ قصوراً في البحث البلاغي الذي ينتظر فيه من أبي عبد الله الوفاء ببحث فن (الإيجاز) عند الشاعر بدقة وتفصيل ؛ من جهة النص على ذكر المصطلحات البلاغية، ونوع الإيجاز ، ومسوغ الحذف ودليله ، وغرضه البلاغي!.

ولعل أبا عبد الله ترك تفصيل القول في بيان ذلك ؛ لعدم حاجته هو إليه ، حيث إن منهجه في شرحه تفسير الغامض من معاني أبيات الحماسة.

وظاهر أن هذا الحذف الذي أشار إليه في تقديره المعنى المراد عند الشاعر من قبيل (الإيجاز) بطريق الحذف؛ وأن حذفه للعلم به ودلالة السياق وقرينة الحال عليه، وأن غرضه البلاغي إنما كان طلباً للإيجاز ، ومراعاة الوزن الشعري، كما هو الحال في كثير من مباحث فن الإيجاز بالحذف.

على أن لأبي محمد الأعرابي استدراكاً على أبي عبد الله النمري في شرحه هذا البيت يتصل برواية الشطر الأول من البيت ؛ قال:

« قال أبو محمد الأعرابي : هذا خطأ ، والصواب ماأنشدَناه أبو الندى:

---

(٤٠٢) معاني أبيات الحماسة ٢٥٩.

* ولكنّ حكم السيف فينا مسمّط *

قال : هذا مَثَل ؛ تقول العرب (حكمكَ مُسَمَّط) أي احكم فحكمك مُرسل جائز.»[٤٠٣]

واختلاف الرواية لايُغيِّر مما نحن فيه شيئاً ؛ إذْ إيجاز الحذف في البيت قائم في الروايتين ، فسواء قيل برواية:(مُسلّط) ، أو برواية:(مُسمّط) فالتقدير واحد؛ وهو : حكم السيف فينا وفيكم نافذ، أو مرسل جائز. فعلى أيٍّ من الروايتين قدّرتَ لايتغير التقدير أو المعنى الذي أراده الشاعر؛ ذلك بأن معنى كون الحكم مُرسلاً مُجوَّزاً هو نفاذه ، يقول الميداني في قولهم في المثل :

«(حُكْمُكَ مُسَمَّط) أي : مُرسَل جائز لايُعقَّب ، ويروى : (خذ حُكْمَكَ مُسَمَّطاً) أي : مُجوَّزاً نافذاً ، والمُسَمَّط: المرسل الذي لا يُرَدّ.»[٤٠٤]

وقال أنيف بن حكم النَّبهاني :

٦ - دعَوا لنِزارٍ وانتَمينا لِطيِّءٍ * كأسدِ الشَّرى إقدامُها ونِزالُها

٧ - فلما التَقَينا بيَّن السَّيفُ بيننا * لسائِلةٍ عنّا حَفيٍّ سؤالُها

في البيت الأول من الإيجاز بالحذف : حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ؛ وذلك في قوله :(كأسْد الشَّرى) .

وفي الثاني حذف مفعول قوله : (بيَّن السيف) .

وقد أوضح المرزوقي الحذف في الموضعين ناصاً على مصطلح الحذف ونوعه؛ فقرر أنه في الأول من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وأنه في الثاني من حذف المفاعيل، كما نصّ على مسوغ الحذف في الموضعين ، وأنه لعدم اللبس في الأول ، ولوجود مايدل عليه في الثاني، وفي ذلك يقول المرزوقي :

« ... وقوله : (كأسْدِ الشَّرى) حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ كأنه قال : وكإقدام أُسد الشرى إقدامُها ونِزالُها. وجاز الحذف لأنه لايلتبس وجه

---

(٤٠٣) إصلاح ماغلط فيه أبو عبد الله النمري ٤٣.

(٤٠٤) مجمع الأمثال ١/٢١٢.

التشبيه بغيره.»[٤٠٥]

وقال في الموضع الثاني من إيجاز الحذف:

« ... والذي بيّنه السيف هو حسن بلاء أحد الفريقين وزيادته فيما يُحمد من الصبر والثبات على صاحبه . وقد حذفه من اللفظ لأن المفاعيل تحذف كثيراً إذا دلّ الدليل عليها.»[٤٠٦]

وقد نقل التبريزي هذين النّصين عن المرزوقي ؛ نقل الأول بنصه ، والآخر بتصرف يسير جدا![٤٠٧]

وقد أحسن المرزوقي في بحث إيجاز الحذف في الموضعين ، من حيث ذكره مصطلح الحذف ، ونوعه ، ومسوغه . لكنه قصّر في عدم نصّه على مصطلح (الإيجاز)، ونوع هذا الإيجاز، والغرض البلاغي لإيجاز الحذف هنا؛ وهو طلب التخفيف والإيجاز بهذا الحذف ، ومراعاة الوزن الشعري.

- وقال بشر بن مغيرة :

٣ - فياعمُ مَهْلاً واتخذني لنَوبةٍ * تلِمُّ فإنَ الدهرَ جَمٌّ نوائبُهْ

علّل المرزوقي سبب حذف الشاعر الياء من المنادى في قوله :(ياعمِّ) ونصّ في بيان هذه العلة على أن باب النداء من أبواب(الإيجاز) ؛ قال المرزوقي في مسوغ حذف ياء الإضافة في جملة النداء :

«... وقوله :(ياعَمِّ) حذف الياء منه لوقوعه موقع مايُحْذَف في هذا الباب، وهو التنوين ، ولأن باب النداء باب إيجاز ، ولأن الكسرة تدل عليه .»[٤٠٨]فمسوغ حذف ياء الإضافة من (عمي) المسبوقة بياء النداء هو : أن هذه الياء قد وقعت موقع

---

(٤٠٥) شرح ديوان الحماسة ١/١٧١، ١٧٢.

(٤٠٦) شرح ديوان الحماسة ١/١٧٢.

(٤٠٧) انظر شرح ديوان الحماسة١/١٦٨، ١٦٩.

(٤٠٨) شرح ديوان الحماسة ١/٢٦٦.

مايجري حذفه من النداء ؛ مثل حركة التنوين . ولأن كسرة الميم دليل على هذه الياء المحذوفة بعدها؛ إذْ لو أشبعت الكسرة مداً لتبيّنت هذه الياء لفظاً ونطقاً لاكتابةً ورسما؛ فصارت هذه الكسرة دليلاً قوياً على ياء الإضافة التي حُذفتْ. وينضاف إلى هذين المسوغين مسوغ ثالث ذكره المرزوقي لحذف هذه الياء؛ وهو أن باب النداء باب من أبواب الإيجاز ، ومادام أنه من الإيجاز فالحذف في النداء سائغ مراعاة لباب الإيجاز الذي يدخل النداء في دائرته . أما كون النداء داخل في باب الإيجاز فلأن مقام النداء من مقام الإيجاز ؛ ذلك بأن المنادِي حين يُنادي فإنه يريد تحصيل طلبه ومراده بهذا النداء بأسرع مايمكن؛ فمقامه مقام غوث يتطلب الصريخ المُستَعْجِل. ومادامت طبيعة صيغة النداء مبنية على هذا السمْت من التعجّل والاستعجال في حصول المطلوب فهي في قِران الإيجاز الذي يتطلب الحذف في أحيان كثيرة ، بحسب المقامات والأحوال ، ومن هذه المقامات والأحوال مقام النداء .

ولئن كان المسوغان الأول والثاني اللذان ذكرهما المرزوقي لحذف ياء الإضافة في جملة النداء ؛ في قوله : (ياعمِّ) – وهما : كون الياء وقعت موقع مايحذف في باب النداء، وأن الكسرة دليل على هذه الياء – ؛ لئن كان هذان المسوغان مسوغين علميين مقبولين جداً فإن المسوغ الثالث مسوّغ فني دقيق له أهميته وخطره في مبحث فن الإيجاز ، وينبي عن دقة في النظرعند المرزوقي ، وعمق في الحس الفني لديه ، وإن كان قد ألقى هذا المسوغ إلقاء موجزاً دون تفسير أو بيان يربط فيه بين الإيجاز والنداء من زاوية فنية؛ على نحو ماأسلفت بيانه آنفا.

إن أهمية ذكره لهذا المسوغ الفني راجع إلى أمرين:

أحدهما : إيراده مصطلح (الإيجاز)لأول مرة وهذا يخدم مانحن فيه من مبحث في فن (الإيجاز) ؛ حيث اعتاد واعتاد غيره من الشرّاح أن يطرحوا مصطلحات أخرى أقاموها مقام مصطلح (الإيجاز)؛ منها المباشر الدلالة ، ومنها ذو الدلالة الإشارية ، مثل مصطلح (الإضمار) أو (الاختصار) أو (الحذف) ، وغيرها .

والآخر: ربطه الفني بين صيغة (النداء) وما تتطلبه من حذف وبين فن (الإيجاز)؛ حين قال:إن باب النداء باب إيجاز، وجَعَل ذلك أحد مسوغات الحذف من جملة النداء

عند الشاعر ٠

ومن عجب - بعد هذا - أن يقتصر التبريزي من كلام المرزوقي - الآنف ذكره في مسوغات حذف ياء الإضافة في جملة النداء - على المسوِّغين الأوّلين ، ويكتفي بهما عن نقل المسوغ الثالث على أهميته وخطره في مبحث فن (إيجاز الحذف) ؛ كما سبق بيانه![٤٠٩]

- وقال جابر بن ثَعلب الطائي:

١ - وقام إليَّ العاذلاتُ يلُمنَني * يقُلْنَ ألا تَنْفَكُّ تَرحلُ مَرْحلا

٢ - فإنَّ الفتى ذا الحزمِ رامٍ بنَفْسه * جواشِنَ هذا اللّيل كي يَتَمولا

تكلم المرزوقي على مابين البيتين من حذف مقدّر ، وقد سماه بمصطلح:(الاختصار) ؛ فقال في صدر شرح البيت الثاني:

« في الكلام اختصار ؛ كأنه قال : فأجبتهن ؛ فقلت: إن الفتى الحازم يحمّل نفسه المشقات ، ويرمي بنفسه المتالف الصَّعبات ، ويمتطي الأهوال؛ كي ينال الأموال غير مفكِّر في ظلمة ليل، ولا مُستصعب لركوب خطب.»[٤١٠]

ولم يتكلم التبريزي على إيجاز الحذف هنا أو يشر إليه بشيء!.[٤١١]

وقول المرزوقي :« كأنه قال: فأجبتهن فقلت :....» هو تقدير للكلام المحذوف عند الشاعر؛ وهو ماسمّاه المرزوقي بمصطلح (الاختصار) .

وتقدير المحذوف بقوله :(فأجبتهن ، فقلت:٠٠٠) ضرورة يقتضيه تقدير وصل الكلام الذي قطعه الشاعر في بيته الثاني عن الأول بما يشبه الإستئناف لولا دلالة الفاء في أول البيت الثاني عليه ؛ وذلك في قوله : (فإن الفتى ٠٠٠)، فإن هذه الفاء تشير إلى ذلك الكلام المحذوف الذي قدّره المرزوقي وتدل عليه فهي الفاء الرابطة بين البيت الأول والثاني ، وبين عذل هؤلاء العاذلات اللائي يلمنه على الترحّل في اكتساب المعيشة والرزق وبين جوابه لهن وردّ ه على عذلهن ولومهن.

---

(٤٠٩) انظر شرح ديوان الحماسة٢/٢٥٧.

(٤١٠) شرح ديوان الحماسة١/٣٠٤، ٣٠٥.

(٤١١) انظر شرح ديوان الحماسة ١/٢٩٢.

وهذا الكلام المحذوف المقدّر بقول المرزوقي:« فأجبتهن ؛ فقلت...» يتألف من جملتين كاملتين ؛ الجملة الأولى من فعل وفاعل ومفعول ، والثانية من فعل وفاعل . أما جوابه أو قوله الذي قاله لهن ؛ وهو ماأورده المرزوقي بعد قوله :(فقلت) فهو مذكور في الأصل غير محذوف ؛ إذْ هو من مقول الشاعر في البيت أورد المرزوقي مضمونه – على سبيل الشرح – بعد تقديره المحذوف.

ومن الواضح أن هذا الكلام المحذوف قد دلّ عليه السياق وقرينة حال الشاعر، وأن حذفه طلباً للتخفيف بالإيجاز.

أما تسمية المرزوقي مصطلح إيجاز الحذف هنا بمصطلح الاختصار؛ حين قال: « في الكلام اختصار» فإن ذلك من قبيل التوسع في الاستعمال المبني على التّسمُّح والتجوّز . وقد سبق أن استعمل المرزوقي والتبريزي مصطلح (الاختصار) للدلالة على مصطلح (الإيجاز) في شرح بيت من أبيات ديوان المفضليات ، وبيان مافيه من إيجاز بالحذف. وتقدم القول بأن مصطلح (الاختصار) غير دقيق في الدلالة على مصطلح (الإيجاز) ، وأوردتُ كلاما فنياً دقيقاً لأبي هلال العسكري في التفريق بين هذين المصطلحين وخلاصته: أن الاختصار يكون في كلام قد أُلِّف من قبل ثم جرى تهذيبه والحذف منه على سبيل التخلُّص من الفضول والزوائد ، كما يكون الحال في اختصار الكتب والرسائل . وأن الإيجاز يكون في كلام قد بُني في الأصل على قلة اللفظ وكثرة المعاني. وذكر أبو هلال أنه قد يستعمل أحدهماموضع الآخر لتقارب معنييهما . فيكون ماحصل من المرزوقي هنا وهناك من استعمال مصطلح (الاختصار) في موضع مصطلح (الإيجاز) من قبيل المعاورة في الاستعمال بينهما؛ على سبيل المسامحة والتجوّز؛ لما بينهما من تقارب فنّي عام في الدلالة والمعنى .[٤١٢]

---

(٤١٢) انظر ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ من هذا البحث.

- وقال حسّان بن نشبه :

٣ - سَمَوْا نحوَ قَيْلِ القومِ يبْتَدِرونَهُ * باسيافهم حتّى هوى فتَقَطّرا

معنى البيت كما أورده المرزوقي :« ...ارتفعوا نحو رئيس القوم مُسْتَبِقينَ إليه بأسيافهم فتناولوه حتى سقط.» ثم قال:

« .. وفي الكام اختصار؛ كأنه قال : ابتدروه بالأسياف وضربوه حتى سقط، فحذف ضربوه ... وتعلّق حتى بالمحذوف الذي بيَّنْتُه.»(٤١٣)

وأورد هذا الكلام الأخير التبريزيُّ بنصّه نقلاً عن المرزوقي!.(٤١٤)

وهذا الحذف الذي قدّره المرزوقي ، ودلّ عليه بمصطلح (الاختصار) هو من الإيجاز بالحذف . وحذف هذه الكلمة ؛ أعني كلمة (وضربوه) يعني حذف جملة مؤلفة من فعل وفاعل ومفعول؛ أي ضرب هؤلاء رئيس القوم.

وقد دلّ على هذا الحذف قرينة الحال ، إذْ لايمكن أن يَهْوي رئيس القوم ساقطاً على جنبه إلا بعد ضرب بالسيف.

والقول في استعمال المرزوقي مصطلح (الاختصار) مكان مصطلح (الإيجاز) ماسبق بيانه في النموذج السابق؛ من أن اعتياد المرزوقي وغيره هذا الاستعمال محمول على التّسمُّح والتجوز في الاستعمال؛ لما بين هذين المصطلحين من تقارب فني عام في الدلالة والمعنى.(٤١٥)

---

(٤١٣) شرح ديوان الحماسة ٣٣٨/١، ٣٣٩.

(٤١٤) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٢١/١.

(٤١٥) وللمرزوقي نماذج أُخَر من وقفاته الدقيقة في بحث(إيجاز الحذف) التي يتكلم عنها بمصطلح (الحذف) في أحيان كثيرة ، وبمصطلح (الإضمار) أحياناً ، وتارة يذكر مسوغ الحذف بأنه : تقدُّمُ ذكر المحذوف ، وطول الكلام به ، أو لأن المراد مفهوم. أو غيره مما مرّ بيانه. ومنها ماهو من حذف متعلقات الفعل ؛ كالمفعول ، أو حذف الفعل نفسه أو المصدر ، ونحو ذلك من نماذج الحذف الكثيرة التي لاتخفى ، والتي هي من سمات لغة الضاد ؛ لغة الفصاحة والبلاغة والإيجاز . ولو أردت تتبع هذه الوقفات لقصُر المقام عنها ، وحسبي من ذلك بعض النماذج والشواهد. وفيما مضى مما وقفت عنده بالدرس كفاية وغناء في بيان جهد المرزوقي في مبحث فن الإيجاز بالحذف؛ وانظر شرح ديوان الحماسة ١٣٧٥/٣، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٢٠، ١٤٤١، ١٥١١ ، ١٦٩٩/٤، ١٧٠٠، ١٧٠١.

- قال عامر بن الطفيل:

فلو كان يُغني أن يُرى المرءُ جازعاً * لحادثةٍ أوْ كان يغني التذلّلُ

لكان التعزّي عند كلّ مصيبةٍ * ونائبةٍ بالحُرّ أولى وأجملُ

فكيفَ وكلٌّ ليس يَعْدو حِمامَهُ * ومالامرئٍ عما قضى الله مَزْحَلُ

بيّن العبيدي مافي البيت الثالث من حذف دلّ عليه سياق الكلام قبله في البيتين الأول والثاني، قال العبيدي:

« ... والفاء في (فكيف) يوجب ربط هذا المعنى بمعنى الثالث، والتقدير: كيف يجزع ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه. »(٤١٦)

ففي هذا إيجاز حذف حُذف منه ماقدّره الشارح العبيدي؛ لدلالة السياق قبله عليه. وقد أحسن العبيدي في نصّه على مصطلح (الحذف) ، وفي ذكره مسوغ الحذف . لكنه لم يذكر مصطلح الإيجاز ولا نوعه ، ولا الغرض البلاغي لهذا الإيجاز.

- وقال آخر:

وأكثرُ مَنْ شاورتَه غيرُ حازمٍ * وأكثرُ مَنْ صاحبْتَ غيرُ الموافقِ

قال العبيدي :« ... فحذف الضمير العائد إلى (مَنْ) في قوله :(وأكثر مَنْ صاحبت) ؛ أي: صاحبته ؛ لأن ضمير المفعول يحذف كثيراً .»(٤١٧)

وهذا نموذج من نماذج الإيجاز بطريق الحذف ؛ وهو حذف ضمير المفعول به الذي قدّره العبيدي في قوله : (صاحبته) ، وقال : إن هذا الضمير يحذف كثيراً في الكلام ، ولم يبين سبب حذفه أو غرض حذفه . وواضح أن مسوغ حذفه : العلم به لدلالة الكلام عليه . وأن غرض حذفه : التخفيف بقصد الإيجاز.

---

(٤١٦) شرح المضنون به على غير أهله ٤٢.

(٤١٧) شرح المضنون به على غير أهله ٤٦٩. وقال عن قول الآخر:

ونُبِّئت ليلى أرسلتْ بشفاعة * إليّ فهلاّ نفسُ ليلى شفيعُها . قال إن قوله :(شفاعة) مضاف إليه أقيم مقام المضاف المحذوف ، ولم يُقدِّر المضاف المحذوف ؛ وهو رسول شفاعة . انظر٢٣١.

وقد أحسن العبيدي في بحث هذا النموذج - والذي سبقه - من نماذج بحثه في (إيجاز الحذف) ، وإن كان ينقصه النص على مصطلح (الإيجاز) ونوعه والغرض البلاغي للإيجاز!.

وقد كثر عند العبيدي وقفاته الموجزة عند نوع من أنواع الحذف ؛ وهو حذف المبتدأ ، أو الخبر أو الفعل، ونحوه مما يعد ذا صبغة لغوية نحوية أكثر منه دخولاً في البحث في فن (الإيجاز) من زاوية بلاغية.

ولم أتبيّن عند المرصفي وقفات في بحث (الإيجاز) بنوعيه تستحق أن يوقف عندها بالبيان والدرس سوى نماذج قليلة من إيجاز الحذف جاءت عنده بصورة مقتضبة جداً ، وذلك من مثل قوله في

- قول أبي حنبل الطائي:

حتى وَفَيْتُ بها دُهْماً مُعَقَّلَةً * كالقار أَرْدَفَهُ مِنْ خَلْفِهِ قارُ

حيث قال في بيان الحذف عند الشاعر في قوله : (دهماً) :

« دُهماً) يريد: إبلاً دُهماً ؛ من الدُّهْمة...» . ثم فسّر المعنى المراد بالدهمة في الإبل والخيل.(٤١٨)

هكذا دون أن ينص حتى على مصطلح (الحذف) فكيف ينتظر منه أن ينص على مصطلح (الإيجاز) ، أو يبيّن أنه من نوع الإيجاز بالحذف ودون أن يقول: إنه حذف الموصوف وإقام الصفة مقامه لدلالة سياق الكلام عليه ، أو قرينة الحال ، أو يذكر الغرض البلاغي للحذف!.

---

(٤١٨) أسرار الحماسة ٩٣/١. وانظر ١٤٧/١، حيث قال في قول سالم بن وابصة :
يا أيّها المُتَحلّي غيرَ شيمته وَمِنْ سجيّته الإكثار والملق
« غير شيمته ؛ يريد: بغير شيمته ؛ فحذف الجار.»!.

٢ - الإطناب وصوره

قد سبق في التقديم لمبحث الإيجاز والإطناب ، والتعريف بهما عند البلاغيين ، وبعض شرّاح الاختيارات الشعرية حدُّ الإطناب بأنه : تأدية أصل المعنى المراد بألفاظ زائدة عليه لفائدة ، وأن تقييد ألفاظ الإطناب الزائدة بالفائدة احتراز من التطويل أو الحشو اللَّذَين تخلو فيهما ألفاظهما الزائدة عن الفائدة . وسيأتي بيان ذلك فيما يخص التطويل والحشو في شروح الاختيارات الشعرية في المبحث الثالث التالي لمبحث الإيجاز والإطناب ؛ بإذن الله تعالى .

- صور الإطناب في شروح الاختيارات الشعرية :

وللإطناب صور فنية يتأتى بها وألوان بلاغية يؤدَّى بها ، وقد ورد من صور الإطناب وألوانه في شروح الاختيارات الشعرية مايلي :

أ - الإيضاح بعد الإبهام .

ب - ذكر الخاص بعد العام .

جـ - التكرير .

د - التذييل .

هـ - التتميم .

و - الاعتراض .

وسأعرض بالدرس لكل صورة من هذه الصور من خلال ماوجدته من نماذج صالحة لها في شروح الاختيارات الشعرية :

أ - الإيضاح بعد الإبهام أو (التفصيل بعد الإجمال) :

- قال الأخنس بن شهاب :

١ - لابنةِ حِطّانَ بنِ عَوفٍ منازلٌ * كما رقَّش العنوانَ في الرَّقِّ كاتبُ

يرى التبريزي رأي المرزوقي - الذي نقل عنه شرح البيت - أن الشاعر لجأ إلى الإطناب في الكلام والإطالة فيه ؛ لغرض التوكيد ؛ وذلك أنه كان بإمكان الشاعر أن

يقـول : (كعنوان مُرَقَّش من يد كاتب في الرّق) ، لكنه أطال في الكلام ؛ حين قال : (كما رقَّش ٠٠٠) ، والدليل على هذه الإطالة - كما يريان - أن قوله : (كما رقَّش) في موضع مصدر مؤوّل من (ما والفعل) ؛ أي : كترقيش ٠ ثم قال التبريزي بعد ذلك - نقلاً عن المرزوقي أيضاً - « ومثل مافعله الأخنس من تطويل الكلام تأكيداً قولُ امرئ القيس :

لها متنـان خظاتـا كمـا * أكَبَّ على ساعِدَيه النَّمِرْ

والمـراد : كـأنَّ عليـهـا نمـراً باركاً لإشـرافـهـا ؛ فـقـال : كـمـا أكبَّ على ساعديه » [٤١٩] ٠

وقد عبر التبريزي والمرزوقي عن مصطلح (الإطناب) بالإطالة في الكلام الوارد في قـوليـهـمـا : (لكنه طوّل الكلام) و (من تطويل الكلام تأكيداً) ٠ فـإطالة الكلام إطناب ، والإطناب إطالة الكلام ؛ فهما وإن لم يذكرا مصطلح (الإطناب) بعينه فقد دلاّ عليه بمصطلح التطويل والإطالة ٠

أمّا غـرض الإطناب أو الإطالة هنا فـهو مـاذكراه ؛ من أنه التوكيـد للمـعنى ؛ وذلك في قولهما : « ٠٠٠ ومثل مـافعله الأخنس من تطويل الكلام تـأكيداً قـول امرئ القيس » ٠

وأمّا وجه كون هذا الإطناب بطريق الإيضـاح بعد الإبهام فـهو أن الشـاعر قـال أولاً : (لابنة حطّان بن عوف منازل) فـأتى بذكر هذه المنازل على سبيل الإبهام لـها والإجمال لذكرها ، ثم كشف عن ذلك الإبهام وأوضح إجمال ذكره لها بما ذكره من إيضـاح وبيان في الشطر الثـاني من البيت كشف به غـامض الإبهـام وأوضح إجمال تلك المنازل بأنها في حـقيـقتـها ومـا آلتْ إليه تُشـبـه مـابقي من آثار تلك المنازل التي درستْ ؛ ولذلك كان قصد الشاعر إلى أن يُصوّر - بطريق التمثيل - آثار تلك الديار بكتابةٍ قد درستْ فبقي بعضها وخفي البعض ، ولم يكن قصده ابتداءً إلى تشبيه تلك المنازل بـالترقـيش ، وإنما قـصـد إلى تشـبـيـه آثار تلك الديار ؛ يقـول التـبـريزي عن المرزوقي في بيان غرض الشاعر في تشبيهه :

---

(٤١٩) شرح اختيارات المفضل ٩٢٢/٢ وحاشيتها ، ٩٢٣ ٠

« والشاعر لم يشبّه المنازل بالترقيش ، وإنما القصد في التشبيه إلى أن يُمثّل مابقي من آثار الديار وقد درستْ بكتابة درستْ فبقي بعضُها ، وخفي بعضها »[(٤٢٠)] .

ولو تأملت في كلامهما هذا أو غيره مما سبق ذكره لم تجد فيه دلالة قوية واضحة على صورة الإطناب هنا ؛ إذْ لاتجد في كلامهما مايدل دلالة صريحة على أن صورة الإطناب هنا كانت (الإيضاح بعد الإبهام) ، فلم يذكرا هذه الصورة بمصطلحها ذكراً صريحاً مباشراً ، كما لم يأت في كلامهما مايدل عليه دلالة قوية ولو بصورة غير مباشرة . لكنك تفهم صورة الإطناب هنا فهماً ضمنياً بما أبهمه الشاعر من ذكر لهذه المنازل أولاً وما أجمله عنها من ذكر ، ثم بيانه لغامض ذلك الإبهام ، ولإجمال ذلك الذكر بما أورده من بيان وتصوير بطريق التمثيل لصفة مابقي من آثار تلك الديار التي درستْ بما بقي من كتابة قد درستْ ، بقي بعضها وخفي بعضها الآخر ؛ على نحو ماسبق بيانه .

فدلالة كلام المرزوقي والتبريزي على صورة الإطناب هنا بطريق الإيضاح بعد الإبهام غير موجودة ؛ لابطريق صريح مباشر ولاغير مباشر ، على العكس من دلالة كلامها على مصطلح (الإطناب) ، وغرضه البلاغي ؛ حيث دلاّ على مصطلح (الإطناب) بمصطلح (التطويل والإطالة) ، وعلى الغرض البلاغي بأنه للتوكيد ؛ على نحو ماسبق بيانه آنفاً .

على أن عدَّهما كونَ الشاعر عدَل عن القول : (كعنوانٍ مُرقَّشٍ من يد كاتب في الرَّقّ) إلى قوله : (كما رقّش العنوان في الرّق كاتب) من قبيل الإطناب والإطالة ، وجعلَهما دليل الإطناب ورودَ قول الشاعر بتأويل مصدر من (ما ، والفعل) ؛ عدّهما ذلك من باب الإطناب أمرٌ نسبي ، إذْ لا إطناب جلي ؛ فالفرق في الطول قصير جداً بين ماأتى به الشاعر ، وما قدّراه من تقدير ، بل إن ماقدّراه أزيد مما ورد عند الشاعر بكلمتين ؛ وهما : (من ، يد) ، إضافة إلى الميم من (مرقّش) التي دلّ بها على اسم المفعول ! .

---

(٤٢٠) شرح اختيارات المفضل ٢/٩٢٢ ، ٩٢٣ .

ولم يقف الأنباري عند بحث الإطناب في بيت الأخنس التغلبي ؛ لابمصطلح الإطناب ، ولا بما يدل عليه من الإطالة أو التطويل ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي والتبريزي ، كما لم يذكر صورة الإطناب ولونه في البيت أو يشر إليه بحال من الأحوال ! [٤٢١].

- وقال تأبّط شرًا :

٨- لاشيءَ في رَيْدِها إلاّ نعامتُها * منها هَزيمٌ ومنها قائمٌ باقي

نبّه التبريزي على مافي البيت من إطناب ، وعلى نوعه ، ولكن تنبيهه على (الإطناب) لم يكن بذكر مصطلحه الصريح المباشر ، ولا بما يدل عليه ، إنما كان بذكر صورة الإطناب التي اشتمل عليها البيت ؛ وهي (الإيضاح بعد الابهام) ، أو (التفصيل بعد الإجمال) كما ذكر ؛ حيث قال في ذلك :

« ... وقوله : (منها هزيم) تفصيل لقوله : (نعامتها) ... يقول : لاشيء في أعالي هذه القُلَّة إلا خشبات الطَّلائع ؛ فهي من بين قائم وساقط ؛ فأعاد قوله : (منها) عند التبيين ؛ على طريق التأكيد ، ولو لم يأت به لجاز ؛ وفي القرآن : ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ ، وفي موضع آخر : ﴿ فمنهم شقيٌّ وسعيد ﴾ » .

والتبريزي في هذا كله عالة على المرزوقي ! [٤٢٢].

ففي إيضاح المرزوقي والتبريزي أن قول الشاعر: (منها هزيمٌ) تفصيل لقوله : (نعامتُها) - دلالة على (الإطناب) بطريق الإشارة ؛ بذكر صورته التي دلّ عليها بمصطلح (التفصيل) الذي أشار به إلى (الإطناب) بصورة (التفصيل بعد الإجمال) أو (الإيضاح بعد الإبهام) ، كما أنّ في الإيضاح التفسيري الذي ورد في شرحهما التالي مزيد إيضاح وبيان لما ورد مجملاً في كلمتهما الأولى التي دلاّ بها على الإطناب وصورته ، وبخاصة أنه ورد قولهما : « فأعاد قوله : (منها) عند التبيين ؛ على طريق التأكيد) ؛ إذْ في هذه المقولة ذكر لمصطلح (التبيين) الذي يدل على صورة الإطناب - وهي (الإيضاح بعد الإبهام) أو (التفصيل بعد الإجمال) -

---

(٤٢١) انظر : شرح المفضليات ٤١٠ ، ٤١١ .

(٤٢٢) شرح اختيارات المفضل ١٢٨/١ ، وحاشيتها .

دلالةً قوية بطريق الإشارة الظاهرة ؛ لأنّ كلاً من (الإيضاح) و (التفصيل) يقوم على التبيين والتفسير ؛ فما الإيضاح والتفصيل في حقيقتهما إلاّ بيان وتفسير ، وما البيان في حقيقته إلاّ إيضاح وتفصيل .

كما دلّ المرزوقي والتبريزي في هذه المقولة الموجزة على الغرض البلاغي لصورة الإطناب عند الشاعر ؛ وذلك بقولهما : « ... فأعاد قوله : (منها) عند التبيين على طريق التأكيد » ؛ فإعادة الشاعر لفظ (منها) مرةً أخرى ، بقصد التبيين هو من الإطناب بصورة الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال . وغرضه البلاغي التوكيد ؛ لوروده بطريق التكرار للفظ ؛ كما هي حال التوكيد اللفظي .

ولم يرد عند الأنباري - أثناء شرحه بيت تأبط شراً - مايتصل بمبحث الإطناب ؛ بذكر مصطلحه ، أو مايدل عليه ، أو على نوع صورته ![٤٢٣] .

- وقال شهل بن شيبان :

٤ - ولم يبقَ سوى العُدوا * نِ دِنّاهُمْ كما دانوا

٥ - مَشَيْنا مِشْيَةَ اللّيثِ * غدا واللّيثُ غضبانُ

قال المرزوقي في أثناء شرح البيت الأول :

« ... وقوله في البيت التالي هو تفصيل لما أجمله قولُه : (دِنّاهم) ؛ لأنه فسّر كيف كان ذلك الجزاء »[٤٢٤] .

ولم يشر التبريزي إلى شيء من ذلك مما يمس البحث في الإطناب وصورته هـهنا ![٤٢٥].

وفي قول المرزوقي : « ... هو تفصيل لما أجمله .. » دلالة على الإطناب ؛ بصورة (الإيضاح بعد الإبهام) ؛ لأن التفصيل بعد الإجمال داخل في (الإيضاح بعد الإبهام) دلالةً وغرضاً .لكن المرزوقي لم ينص على مصطلح (الإطناب) أو يذكر مصطلحاً آخر يقوم مقامه ، وإنما يُفهم هذا المصطلح بذكره مصطلح صورته ؛ وهو (التفصيل بعد الإجمال) الذي يدل على مصطلح (الإطناب) ويشير إليه إشارة

(٤٢٣) انظر : شرح المفضليات ١٧ .
(٤٢٤) شرح ديوان الحماسة ٣٥/١ .
(٤٢٥) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٣/١ ، ٢٤ .

ضمنية .

وليس قصد المرزوقي أن البيت الخامس وحده هو التفصيل للبيت الرابع ، وإنما يمتدّ التفصيل إلى مابعد الخامس في البيتين السادس والسابع ؛ لأن أول كلمة من البيت السادس ؛ وهو :

٦ - بضربٍ فيه توهيـــ * نٌ وتَخْضيعٌ وإقرانُ

أعني أنّ أول كلمة من هذا البيت ؛ وهي : (بضرب) متعلقة بـ (مشينا) ، أو أنّ الباء من قوله : (بضرب) متعلقة بـ (مشينا) ؛ في أول البيت الخامس ، وقد فصّل البيت السادس ماأُجمل في البيت الخامس ؛ فكان في السادس تفصيل أدق للخامس مما كان في الخامس بالنسبة لما قبله ، لأن قوله :

مشينا مِشيــة الليثِ * غدا والليثُ غضبانُ

تفصيلٌ عام بيّن فيه ما أُجْمل في قوله : (دِنّاهم كما دانوا) حتى إذا ماجاء قوله بعد في البيت السادس :

بضـرب فيــه تَوهيــــ * نٌ وتخضيع وإقرانُ

كان ذلك تفسيراً وتفصيلاً أدق وأكثر لما سبق في البيت الخامس من تفصيل اتّصف بالعموم لما قبله ، فجاء أكثر تفصيلاً لذلك التفصيل الذي هو في عمومه أشبه بالإجمال الذي يحتاج إلى تفصيل وبالإبهام الذي يحتاج إلى إيضاح .

وقد أشار المرزوقي إلي ذلك إشارة خفيفة ؛ وبها يُتَبيَّن دلالة هذه الأبيات التالية على ماذكرت ، وأن المرزوقي لم يرد قصر التفصيل للإجمال الوارد في آخر البيت الرابع على ماذكره في البيت الخامس ، بل يمتد ذلك إلى البيتين ؛ السادس والسابع؛ قال المرزوقي مشيراً إلى ذلك في مطلع شرحه البيت السادس :

« تعلّق الباء منه بمشينا ؛ أي : مشينا بضرب في ذلك الضرب تضعيف للمضروب به ، وتذليلٌ ولين » [(٤٢٦)] .

أما البيت السابع وهو:

وطعـن كـفـم الـزِّقِّ * غــذا والــزق مـــلآنُ

(٤٢٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٦/١ . وقد نقله التبريزيُّ عنه بتصرف ؛ انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٥/١ .

فقد جاء بزيادة تفصيل ايضاً لما أُجمل في التفصيل الأول الوارد في البيت الخامس؛ وذلك على سبيل العطف على البيت السادس؛ اي: وبطعنٍ موصوف بما ذكره الشاعر؛ فيكون تفصيل تشبيه هيئة مِشيَتهم المُشَبَّهة بمِشيَة الليث حين يغدو باكراً، وهو غضبان من الجوع ـ مُتَصوَّراً في ذلك الضرب الموصوف بما فيه من توهين للمضروب وتضعيف له وتذليل ولين، وبطعن واسع يجري الدم منه كما يجري فم السقاء إذا سال بما فيه!.

– وقال آخر :

٢- إذا ما صنعتِ الزَّادَ فالتَمِسي له * أكيلاً فإنّي لستُ آكِلَهُ وَحْدِي

٣- أخاً طارِقاً أو جارَ بيتٍ فإنّني * أخافُ مَذَمّاتِ الأحاديث مِنْ بعدي

تكلم المرزوقي على مابين البيتين من صورة الإطناب ؛ وهي (الإيضاح بعد الإبهام) أو (التفصيل بعد الإجمال) ؛ وذلك حين تكلم على سر تنكير الشاعر المفعول به ؛ وهو قوله (أكيلاً) . وقد أراد الشاعر بهذا النكرة واحداً ممن عُرفوا بمواكلته عادةً ، ولكنه لايزال نكرة عند مَنْ لايعرف مَنْ يواكله هذا الشاعر في العادة ، بل هو نكرة ؛ إذ لاتعيين فيه ؛ لأن مَنْ يواكلونه عادةً كثيرون ؛ ولذلك قصد الشاعر إلى إيضاح هذا الإبهام وشرحه وتفصيل هذا الإجمال وبيانه ؛ فقال لمن يخاطبها في هذا الشعر : (أخاً طارقاً أو جار بيت ..) بعد قوله : (أكيلاً) فأوضح المبهم وشرحه وفصل المجمل وبينه بهذا الإتباع الذي جاء بطريق الإبدال . وبهذا الإيضاح والتفصيل صارت النكرة في صورة المعرفة وفي مساقها وساغ للشاعر التنكير ؛ وفي ذلك يقول المرزوقي :

« فإن قيل : كيف نكّره وقال : التمسي له أكيلاً ؟ وهلاّ قال : أكيلي ؟ قلتَ : لايمتنع أن يكون قد عُرِف بمواكلته عِدَّةٌ ؛ فأراد : التمسي من أجله بعدما هيَّأْتِه واحداً من المعروفين بمواكلتي ؛ ألا ترى أنه قال مُفصّلاً لما أجمله وشارحاً لما أبهمه : (أخاً طارقاً أو جارَ بيتٍ) ؛ فأبدل من الأول ؛ وهو (أكيلاً) ما أبدل ، والمراد : التمسي أكيلاً من أحد هذين النوعين ؛ طارقاً آخيناه ، أو جار بيت باسطناه » (٤٢٧) .

ومن محاسن المرزوقي التي جاء بها في كلامه هذا ؛ جمعُه بين مصطلحي

---

(٤٢٧) شرح ديوان الحماسة ١٦٦٩/٤ ، ١٦٧٠ .

(التفصيل بعد الإجمال) و (والإيضاح بعد الإبهام) في دلالة واحدة ؛ ليدل بهما معاً على صورة الإطناب عند الشاعر ؛ وذلك حين قال : « ألا ترى أنه قال مفصلاً لما أجمله ، وشارحاً لما أبهمه) . وإن كان قال : شارحاً ، ولم يقل موضحاً فإن الدلالة بينهما واحدة ؛ إذْ كل منهما بمعنى الآخر .

أما التبريزي فقد نقل كلام المرزوقي مُختَصراً ، وحذف منه مايتّصل بمصطلحي : (التفصيل بعد الإجمال) و (الإيضاح بعد الإبهام) ؛ حيث قال بعد أن أورد كلامه الأول بتصرف يسير : « ... ... ألا ترى أنه قال : (أخاً طارقاً ... إلى آخره ؛ فأبدل من الأول ؛ وهو : (أكيلاً) »[٤٢٨] .

وماحذفه التبريزي من كلام المرزوقي المتصل بمصطلحي صورة الإطناب هو أهم مايمكن ذكره في مبحث الإطناب عند الشاعر ، وإنّ رُكون التبريزي - غالباً - إلى مثل هذا النقل الذي أراد به الاختصار في غير موضعه ، وإنّ عدم استقلاله في البحث والدرس هما ما أدى به إلى ماترى من القصور والضعف ، وعدم الوضوح أو الاستقلال في الدرس البلاغي والنقدي ! .

- وقال نُصَيب في عمر بن عُبَيد الله بن مَعْمر :

١- والله مايدري امرؤٌ ذو جنابةٍ * ولاجار بيتٍ أيُّ يوميكَ أجود

٢- أيومٌ إذا ألفيتَه ذا يسارةٍ * فأعطَيتَ عَفْواً أم يومَ تُجْهَدُ

قال المرزوقي موضحاً مابين البيتين من إطناب بصورة (الإيضاح بعد الإبهام): « وقوله : (أيومٌ إذا ألْفيتَه) تفصيلٌ لما أجمله »[٤٢٩] .

وذكر هذا الكلام التبريزيُّ بنصّه ![٤٣٠].

---

(٤٢٨) شرح ديوان الحماسة ٢٠٦/٤ .

(٤٢٩) شرح ديوان الحماسة ١٧٨٠/٤ .

(٤٣٠) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٩١/٤ .

ب - ذكر الخاص بعد العام :

- قال تأبّط شراً :

٢- يَسْري على الأيْنِ والحيّاتِ مُحْتَفِياً * نفسي فِداؤكَ مِن سارٍ على ساقِ

ورد في البيت ذكر الخاص قبل العام ، وإفراد الخاص بالذكر مع اشتمال اللفظ العامّ عليه . وهذا من باب تخصيص الخاص بالذكر مع تضمن مابعده أو قبله عليه ؛ لإثبات مزية في الخاص استلزمت ذكره مفرداً مع ذكره على سبيل العموم .

إن لفظ (الأين) في البيت لفظ خاص يعني نوعاً من الحيات ، وقد شمله اللفظ العام في الكلمة التي تلته ؛ وهي (الحيات) .

وهذه إحدى صور الإطناب ؛ بذكر الخاص قبل العام مع اشتمال العام بعده عليه ، وذلك أنه لو لم يفرد (الأين) - وهو أحد أنواع الحيات - بذكر خاص ، واكتفى بورودها ضمناً مع لفظ (الحيات) الآتي ذكرها بعد لما جاء بهذا الإطناب ، لكنه قصد إلى هذا الإطناب بذكر الخاص قبل العام ، وذكر العام بعد الخاص قصداً إلى نكتة بلاغية - كما هو شأن الغرض البلاغي للإطناب - ، وهذه النكتة البلاغية التي رامها الشاعر من وراء هذا التخصيص بالإفراد مع دخول هذا المفرد مع لفظ العموم - هي غرض التهويل والتفظيع ؛ يقول التبريزي في ذلك ؛ نقلاً عن المرزوقي :

« ... وإذا أردت بالأين : الجانّ من الحيّات ، وهي أشدها سُمّاً فللسائل أن يقول : لم أعاد ذكر (الأين) ، وقد اشتمل قوله : (الحيات) على أجناسها كلها ؟ فالجواب : أن تخصيصه إيّاه بالذكر على طريق التهويل ؛ لأن الجانّ أخبثها ؛ فلذلك أعاد ذكره ، ومثله : ﴿ مَنْ كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ ، فأعاد ذكر جبريل وميكال وإن كانا قد دخلا تحت قوله : (وملائكته) رفعاً لشأنهما »[(٤٣١)] .

ولم يكن للأنباري وقفة بلاغية عند مبحث الإطناب في البيت ؛ وذلك أنه فسّر الأين في البيت بمعنيين ؛ أحدهما : أنه ضرب من الحيّات . والآخر : بمعنى (الإعياء)، وذكر أنه هو المعنى المراد عند الشاعر[(٤٣٢)] . وعلى ذلك لايكون في البيت

---

(٤٣١) شرح اختيارات المفضل ٩٨/١ وحاشيتها ، ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤٣٢) انظر : شرح المفضليات ٣ .

عنده إطناب ، لأن تفسير (الأين) بأنه ضرب من الحيات غير مراد عند الأنباري ، وقد فسّر التبريزي (الأين) بمعنى (الإعياء) ، لكنه جوّز أن يكون المراد به في البيت : ضرب من الحيات خبيث أو هو الجانّ منها ، ثم بحث مافي البيت من صورة (الإطناب) وفق هذا التفسير الذي جوّزه ؛ على نحو مامرّ ذكره وبحثه .

- وقال عامر بن الطفيل الكلابي :

٢- أكرُّ عليهم دَعْلَجاً ولبانه * إذا ما اشتكى وَقْعَ الرِّماحِ تَحمْحَما

أورد المرزوقي روايتين لكلمة (ولبانه) الرفع والنصب ، وقد وجّه كلاً من الروايتين ، ثم قال في أحد توجيهي وجه النصب :

« ... وسمعت مَن يجعله من باب تكرير البعض من الكلّ بالعطف عليه وإن كان داخلاً فيما دخل فيه على وجه الاختصاص وتفخيم الشأن ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ ، قال : ووجه الاختصاص : أن الذَّكَر بِصَدْرِه ، كما أنّ الأنثى بعجزه »(٤٣٣) .

وهذا العطف الذي جعله مَنْ سمع المرزوقيُّ عنه توجيهاً لرواية النصب - سائغ مشهور ، وهو داخل في صورة من صور الإطناب ؛ إذْ هو من باب عطف الخاص على العام ، وهو ماعبّر عنه المرزوقي بتكرير البعض من الكل بالعطف عليه . وقد جاء عطف الخاص على العام أو عطف البعض على الكل لنكتة بلاغية هي : التوكيد على تفخيم شأن ذلك البعض وتخصيص ذلك الخاص ؛ لمزيد اختصاصه بمزية وأهمية ، وهذه النكتة البلاغية هي ما أشار إليها المرزوقي بقوله : « ... وإن كان داخلاً فيما دخل فيه على وجه الاختصاص وتفخيم الشأن » .

ولقد أحسن المرزوقي في نقله هذا التوجيه لرواية النصب لكلمة : (ولبانَه) ؛ إذْ كان في هذا التوجيه تخريج لهذه الرواية على أساس فني وبلاغي مقبول بل حسن جداً ؛ أعني : جَرْيه على سنن الإطناب في إحدى صوره البلاغية الواردة شواهدها في القرآن الكريم ، وأقوال العرب .

ومع أن التبريزي نقل عن المرزوقي بعض شرح البيت إلا أنه لم يورد هذا البحث المتعلق بالإطناب وصورته ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي !(٤٣٤).

---

(٤٣٣) شرح ديوان الحماسة ١٥٤/١ .

(٤٣٤) انظر : شرح ديوان الحماسة ١٥٥/١ .

جـ - التكريـــر :

التكرير صورة من صور الإطناب . ويُطلب بالتكرير تحقيق أغراض بلاغية كثيرة ، ومن هذه الأغراض البلاغية والنكات التي يرومها المُكرِّر لكلامه : (التفجّع والتحسّر والتّشكّي) و (التفظيع والتهويل والتفخيم) و (التقرير) و (الاستطابة والتشوق) و (التهكُّم والاسترفاق . والتوعُّد) و (المبالغة في التعجب) و (طلب الاستدامة) ، إضافة إلى غرض (التوكيد) الذي هو غرض أصيل من أغراض التكرير ، كما أنه يأتي مصاحباً لكثير من أغراض التكرير . وقد وُجِدتْ هذه الأغراض في شروح الاختيارات الشعرية ، وإليك دراسة نماذجها فيها :

- قال سلامة بن جندل :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب * أودى وذلك شأوٌ غيرُ مطلوب

يرى الأنباري - عن أبي عكرمة الضبي - أن تكرار الشاعر للفظ (أودى) لنكتة التفجيع والتوكيد [٤٣٥].

بينما يرى التبريزي - عن المرزوقي - أن التكرير لتفظيع الخطب [٤٣٦].

وليس بين هذه الغرضين البلاغيين للتكرير اختلاف أو تعارض ؛ إذْ مؤدّاهما على التحقيق واحد ؛ لأن أحدهما بمنزلة السبب للآخر أو النتيجة له ؛ ذلك بأن التفجُّع لايكون عادة إلا من خطب فظيع جلل ، وأن فظاعة الخطوب ترمي بفجائع القلوب وتوجُّعاتها .

لكن الأنباري زاد في نكتة تكرير هذا اللفظ غرض (التوكيد) ، وغرض التوكيد من نكات التكرار بوجه عام ، بل إن التوكيد اللفظي ماهو إلا تكرير اللفظ بعينه اعتناءً به ؛ كما هو معروف ، وماتكرير الشاعر كلمة (أودى) بعينها إلا من هذا القبيل ؛ أي : لإفادة التوكيد ، مع مافيها من إفادة التفجيع والتفظيع .

---

(٤٣٥) انظر : شرح المفضليات ٢٢٤ .

(٤٣٦) انظر : شرح اختيارات المفضل ٢/٥٦٦ وحاشيتها .

- وقال ثعلبةَ بن صعير :

٤- وَعَدتْكَ ثُمّتَ أخلفتْ مَوعودَها * ولعل ما مَنَعَتْكَ ليس بضائر

تكرار الشاعر ذكر الوعد صورة من صور الإطناب ٠ وقد جاء التكرار هنا لعلة بلاغية ؛ هي : إظهار التشكي والتوجع ؛ يقول التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - في بيان الغرض البلاغي لهذا التكرار عند الشاعر :

« كرّر ذكر الوعد تشكياً ممّا ناله فيه ٠ ثم تجلّد معها ؛ فقال : أطمع في أنّ مَنْعها لايضرّني ولايعود بمساءةٍ عليّ ٠٠ »(٤٣٧)٠

ولم يشر الأنباري إلى الإطناب هنا أو يذكر صورته أو الغرض البلاغي لها !(٤٣٨)٠

والمرزوقي والتبريزي وإن لم يذكرا مصطلح (الإطناب) عند الشاعر صراحة فإنه يفهم من ذكرهما لصورة التكرار عنده أنه أحد ألوان الإطناب وصوره ، وفي هذا إشارة إليه ، ثم إنهما أحسنا في ذكر الغرض البلاغي لصورة التكرار عند الشاعر ؛ على نحو ماسلف ذكره ٠

- وقال الحسين بن مطير :

٢ - فياقبرَ معْنٍ انتَ اول حُفْرةٍ * من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا

٣ - ويا قبر معن كيف واريتَ جُودَهُ * وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُتْرَعا

بيّن المرزوقي الغرض البلاغي لصورة الإطناب عند الشاعر بطريق صورة (التكرار) ٠ وقد نصّ على مصطلح (التكرار) ، مبيناً الغرض البلاغي منه ، دون أن ينصّ على مصطلح (الغرض البلاغي) ، ودون أن يذكر مصطلح (الإطناب) أو أن (التكرار) صورة من صوره ؛ قال المرزوقي في ذلك :

« كرّر مناداة القبر توجّعاً وتحسراً ٠٠٠ »(٤٣٩)٠

وعلى هذا فقد جاء هذا الإطناب بطريق التكرار وفاءً لعلة بلاغية هي : إظهار الشاعر التوجع والتحسر ؛ طلباً للتنفيس من وقع المصيبة وتخفيف الحزن بهذا الرثاء

(٤٣٧) شرح اختيارات المفضل ٢/٦١٥ ، ٦١٦ ، وحاشيتها ٠
(٤٣٨) انظر : شرح المفضليات ٢٥٥ ٠
(٤٣٩) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٣٦ ٠

القوي المؤثر الصادق العاطفة نحو ذلك المرثي ·

ولم يقف التبريزي عند هذا التكرار أو يشر إلى هذا الإطناب بشيء[(٤٤٠)].

وقد أورد العبيدي نصّ كلام المرزوقي الآنف ذكره في بيان الغرض البلاغي للتكرار عند الشاعر ؛ فقال : « كرّر مناداة القبر توجّعاً وتحسّراً · · · » ![(٤٤١)].

وليس بغريب على العبيدي ؛ فهو ينقل عن المرزوقي شرح بعض الأبيات أو المقطوعات التي ترد عنده في اختيار المضنون به على غير أهله ، وترد في ديوان الحماسة ؛ ينقل شرحها عن المرزوقي نصاً دون أن يعزو إليه في الأعم الأغلب ؛ تماماً كما يفعل التبريزي مع المرزوقي في شرح اختيارات المفضل ، وفي شرح ديوان الحماسة ! ·

- وقال كَبِدُ الحصاة العِجْلِيّ :

١ - ألا هلَكَ المُكسَّرُ يـالَ بَكْرٍ * فأودى الباعُ والحَسَبُ التّليدُ

٢ - ألا هلَكَ المكسر فاستراحتْ * حوافي الخيل والحيُّ الحَرِيدُ

أوضح المرزوقي الغرض البلاغي لتكرير الشاعر قوله : (ألا هلك المكسّر) ؛ فقال : « · · · وقوله : (ألا هَلَكَ المكسَّرُ) كرّره لتفظيع الأمر »[(٤٤٢)].

فالنكتة البلاغية للإطناب في بيتي الشاعر بصورة التكرير إنما هي - كما ذكر المرزوقي - لتفظيع الأمر وتهويل المصاب وتفخيم قَدْره ·

ولم يذكر المرزوقي مصطلح (الإطناب) ، واكتفى بدلالة مصطلح (التكرير) عليه دلالة إشارة تضمّنية ·

ولم يشر التبريزي إلى مافي البيتين من (الإطناب) بصورة (التكرير) ، بل لم يذكر التكرير بين البيتين ، ولابلاغته بشيء ![(٤٤٣)].

- وقال آخر ، وقد ضرب بنو عمّه مولىً له :

فلا تَبْعثوها بعد شَدِّ عِقالِها * ذميمةَ ذِكْرِ الغِبِّ في المُتَعَقَّبِ

فإن تبعثوها تبعثوها ذميمةً * قبيحة ذكـر الغِبِّ للمُتَغَبِّبِ

(٤٤٠) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣٩١/٢ ·

(٤٤١) شرح المضنون به على غير أهله ٣٥٩ ، وقد نقل شرح البيتين هذين عن المرزوقي بنصه أيضا ! ·

(٤٤٢) شرح ديوان الحماسة ١٠٦٤/٣ ·

(٤٤٣) انظر : شرح ديوان الحماسة ٨٤/٣ ، ٨٥ ·

قال سيد المرصفي في خاتمة شرحه البيت الثاني :

« ... وهذا البيت تكرير لما قبله ؛ فهو إطناب »[٤٤٤].

وقد أحسن المرصفي حين نصّ على مصطلح (الإطناب) ، كما أحسن في بيان صورة الإطناب بين البيتين ؛ فذكر أنها (التكرير) . ومما زاد في إحسانه في التصريح بمصطلحي (الإطناب) و (التكرير) دقّةُ كلامه في الدلالة على العلاقة بين هذين المصطلحين ؛ حيث جعل الإطناب نتيجة من نتائج التكرير ؛ عندما قال : (هذا البيت تكرير ... فهو إطناب) ؛ وكأنما يشير بذلك إشارة قوية إلى أن (التكرير) صورة من صور (الإطناب) ولون من ألوانه . ثم إنّ مُجمل قوله هذا يشعر بأن صورة التكرير بين البيتين صورة عامة شاملة للفظ والمعنى بين البيتين . والأمر كذلك. والغرض البلاغي لهذا التكرير هو: التفظيع والتهويل والتشنيع.

- وقال شَهْل بن شيبان :

٥ - مَشَينا مِشيَةَ اللّيْثِ * غدا واللّيثُ غَضبانُ

بيّن المرزوقي مافي البيت من تكرار ؛ حيث كرّر الشاعر اسم (الليث) ، وعدل عن أن يأتي بضميره - والمقام مقام إضمار - رغبة فيما في التكرير ؛ بإظهار الاسم بتكريره مرةً أخرى من نكتة بلاغية توخّاها الشاعر ؛ وهي التفخيم والتهويل ؛ لأن المقام يستدعي ذلك التفخيم والتهويل . وفي ذلك يقول المرزوقي :

« كرّر (الليث) ، ولم يأت بضميره تفخيماً وتهويلاً ، وهم يفعلون ذلك في أسماء الأجناس والأعلام ؛ قال عديّ :

لاأرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا »[٤٤٥]

ونقل التبريزي هذا الكلام بنصه عن المرزوقي بتصرف يسير فيه ![٤٤٦].

وقد أحسن المرزوقي ؛ حين ذكر مصطلح (التكرير) ، وغرضه البلاغي دالاً بذلك على (الإطناب) ، وكأنما يشير بذلك أيضاً إلى حال من أحوال المسند إليه

---

(٤٤٤) أسرار الحماسة ٩٨ .

(٤٤٥) شرح ديوان الحماسة ١/٣٥ ، ٣٦ .

(٤٤٦) انظر : شرح ديوان الحماسة ١/٢٤ .

بخروجه على خلاف مقتضى الظاهر ؛ أعني بوضع الشاعر الاسم الظاهر موضع الضمير ؛ ومافي ذلك من نكتة بلاغية هي : طلب التفخيم والتهويل ؛ مراعاة لمقتضى المقام أيضاً ؛ كما راعاه الشاعر في مقام الإطناب بصورة التكرير طلباً لهذه النكتة البلاغية .

وكما أحسن المرزوقي في بيان ذلك أحسن في تقريره عن أسماء الأجناس والأعلام ؛ وأن مقامها مقام إطناب بصورة التكرير طلباً لغرض التفخيم والتهويل ، وأن من دأب العرب وسَمْتهم مع هذه الأسماء التكرير أحياناً طلباً لذلك الغرض البلاغي . وقد كان استشهاد المرزوقي على صنيع العرب بقول عدي في موضعه ؛ دلالةً وبلاغة .

- وقال منقذ الهلالي :

١- الدَّهرُ لاءَمَ بين أُلفتنا * وكذاكَ فرّق بيننا الدَّهرُ

٢- وكذاك يفعل في تَصرُّفهِ * والدَّهرُ ليس ينالُهُ وِتْرُ

تكرير لفظ (الدهر) في البيتين صورة من صور الإطناب ، وقد توخّى الشاعر من هذا الإطناب بهذا التكريرغرضاً بلاغياً ؛ هو التفخيم ؛ كما ذكره المرزوقي بقوله : « وكرّر لفظ الدهر تفخيماً »[٤٤٧] .

وأورد التبريزي عبارة المرزوقي هذه بنصّها ![٤٤٨].

- وقال آخر :

١- أيا ابنةَ عبدالله وابنةَ مالكٍ * ويابنةَ ذي البُردَينِ والفَرَسِ الوَرْدِ

٢- إذا ماصَنَعْتِ الزاد فالتمسي له * اكيلاً فإني لستُ آكِلَهُ وَحدي

حَسُن تكرير لفظة (ابنة) مرتين في البيت الأول مع أن المراد بها واحدة ليس غير ؛ وذلك لما خُصِّصتْ به كل مرة من مضاف إليه يختلف عنه في المرة

---

(٤٤٧) شرح ديوان الحماسة ١٠٥٢/٣ .

(٤٤٨) انظر "شرح ديوان الحماسة ٧٧/٣ .

الأخرى ؛ بمعنى أن اختلاف ما أُضيف إليها في كل مرة هو سبب تكريرها .

ولكن إذا كان ذلك هو المُسوِّغ الظاهري لتكرير (ابنة) أكثر من مرة فماذا عن النكتة البلاغية الكامنة وراء هذا التكرير وماغرض الشاعر الذي رامه في هذا التكرير وقصد إليه ؟ .

إنه التفخيم لأمر هذه المرأة والتعظيم لشأنها هو الغرض البلاغي الذي قصده الشاعر من وراء هذا التكرير . يقول المرزوقي في بيان المسوغ الظاهري الذي كان سبباً في تكرير هذا اللفظ ، وفي بيان النكتة البلاغية لهذا الإطناب بطريق التكرير : « حَسُنَ تكرير (ابنة) ، وإن كان المراد واحدة ؛ لاختلاف المضاف إليه ، والقصد إلى تفخيم أمرها وتعظيم شأنها . والذي يدل على أن المراد واحدة قولُه : (إذا ماصنَعتِ الزاد فالتمسي ...) »[٤٤٩] .

وساق التبريزي هذا الكلام بنصه بتصرف يسير جدا ![٤٥٠] .

ولقد أجاد المرزوقي في هذا الكلام الموجز الدقيق الذي كشف به عن المسوغ الظاهري اللغوي لتكرير ذلك اللفظ ، وفي إثباته الدليل على أن قصد الشاعر إلى امرأة واحدة بعينها ، كما أجاد في بيان الغرض البلاغي لهذا التكرير .

- وقال أبو صخر الهذلي :

١- أمَا والذي أبكى وأضحكَ والذي * أمات وأحيا والذي أمْرُهُ الأمْرُ

٢- لقد تركَتْني أحسدُ الوحشَ أن أرى * أليفين منها لايَرُوعُهُما الذُّعْرُ

أوضح المرزوقي أن غرض تكرير الشاعر للاسم الموصول (الذي) مع واو القسم في الأولى ، وواوي العطف مع الثانية والثالثة - كان لإفادة التفخيم والتهويل . وذكر المرزوقي أن هذا التكرير ليس بتكثير للأقسام ولكنه قسم واحد ؛ هو الأول . والآخران عطف عليه ؛ بدليل أنه أتى لها جميعاً بجواب قسم واحد ، ولو كانت كلها أقساماً للزم لها أجوبة مختلفة . ثم قارن ذلك بقول الله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلَّى . وماخلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتَّى ﴾

(٤٤٩) شرح ديوان الحماسة ١٦٦٨/٤ .

(٤٥٠) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٠٥/٤ .

وقال : إن هذه الآيات مثل ماورد في البيت ؛ من جهة أنها قسم واحد ، وليست أقساماً متعددة ؛ بدليل أن لها جواب قسم واحد ٠

ثم أشاد المرزوقي ببلاغة تكرير الاسم الموصول عند الشاعر ، بسبب مافي البيت من اختلاف الأفعال الداخلة في الصلات مما زاد كلام الشاعر في نظم بيته حُسناً ، وجعل تفخيمه بهذا التكرير أبلغ [٤٥١].

وقد أورد التبريزي كلام المرزوقي في هذا بنصه مع تصرف يسير ، وأسقط منه موازنة المرزوقي قول الشاعر بالآيات الكريمات ، كما أسقط منه كلامه الأخير في إشادته ببلاغة تكرير الاسم الموصول في البيت وفخامته نظراً لما ارتبط به من صلات مختلفة الأفعال ! [٤٥٢].

وقد جمع التبريزي بهذا الصنيع بين قبحين ؛ قبح المتابعة والتقليد ، دون أن يعزو إلى مَن أخذ عنه ، ودون أن يضيف شيئاً ، أو يُبيّن موقفه من ذلك ٠ وقبح الإسقاط لهذين النصين المهمين في موضوع الموازنة والاستشهاد بالآية ، وفيما يخص إطراء البيت وبلاغة التكرير فيه بما يستحقه ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي !٠

ونقل العبيدي كلام المرزوقي في ذلك بنصه أثناء شرحه البيتين بل نقل عنه كلامه كله في شرحهما ، دون أن يعزو إليه بذكر اسمه ، أو يضيف ، أو يتخذ موقفاً ما ! [٤٥٣].

وحذار أن يَظُنَّ ظانٌ أن المرزوقي كان يقصد بقوله : « ٠٠٠ على أن مافي البيت من اختلاف الأفعال الداخلة في الصلات جعل الكلام أحسن والتفخيم أبلغ » أنه كان يقصد إلى تفضيل البيت على الآيات الكريمات ؛ فقد يكون إيراده هذا الكلام بعد إيراده الآيات مباشرة ؛ حين قال إن هذه الآيات مثل ماورد في البيت ؛ قد يكون نظم كلام المرزوقي على هذا النسق موهماً أنه يريد المفاضلة في كلامه الأخير بين البيت والآيات ، أو أنه يرى فضل البيت على الآيات الكريمات في حسن الكلام وبلاغة التفخيم ٠ وهذا غير مرادٍ منه - رحمه الله - وإنما أورد الآيات الكريمات ليستدل بها

---

(٤٥١) انظر : شرح ديوان الحماسة ١٢٣١/٣ ٠

(٤٥٢) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٠٨/٣ ٠

(٤٥٣) انظر : شرح المضنون به على غير أهله ٢٣٣ ٠

ويستشهد على أنّ اليمين يمينٌ واحدة وإن تكررت ظاهراً بطريق العطف ؛ بدليل أن لهذه الآيات - كما للبيت - جواب قسم واحد ، ولو كانت أيماناً مختلفة لوجب أن يكون لها أجوبة مختلفة . على أن هناك أمراً لايمكن أن تقوم به مفاضلة بين الآيات والبيت بحال ؛ وهو أن مجال البيت مجال إطناب بصورة التكرير في الاسم الموصول، أما الآيات فلا مجال فيها للإطناب بطريق التكرير ؛ لا بالاسم الموصول ولابغيره ، ولابغير طريق التكرير أيضاً من طرق الإطناب ؛ فلا مجال إذن للمفاضلة بينهما .

وعلى هذا فتحمل صيغة التفضيل الواردة عند المرزوقي في نصه الآنف ذكره ؛ في قوله : (أحسن) و (أبلغ) ؛ يُحمل ذلك على تفضيل المبالغة العام دون مفاضلة بين أمرين ، مثل قولك مثلاً : (لو عملت كذا وكذا لكان الأمر أحسن أو أجود)، ونحو ذلك ، وأنت لاتقصد إلى التفضيل بين هذا الأمر وآخر بعينه ، وإنما تقصد أن هذه الحال مع ماحصل منك من عمل فيها تكون أحسن أو أجود مما لو لم يكن منك ذاك الصَّنيع . فمراد المرزوقي : أن ما أتى به الشاعر من أفعال مختلفة في صلات الاسم الموصول جعل كلامه أحسن وتفخيمه أبلغ مما لو لم يأت بتلك الأفعال المختلفة في صلات الموصول المكرّر .

فهذا باب من أبواب المفاضلة العامة ليست مرتبطة بمفضول آخر مُعيَّن جرى بينه وبين آخر بعينه مفاضلةٌ حقيقية . والمرزوقي أكيس - بتقواه وعلمه وأدبه وذوقه - من أن يقع في مثل هذه المغالطات في أمور واضحة بيّنة ، وبخاصة أنها تتصل بإعجاز القرآن الكريم ونظمه ، وهو ذو المواقف المُجلّة لفصاحة القرآن وبلاغته ونظمه !.

- وقال آخر :

ونُبِّئْتُ ليلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إليَّ فهلاّ نفسُ ليلى شفيعُها

بيّن العبيدي الغرض البلاغي لتكرير الشاعر اسم (ليلى) ؛ فقال :

« ... ولو قال : هلاّ نفسُها شفيعُها لكان أقرب في الاستعمال ، إلا أنه قصد إلى التفخيم بتكرير اسمها »[٤٥٤] .

---

(٤٥٤) شرح المضنون به على غير أهله ٢٣١ .

ولم يذكر مصطلح (الإطناب) على الرغم من أنه ذكر صورته ؛ وهي (التكرير) ، وذكر غرضه البلاغي ٠ ولكنه قد أحسن حين ذكر مصطلح (التكرير) ، ودل على غرضه البلاغي الذي قصد إليه الشاعر ؛ مما جعله يعدل عن الإضمار في مقامه إلى الإظهار في غير مقامه طلباً لهذه النكتة البلاغية ، وهي التفخيم بذكر اسمها مكرراً ٠

وعندي أن مقام الاستعتاب والعتاب واللوم والعذل الذي أشار إليه الشاعرفي هذا البيت والذي بعده ؛ هذا المقام يشير إلى مقام التفخيم الذي جعله العبيدي غرضاً بلاغياً لتكرير الشاعر اسم (ليلى) ٠

ولكن هناك مطلباً آخر ونكتة أخرى أرى أنها كانت غرضاً للشاعر من ترديده اسم حبيبته وتكريره ، وهو غرض الاستطابة بذكر اسم محبوبته والاستعذاب له والتشوق إليه ، فهذا الغرض هو عِدْل غرض التفخيم إن لم يَفُقْه ؛ بدليل تكراره هذا الاسم مرة أخرى في البيت الذي بعده ؛ حيث قال :

أأكرمُ من ليلى عليَّ فتبتغي * به الجاه أم كنتُ امرءاً لا أُطيعُها

فكرر اسم محبوبته ، مع أن المقام لايقتضي التكرار ، بل الإضمار بأن يقول : (أ أكرم منها) ؛ وذلك لأمرين : لأنه سبق ذكر الاسم قبل مرتين فلا داعي للإظهار مرة ثالثة ٠ والأمر الآخر : أن المقام مقام تقريع وإنكار يفيده الاستفهام التقريعي الإنكاري الذي صدّر به مطلع هذا البيت ، ومقام التقريع والإنكار يقتضي الإضمار، ولايناسبه الإظهار لغرض التفخيم والتعظيم الذي قال به العبيدي ٠ وهذا مما يؤكد أن غرض الشاعر من تكرير اسم محبوبته لم يكن لغرض التفخيم بقدر ماهو لغرض طلب الاستطابة بذكر الاسم والاستعذاب له والتشوّق إليه ، مع أن المقام مقام عتاب واستعتاب ومقام تقريع وإنكار؛ لكن عمايات الحب وضلالاته لا تعرف كيفية التعامل مع تلك المقامات بما يناسبها ، ولكنها تنساق مع غيّها وضلالها عند أدنى مناسبة يلوح فيها الحب والحبيب ، استطابة لذكره واستعذاباً وتشوقاً إليه ، وتنسى قلوبهم التي طُبع عليها بِرَيْنِ الهوى والحب كلَّ ماحصل من عتاب وتدابر ! ٠

- وقال ذو الإصبع العدواني :

١ - يا مَنْ لقلبٍ طويل الهمِّ محزونِ * أمسى تذكَّرَ ريَّا أمَّ هارون

٣- أمسى تذكَرها مَنْ بعدِما شَحَطَتْ * والدَّهرُ ذو غِلظةٍ حيناً وذو لينِ

قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - في بيان المعنى العام للبيتين ، وفي بيان نكتة التكرار فيهما :

« ... والمراد : مَنْ يُعين قلباً أو على قلب بهذه الصفة ؟ ... ... ، أي : الدهر لايدوم على حال . وكرّر (أمسى تذكرها) استطابة لذكرها على بعدها »[٤٥٥] .

ولم يتطرق الأنباري لشرح هذين البيتين ؛ ذلك لأنهما لم يكونا ضمن قصيدة ذي الإصبع التي رواها أبو عكرمة . وإن كان الأنباري ساق البيتين ضمن قصيدة أخرى لذي الأصبع ، لكنه لم يشرح القصيدة[٤٥٦] .

والشاعر وإن لم يذكر اسم محبوبته في البيت الثاني باسمها الصريح الذي ذكره في البيت الأول إلا أنه قد أشار إلى اسمها بما يكاد أن يغني عن ذكرها صراحة ؛ فضمير التأنيث المرتبط بالمصدر ؛ وهو (تذكرها) راجع إليها ودالٌّ عليها وإن لم يصرح به ، صحيح أنه أضمر في موضع الإضمار مراعاة لمقام السياق حيث سبق الإظهار ، ولم يظهر مراعاة لمقام الإطناب بصورة التكرير ، لكن إعادة الفعل ، مع المصدر ، مع ضمير التأنيث العائد إلى الاسم المقصود وتكريره في البيت الثاني دل على مصطلح (الإطناب) بصورة (التكرير) ، ومما لاشك فيه أنه لو أعاد مع الفعل والمصدر الاسم الظاهر الصريح ؛ بأن قال : (أمسى تذكر ريّا) لكان ذلك أولى وأجدر في صراحة التكرير ، وقوة دلالته وتأثيره ، ولكنه اكتفى بإعادة الفعل والمصدر ، واكتفى من الاسم بما يشير إليه ؛ وهو الضمير العائد على الاسم الظاهر ، وفي هذا بعض توهين للفظ المكرّر وقصور في بلاغته عن الحدّ المطلوب الذي يدل عليه التكرير الصريح الكامل .

---

(٤٥٥) شرح اختيارات المفضل ٧٤٦/٢ ، وحاشيتها .

(٤٥٦) انظر : شرح المفضليات ٣٢٥ . وقد ساق الأنباري البيتين ضمن قصيدة أخرى لذي الأصبع العدواني بلغت (٣٦) بيتاً ، تضمنت بعض أبيات هذه القصيدة التي وردت عنده ، وبلغت أبياتها (١٨) بيتاً فقط ، وقد رواها مع شرحها قبل أن يسوق القصيدة البالغة (٣٦) بيتاً والتي ساقها سوقاً مجرداً دون شرح، ورواها عن أحمد بن عبيدعن غير أبي عكرمة ، دون أن يسندها إلى المفضل ، ولعل هذا سبب عدم شرحه لها . وقد بلغت القصيدة في رواية التبريزي (٣٧) بيتاً .

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي في ذكر بلاغة التكرير عند الشاعر وبيان نكتته التي دلّ عليها التكرير ، وقصد الشاعر إليها ؛ وهي : استطابة الذكر أو التذكر على البعد والاستعذاب لاسمها والتشوق إليه .

ونكتة (استطابة الذكر) هي نكتة (الاستعذاب والتشوّق) التي عدّها البلاغيون في جملة النكت البلاغية لصورة التكرير في فن (الإطناب) . وقد عاب ابن رشيق ماجاء من التكرير باللفظ والمعنى وعدّه قبحاً ، بل وصفه بأنه الخذلان بعينه إلا ماجاء منه لتحقيق نكتة بلاغية ؛ كأن يكرر الشاعر اسماً على جهة التّشوُّق والاستعذاب ، ومثّل له بقول قيس بن ذريح :

ألا ليتَ لُبْنى لـم تكـن ليَ خلّةً * ولم تلقني لُبْنى ولم أدْرِ ماهيا[٤٥٧]

قال ابن سنان الخفاجي :

« ... وأجاز لنا في بعض الأيام شيخُنا أبو العلاء بن سليمان قول الشاعر :

ألا طَرقَتْنا بعدما هجعوا هِنْدُ * وقد سِرْنَ خمساً واتْلأبَّ بنا نَجْدُ

ألا حبذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ * وهندٌ أتى من دونها النّأْيُ والبُعْدُ

وقال : من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيباً ، ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة فلم ير من الاعتذار للتكرير إلا هذا العذر »[٤٥٨] .

ومن التكرار المقبول المستساغ على هذا الوجه البلاغي ؛ أعني جهة التشوق والاستعذاب والتلذذ والاستطابة للمذكور قول الآخر :

بالله ياظبيات القـاع قلن لنا * ليلايَ منكُنْ أم ليلى من البَشَرِ

ومما لاشك فيه أنه يدخل في باب الإعذار للتكرير على سبيل الاستحسان له طريقاً من طرق الإطناب وصورة من صوره ؛ على جهة التشوق والاستعذاب والاستطابة والتلذذ بذكره - يدخل في هذا الباب من أبواب التكرير لتحقيق هذا الغرض البلاغي كلُّ مايُعذَر المرء بتكراره ؛ لحبّه إياه وتشوّقه إليه سواء في الغزل والنسيب أو في غيره ؛ كتكرار ذكر الله سبحانه تعالى وحمده والصلاة على رسوله - عليه الصلاة والسلام - وذكر صحابته - رضوان الله عنهم - ، وصالحي الأمة

---

(٤٥٧) انظر : العمدة ٢/٧٣ ، ٧٤ .

(٤٥٨) سر الفصاحة ٩٣ .

وأخيارها ، وكل مَنْ بينك وبينه مودة في سبيل الحبّ في الله ، وحبّ رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن يجمعك وإياه طريق الجهاد في سبيل الله تعالى رغبةً فيما عنده سبحانه ، وما أعدّه للمجاهدين في سبيل الله ابتغاء مرضاته . فليس الإطناب بطريق التكرير لتحقيق غرض الاستطابة للمذكور واستعذاب اسمه والتشوّق إليه والتلذذ بذكره مقصوراً على مجال التكرير في باب الغزل وما إليه مما يطبع على القلوب ، ويَسِمها بمِيسَم الرَّين والصدود عن ذكر الله ، والانسياق وراء الشهوات البهيمية التي لاتزيد من الله إلا بعداً ، ولامن الحياء إلا نفرة ، ولامن الرجولة إلا لؤماً ولامن الخير وجمال الخُلُق والتهذيب إلا صدوداً وإعراضاً ومقتاً وغُربَةً ! .

- وقال آخر :

٢- ومالـــيَ مِـــن ذنبٍ إليهـــمْ علمتُهُ * سوى انني قد قلتُ ياسرحةُ اسلَمي

٣- نعم فاسلَمي ثمّ اسلمـــي ثُمّتَ اسلمي * ثـــلاثَ تحيّاتٍ وإن لم تكلّمـــي

غرض تكرار التحية بقوله : (اسلمي) ثلاث مرات في البيت الثاني - زيادة على ماورد من هذه التحية مرة واحدة في البيت الأول - التلطّف إلى الحبيبة والتّودُّد في التحية والدعاء . ففي هذا التكرار مع توكيده بقوله : (ثلاث تحيات) إطناب ظاهر بطريق (التكرير) . ومما جعل التكرير هنا محموداً تميُّزه بنكتة بلاغية اقتضاها المقام ودعتْ إليها قرينة الحال ؛ إذْ إن الشاعر أراد بهذا التكرير إثبات الإقرار أو التقرير على نفسه بما قال ، وأنه لايتنصّل عن قوله التحية ؛ لأنها ليست جُرماً يُجرم به ؛ فأراد أن يُقرَّ لهم بذلك ، وأن يقرره على نفسه وأن يؤكدّه كذلك بتكريره ثلاث مرات ، وبقوله نُطْقاً بعد ذلك : (ثلاث تحيّات) .

وللشاعر أيضاً غرض بلاغي آخر من هذا التكرير بعد غرض التلطف والتودد ، والتقرير والتوكيد ؛ هو إرادته إغاظة أولئك القوم من أهل هذه المرأة ومناكدتهم في ذلك . فإغاظة الشاعر لهؤلاء ومناكدتهم مطلب بلاغي أصيل للشاعر بعد أن تمّتْ له المطالب البلاغية الأوّليّة ؛ من التلطّف والتّودّد ، والتقرير ، والتوكيد .

وقد أشار المرزوقي إلى ذلك إشارة موجزة في بيانه مراد الشاعر في البيت الثالث : « ... وكان جعل (سرحة) - وهي شجرة - كناية عن امرأة فيهم . نعم

قد قلتُ وأقولهُ مكرّراً : اسلمي اسلمي ؛ يُغايظهم ويناكدهم بهذا المقال »[٤٥٩] .

أما التبريزي فلم يرد عنه شيء يتصل بمبحث الإطناب بصورة التكرير عند الشاعر ، مع أنه نقل أكثر شرح البيتين عن المرزوقي ![٤٦٠].

- وقال آخر :

إيّاكَ إيّاكَ أن ترجُو امرءاً حَسُنَتْ * أحوالهُ بعد ضُرٍّ كان قاساهُ

أوضح العبيدي أن غرض الشاعر من تكريره لفظ التحذير المسند إلى كاف المخاطب ؛ (إياك) - هو التوكيد لغرض التقرير ؛ قال : « كرّر (إياك) هنا توكيداً للتقرير »[٤٦١] .

وغرض التوكيد مستفاد من تكرير اللفظ بذاته اعتناءً به ، لكن غرض التوكيد هنا ليس هو الغرض البلاغي بعينه الذي قصد إليه الشاعر ، وإنما هو تمهيد أراد أن يتوصل به إلى توكيد غرض آخر ؛ هو غرض (التقرير) ؛ فمراد الشاعر أن يؤكّد في نفس المتلقي هذا المعنى الذين حذّره منه وأن يقرره في نفسه وعقله .

- وقال الفضل بن العباس :

١- مَهْلاً بني عَمّنا مَهْلاً موالينا * لاتَنْبُشوا بيننا ماكان مدفونا

٣- مهلاً بني عمّنا عن نَحْتِ أثلَتِنا * سيروا رويداً كما كنتم تَسيرونا

تكلم المرزوقي على مافي البيت الأول من تكرار في قوله : (مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا) مُبيّناً مافي هذا التكرير من أوجه بلاغية أرادها الشاعر غرضاً من وراء هذا التكرير ؛ وهذه الأوجه هي :

إرادة التوكيد . وهذا وجه أصيل ، لأنه غرض بلاغي لكل تكرير لفظي .

والوجه البلاغي الآخر المحتمل هو : غرض التهكم والتحقير أو السخرية .

أما الوجه البلاغي الأخير لهذا التكرير فهو الاسترفاق والتّلطّف احتيالاً لكسب مأرب أو حاجة مُلِمّة . قال المرزوقي في توضيح ذلك :

---

(٤٥٩) شرح ديوان الحماسة ١٣٧٥/٣ .
(٤٦٠) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣١٤/٣ .
(٤٦١) شرح المضنون به على غير أهله ٤٩٨ .

« يقول : رِفقاً يابني عمّنا ، رفقاً موالينا . وهذا التكرار يريد به التأكيد . ويجوز أن يكون هذا الكلام تهكُّماً . ويجوز أن يكون رآهم ابتدؤا في أمر لم يأمن معه من تفاقم الشأن ، واستفحال الخطب مالايقدر على تلافيه فاسترفقهم لذلك »[٤٦٢] .

أما البيت الآخر فأورد المرزوقي عن بعضهم روايةً أخرى لمصراعه الثاني يتحقق فيها التكرير ، وحَمَل الغرض البلاغي فيه على إرادة التوكيد والتُّوعُّد . قال في آخر شرحه هذا البيت :

« ... وروى بعضهم بدلاً من المصراع الثاني :

* مَهْلاً بني عمّنا مهلاً موالينا *

ويحمل التكرار فيه على أنه توعُّدٌ وتأكيد »[٤٦٣] .

وعلى هذا يكون هذا المصراع الثاني من هذا البيت موافقاً للمصراع الأول من البيت الأول ، ويكون القسيم الأول من المصراع الثاني من البيت الثاني تكريراً للقسيم الأول من المصراع الأول منه ، ولعل في هذا التكرير مايُعزّز إرادة غرض التوكيد لغرض التوعّد ؛ إذ التكرار إذا كثر ودلّ السياق وقرائن الحال على مايوحي بالتوعّد والتهديد - كما هو الحال هنا - كان ذلك أقوى في الدلالة على غرض التوكيد على غرض التوعد والتهديد ، وقد قال المرزوقي في صدر شرح البيت الثاني : « هذا الكلام فيه تهكّم ؛ فيقول : رفقاً يابني عمّنا عن تَلّبنا ، والوقوع فينا... »[٤٦٤] .

ولقد أحسن المرزوقي جداً في بحث فنّ (الإطناب) بصورة (التكرير) وطريقه عند الشاعر في هذين البيتين ، حتى جاء بحثه صورة (التكرير) المتكررة في هذين البيتين بحثاً غنياً بالوقفات وبيان وجوه النكات البلاغية التي قلّب المرزوقي احتمالات إرادة الشاعر إياها ؛ من توكيد ، إلى تهكم ، إلى استرفاق وتلّطف ، إلى تهكم آخر - في صورة التكرير في مطلع البيت الثاني - ، إلى توكيد على غرض التوعّد والتهديد. وإذا تأملت في هذه الأوجه البلاغية مجتمعة لصور التكرير عند الشاعر وجدتها لاتخرج في مضمونها عن إرادة غرض التوكيد على غرض (التهكم والتحقير) من

---

(٤٦٢) شرح ديوان الحماسة ٢٢٤/١ .
(٤٦٣) شرح ديوان الحماسة ٢٢٥/١ .
(٤٦٤) شرح ديوان الحماسة ٢٢٥/١ .

أجل غرض (التوعّد والتهديد) في آخر الأمر عند الشاعر ، وماعدا ذلك ؛ أعني غرض الاسترفاق والتلطُّف فهو غرض ثانوي جاء به عَرَضاً في أثناء الكلام وتصريف الشاعر لنظم شعره استجابة لتجربته الشعورية في مرحلة من مراحل مداولاته مع أبناء عمه ومحاولاته إلى السّعي إلى التصالح والمصالحة ؛ لِمَا رآه من بوادر الشر التي لايستطيع ردّها أو تلافيها فمال إلى الاسترفاق وطلب التعطف والتلطف ؛ قضاءً لحق الرحم ودَرْءاً لما يراه من ناجذ الشّرّ الذي بدا ولاح ٠

ونقل التبريزي كلام المرزوقي الأول الذي بيّن فيه الأوجه البلاغية الثلاثة المحتملة لتكرير الشاعر في البيت الأول ؛ نقله بتصرف يسير دون أن يشير إلى ما أورده المرزوقي في البيت الثاني ؛ من اختلاف في الرواية لمصراعه الثاني والذي يكون به تكرير لغرض التوعّد والتهديد ؛ كما سبق بيانه عند المرزوقي آنفا ![٤٦٥]٠

- قال المثقّب العبدي :

٣٦- أكُلَّ الدّهرِ حِلٌّ وارتحالٌ ؟ * أما يُبْقي عليّ ولايَقيني

يرى التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن الألف في قوله : (أكل ٠٠) ألف الاستفهام ، ومعنى الاستفهام فيه وغرضه (التعجّب والتقريع) ، وأن قوله : (ولايقيني) على تقدير ألف استفهام محذوفة ، وتقدير الكلام : (وألا يقيني) ٠ كما يرى أن تكرير الاستفهام في البيت - وذلك بصورتيه الظاهرتين ؛ وهما (أكل ٠٠) و (أما ٠٠) ، وبصورته المضمرة المقدّرة بعد حذف على تقدير العطف ؛ في قوله : (ولايقيني ؛ وألا يقيني) - ؛ يرى أن هذا التكرير لصور الاستفهام عند الشاعر إنما جاء لتحقيق غرض بلاغي ؛ هو : (المبالغة في التعجب) ٠ قال التبريزي : « ٠٠٠ والألف : لفظه استفهام ومعناه (التعجب والتقريع) ٠ وقوله : (أما يُبقي عليّ ولايقيني) يريد : وألا يقيني ؛ فحذف ألف الاستفهام من (ولايقيني) ٠ والتكرير في الكلام بلفظ الاستفهام مبالغة في التعجب »[٤٦٦]٠

---

(٤٦٥) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٢٣/١ ٠

(٤٦٦) انظر : شرح اختيارات المفضل ١٢٦٤/٣ ٠ وحاشيتها ٠ وقد علّق محقق الشرح على قول التبريزي : « يريد : (وألا يقيني » بقوله : « كذا بتقديم الواو على همزة الاستفهام ، وأدوات الاستفهام لها الصدارة » وقد وثّق المحقق استدراكه من الخصائص لابن جني ٠ وكأن الصحيح - على هذا - أن يقول : (أوَ لايقيني) ٠

وهذا الإطناب بصورة التكرير الذي تكلم عليه المرزوقي والتبريزي آنفاً من نوع آخر فيه دقة ، فلم يكن لفظةً أو أكثر تتكرر أكثر من مرة بحيث يُرى الإطناب بطريق التكرير فيه واضحاً ، ويُعلم ظاهراً ، لكنه هنا بحرف ؛ هو همزة الاستفهام التي تكررت ودلّت على معنى الاستفهام المتكرّر ؛ فتكرّر معناه وغرضه لتحقيق غرض بلاغي أراده الشاعر . والفطنة إلى مثل هذا النوع من الإطناب بمثل هذه الصورة من التكرير يدل على دقة نظر ولطافة حسٍّ وحسن تقدير ، يضاف إلى ذلك ماكان من جودة في تأمل معنى صورة هذا التكرير بطريق الاستفهام ، والتحقيق في غرضه البلاغي ؛ على النحو المتميّز الذي سبق بيانه عند المرزوقي فيما نقله التبريزي عنه ! .

وهذا مالم يكن عند الأنباري الذي لم يشرح هذا البيت البتة ، فكيف يُنتظَر منه أن يذكر شيئاً عن هذا الاستفهام ، أو تكريره ، أو غرضه البلاغي ؟ ! [٤٦٧].

- وقال علقمة بن عبدة :

٥- فلا تعدلي بيني وبين مُغمَّرٍ * سَقَتْكِ روايا المُزْنِ حين تَصوبُ

٦- سقاكِ يَمانٍ ذو حَبيٍّ وعارِضٌ * تروحُ به جِنْحَ العشيِّ جَنوبُ

بيّن التبريزي السر البلاغي للإطناب بطريق التكرير في قول الشاعر ؛ حين كرّر لفظ السُّقْيا على سبيل الدعاء ؛ حيث قال : (سقاكِ) بعد قوله أولاً : (سقتكِ) موضحاً أن الغرض البلاغي من هذا التكرير إنما هو لطلب الاستدامة للسقيا والتوكيد لهذا الطلب بذلك الدعاء المكرّر .

قال التبريزي نقلا عن المرزوقي الذي نقل عنه شرح البيت كله :

« قال مكرراً (سقاكِ) استدامةً للسُّقيا ، وتأكيداً للدعاء » [٤٦٨] .

ولم يتطرق الأنباري لذكر صورة التكرير عند الشاعر وبيان مافيه من نكتة بلاغية ! [٤٦٩].

---

(٤٦٧) انظر : شرح المفضليات ٥٨٦ .

(٤٦٨) شرح اختيارات المفضل ١٥٨٠/٣ ، وحاشيتها .

(٤٦٩) انظر : شرح المفضليات ٧٦٩ - ٧٧٢ .

ولقد جمع الإطناب بصورة التكرير هنا - كما أوضح المرزوقي وأحسن - بين غرضين بلاغيين رامهما الشاعر في تكريره الدعاء بالسُّقيا ؛ وهما : طلب استدامة هذه السقيا ، والتوكيد لهذا الدعاء باستدامة هذه السقيا . مع أنّ غرض التوكيد غرض بلاغي أصيل في كل تكرير لفظي .

د - التّذييـــل :

- قال المرقش الأصغر :

١٧ - افاطِمُ إنّ الحبَّ يعفو عن القِلى * ويَجْشِمُ ذا العرض الكريم المجَاشِما

معنى يعفو : يكثر . وقد أراد الشاعر : إن الحب يكثر ويزداد تمكناً في القلب عند المنع والجفاء ؛ لأن المُحبَّ إذا علم بجفاء محبوبه إياه وزهده فيه ازداد كَلَفاً به وتعلقا .

هذا معنى ما أورده التبريزي عن المرزوقي في شرح معنى البيت (٤٧٠).

وزيادة في تقريب المعنى وربطه بما يماثله أردف التبريزي - عن المرزوقي - القول ؛ فقال :

« ... لذلك قيل فيما يجري مجرى المثل :

* أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ مامُنِعا * » (٤٧١)

وقد وقع شطر البيت المستشهد به مصراعاً ثانياً لبيت يتفق في معناه اتفاقاً قوياً مع مراد الشاعر المرقش الأصغر في بيته هذا .وصدر البيت المستشهد به قوله :

* وزادَني كَلَفاً في الحبِّ أنْ مَنَعَتْ *

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي الاستشهاد به ، وبخاصة أن شطره الثاني الذي أورده يقع من شطره الأول تذييلاً جارياً مجرى المثل . وهما وإن لم يَنُصَّا على مصطلح (التذييل) الجاري مجرى المثل فقد ذكرا أن هذا الشطر مما يجري مجرى المثل . ومن المعروف أن (التذييل) أحد صور الإطناب وطرقه . ومنه : تذييل جارٍ

---

(٤٧٠) انظر : شرح اختيارات المفضل ١١٠٢/٢ ، وحاشيتها .

(٤٧١) شرح اختيارات المفضل ١١٠٢/٢ ، وحاشيتها ، ١١٠٣ . قال المحقق : « والرواية المشهورة : (وحبُّ شيءٍ) ، وهو عجز بيت للأحوص صدره :

* وزادني كَلَفاً في الحبِّ أنْ مَنَعَتْ * » .

مجرى المثل . ومنه : تذييل لايجري مجرى المثل . وحَدُّ (التَّذييل) : أن تُعقَّب الجملة بجملة تشتمل على معناها لغرض التوكيد . فإن استقلَّتْ الجملة الثانية بإفادة المراد ، ولم تتوقف أو ترتبط في تلك الإفادة على الجملة الأولى فهو من التذييل الجاري مجرى المثل وإلا فهو من التذييل الذي لايجري مجرى المثل[٤٧٢].

ولم يرو الأنباري بيت المرقش الأصغر في شرحه ديوان المفضليات ؛ ولذلك لم يكن له نصيب في بحث الإطناب بصورة (التذييل) ؛ على نحو ماتمّ عند المرزوقي والتبريــزي آنفـا ![٤٧٣].

- وقال سُبَيع بن الخطيم التَّيْميّ :

٣- واستَبْدلَتْ غيري وفارق أهلُها * إنّ الغنيَّ على الفقير عَنيفُ

قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - في بيان مافي البيت من إطناب بطريق التذييل الجاري مجرى المثل الذي استقلّ به المصراع الثاني من البيت :

« ... وقوله : (إنّ الغنيّ على الفقير عنيف) رمى به مرمى الأمثال »[٤٧٤] .

وقولـه عـن هذا المصراع إنّ الشاعر رمى به مرمى الأمثال إشارة إلى صورة (التذييل) الجاري مجرى المثل ؛ أحد صور (الإطناب) وطرقه المعروفة . وهو وإن لم ينص على مصطلح (التذييل) أو (الإطناب) فإن ذلك معلوم بطريق الإشارة بقوله عنه : رمى به مرمى الأمثال أو مما يجري مجرى الأمثال ؛ على نحو ماسبق بيانه في النموذج الذي قبل هذا النموذج في بيت المرقش الأصغر.

ولم يشر الأنباري إلى مافي البيت من تذييل جارٍ مجرى المثل ، بل لم يشرح البيت ألبتة ![٤٧٥].

- وقال ابن زيّابة :

٣- أنا ابنُ زيّابةَ إن تَدْعُني * آتِكَ والظَّنُّ على الكاذبِ

---

(٤٧٢) انظر في عدّ صورة (التذييل) من صور الإطناب وفي حدّه وصورتيه : الإيضاح ٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٤٧٣) انظر : شرح المفضليات ٤٩٩ - ٥٠٣ . وقد روى بدلاً منه قوله :

١٧- أفاطمَ لو أنّ النساءَ ببلدةٍ * وأنتِ بأخرى لاتَّبَعْتُكِ هائما

(٤٧٤) شرح اختيارات المفضل ١٥٢٢/٣ ، وحاشيتها .

(٤٧٥) انظر : شرح المفضليات ٧٢٧ .

قال المرزوقي : « قوله : (والظن على الكاذب) يجري مجرى الأمثال ، ويكون مبنياً على ماقال لبيد ؛ وهو :

واكْذِبِ النفسَ إذا حدَّثْتَها * إنّ صدْقَ النفسِ يُزْري بالأمَلْ

والمعنى : كلٌّ منا يُحدّث نفسه ويَكذِبها ، ثم الظّنٌّ على مَن لايتحقق أمَلُه .

ويجوز أن يريد : أنا المعروف المشهور إن دعوتني لمبارزتكَ جئتُك ، فإن كنت تظن غير هذا فظنُّك عليك ؛ لأنك تكْذِبُ نفسك فيما تتوّهمه من قعودي عنك ، أو نُكولي عن الإقدام عليك . ويجوز أن يكون المعنى : إن تَدْعُني أجِبْك ، فإن ظننت أن تكون الغالب فظنك عليك ؛ لأنك تكْذِب نفسك »[٤٧٦] .

ولم يشر التبريزي في تفسيره لهذا البيت إلى مايجري مجرى الأمثال فيه ![٤٧٧].

وبيان المرزوقي لهذا المعنى المراد عند الشاعر في قوله : (والظن علي الكاذب) بهذه المضامين المتعددة بيان صحيح ؛ لأنه لاتنافر بين هذه التفسيرات في المعنى أو الفكرة ، فكلٌّ منها يُؤيّد الآخر ، وكلها تفسيرات مقبولة وصحيحة لقوله : (والظّنّ علي الكاذب) الجاري مجرى الأمثال .

والشاعر تأثر بهذا القول بطريقة لبيد - كما يقول المرزوقي - ؛ فقد بنى تركيبه في هذه الجملة الجارية مجرى الأمثال على ماقال لبيد ؛ فاتكأ على معناه واسترشد بقوله ؛ حين نقله من غرض الحكمة والنصح في بيت لبيد إلى عبارة محكمة أشبهت المثل في حبكها وإحكامها وسيرورتها وتأثيرها ؛ حتى قيل عنها : إنها مما يجري مجرى الأمثال .

وعلى هذا فقوله : (والظن على الكاذب) من (الإطناب) بصورة (التذييل) الجاري مجرى المثل ، وقد جاء به الشاعر ابن زيّابة هنا لتحقيق غرض بلاغي قصد إليه هو : غرض التوكيد ، وإثبات صدق مايدّعيه .

---

(٤٧٦) شرح ديوان الحماسة ١/١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٧٧) انظر : شرح ديوان الحماسة ١/١٤٣ .

هـ - التتمـــــيم :

ومن صـور الإطناب وطرقـه مـايسمّى (التتـمـيم) ؛ وهو« أن يؤتـى في كـلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة »[٤٧٨] .

والفـرق بينه وبين (التكمـيل) أو (الاحتـراس) : أن التكمـيل أو الاحتـراس «يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه »[٤٧٩] .

فالفرق بينهما من جهتين :

الأولى : أن التكميل أو الاحتراس يأتي في كلام موهم خلاف المراد .

والأخرى : أن التكميل أو الاحتراس ليس فضلة لإفادة نكتة بلاغية ، وإنما هو عمدةٌ في الكلام وأصل فيه هو أشبه بالضرورة ؛ لأنه يدفع به إيهام خلاف المقصود المخل بالمعنى وبتركيب الكلام ونظمه . بينما الأمر في التتميم على خلاف ذلك ؛ فهو يقع في كلام هو في أصله وطبيعة نظمه وتركيبه غير موهم خلاف المراد ؛ لذلك فالتتميم فضلة يمكن الاستغناء عنها ، ولكنها حَسُنَتْ بحسن موقعها في الكلام ، وإفادتها فيه نكتة بلاغية .

وبعد أن عرفت حدّ كل من (التتميم) و (التكميل) ، والفرق بينهما ، فإليك ما وُجد من نماذج الإطناب بصورة التتميم في شروح الاختيارات الشعرية ، وطبيعة دراسة الشراح لصورة التتميم :

- قال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري :

١٧ - هل أبْذل المالَ على حُبّه * فيهم وآتي دعوةَ الداعي

لم يزد الأنباري في شرح البيت على أن بيّن مراد الشاعر ، ثم استشهد بقول الله تعالى : ﴿ .. وآتى المال على حبّه ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[٤٨٠].

ومثل هذا الاستشهاد في محلّه ؛ من حيث تعزيزه معنى قول الشاعر : (هل

---

(٤٧٨) الإيضاح ٣١٣ .

(٤٧٩) الإيضاح ٣١٠ .

(٤٨٠) انظر : شرح المفضليات ٥٧١ .

أبذل المال على حبه) . وكأن الأنباري أراد بهذا الاستشهاد أن يشير إشارة غير صريحة إلى تأثّر الشاعر في قوله هذا بالقرآن الكريم واقتباسه منه .

غير أن البيت ، وماذكر من آيات كريمة أقرب إلى صورة (التتميم) ؛ إحدى صور الإطناب وطرقه منه إلى فن الاقتباس - أحد فنون البديع اللفظي - ؛ ذلك أن الشاعر أتى في كلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة بلاغية يستقيم الكلام بدونها ، ولاتدفع إيهاماً يخل بالمعنى ونظم الكلام ، وهذه النكتة التي أفادتها هذه الفضلة في هذا التتميم عند الشاعر - وفي الآيات المُستَشهَد بها - هي : القصد إلى إرادة المبالغة في الجود والإنفاق على المحتاجين ؛ ذلك ما أفادته فضلة صورة التتميم عند الشاعر في قوله : (على حبه) وفي الآية الأولى ، وقوله : (مما تحبون) في الآية الثانية .

أما التبريزي فلم يستشهد بأيٍّ من الآيتين ؛ لا على وجه الإشارة إلى فن الاقتباس لدى الشاعر ، ولاعلى وجه آخر غيره . إنه لم يزد على أن قال نقلاً عن الأنباري :

« ... يقول : أبذله على حبّي إياه وحاجتي إليه ، وإنما يريد : في صعوبةٍ ووقت الشحّ بالمال »[٦٨١] .

- وقال تأبّط شراً :

١٧ - بادَرْتُ مُنْتَهَا صَحْبِي وماكَسلوا * حتى نَمَيْتُ إليها بعد إشراقِ

قال الأنباري مبيناً مراد الشاعر بقوله : (وماكسلوا) ، ومافيه من معنى لطيف بديع :

« ... قوله : (وماكسلوا) يريد : أنه سبقهم وهم على جدّ ، وهو أمدح لهم »[٤٨٢] .

وهذا من النقد اللغوي الذي بيّن فيه الأنباري ما انطوى عليه من خاصّة أسلوبية وسرٍّ بلاغي.لكن مضمون هذا السرّ البلاغي الذي كشف عنه الأنباري يشير

(٤٨١) شرح اختيارات المفضل ١٢٤٢/٣ ، وانظر : شرح المفضليات ٥٧١ .

(٤٨٢) شرح المفضليات ١٧ . وقد ذكر الأنباري أن الرواية المشهورة التي عليها الرواة أتتْ بلفظ : (قبل إشراق) .

إلى ماعُرف عند البلاغيين بصورة (التتميم) إحدى طرق الإطناب ؛ فقد أتى الشاعر هنا في كلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة بلاغية . وغرضه البلاغي من هذه الفضلة :أن يبالغ في افتخاره وتمدُّحه ؛ حين أثبت فضل فتوَّته وقوته وصبره وجلده !.

ولم يذكر التبريزي أثناء شرحه البيت شيئاً يشير إلى هذا (الإطناب) بصورة (التتميم) ، على النحو الذي سبق بيانه ! [٤٨٣].

- وقال أبو حنش الهلالي في يعقوب بن داود وزير المهدي :

١ - يعقوبُ لاتَبْعَدْ وجُنِّبْتَ الرَّدى * فَلَنَبْكِينَّ زمانكَ الرَّطبَ الثَّرى

قال المرزوقي في بيان مافي البيت من إطناب بصورة التتميم ؛ وذلك في قوله : (وجنبت الردى) :

« لم يرض بالجري على عادة الناس في قولهم عند المصاب : (لاتبعد) حتى زاد عليه : (وجُنِّبتَ الردى) ليكون الكلام أدلَّ على التوجُّع ، وأوفى بالتنبيه على حاجة الناس إلى بقاء المتوفَّى » [٤٨٤].

والمرزوقي وإن لم يصرح بمصطلح (الإطناب) أو بمصطلح (التتميم) - شأنه في ذلك ماسبق بحثه من نماذج في التتميم عند الأنباري والتبريزي ، أو نماذج (التذييل) عنده وعند الأنباري - فإنه قد أشار إلى صورة (التتميم) في البيت إشارة قوية في كلامه الذي بيَّن فيه مراد الشاعر في هذه الجملة الدعائية التي يفهم منها أنها فضلة أتى بها في كلام لايحتاج إليها ؛ لأنه غير موهم بخلاف المقصود ، وإنما أتى بهذه الفضلة زيادة في تتميم المعنى المراد عند الشاعر ومبالغة في توكيد غرض الشاعر في الرثاء والدعاء للمتوفى ، والثناء عليه بما أسداه من فضل ومعروف. وهذا الغرض المراد هو نكتة الإتيان بهذه الفضلة في هذا الكلام الذي لو وقف فيه على قوله مما اعتاده الناس : (لاتبعد) لما قصَّر في حق مرثيِّه ، لكنه أراد المبالغة وتوكيد فضل ذلك المرثي والوفاء بحقه ؛ فقال هذا التركيب البليغ الذي تضمنته هذه الجملة الدعائية التي وقعت موقعاً بليغاً مؤثراً واحتوت صورة بليغة من صور

---

(٤٨٣) انظر : شرح اختيارات المفضل ١/١٢٧ .

(٤٨٤) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٤٦ .

الإطناب بطريق التتميم .

ولقد كان كلام المرزوقي كلاماً فنياً دقيقاً دل به على الغرض ، وأشار به إلى هذا الإطناب بصورة التتميم - كما قلت - إشارة قوية تضمنتها كلُّ فقرات كلامه الآنف ذكره تعليقاً على زيادة الشاعر قوله : (وجُنبتَ الرَّدى) .

وقد نقل التبريزي كلام المرزوقي في ذلك إلى قوله : « ... ليكون الكلام أدل على التوجع » . وترك بقية كلامه [٤٨٥].

وأما قول النابغة الجعدي :

١ - فتىً كان فيه مايَسُرُّ صديقَه * على أنَّ فيه مايسوء الأعاديا

فالظاهر من تركيب نظم البيت ودلالته ومراد الشاعر فيه أنه صورة من صور الإطناب بطريق (التكميل) أو (الاحتراس) ، لا التتميم . وفي كلام المرزوقي الذي صدَّر به شرح البيت مايشير إلى ذلك إشارة ظاهرة ، تأمل كلامه إذ يقول :

« لمّا قال : (كان فيه مايسرُّ صديقه) وعَلِمَ أن في الناس مَنْ يجمع الخير خالصاً من دون الشّرّ خشي أنه إنْ سكت على هذه الجملة ظُنَّ به القُصور عن التمام ، والوقوف دون الكمال ؛ فلا يكون فيه النكاية في الأعداء والإساءة إليهم ، وإذلالهم وإرغامهم ، ثم وصفه بأن قال : (على أن فيه مايسوء الأعاديا) ، وهذا هو النهاية في الكمال ؛ لأنه إذا عرف لأوليائه مايوجب عليه التوفُّر عليهم ، وجميل التفقُّد لهم ، وعرف لأعدائه مايوجب التنقُّص منهم وإذلالهم كان في ذلك أكمل الكمال » [٤٨٦] .

وقد نقل التبريزي هذا الكلام بتصرف يسير ! [٤٨٧].

ففي قول المرزوقي « ... خشي أنه إن سكت على هذه الجملة ظُنَّ به القصور من التمام والوقوف دون الكمال ... ... ثم وَصَفَه بأن قال : (على أن فيه مايسوء الأعاديا) وهذا هو النهاية في الكمال ... » ؛ في قوله هذا بيانٌ يشير بقوة إلى الإطناب بصورة التكميل أو الاحتراس ؛ لأن خشية الشاعر الوقوف على هذه الجملة

(٤٨٥) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣/٣ .
(٤٨٦) شرح ديوان الحماسة ٩٦٩/٢ .
(٤٨٧) انظر : شرح ديوان الحماسة ١٩/٣ .

والسكوت عن ذكر مابعدها هو الإيهام لخلاف المقصود ، وكونه يدفع هذا الإيهام بما قاله بعد هو التكميل أو الاحتراس ؛ أحد صور الإطناب وطرقه .

أما احتمال أن يكون الإطناب في البيت بصورة (التتميم) فهو احتمال بعيد والحال ماذُكر . وإن كان قد يُقرِّب هذا الاحتمال قليلاً مايتضمنه قوله أولاً : (فتىً فيه مايسرُّ صديقَه) من لازم قد يدفع الوهم الراجح - الذي يقوم به تقديرالإطناب بصورة التكميل أو الاحتراس ؛ على نحو ماسبق بيانه - ؛ ذلك بأن قوله : (فتى فيه مايسرُّ صديقه) يتضمن لازماً اعتبارياً بأن تقدير مايسر الصديق ليس وقفاً على جانب الخير أبداً ، بل إنّ مما يسر الصديق المخلص الوفي مايكون في صديقه من قوة في الخير لأهله ، وفي الشر على أهله من أعدائه ؛ ذلك بأن إيقاع الشر في موقعه وعلى مستحقيه معدودٌ - عند التحقيق - في الخير الذي يسرّ الصديق ، وأنّ تَعصّيَ صديقه على عدوُّه وقوة شكيمته وتمنُّعه عليه وقهره له من الخير المحمود الذي يُسَرُّ به الصديق .

فمن تقدير هذا اللازم الاعتباري الذي تتضمنه هذه الجملة يكون أمر تقدير الإطناب بصورة التتميم غير مستبعد جداً ؛ لأن الكلام لم يكن في تقدير مايوهم خلاف المقصود حتى يُدفع الوهم فيه بكلام يأتي بعدُ على طريقة التكميل أو الاحتراس، وإنما كان في الكلام - على تقدير هذا اللازم الاعتباري في هذه الجملة - مايشبه الاستقلال بإفادة المعنى ، ثم جاء الكلام بعده بما يشبه الفضلة في كلام لايوهم خلاف المراد للدلالة على نكتة بلاغية ؛ هي التوكيد لذلك المعنى والمبالغة في تقريره . ولذلك يمكن أن تُعدَّ صورة التتميم على هذا الاعتبار صورة من صور التذييل غير الجاري مجرى المثل ؛ وذلك بأن الجملة الثانية ، وهي المصراع الثاني من البيت كان بمثابة جملة تعقّبت الجملة الأولى ؛ وهي المصراع الأول منه ، مع اشتمالها على معناها على سبيل التوكيد .

وعلى هذا فيكون في البيت ثلاث صور من صور الإطناب ؛ وهي : صورة (التكميل أو الاحتراس) ، وهي الصورة الراجحة فيه . وصورة (التتميم) ، وهي مرجوحة بحسب التقدير الاعتباري المفهوم من لازم الجملة الأولى التي تضمنها الشطر الأول ؛ على نحو ما أوضحت ، وصورة (التذييل) ، وهي داخلة ضمناً في

اعتبار الصورة الثانية أعني صورة التتميم ؛ على نحو ماتم بيانه . وكلا الصورتين الأخيرتين - التتميم والتذييل - مرجوحتان بالنسبة إلى الصورة الأولى .

و - الاعـــتراض :

وآخر صور الإطناب في شروح الاختيارات الشعرية (الاعتراض) ، وهو :

« أن يؤتى في أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين معنىً بجملة أو أكثر لامحلّ لها من الإعراب لنكتة »(٤٨٨).

ولقد أفرد ابن جني الاعتراض بباب مستقل ذكر فيه كثرتَه ، ووروده في القرآن الكريم ، وفصيح الشعر ، ومنثور الكلام ، وقال : إنه مما يجري عندهم مجرى التأكيد، ولذلك فهو غير مُسْتقبح ولامستنكر أن يُعترض به بين الفعل وفاعله ، أو المبتدأ وخبره ، ونحوه مما لايجوز الفصل فيه بغير الاعتراض إلا على طريق الشذوذ أو التأوُّل ، ثم أخذ بضرب شواهد للاعتراض من القرآن الكريم والشعر الفصيح . ثم ختم الباب بكلام أكّد فيه كثرة الاعتراض عند العرب وحُسْنه وفصاحته ؛ فقال :

« والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ، ودالٌّ على فصاحة المتكلم وقوة نَفْسِه ، وامتداد نَفَسِه »(٤٨٩).

وأبدأ دراسة نماذج (الاعتراض) في شروح الاختيارات الشعرية بنموذج في شرح ديوان الحماسة تكلم عليه المرزوقي كلاماً دقيقاً يشير إلى رسوخ صورة (الاعتراض) في علم الفصاحة والبلاغة ؛ وذلك في شرحه قول الحصين بن الحمام :

٧- فلمّا رأيتُ الصَّبر قد حِيلَ دونه * وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظلما

٨- صبرنا وكان الصَّبْرُ منّا سجيّةً * بأسيافنا يقطعنَ كفّاً ومِعْصَما

لقد قال المرزوقي مُبيّناً الاعتراض بين البيتين ووجه بلاغته :

« وقوله : (وإن كان يوماً ذا كواكب مظلما) اعتراض بين (لمّا) وجوابه ، وهو شرط في وقوع الصبر منهم يترجم عن الحال ؛ أي : صبرنا وإن كان اليوم يوماً مظلماً ترى فيه الكواكب ظهراً لانسداد عين الشمس بغبار الموت ، وجواب الجزاء استغني

---

(٤٨٨) الإيضاح ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٤٨٩) الخصائص ١/٣٣٥ ، ٣٤١ .

عنه بجواب (لمّا) »[٤٩٠].

ثم ردّ المرزوقي رواية من رواه بفتح همزة (إنْ) لتكون مخففة من الثقيلة ، مشيراً إلى أنه لا اعتراض في البيتين على هذه الرواية ، وأن القائل بها يجهل القيمة البلاغية لصور الاعتراضات وأثرها في نظم الكلام وفصاحته وبلاغته ، ومشيراً - كذلك - إلى أنّ التباس المعنى على القائل بهذه الرواية هو السبب في روايته لها ؛ يقول المرزوقي في ذلك :

« وروى بعضهم : (وأنْ كان يوماً ٠٠) بفتح الهمزة على أن يكون أن مخفّفة من الثقيلة ، والمراد : وأنه كان اليوم يوماً ذا كواكب ٠ وهذا الراوي لعله لم يعرف الاعتراضات والفصاحة فيها والتبس المعنى عليه أيضاً »[٤٩١].

وقد بيّن المرزوقي - أيضاً - مافي البيت الثاني من الإطناب بصورة (الاعتراض) ، مبيناً وجه بلاغته ومراد الشاعر فيه ، ثم وقف وقفة نقدية وازن فيها بين قول الحصين بن الحمام في هذين البيتين وقول نهشل بن حريّ مشيراً إلى تماثلهما في الفكرة والمعنى ، وفي الاعتراض ، وطبيعته ، وفي ذلك يقول :

« ٠٠٠ وقوله : (أسيافنا) يجوز أن يتعلق الباء منه بـ (صبرنا) ، واعترض بينهما قوله : (وكان الصبر منا سجيّةً) ؛ إذْ كان أراد أن يُبيّن أن ذلك الفعل ليس بمستَبدع ولامستَنكر من أخلاقهم ٠ ويجوز أن يتعلق بما دلّ عليه : (وكان الصبر منا سجيّة) ٠ و (يقطعن) في موضع الحال للأسياف على الوجهين ٠ وفي طريقته قول نَهْشَل بن حرّيٍّ :

ويومٍ كانَ المُصْطَلِين بحَرّهِ * وإنْ لم يكنْ نارٌ قُعودٌ على جَمْرِ
صبرنا له حتى يَبُوخَ وإنما * تُفرّجُ أيامُ الكريهة بالصَّبْرِ »[٤٩٢]

ولقد أجاد المرزوقي وأفاد جداً في بحثه الإطناب في البيتين بصورتي (الاعتراض) فيهما ٠ مُبيّناً وجه بلاغتهما ومراد الشاعر فيهما ٠ ومُدلّلاً في ردّه الرواية الأخرى في فتح همزة (إن) على فقهه لأساليب اللغة العربية ونظمها ، وإدراكه مرامي القول فيها ، وخطورة فن (الاعتراض) ، وأثره في نظم الكلام ،

---

(٤٩٠) شرح ديوان الحماسة ٣٩١/١ ٠

(٤٩١) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣٩١/١ ٠

(٤٩٢) شرح ديوان الحماسة ٣٩١/١ ٠

وعمق دلالته وأثره في فصاحته وبلاغته . كما أحسن جداً في موازنته النقدية التي ماثل فيها بين بيتي الحصين بن الحمام وبيتي نهشل بن حرّيّ مشيراً إلى تماثلهما في طبيعة تركيب البيتين ونظمهما وفي صورة (الاعتراض) عند كل منهما .

وأين ذلك الجهد المتميز حسناً وجودةً من عمل التبريزي الذي اكتفى بنقل موضع صورة (الاعتراض) في البيت الثاني للحصين نقلاً مجرداً عن المرزوقي ، كما نقل عنه ما أورده من موازنة بالمماثلة بين بيتي الحصين ونهشل بن حرّيّ.. لقد اكتفى بنقل الصورة الثانية للاعتراض عند الحصين دون أن ينقل عن المرزوقي ما أوضحه من وجه البلاغة ومراد الشاعر فيه ، تاركاً نقل الصورة الأولى للاعتراض ووجه بلاغته وما استدركه المرزوقي على الرواية الأخرى التي تبعد هذه الصورة عن فن الاعتراض ![٤٩٣].

إنه نقلٌ مقتضب قاصر ؛ لاتعليق عليه ولا إضافة ولا استقلال ! .

- وقال الحصين بن الحمام أيضاً :

وأبلغْ تليداً - إنْ عَرَضْتَ - ابنَ مالكٍ * وهل ينْفعنْ العلمُ إلا المُعلَّما ؟

فإنْ كنتَ عن أخلاق قومِكَ راغباً * فَعُذْ بِضُبَيعٍ أو بعوفِ بن أصْرما

قوله : (وهل ينفعن العلم إلاّ المعلما ؟) اعتراض بين قوله : (أبلغ تليداً) وبين مفعول أبلغ الثاني ؛ وهو قوله المشتمل عليه البيت الثاني كلّه .

وقد نبّه التبريزي على هذا الاعتراض ، ولكنه لم يبيّن النكتة البلاغية لهذا الاعتراض[٤٩٤].

أما الأنباري فلم يشر إلى هذا الاعتراض أثناء شرح البيت ![٤٩٥].

ونكتة الاعتراض هنا : التنبيه على قيمة العلم وفضله وقدر التعليم ، وأنه لايستفيد منه ولايحمله إلاّ من صدّق به واهتدى به ووعاه قلبه .

وثمّةَ اعتراض آخر في البيت الأول كذلك ، وقد أشار إليه التبريزي إشارة

(٤٩٣) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣٦٢/١ ، ٣٦٣ .
(٤٩٤) انظر : شرح اختيارات المفضل ٣٤٠/١ ، ٣٤١ .
(٤٩٥) انظر : شرح المفضليات ١١٨ .

خفيفة ، دون الأنباري . وقد كانت إشارة التبريزي إليه بقوله : « فصل بن الصفة والموصوف بقوله : (إن عرضتَ) » . فقوله : (إن عرضت) جملة شرطية اعترض بها الشاعر بين فعل الأمر والمفعول الأول الموصوف : (أبلغ تليداً) وبين الصفة والمضاف إليه : (ابن مالك) . والغرض البلاغي للاعتراض بهذه الجملة : تعليق جواب صيغة الأمر بهذه الجملة ؛ قصداً من الشاعر إلى التلطُّف والمؤانسة بهذا الاعتراض إلى مَنْ عناه بالأمر بتبليغ هذا البلاغ وعدم المشقة عليه بتكليفه قسراً بإبلاغ ما أوصاه به ، وفي هذا من التلطف والتودد وحسن الأدب وتهذيب الخُلق مافيه ، علماً بأن رسالته ستبلغ وتحملها الركبان بمجرد قوله هذا وإن لم يحملها مُبَلِّغاً مَنْ عناه بطلب إبلاغها !.

- قال عبدة بن الطبيب :

٨- وبِبِرِّ والدِكُم وطاعةِ أمره * إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ

٩- إنّ الكبير إذا عصاه أهلُهُ * ضاقتْ يداهُ بأمرهِ مايَصْنَعُ

١٠- ودعوا الضَّغينةَ لاتكن من شأنكمْ * إنّ الضَّغينةَ للقرابة تُوضَعُ

ذكر التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن البيت التاسع اعتراض بين البيتين ؛ الثامن والعاشر ، وأوضح وجه كونه اعتراضاً ، وبلاغة هذا الاعتراض ، قال التبريزي: « قوله : (إنّ الكبير إذا عصاه أهله ...) اعتراض ، وليس من الوصاة ، لكنّه تتأكد به القصة »[٤٩٦] .

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي في تحديد جملة الاعتراض في البيت ، وفي إيضاح وجه كونها اعتراضاً ؛ حين أخرجاها من الجمل التي تعتبر أساساً في الكلام والتي بنى عليها الشاعر فكرته ووصاته السابقة بتقوى الله أولاً ثم ببر الوالدين .

كما أحسن المرزوقي وأجاد في بيان بلاغة هذا الاعتراض ونكتته التي ساق الشاعر هذه الجملة الاعتراضية لتحقيقها ؛ فقرر أنه جاء بهذا الاعتراض لغرض تأكيد القصة وتقريرها وتثبيتها في الذهن ؛ ولذلك قال المرزوقي - فيما نقل عنه التبريزي - بعد أن قرر أن هذا البيت اعتراض ، وليس داخلاً في الوصية ، وإنما هو

---

(٤٩٦) شرح اختيارات المفضل ٢/٦٩٠ وحاشيتها ، ٦٩١ .

لتحقيق غرض توكيد القصة ؛ قال بعد ذلك :

« ... وهذا كما قيل : (لا أمر لمعصيّ) و (ليس على المنذر إلاّ الإبلاغ) »[٤٩٧] .

وإنما أراد أن يؤكد بهذا التعقيب ماساقه من بيان الوجه البلاغي لغرض الاعتراض . وتلك دقة في فهم فن الاعتراض لانكاد نجدها عند غير المرزوقي من شرّاح الاختيارات الشعرية ! .

أما الأنباري فلم يشر إلى أن هذا البيت اعتراض بين البيتين ؛ قبله وبعده[٤٩٨]. وقد سبق أن أهمل الأنباري التنبيه أو الإشارة إلى الاعتراض في النموذج الذي سبق هذا النموذج ! .

- وقال تأبّط شرّاً :

١٠ - لكنّما عولِيَ إنْ كنتُ ذا عولٍ - * على بصيرٍ بكسب المحامد سبّاق

أورد التبريزي أكثر شرح البيت عن المرزوقي . وقد جاء فيه ذكر مصطلح (الاعتراض) ؛ فقد قال التبريزي ، عن المرزوقي :

« ... وقوله : (إن كنتُ ذا عول) اعتراض بين قوله : (عولي) وبين خبره »[٤٩٩] .

لكن التبريزي لم يبيّن النكتة البلاغية لصورة الإطناب هنا ؛ وذلك لأن درس التبريزي للاعتراض هنا اتسم بالصبغة النحوية التي لاتكاد تقف على بيان الوجوه أو النكات البلاغية في تراكيب الكلام ونظم جُمَله ، وأسرار أساليبه .

إن جملة الاعتراض هنا : (إن كنت ذا عول) جملة شرطية لامحل لها من الإعراب . وفائدتها البلاغية : أنّ غرض الشاعر من هذه الجملة أنْ يحتاط لنفسه أولاً ؛ بدفع الحرج عن النفس ؛ بما اشترطه في كلامه من شرط تضمنته هذه الجملة الشرطية الاعتراضية . إن الشاعر أراد أن يحتاط لنفسه بهذا الشرط الذي تضمنته جملة الاعتراض الشرطية ، وأن يجعل نفسه في مندوحة إنْ لم يُعوّل على أحد ، وأنه إنما يرفع بهذا الاحتياط والاشتراط عن نفسه - أولاً - الحرجَ ؛ إذْ إنّ نفسه هي

---

(٤٩٧) شرح اختيارات المفضل ٢/٦٩١ .

(٤٩٨) انظر : شرح المفضليات ٢٩٧ .

(٤٩٩) شرح اختيارات المفضل ١/١١٨ وحاشيتها .

المعوَّل الأول ؛ فقد فَقَد الثقة بالناس القريب منهم قبل البعيد ، والصاحب قبل الغريب ، لكنه إنْ عوَّل فلن يُعوِّل إلا على أخي ثقة يتريَّث أمداً في اختباره ، ولابد أن يكون أخا ثقة ضارباً بشمائله في المحامد وبأخلاقه في الفضائل .

ولتقريب ذلك أقول : إنّ قولَ الشاعر : (إن كنت ذا عول) - في هذه الجملة الشرطية التي أفادت اعتراضاً اشتراطياً احتاطه الشاعر لنفسه - شبيهٌ بقول الناس في كلامهم الاعتيادي حينما يَعِدُون أحداً بشيء ، فيقول أحدهم مثلاً : (سأكافئ - إن كنت مكافئاً - المجدَّ المثابر) ، أو ما أشبه ذلك . فهذا يدل على أن المكافأة مشروطة غير مطلقة ؛ بمعنى : إنْ حصل مني مكافأة فلن يظفر بها إلا من يكون أهلاً لها ، وهو المجدّ المثابر . ومثل هذه التراكيب الاعتراضيه واضحة الدلالة على الاعتراض المشروط احتياطاً للنفس ؛ لدفع الحرج عنها بما اشترطه المتكلم في كلامه من شرط تضمنته جملته الشرطية الاعتراضية التي ساقها قصداً لتحقيق هذا الغرض البلاغي .

ولئن كان بحث التبريزي للاعتراض عند الشاعر في هذا البيت بحثاً اتسم بطبيعة الدرس النحوي - كما أسلفت - دون محاولة للنظر في بلاغة صورة فن الاعتراض عند الشاعر وقصده البلاغي منه ، على نحو ما أوضحته ؛ لئن كان التبريزي كذلك فإن الأنباري لم يبحث ذلك الاعتراض عند الشاعر حين شرح بيته ؛ لا من جهة الدرس النحوي ولا البحث البلاغي ! [٥٠٠].

- وقال الحصين بن الحمام :

١٤- عليهنّ فتيانٌ كساهم مُحرِّقٌ * وكان إذا يكسو أجاد وأكرما

١٥- صفائحَ بُصرى أخلَصتها قُيونُها * ومُطَّرِداً من نسج داودَ مُبْهَما

يرى التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن قوله : (وكان إذا يكسو أجاد وأكرما) اعتراض كلام في كلام . وأنّ الشاعر جاء به لتحقيق غرض بلاغي ؛ هو التوكيد ؛ قال : « ... وقوله : (وكان إذا يكسو) اعتراض دخل بين الفاعل والمفعول ، وتأكّد به الكلام » [٥٠١] .

---

(٥٠٠) انظر : شرح المفضليات ١٣ .

(٥٠١) شرح اختيارات المفضل ١/٣٣٢ وحاشيتها .

ولم يذكر الأنباري في هذا البيت شيئاً يتصل بالإطناب ، أو صورة الاعتراض فيه بهذه الجملة الإخبارية ، أو غرضها البلاغي ! [٥٠٢].

وقد أحسن المرزوقي والتبريزي في النص على مصطلح (الاعتراض) الذي دلاّ به على فن (الإطناب) في البيت ، كما أحسنا في بيان الغرض البلاغي الذي قصد إليه الشاعر من صورة الاعتراض في البيت . وإن كان الفضل في ذلك للمرزوقي الذي نقل عنه التبريزي شرح البيت ! .

- وقال الحصين بن الحمام أيضا :

٣٥- وقلتُ لهم : يا آلَ ذبيانَ مالكم * تفاقدتم لاتُقْدِمون مُقَدَّما

قال الأنباري : « (تفاقدتم) : دعاءٌ عليهم بالموت وأن يفقدوا بعضهم بعضا » [٥٠٣] .

وقال التبريزي : « قوله : (تفاقدتم) : دعاء عليهم بالموت وأن يفقد بعضهم بعضا » [٥٠٤].

وقول التبريزي هذا هو قول الأنباري المتقدم بنصّه باختلاف يسير كما هو ظاهر.

ولكن الأنباري والتبريزي كليهما لم يشيرا إلى مصطلح (الاعتراض) القائم بالجملة الاعتراضية الدعائية ؛ وهي قوله : (تفاقدتم) . غير أنّهما معاً قد نوّها بالغرض من هذا الاعتراض ، فذكرا النكتة البلاغية لهذه الجملة الاعتراضية ؛ وأن الشاعر قصد بها الدعاء عليهم بالموت ، فتمنّى أن يفقد بعضهم بعضا . ولعل في ذكرهما الغرض البلاغي لهذه الجملة الاعتراضية إشارة - ولو من بُعْد - إلى صورة (الاعتراض) لفن (الإطناب) عند الشاعر هنا .

---

(٥٠٢) انظر : شرح المفضليات ١٠٨ .
(٥٠٣) شرح المفضليات ١١٣ .
(٥٠٤) شرح اختيارات المفضل ٣٢٨/١ .

- قال تأبّط شرّاً :

٥ - هما خُطّتا إمّا إسارٌ ومِنّةٌ * وإمّا دمٌ والقتلُ بالحرّ أجْدَرُ

٦- وأخرى أُصادي النفسَ عنها وإنّها * لمَوْرِدُ حزمٍ إنْ فعلتُ ومَصْدَرُ

نصّ المرزوقي على مصطلح (الاعتراض) في البيتين ، مبيناً موقعه من كلام الشاعر ؛ فقال : « وقوله : (والقتل بالحرّ أجدر) يسمّى اعتراضاً ؛ لوقوعه بين ماعدّده من الخصال »(٥٠٥) .

وقال في البيت الثاني : « وقوله : (وإنها لموردُ حزم) اعتراض أيضاً ؛ لوقوعه بين قوله : (وأخرى أصادي النفس عنها) وبين تبيين كيفية مزاولته لها وشرحها »(٥٠٦) .

وذكر التبريزي مصطلح (الاعتراض) ، وعلّل له كذلك ؛ ببيان وجه موقعه في الموضِعَين نقلاً بالنص عن المرزوقي ، مع زيادة وتصرف يسير يتعلّق بموضع الاعتراض فيهما !(٥٠٧) .

وقد أحسن المرزوقي في تسمية الاعتراض والنص عليه في الموضعين ، وفي بيان موقعه فيهما . لكنه لم يبين الغرض البلاغي للاعتراض فيهما . وغرض الشاعر في اعتراضه بقوله في البيت الأول : (والقتل بالحر أجدر) التنبيه على شأن الكرامة وعزة النفس والترفع بها عما يُعرّضها للخزي ويُكسبها الذل في ظلّ الأسْر والمِنّة . هذا هو مراد الشاعر وغرضه من هذا الاعتراض . وقد بناه على مايؤمن به ويعتقده وفق مفهومه وتصوراته الخاصة أو ماتُمليه عليه أعراف المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه .

أما غرضه البلاغي في اعتراضه الثاني في البيت الثاني بقوله : (وإنها لمورد حزم إن فعلت ومصدر) فهو التنبيه - أيضاً - إلى مافي خطته الثالثة من حزم وكياسة ومغامرة نحو النجاة من خطة الخسْف والذل بالأسر والمنّة - إن كان ثمّةَ مِنّة - ، ومن خطة القتل الذي هو وإن كان عزة وكرامة ؛ لأنه بالحر أجدر كما يتصوَّر

---

(٥٠٥) شرح ديوان الحماسة ٨١/١ .

(٥٠٦) شرح ديوان الحماسة ٨١/١ .

(٥٠٧) انظر : شرح ديوان الحماسة ٧٩/١ .

إلا أن النجاة من هاتين الخطتين والسلامة بركوب مراكب الحزم والمغامرة والبطولة أسلم له ، وأعزّ لنفسه وأكرم ، وأهنأ لقلبه وأروح لباله ؛ لأن في هذه الخطة الثالثة الحازمة النجاة من ذلّ الأسر والخلاص من فَقْد القتل .

- وقال عمرو بن مَعْدِيكَرِب :

١ - ليس الجمال بِمئْزَرٍ * فاعلم وإن رُدّيتَ بُرْدا

قال المرزوقي موضحاً موضع الاعتراض في البيت ، وغرضه البلاغي ، ومستشهداً عليه من آي الذكر الحكيم :

« قوله : (فاعلم) اعتراضٌ تأكدّ به الكلام ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلا أُقْسم بمواقع النجوم . وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم ﴾ ؛ لأن قوله : (وإن رُدّيتَ) متعلّق بما قبله تعلُّق جواب القسم بالقسم »[(٥٠٨)] .

وأورد التبريزي هذا الكلام بنصه ![(٥٠٩)].

فغرض اعتراض الشاعر بقوله (فاعلم) هو التوكيد وتوجيه الاهتمام لما يقوله والأخذ بما يُقرّره في كلامه من حكم .

وقد أراد المرزوقي باستشهاده بالآيات الكريمة : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ... ﴾ - إلى آخرها - أن يقرر مابين الآيات والبيت من تقارب أو تشابه في الغرض البلاغي للاعتراض فيهما ، وأن الغرض البلاغي لهذين الاعتراضين واحد ؛ وهو : التأكيد على المراد ، وتقريره في الذهن .

وقد اشتهرت هذه الآيات عند البلاغيين بأنها إطناب بصورة الاعتراض من وجهين ؛ أي : فيها اعتراض في اعتراض ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ لو تعلمون ﴾ اعتُرِضَ به بين الموصوف والصفة ، واعتُرِض بقوله : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ بين القسم والمقسَم به[(٥١٠)].

---

(٥٠٨) شرح ديوان الحماسة ١/١٧٤ .

(٥٠٩) انظر : شرح يوان الحماسة ١/١٧٠ .

(٥١٠) انظر : الخصائص ١/٣٣٥ ، والإيضاح ٣١٥ ، والمثل السائر ٣/٤٨ .

- وقال إبراهيم بن كُنَيف النبهاني :

٢- فإنْ تكــنِ الأيّامُ فينا تبدلتْ * ببُوسى ونُعمى والحوادثُ تفعلُ

٣- فمــا لينَتْ منّا قنــاةٌ صليبةٌ * ولا ذلّلَتْنــا للذي ليــس يجْمُلُ

أوضح المرزوقي موضع الاعتراض في البيت الأول ، مبيناً الغرض البلاغي لهذا الاعتراض عند الشاعر ، وأثر هذا الاعتراض في تحسين كلام الشاعر وبلاغته ، مشيراً إلى أن هذا الاعتراض وقع موقعاً حسناً زاد القصة تأكيداً . قال المرزوقي: « قوله : (والحوادث تفعل) يسمّى اعتراضاً ، ومثل هذا من الاعتراض يزيد القصة تأكيداً ، وهو هنا حائل بين الجزاء وجوابه ؛ لأن جواب (إن تكن) قوله : (فما ليُنتْ منا قناةٌ صليبةٌ) ، وحسن الكلام به جداً ؛ إذْ كان تأكيداً لما يقْتصُّه من تحوّل الأحوال ، وتحقيقاً لما شكاه من ريب الزمان ، وبعثاً على التسلّي ، وأخذ النفس بالتأسّي ؛ فيقول : إن كانت الأيام دارت فينا بالنُّعماء مرةً وبالبأساء أخرى – وهذا عادة الدهر وحوادثه – فما غيّرتْ منا شيئا »[٥١١] .

وكلام المرزوقي في بيان غرض الاعتراض هنا وأثره في تحسين كلام الشاعر ورفع بلاغته كلامُ رجل بليغ متذوق يعرف كيف يتعامل مع النصوص ويفقه دلالات النظم ومعطيات التراكيب في ثقةٍ وبصيرة ؛ لقد قرّر أن غرض الاعتراض في قول الشاعر : (والحوادث تفعل) هو التأكيد للقصة التي يتحدث عنها الشاعر ، والتي يحكي لنا فيها حالته هو وقومه ؛ إنها قصة الأيام ومداولتها بين الناس في النعيم والبؤس والسّراء والضراء ، ومحاولة الشاعر أن يُثبت بما حكاه من حالهم في هذه الحياة ، وبما أكّده في هذا الاعتراض من تقلّب هذه الأيام بالناس ، وفعلها فيهم الأفاعيل ؛ تارة بالخير وبالشر أخرى ؛ ابتلاءً من الله واختباراً ؛ حاول أن يثبت بهذا كله صلابة قناتهم وأنهم لم يتغيروا أو يلينوا ضعفاً واستكانة ، وإنما صبروا واحتسبوا فظفروا بكرامة الدنيا وحسن العاقبة في الأخرى إن شاء الله[٥١٢].

لقد جاء هذا الاعتراض – كما قال المرزوقي – مؤكداً لهذه القصة ومحققاً ومقرراً ، وباعثاً على التسلّي ، وأخذ النفس بالتأسّي ! .

---

(٥١١) شرح ديوان الحماسة ٢٥٩/١ .

(٥١٢) الشاعر القائل شاعر إسلامي . انظر : شرح ديوان الحماسة ١/ حاشية ٢٥٨ .

ولقد نقل التبريزي الجزء الأول من كلام المرزوقي الذي بيّن فيه الاعتراض وغرضه البلاغي ، وموقعه من البيت ، وترك الجزء الآخر من كلامه الذي أوضح فيه المرزوقي وجه حسن كلام الشاعر وتميزه بهذا الاعتراض الذي حَسُن موقعه جداً في كلامه فصار مؤكداً لما اقتصّه من تحوّل الأحوال ومُداولة الأيام ومحققاً للشكاية من ذلك وباعثاً على السلوان والتعزّي ! (٥١٣).

- وقال بعض بني فقعس :

٢- فهلاّ أعَدُّوني لمثلي تفاقدوا * إذِ الخصْمُ أبزى مائلُ الراسِ أنكَبُ

نصّ المرزوقي على أن قوله : (تفاقدوا) دعاء ، وأنه قد اعترض به بين أول الكلام وآخره ، وأن كونه قد جيء به لغرض التأكيد لما هو بصدده من قصة - هو الذي سوغ الاعتراض به . قال المرزوقي :

« قوله : (تفاقدوا) دعاء . وقد اعترض بين أول الكلام وآخره ، ولكنه أكّد مايقتصُّه فصلح لذلك »(٥١٤).

ونقل التبريزي كلام المرزوقي بنصه !(٥١٥).

وقد أحسن المرزوقي في نصه على مصطلح الاعتراض ، وأنه جملة دعائية ، كما أحسن في بيان غرض هذا الاعتراض ؛ وهو (التوكيد) للحكاية والقصة التي هو بصددها ، كما أحسن في جعله هذا الغرض البلاغي للاعتراض مسوّغاً فنياً للاعتراض ، وجمعه بين هذا الغرض والإشارة إلى كونه مسوّغاً للاعتراض في جملة واحدة موجزة ؛ هي قوله : « ولكنه أكّد مايقتصُّه فصلح لذلك » ! .

- قالت صفية الباهلية :

أخنى على واحدي ريبُ الزمان وما * يُبْقي الزمان على شيءٍ ولايذرُ

كنّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ * يجلو الدُّجى فهوى من بينها قمرُ

(٥١٣) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٥٢/١ .
(٥١٤) شرح ديوان الحماسة ٢١٤/١ .
(٥١٥) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢١٣/١ .

بيّن العبيدي مافي البيتين من اعتراض ، مشيراً إلى موقعه ، وغرضه البلاغي ؛ فقال :

« ... وقوله : (ومايُبقي الزمان ...) اعتراض يحصل بين ماقبله ومابعده من القصّة ، مؤكّد له » [٥١٦] .

فغرض الإطناب بصورة الاعتراض هنا هو - كما ذكره العبيدي - التوكيد ؛ بمعنى أن هذه الجملة الخبرية التي سيقت هنا مساق الاعتراض جاءت مؤكدة لما تريد الشاعرة بيانه وتقريره من أمر قصة حالها مع مرثيّها الغالي ، وبيان فضله على سائر العشيرة ، وعِظَم مصابهم بفقده .

ذلك ماتهيّأ لي عرضه ودراسته من نماذج صور الإطناب عند شرّاح الاختيارات الشعرية مما وجدته صالحاً عندهم من تلك الصور ؛ على نحو ماسبق عرضه ودراسته .

وكما رأيت لم أعرض بالدراسة لأيّ من صور الإطناب عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات . ولا لأبي عبدالله النمري في معاني أبيات الحماسة ؛ لأني لم أتبيّن لهم نماذج صالحة لصور الإطناب .

---

(٥١٦) شرح المضنون به على غير أهله ٣٦٢ .

٣- التطويـــل والحشــو

تقـدم القـول فـي حـدّ الإطناب بأنه تأدية أصل المعنى المراد بألفـاظ زائدة عليـه لفـائدة ، وأن تقـيـيـد ألفـاظ الإطناب الزائدة بالفـائدة كـان احـترازاً من التطويل أو الحشو اللّذَين تخلو فيهما ألفاظهما الزائدة عن الفائدة .

وقد فرّق القزويني بين التطويل والحشو بعد أن جعلهما مُحْتَرزاً يخرج به تقييد ألفـاظ الإطناب الزائدة بالفـائدة ؛ فـقـال في ذلك : « وقولنا : (لفائدة) احـتراز من شيئين :

أحدهما : التطويل ، وهو ألّا يتعيّن الزائد في الكلام، كقوله:

* وألفى قولها كذباً ومَيْنا *

فإن الكذب والمين واحد .

وثانيهما : مايشتمل على الحشو ؛ والحشو مايتعيّن أنه الزائد » .

ثم جعل الحشو ضربين : مفسد للمعنى ، وغير مفسد له [(٥١٧)].

وفرّق ابن سنان الخفاجي بين التطويل والحشو فقال :

« والفرق بين التطويل والحشو : أن الحشو لفظ يتميّز عن الكلام بأنه إذا حُذف منه بقي المعنى على حـاله . والتطويل : هو أن يُعبَّر عن المعاني بـألفـاظ كـثـيرة كل واحـد منها يقوم مقام الآخر ؛ فأيٌّ لفظ شئت من تلك الألفاظ حذفته وكان المعنى على حاله. وليس هو لفظاً متميزاً مخصوصاً كما كان الحشو لفظاً متميزاً مخصوصاً » [(٥١٨)].

فـالمدار في حدّ كل من التطويل والحشو على الزيادة التي يُستـغنى عنها في كل منهمـا - وقد تكون هذه الزيادة مـفـسدة للمعنى ؛ كمـا في أحد ضربي الحشـو - بخلاف الإطناب ؛ فإن الزيادة فيه ليست مما يُستغنى عنه بل إنه يؤتى به لإفادة نكتة بلاغية ؛ على النحو الذي سبق عرضه ودراسته في النكت البلاغية لصور الإطناب .

لكن الزيادة فـي الحشو تكون بلفظ مُميَّز معلوم ، كما يدل عليه كلام القزويني والخفاجي في حدّيهما ، وإن كـان الخفاجـي يقـول : بأن المعــنى يبقى على حاله إذا

---

(٥١٧) الإيضاح ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٥١٨) سر الفصاحة ٢١١ .

حذفت زيادة الحشو من الكلام . وهذا يصدق على المتعيّن أنه الزائد في الحشو مما لايُفسِد المعنى ، أما الحشو المفسد للمعنى فإن المعنى لايبقى فيه على حاله بعد حذف ماتعيَّن أنه الحشو الزائد في الكلام ، وإنما يتغيّر المعنى ، وقد يصح بعد أن كان مختلاً . وهذا بخلاف التطويل الذي يشتمل على ألفاظ كثيرة للتعبير عن المعنى الواحد ؛ بأن تكون مثلاً بمثابة الألفاظ المترادفة ، ونحوها ؛ فتصدق على كل منها الزيادة من غير أن يتعيّن واحدٌ منها أو أكثر بأنه الزائد في الكلام دون غيره - كما في الحشو - ؛ ولذلك فأيًا منها حذفت صح الكلام وبقي المعنى على حاله دون أن يتغير بفساد أو اختلال أو نقص أو زيادة .

وإذْ قد تبيَّن حدُّ كلٍّ من التطويل والحشو ، وعُرف مابينهما من فرق دقيق فسأنظر فيما عند شراح الاختيارات الشعرية من بحث يتعلق بمبحث (التطويل والحشو) مُتَبَيّناً طبيعة جهودهم في ذلك :

- قال علقمة بن عبدة :

يحملْنَ أُتْرُجَّةً نَضْخُ العبيرِ بها * كأنَّ تَطيابَها في الأنفِ مَشْمومُ

نقل الأنباري رأي الرُّستُمي في لفظة (كأنّ) في البيت ، وأنها أتتْ فيه حشواً لامعنى لها ؛ وذلك على رأي من يرى الظَّنَّ يقيناً . وعلى هذا فلا فائدة من (كأنّ) هنا ؛ لأن معناها بمعنى الظن ، وإذا كان الظن بـ (كأن) يقيناً فالكلام يقينٌ والحكم جازم في قول الشاعر بدون (كأن) التي قد توهن المعنى في حُسبان بعض الناس ، وتثير الشك في صحته ، والكلام مقطوع بيقينه دونها .

قال الأنباري عن الرستمي :

« ... يقول : كأنها أُتْرجَّة من طيب رائحتها ... ... و (كأنّ) حشوٌ مِنْ طريق مَنْ جعَل الظَّنّ يقيناً ، ومعنى الظَّنّ وكأنّ واحد »[٥١٩] .

وعلى هذا فإن (كأنّ) حشوٌ ؛ لتعيُّن أنها الزائد في الكلام بدون فائدة . ثم إنها من قبيل الحشو المخلّ بالمعنى المفسد لحكمه والقطع بيقينه .

---

(٥١٩) شرح المفضليات ٧٩٠ .

ولم يتعرّض التبريزي لبحث الحشو وموقعه من هذا البيت ! [٥٢٠].

وقد أحسن الأنباري فيما نقله عن الرستمي ؛ حيث نصّ على مصطلح (الحشو)، وبيّن موقعه ، وعيّنه ، كما ذكر مسوّغ عَدّه من قبيل الحشو الزائد المخل بالمعنى عند الشاعر ؛ على نحو ماسبق بيانه ٠

- وقالت امرأة من بني أسد :

١ - خليليّ عُوجا إنها حاجة لنا * على قبر أهْبانٍ سَقتْه الرّواعِدُ

قال المرزوقي عن قولها : (إنها حاجة لنا) إنه حشوٌ واعتراض ٠ وعلى هذا يكون الحشو والاعتراض عنده مصطلحين مترادفين يدلان على معنى واحد أو صورة بلاغية واحدة ٠ فالحشو عنده بمعنى صورة (الاعتراض) ، إحدى صور (الإطناب) وطرقه البليغة التي لاتأتي إلا لنكتة بلاغية يقصد إلى تحقيقها المتكلم ٠ قال المرزوقي مُبيّناً جملة الاعتراض في البيت ، مُقرّراً أنها حشو واعتراض ، مشيداً ببلاغتها وحسن موقعها من كلام الشاعرة ، ومشيراً إلى الغرض البلاغي لهذه الجملة الاعتراضية والتي سمّاها حشواً أيضا :

« وقولها : (إنها حاجة لنا) حشو واعتراض ، وقد وقع موقعاً حسناً ، وفيه استعطاف للمخاطَبَين واستلطاف فيما تُكلّفهما » [٥٢١] ٠

ولم يأت التبريزي بجديد ، وإنما وافق المرزوقي ؛ حين نقل عنه نص كلامه هذا مُسْقطاً منه بعض قول المرزوقي الأخير في بيان النكتة البلاغية لصورة الاعتراض ؛ أعني قوله : « ٠٠٠ واستلطاف فيما تُكلّفهما » ! [٥٢٢]، وإنما أسقطه اقتصاراً على ماقبله واكتفاءً به في بيان الغرض البلاغي ؛ لأن الاستعطاف نتيجة من نتائج الاستلطاف ٠ وفي حذفه إيّاه شيء من الإخلال ببيان هذاالغرض البلاغي لصورة الاعتراض هنا ؛ إذْ في قول المرزوقي : (واستلطاف فيما تُكلّفهما) زيادة مفيدة

---

(٥٢٠) انظر : شرح اختيارات المفضل ١٦٠٣/٣ ٠

(٥٢١) شرح ديوان الحماسة ٩٧٦/٢ ٠

(٥٢٢) انظر : شرح ديوان الحماسة ٢٤/٣ ٠

لبيان هذا الغرض البلاغي بل إن غرض الاستلطاف هو الأساس الذي يقوم عليه غرض الاستعطاف ؛ إذْ ليس ثمّةَ استعطاف لأحد يُراد أن يُعْطَف لأمر من الأمور ويُلَيَّن له دون أن يُقدّم له بتلطُّف دقيق واستلطاف رقيق ، ومؤانسة دقيقة رقيقة ؛ حتى يأنس لك ويعطيك قياده وينعطف إلى ذلك الأمر . وتزداد الحاجة إلى التلطف أوالاستلطاف بقدر الحاجة إلى الأمر ، وبحسب طبيعته وأهميته ومقدار حظّه من التكليف والصعوبة . ولذلك فإن المرزوقي قد خالف الترتيب المنطقي في ترتيب جملتي بيانه الغرض البلاغي لصورة الاعتراض ؛ حين قال :« وفيه استعطاف للمخاطبين ، واستلطاف فيما تُكلّفهما » ، ولو أنه قال بعكس ذلك لكان أولى وأفضل ؛ بأن يقول : « وفيه استلطاف للمخاطَبَين فيما تكلفهما واستعطاف لهم » ؛ لأنّ الترتيب المنطقي المعهود في مثله أن تبنى النتائج على الأسباب ، والاستعطاف نتيجة من نتائج الاستلطاف ؛ كما سبق بيانه .

وأعود إلى كلام المرزوقي في إطلاقه - خطأً - مصطلح الحشو على الاعتراض في الجملة الاعتراضية في هذا البيت . ومراد المرزوقي - رحمه الله - أن هذه الجملة (إنها حاجة لنا) جملة اعتراضية ، وهي صورة من صور الإطناب بطريق الاعتراض. وقد جاءت لتحقيق غرض بلاغي رامتْه الشاعرة وقصدتْ إليه ؛ وهو ما أفصح عنه المرزوقي بأنه (الاستلطاف والاستعطاف) ؛ الاستلطاف لهؤلاء المخاطَبَين والتّودُّد إليهما فيما تكلفهما به ثم استعطافهما في تحقيق ذلك . فثناء المرزوقي وإشادته بهذا الغرض البلاغي لهذه الجملة الاعتراضية وبيان غرضها البلاغي دليل على أنه اعتراض لاحشو ؛ لأن الحشو زيادة لابلاغة فيه ولافائدة منه ؛ كما مرّ بيانه . لكنه من اختلاط المفهومات وتداخل المصطلحات التي قد لايَسْلَم منها أحد .

وهذا السكاكي يعدّ (الاعتراض) من فنون البديع المعنوي ، ويقول : « ويسمّى (الحشو) ؛ وهو أن تدرج في الكلام مايتم المعنى بدونه » ، واستشهد له بقول طرفة :

فسقى ديارَكِ غير مفسدها * صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمي

ثم قال : « فأدرج (غير مفسدها) » . كما يستشهد عليه بشواهد أُخرَ كلها معدودة في فن الإطناب ؛ منها ماهو بصورة (الاعتراض) حقيقة ، ومنها ماهو بصورة

(التكميل أو الاحتراس) ؛ كبيت طرفة المتقدم[٥٢٣].

فتأمل كيف أدخل صورة (التكميل أو الاحتراس) في صورة (الاعتراض) ، وكيف جعل (الحشو) هو (الاعتراض) ، وعدَّهما من فنون البديع ، ثم جعلهما معاً مما يُدْرج في كلام يتم المعنى بدونه ، ولافائدة له ! . مع أن مذهب جمهور المحققين من البلاغيين : أن الحشو غير الاعتراض ، وأن الاعتراض صورة من صور (الإطناب) الكثيرة المعروفة في علم المعاني ، وأن صورة (الاعتراض) لاتلتقي مع صورة (التكميل أو الاحتراس) في المفهوم أو الدلالة ، وإن كان كل منهما صورة من صور (الإطناب) ، لكن لكل منهما سِمَةٌ فنية خاصة ، ونكتة بلاغية يتفرَّد بها .

ويكفي أن القزويني - وهو التلميذ النابه للسكاكي - قد فرّق تفريقاً كبيراً بين الحشو والاعتراض ؛ على نحو ماسبق بيانه ! .

- وقال المرار بن سعيد :

٢- وللْحِلمُ خيرٌ فاعلَمَنْ مَغبَّةً * من الجهل إلاّ أن تَشَمَّسَ من ظُلْمِ

وكما جمع المرزوقي - خطأً - في النموذج السابق بين الحشو والاعتراض في مصطلح واحد ذي دلالة واحدة ؛ هي دلالة الاعتراض عبّر هنا عن مصطلح (الاعتراض) بمصطلح (الحشو) ، وقال عنه : إنه حشو مفيد ليس من قبيل الزوائد والفضول ! .

والمعروف أن (الحشو) بضربيه غير مفيد وإنما هو عيٌّ وخطل في الكلام ينافي بلاغته ، ولكن المرزوقي أراد بهذا الحشو (الاعتراض) ؛ لأنه صورة من صور (الإطناب) التي تأتي لإفادة نكتة بلاغية فعبّر عنه خطأً بأنه حشو مفيد .

وقد تكلم المرزوقي على الاعتراض في قول الشاعر : (فاعلمن) ، وبيّن أنه عمدة في الكلام مُحتاج إليه ، والغرض البلاغي منه : التنبيه على شأن الحلم وإدراك فضله وقيمته والتوكيد على استصحابه في مواضعه . يقول المرزوقي في ذلك :

« ... وقوله : (فاعلمن) حشوٌ . فإن قيل : كيف اخْتِير هذا البيت بهذا الحشو ،

---

(٥٢٣) مفتاح العلوم ١٨٠ ، ١٨١ . وقد أشار ابن حجة إلى ذلك ؛ حين قال في حدّ الاعتراض « ومنهم من سمّاه الحشو » ، ثم فرّق ابن حجة بينهما كما يفرق جمهور البلاغيين . انظر : خزانة الأدب ٢/ ٢٨٠ .

والمتكلم إذا استعمل في كلامه مع المخاطب (اعلم) و (اسمع) ومايجري مجراهما عُدَّ ذلك مه عِيّاً ؟ قلت : إن هذه اللفظة في هذا المكان يُحتاج إليها في عمدة المعنى المقصود ، وإن ما أشرتَ إليه إنما يكون زوائد وفضولاً لايُحتاج إليه ، فإذا وصل المتكلم بها كلامه مستعيناً بها عُدَّ منه خطلاً وعِيًا ، وهو في هذا المكان وصّاه بالفكر فيما أورده والتبيُّن له ، وبمعرفة الحلم ووقته حتى يدري كيف يأخذ به ؛ فقوله : (فاعلمن) فاعرفن ، ومفعوله محذوف ، والمراد : فاعْلمنّ الحلم ومغبّته فأطلق . [ثم] رجع فيما أشار به مطلقاً ، واستثنى في كلامه ؛ فقال : إلا أن تنفر من ظلم يركبك وهضيمة تنالك فإن الجهل في ذلك الوقت أرجح في الاختيار من الحلم ؛ إذْ كان صَدْمُ الشرِّ بالشرّ أقرب ، ودفع الجهل بالجهل أحكم »[(٥٢٤)].

وكلام المرزوقي هذا كلام فني عميق يدل على معرفة دقيقة بنظم الكلام وبصر بطبيعة تراكيبه ، ومايمكن أن يؤثر على هذا النظم أو التراكيب ؛ مما يُخلّ بشروط الفصاحة أو نظام البلاغة . لكن ماقاله يكون في الاعتراض وليس في الحشو ؛ كما ذكر ؛ على نحو مابيّنت آنفاً ، وماسبق في بحث النموذج الذي قبله ، وفي مقدمة مبحث التطويل والحشو ؛ ذلك أن الحشو غير الاعتراض ؛ فالاعتراض صورة من صور (الإطناب) التي لاتأتي إلا لتحقيق نكتة بلاغية يقتضيها سياق الكلام أو قرينة الحال ، أما الحشو فإنه غير مفيد ألبتة ، وهو كما قال المرزوقي عنه في نصه الآنف ذكره : عِيٌّ واستعانة وخطل وهو زوائد في الكلام وفضول يستغني الكلام عنها ولايحتاج إليها . أما الاعتراض ففصاحة وبلاغة ، ولازيادة فيه ولافضول ، ولكن يستدعيه الكلام ويحتاجه ؛ لأنه فيه بمنزلة العمدة في الكلام فيأتي لتحقيق فائدة بلاغية ؛ شأنه في ذلك شأن بقية صور الإطناب وطرقه .

لكن المرزوقي تجوّز في هذا الاستعمال كثيراً ؛ حين جعل الحشو على ضربين : مفيد . وغير مفيد . وجعل المفيد فصاحة وبلاغة ، وجعل غير المفيد خَطلاً وعِيًا . ثم

---

(٥٢٤) شرح ديوان الحماسة ١١١٩/٣ ، ١١٢٠ . وقد ورد عنده : « رجع فيما أشار به مطلقا » . وقد زِدْتُ كلمة (ثم) قبل قوله : (رجع) ؛ ليستقيم بها نظم الكلام ومعناه .

وقد وردتْ آخر كلمة عند المرزوقي : (أحلم) وجعلتُها (أحكم) ؛ لأنها وردتْ عند العبيدي كذلك . وهي أنسب في المعنى وأصح ؛ إذ الجهل ضد الحلم دائماً ، ولكنه من الحكمة أحيانا .

جعل الحشو المفيد من جنس الاعتراض ، بل هو الاعتراض عنده ؛ كما سبق أن جمع بينهما في النموذج الذي قبل هذا النموذج .

هذا هو مايوحي به كلام المرزوقي ويدل عليه تصرّفه دلالة تضمنيّة ؛ في كلامه على هذا النموذج ، وفي النموذج الذي سبقه . ومثل هذا التجوز في استعمال المصطلحات يُعدُّ خطأً وتجاوزاً ؛ إذْ ليس كلّ تجوّز مقبول .

أما التبريزي فلم يقف عند هذا البيت ؛ ببيان موقع قوله : (فاعلمن) من الفصاحة والبلاغة ، ولم يتطرق إليه البتة ؛ لا بمصطلح الحشو المفيد ، ولاغير المفيد ، ولا الاعتراض ، ولاغير ذلك ، مع أنه نقل أكثر شرح البيت عن المرزوقي ، لكنه تجاوز كلامه الفني الدقيق الآنف ذكره في كلامه على (الحشو) بل (الاعتراض) في قوله : (فاعلمنّ) ، وترك نقل هذا الكلام عنه على الرغم من أهميته البالغة ! [٥٢٥].

وقد نقل العبيدي كلام المرزوقي في قول الشاعر (فاعلمنّ) نقله عنه بتصرف يسير فيه ، لكنه جعله من قبيل الفصل وليس الحشو . والفصل أقرب إلى مصطلح الاعتراض من الحشو ؛ قال العبيدي :

« ... فإن قيل : كيف يجوز الفصل بقوله : (فاعلمنّ) بين المميّز عنه والتمييز ، والمتكلم إذا استعمل في كلامه مع المخاطب اعلم واسمع ومايجري مجراهما عُدَّ ذلك عِيًا . قلتَ : إن هذه اللفظة في هذا المكان يُحتاج إليها في عمدة المعنى المقصود ، وإن ما أشرتَ إليه إنما يكون زوائد وفضولاً لايحتاج إليه ... ... » ثم ساق بقية كلام المرزوقي في هذا الشأن إلى آخره ! [٥٢٦].

- وقال آخر يصف امرأة بالدّمامة والقبح :

٧- وتَفْتَرُّ عن قَلْعٍ عَدِمْتُ حديثَها * وعن جَبَلَيْ طيٍّ وعن هَرَمَيْ مِصْرِ

قال المرزوقي مبيناً مافي قوله : (عدمت حديثها) من البلاغة ؛ ذاكراً أنه من الحشو الحسن ، ومبيناً غرضه البلاغي ، موازناً بينه وبين قول شاعر آخر في الغرض وحسن الموقع في الكلام :

---

(٥٢٥) انظر : شرح ديوان الحماسة ١٢٩/٣ .

(٥٢٦) شرح المضنون به على غير أهله ٤٩ ، ٥٠ .

« وقوله : (عَدِمتُ حديثَها) دعاءٌ لنفسه ، وعليها ، وهو من الحشو الحسن . ومثله في الدعاء وحسن الموقع قول الآخر :

إنّ الثمانـين وبلّغتَهـا * قد أحوجتْ سمْعي إلى تُرْجُمانْ »[٥٢٧]

ولم يرد شيءٌ يتّصل بهذا عند التبريزي أثناء شرحه البيت ![٥٢٨].

وهذا من الإطناب بصورة (الاعتراض) . وليس من الحشو الحسن ؛ لأن الحشو ليس فيه حسن ، وإنما كله قبيح ؛ لمنافاته الفصاحة ، وزيادته في الكلام عن الحاجة ، وعدم إفادته نكتةً أو بلاغة ، وإنما هو عِيٌّ ينأى بالكلام عن أدنى رتبة من الفصاحة أو البلاغة . فاستعمال المرزوقي مصطلح الحشو للدلالة على الاعتراض من التجوّز الخاطئ الذي لايستقيم ؛ لمخالفته ماقرّره المحققون في هذا الفن ؛ كما سبق بيانه مراراً .

والبيت الذي وازنه المرزوقي بقول الشاعر وماثله به في حسن الموقع والغرض البلاغي ؛ أعني قوله : (إن الثمانين وبلّغتها) هو مما اشتهر عند البلاغيين في (الإطناب) بصورة (الاعتراض) لغرض الدعاء . ولم يَعُدُّوه في باب الحشو الحسن، كما عدّه المرزوقي ![٥٢٩].

وإنما حسن موقع هذين الاعتراضين لتحقيقهما غرضاً بلاغياً ؛ هو الدعاء ؛ ففي البيت الأول دعا الشاعر لنفسه بأن يفقد هذه المرأة ، كما دعا عليها بالموت ؛ فقال : (عدمت حديثها) . وفي البيت الآخر دعا الشاعر بجملة الاعتراض : (وبلّغتَها) لمخاطبه بأن يُبلّغه اللهُ هذا العمر الطويل . فتحقيق هذين الاعتراضين لهذا الغرض البلاغي ، وتناسب هذين الاعتراضين وغرضهما البلاغي في الفكرة والمضمون مع السياق وقرائن الحال في البيتين – هو السبب في حسن موقع الاعتراض في هذين البيتين عند هذين الشاعرين .

ولقد أحسن المرزوقي في ثنائه – بالحُسن – على موقع هذين الاعتراضين ، وفي بيانه غرضهما البلاغي . ولئن كان المرزوقي عدّهما من الحشو الحسن فإنما

---

(٥٢٧) شرح ديوان الحماسة ١٨٧٨/٤ .

(٥٢٨) انظر : شرح ديوان الحماسة ٣٧٠/٤ .

(٥٢٩) انظر : الإيضاح ٣١٤ ، والصناعتين ٤٤١ .

مراده أنهما من الاعتراض الحَسَن ، لكنه أخطأ المصطلح البلاغي ؛ فخلط بين هذين المصطلحين ؛ على طريقته في استعمال مصطلح الحشو للاعتراض والاعتراض للحشو ؛ كما سبق بيان ذلك .

- قال التاج الكندي :

يا مَنْ يقول الشِّعرَ غيرَ مُهذَّبٍ * ويَسومُني التعذيبَ في تهذيبِه

لو أنَّ كلَّ الخلقِ فيه مُساعدي * لَعَجَزْتُ عن تهذيب ماتَهْذِي بهِ

فسَّر العبيدي الشعر المهذَّب بأنه المنقَّح البريء من الحشو والعيوب . وذكر أن معنى التهذيب : التنقية ، ورجل مهذَّب في مَنْطِقه : إذا كان غير معيب فيه . والهذيان: الفحش في الكلام وفساد المنطق .

ولعله من المناسب أن آتي بنصِّ كلامه في ذلك ، وبتفسيره معنى البيت وفق تفسيره لمعنى التهذيب :

« شعر مهذب : أي نقيٌّ من العيوب . ورجل مهذَّب : مُطهَّرالأخلاق . و (غير مهذَّب) منصوب على الحال ، وغير المهذَّب . هو الذي يكون فيه العيب . وسام يَسوم سَوْماً : أي طلب . والتهذيب : التنقية . وهَذَا في مَنْطِقه يَهْذِي ويَهْذُو وهَذْواً وهَذَياناً : أي أفحش .

يقول : يامن يقول الشعر معيوباً غير منقَّح عن الحشو والعيب ، ويطلبني التعذيب في تنقيحه وتزيينه فهذا أمر مستحيل ؛ لأنه لو اجتمع جميع الخلائق مساعداً إليَّ في تهذيبه لعجزت ؛ أي : لصرتُ عاجزاً عن تنقيح ماتهذي به وإصلاح ما أفسدت »[(٥٣٠)] .

ولقد أحسن العبيدي في هذه التفسيرات التي بيَّن فيها - بوضوح - الشعرَ المهذَّب ودلالات التهذيب في أخلاق الرجال ومَنْطِقهم ، كما أحسن في بيانه مراد الشاعر في المعنى العام للبيت الذي أوضحه مستدلاً بدلالات تراكيب البيت ونظمه وبما ساقه من تفسير لمعنى التهذيب .

---

(٥٣٠) شرح المضنون به على غير أهله ٥١٥ ، ٥١٦ .

وعلى هذا فالشعر المهذب هو : المنقّح المبرأ من الحشو والعيوب . والشعر غير المهذب هو : الذي اكتنفته عيوب الحشو والركاكة والغموض ، وسائر العيوب المختلفة المُخلّة بفصاحته وبلاغته .

وإذا لم يسلم الشعر من الحشو ، واكتنفه سوءُ التهذيب فقد اختلَّ معناه وضعف مبناه ، وصار إلى الهذيان والهذر أقرب منه إلى الشعر ؛ ومن ثَمَّ خرج مثل هذا الشعر - الذي اكتنفه الحشو وسوء التهذيب - عن عمود الشعر العربي الفني السليم ؛ من جهة خصال أربع ؛ هي : صحة المعنى ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والتحام أجزاء النظم والتئامها ، ومشاكله اللفظ للمعنى . على أنه يتفاوت نصيب كُلّ من هذه الخصال الأربع من الشعر الذي ساده الحشو وسوء التهذيب ، وبدرجة هذا التفاوت يكون مقدار خروج مثل هذا الشعر من نظام عمود الشعر الفني عند العرب .

ومثل قول هذا الشاعر في بيتيه الآنفي الذكر قال الآخر في هذا المعنى :

لاتَعْرِضَنَّ على الرُّواةِ قصيـــدةً * مالم تُبالـِغْ قَبْلُ في تهذيبهـــا
فمتى عَرضْتَ الشعر غيرَ مُهذَّبٍ * عَدُّوهُ منكَ وساوساً تهذي بها

وقال البحتري في هذا المعنى كذلك :

والشعـــر لَمْحٌ تكفـــي إشارتُهُ * وليـــس بالهَذْر طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

والبحتري خير من جرى على عمود الشعر العربي في العصر العباسي .

- وقال الشاعر :

كَتَبْتُ واللَّيلُ - مدّ الله ظِلَّكمُ - * كما تكون ليالي الصَّبِّ مَمْدودُ

قال العبيدي في تفسير معنى البيت ، وبيان مافيه من حشو - على حدّ تقريره - مشيراً إلى الغرض البلاغي لهذا الحشو :

« أي كتبت إليك كتاباً والليل ممدود طويل كما تكون ليالي العاشق المتيَّم . و (مدّ الله ظلكم) وقع في الكلام حشواً ، دعاء له ؛ أي : طول الله عمركم »[٥٣١] .

---

(٥٣١) شرح المضنون به على غير أهله ٥٥٣ .

وماقال عنه العبيدي إنه حشو في الكلام قد أخطأ فيه ؛ إذْ هو إطناب بصورة (الاعتراض) ؛ فقوله : (مدّ الله ظلّكم) جملةٌ دعائية جاءت معترضة بين المبتدأ والخبر . والغرض البلاغي منها : الدعاء لصاحبه ، تأكيداً لمودته إيّاه ومحبته ؛ ولذلك دعا له بهذا الاعتراض بطول العمر .

وإنما الذي جعل العبيدي يعدّ هذه الجملة الاعتراضية من قبيل الحشو ماتضمنته من فائدة ونكتة بلاغية توسُّعاً منه في الاستعمال وتجوُّزاً ؛ فأطلق على هذا الاعتراض مصطلح (الحشو) لمّا كان حشواً مفيداً في نظره ؛ كما كان المرزوقي يجمع بينهما بمصطلح واحد ذي دلالة واحدة . وإلاّ فإن الحشو لافائدة فيه ، بل يتضمن فضول الكلام وزوائده التي قد تفسد المعنى ، أو هي مما يستغنى عنه ولافائدة منه ، وقد تخل بالكلام وتثقله ! [٥٣٢].

ولم أتبيّن في شرحي أبي بكر الأنباري وابن النحاس للمعلقات ، أو في معاني أبيات الحماسة لأبي عبدالله النمري ، أو في أسرار الحماسة للمرصفي ؛ لم أتبيّن لديهم مايحسن إضافته إلى ماسبق بيانه ودراسته من جهود سائر الشرّاح في بحث مسألة : (التطويل والحشو) .

---

(٥٣٢) وعلى هذه الطريقة أيضا جاء تعليق العبيدي على قول الشاعر :

بلغتَ على رغم العدى ماتؤمل * وأمرُك مقبولٌ وجَدُّكَ مُقْبِلُ

فذكر أن قوله : (على رغم العدى) وقع حشواً بين الفعل ومفعوله ، لكنه لم يتصيَّد نكتة بلاغية لما سماه حشواً ، وهو اعتراض ! .

انظر : شرح المضنون به على غير أهله ١٩٨ . ومثله ماقاله عن قول أبي نواس :

كأنهــم أثْنَو فلــم يَعْلَمــوا * عليك عندي بالـذي عابوا

فذكر أن قوله : (فلم يعلموا) وقع حشواً بين العامل والمعمول دون أن يبيِّن السر البلاغي لهذا الاعتراض وليس الحشو ! .

انظر : شرح المضنون به على غير أهله ٢٦٢ .

الفصل الثاني
مباحث علم البيان

مباحث علم البيان في شروح الاختيارات الشعرية

قبل أن أبدأ في دراسة مباحث علم البيان في شروح الاختيارات الشعرية يحسن أن نتبيّن حدَّ علم البيان ، ونتعرف على ماهيته ، وموقعه من علوم البلاغة.

وقد حدَّ البلاغيون علم البيان بأنه : العلم الذي يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[(١)].

ومعنى هذا أن علم البيان يقوم على معرفة معنىً من المعاني بطرق مختلفة من التراكيب ، وصور متفاوتة من النظم مختلفة فيما بينها في دلالتها على ذلك المعنى ؛ قوة وضعفاً ؛ فقد يُعبَّر عن معنى الكرم مثلا بطريق التشبيه ، كما يعبر عنه بصورة المجاز والاستعارة ، وقد يعبر عنه بصورة الكناية، أو بطريق التعريض. ولكن هذه الطرق أو الصور الفنية تتفاوت في دلالتها على معنى الكرم، وبيانها إيّاه قوةً وضعفاً. ولذلك سُمِّي علم البيان ؛ لتفاوت هذه الطرق في بيانها للمعاني ودلالتها عليه.

وإذا كانت مباحث علم المعاني ومسائله بمثابة الأسس والأصول أو القواعد لعلوم البلاغة العربية كلها ؛ لابتناء علوم الفصاحة والبلاغة في شتى مباحثها وفنونها وصور التعبير فيها على مباحث علم المعاني ومسائله ؛ لأن مباحث علم المعاني ومسائله أشبه بالأسس والأصول التي يُبنى عليها نظم الكلام نظمًا فصيحاً بليغاً. ذلك أن مباحث هذا العلم - أعني علم المعاني - إضافة إلى كونها عُمَداً في الكلام لابد أن يراعى فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . ومراعاة أصول الكلام الفصيح لمقتضى الحال هو أُسُّ البلاغة ورأسها.

إذا كانت حال مباحث علم المعاني ومسائله من البلاغة وعلومها كما ذكرت فإن علم البيان يأتي بعده في درجة الأهمية والأثر ؛ فهو يقوم - كما سبق بيانه - على صور بيانية فنية تتفاوت فيما بينها قوة وضعفاً في تبيين معنى من المعاني وإيضاحه ، أو في الدلالة عليه والتعريف به .

---

(١) الإيضاح ٣٢٦.

على أن لصور علم البيان وفنونه أثراً ذا خطر عظيم في بيان المعاني والدلالة عليها لاينكره إلا مَنْ لم يُؤت حظّاً من معرفة هذه الصور الفنية وتنوقها ومعرفة قيمتها في الإبداع وتصوير المعاني وجلائها وعمق تأثيرها في المتلقّين ، وبخاصة إذا توافر على بيان معنى من المعاني وتصويره صورٌ فنية متعددة من صور علم البيان وفنونه وطرق التعبير فيه فاشتركت معاً في إخراج هذا المعنى أو ذاك بصورة فنية بديعة عميقة التأثير ؛ وذلك فيما يعرف بالخيال الكلي.

ومما يحسن التأكيد عليه في هذا المقام : أنّ فنون علم البيان لا تكون أو تقوم بصورها الفنية المؤثرة إلا بعد أن يكون الأساس - أعني علم المعاني- فلابد أن يكون الكلام في أساسه فصيحاً ، قد روعي فيه مطابقة مقتضى الحال حتى تكون الصور البيانية وتقوم بوظيفتها الفنية في بيان المعاني وإيضاحها والدلالة عليها دلالة قوية واضحة مؤثرة .

وإذْ قد تم التعريف بعلم البيان ، وتبينتَ موقعه من علوم البلاغة وأثره فيها ، وعلاقته بعلم المعاني فسأورد بياناً بمباحث هذا العلم وفنونه المتصلة به ؛ كما اشتهرت عند البلاغيين ؛ وهي :

أولاً : التشبيه .

ثانياً : الحقيقة و المجاز.

ثالثاً : الكناية والتعريض.

وسأقوم بعرض هذه المباحث ودراستها في شروح الاختيارات الشعرية دراسة تفي بالغرض - إن شاء الله تعالى- وتعطي تعريفاً دقيقاً بطبيعة بحث شرّاح الاختيارات لمباحث هذا العلم وفنونه ؛ وفق الخطة المعتمدة للبحث ومنهجي المتبع فيه.

وقبل أن أبدأ في عرض هذه المباحث ودراستها في شروح الاختيارات يجدر التنبيه إلى أن عناية شرّاح الاختيارات بمصطلحات مباحث علم البيان وفنونه أكثر وأدق تحديداً من عنايتهم بمصطلحات مباحث علم المعاني، ولست أعني بذلك المصطلحات البلاغية الفرعية الجزئية لمباحث علم البيان وفنونه ، وإنما أعني المصطلحات العامة لمباحث هذا العلم وفنونه ؛ مثل مصطلح:(التشبيه) و(المجاز) و(الاستعارة) و(الكناية) أما المصطلحات الفرعية أو الجزئيةالمتفرعة أو المتصلة بتلك المصطلحات العامة فعنايتهم بها أقل بل لاتكاد تقف في بحوثهم على تحديد علمي بلاغي دقيق لها إلا نادراً ، لكنهم - أحياناً - يشيرون إليها إشارة تختلف قوة

وضعفاً في الدلالة على تلك المصطلحات الفرعية . وهذه الإشارة قد تلمحها من تعليقهم على المصطلح العام الذي يتكلمون عليه أثناء شروحهم الشعرية ، أو تُفيدها من تحليلهم لبعض الصور الفنية لهذه المصطلحات العامة؛ فقد يذكر أحدهم أن في البيت تشبيهاً مثلاً ، ثم يُبيِّن موقعه منه ، وقد يشير إلى طرفيه والوجه الجامع، لكنه لايذكر مثلاً أن هذا هو المشبه ، وذاك هو المشبه به ، والوجه الجامع بينهما كذا . لكنك تلمح ذلك وتفيده من الإشارات العارضة إليه أثناء بيانهم صورة التشبيه بوجه عام.

وما يقال عن التشبيه يقال عن المجاز المرسل وعلاقاته أو المجاز العقلي وعلاقاته أو الاستعارة وأنواعها وما يتصل بها من تقسيمات وتفريعات فنية. أو الكناية وأقسامها باعتبار المكني عنه ؛ فهم لايقولون مثلاً : هذه كناية عن صفة، وتلك عن موصوف ، وأخرى عن نسبة.

وسيتضح ذلك جلياً - بإذن الله تعالى - أثناء عرضي لجهودهم في ذلك ودراستي إيّاه دراسة مفصّلة في المباحث التالية:

أولاً : التشبيه

يشمل البحث في فن (التشبيه) - أول مباحث علم البيان وفنونه - في شروح الاختيارات الشعرية المباحثَ الجزئية التالية:

أ - فائدته. ب - أغراضه .

ج - أنواعه. د - المقبول والمردود.

أ - فائدة التشبيه

لم أتبيّن عند شراح الاختيارات الشعرية كلاماً واضحاً منهم على فائدة فن (التشبيه) ؛ على نحو ما اشتهر عند البلاغيين من أن للتشبيه فوائد ترجع إليها أسباب بلاغته ؛ مثل:

- مايحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفّي إلى جلّي.

أو بإخراج النفس مما لم تألَفْه إلى ماألِفَتْه.

أو مما لم تعلمه إلى ماهي به أعلم كالانتقال من المعقول إلى المحسوس.

- ومن فوائد التشبيه وأسباب بلاغته : تحقيقه لمعنى الاستطراف.

- ومنها : إعطاؤه للشيء الواحد أشباها متعددة ؛ نحو أن يُشبَّه الجوادُ والذكيّ والنُّجْحُ في الحاجات بإيراء الزند، أو يشبّه البخيل والبليد والخيبة في السَّعي بإصلاد الزند.(٢)

ونحو ذلك من فوائد التشبيه التي هي أسباب بلاغته والتي تتعلق في تمكين المعنى في النفس وتقريبه ، واستطراف المعاني واستظرافها ، والتيسير على الأديب وتوسيع دائرة وسائله التعبيرية في صوره الفنية وإبداعاته الأدبية.

ولعل مما يمكن أن يُعدّ - بعد النظر المتأمِّل - من فوائد التشبيه في شروح الاختيارات الشعرية - ماورد عند أبي بكر الأنباري ؛ حين بيّن حقيقة التشبيه عند العرب ؛ وأنهم يُشبِّهون الشيء بالشيء على جهة التقريب للمعنى وإيضاحه في النفس، وأن مرادهم أيضاً - من تشبيه المشبه بالمشبه به - القصد إلى بيان صفة من صفات المشّبه به في المشبه ، وليس القصد إلى بيان كل صفات المشبه به في المشبه وإثباتها فيه ؛ لأنها قد تستحيل أن تكون كلها ثابتة في المشبه . قال أبو بكر الأنباري في قول عنترة بن شدّاد:

١٦ -جادتْ عليه كلُّ بِكْرٍ ثَرَّةٍ * فتَرَكْنَ كلَّ حديقة كالدِّرْهَمِ

«... وقوله : (كالدرهم) معناه: أنها امتلأت كلها فكأنّ استدارتها بالماء استدارة الدِّرهم ، وليس أنها كقدر الدرهم في السعة . والعرب تُشبِّه الشيء بالشيء ولا تريد به كلَّ ذلك الشيء ، إنما تُشبِّهه ببعضه ؛ من ذلك قولهم:(بنو فلان بأرض مثل حَدَقَة الجمل) والأرض واسعة ، إنما يريدون : أنها كثيرة الماء ناعمة العشب مُخْصِبة ، ولم يذهبوا إلى سعة العين ولا ضيقها ، ويقولون : (بنو فلان في مثل حُوَلاء الناقة) ؛ وهي هَنَةٌ مثل المرآة تسقط مع السَّلى فيها ماء صاف.»(٣)

ويمكن - كذلك - أن يُعدَّ من فوائد التشبيه ماورد عند أبي عبد الله النمري في شرحه وتعليقه على قول أحد بني فقعس :

وأنّا نرى أقدامنا في نعالهمْ * وآنُفَنَا بين اللّحى والحواجب

- بكلام دلّ به على أن مبنى التشبيه على التوسع في استعمال اللغة قصداً إلى إثبات صحة الشبه وتقريبه بين المتشابهين ؛ وهما : طرفا التشبيه ؛ المشبَّه به

---

(٢) انظر الإيضاح ٣٣١ - ٣٣٥.

(٣) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٣١٢.

والمشبّه. قال أبو عبد الله النمري في ذلك:

« يقول :نحن نُشْبِههم وهم يُشبِهوننا ؛ فكأن أقدامنا في نعالهم وكأن آنُفَنا بين لحاهم وحواجبهم . والشاعر وإن زعم أن أقدامهم على الحقيقة في نِعال أولئك فهو توسُّع في اللُّغة ، وإنما يريد صحةّ الشَّبَه ؛ كقولك للغلام : (عَيْن أبيكَ في وجهك)؛ أي: عينكَ تشبه عين أبيك.»[٤]

على أنك لو تأملت لوجدت تشابهاً فنّياً كبيراً بين فوائد التشبيه وأغراضه البلاغية ؛ ذلك أن فوائد التشبيه هي أسباب بلاغته وأن أغراض التشبيه ماهي – عند النظر والتحقيق – إلا فوائده وأسباب بلاغته كذلك ، ولا أدلّ على ذلك من أن القزويني عدّ معنى (الاستطراف) من فوائد التشبيه وأسباب بلاغته؛ حين قال: «... ومنها : الاستطراف ؛ كما سيأتي.» مشيراً بقوله :(كما سيأتي) إلى وجود هذه الفائدة أو هذا السبب من بين أغراض التشبيه كذلك !.

ولمّا بحث في أغراض التشبيه عدّ منها (الاستطراف) ؛ فقال:

« ... ومنها : استطرافه ...» [٥]

كما أنه عرّف التشبيه المقبول بأنه : الوافي بإفادة الغرض البلاغي وأن التشبيه المردود : ماكان بخلافه؛ أي قاصراً عن إفادة الغرض البلاغي.[٦]

وكلّ ذلك دليل على التشابه الكبير بين هذين المصطلحين ؛ أعني الفوائد البلاغية للتشبيه وأغراضه البلاغية ، وأنهما متداخلان تداخلاً يصعب معه إفراد أحدهما من الآخر ، أو تحديد أن هذه الفائدة البلاغية لتشبيه مّا ليست غرضاً بلاغياً له ، أو أن هذا الغرض البلاغي لذلك التشبيه ليس فائدة بلاغية له !.

ولك أن تتأمل في ذلك أكثر حين تُنعم النظر وتمعن الفكر في أغراض التشبيه في شروح الاختيارات الشعرية في المبحث التالي:

---

(٤) معاني أبيات الحماسة ٧٨ . ونقل عن أبي رياش – رحمه الله – قوله : « ويقال : إن أكثر الشَّبَه في الأقدام والأكف.»

(٥) الإيضاح ٣٣٢، ٣٥٩.

(٦) الإيضاح ٣٨٩.

ب - أغراض التشبيـــه :

بالنظر في صور التشبيه في شروح الاختيارات الشعرية والتأمل في أغراضها البلاغية وتصنيفها وجدتُها تنحصر في الأغراض البلاغية التالية :

١ - بيان حال المشبه .

٢ - بيان مقدار حال المشبه .

٣ - تقرير حاله في النفس.

٤ - تزيينه وتحسينه؛ للترغيب فيه .

٥ - تشيينه وتشويهه ؛ للتنفير منه.

وهذه الأغراض جميعها راجعة إلى المشبه فقط - كما هو الأغلب - ، دون المشبه به .

وأعرض بالدرس ماتبّينتُه من نماذج لهذه الأغراض البلاغية للتشبيه عند شراح الاختيارات الشعرية:

أ - بيان حال المشبه :

- قال كعب بن سعد الغنوي:

أولئك مَعْشرٌ كبنـات نَعْشٍ * رواكِدَ لاتسيرُ مـع الـنجومِ

(بنات نعش) نجوم دُريَّة مضيئة. ولكن الشاعر لم يرد تشبيههم بهن من هذه الجهة، وإنما من جهة الركود والثبات في موضع واحد؛ ولذلك خصّص مايدل على وجه الشبه المراد في هذا التشبيه عندما قال: (رواكد لاتسير مع النجوم) ؛ فمراد الشاعر بهذا التشبيه : أن هؤلاء المهجوين لايَقْدُمون إلى الملوك ولا يغزون الأعداء ولا ينتجعون الغيث، وإنما هم مقيمون أبداً لايبرحون الذل والمهانة والصغار والقناعة بأدنى البُلْغة . قال أبو عبد الله النمري في إيضاح مراد الشاعر بهذا التشبيه :

« ويروى (لاتغور). و(بنات نعش) نجوم دُرِّيَّة مضيئة . غير أنه لم يشبههم بها من هذه الجهة ، ولكنه من جهة الركود ، وهو الثبوت في موضع واحد؛ فيقول: هؤلاء القوم لايَقدمون إلى الملوك ، ولا يغزون العدوّ ، ولا ينتجعون الغيث ، إنما

يقيمون على الذلة والصَّغار والقناعة بالبُلغة.»[٧].

وقد أحسن النمري في بيان مراد الشاعر من هذا التشبيه ، وفي دلالته على غرضه البلاغي ، وإن كانت هذه الدلالة غير صريحة أو مباشرة ، لكن مقتضى بيان النمري لطبيعة هذا التشبيه ومقصود الشاعر منه ، وتخصيصه من كلام الشاعر مايدل على وجه الشبه المراد من هذا التشبيه - كلّ ذلك يدل على الغرض البلاغي الذي أراده الشاعر ويشير إليه إشارة قوية، وهذا الغرض البلاغي هو : بيان حال المشبه وصفته ، وقد كشف عنه هذا التشبيهُ الذي بيَّن فيه الشاعر حال هؤلاء وصوّر صفتهم؛ حتى تحقق له ماأراد من هذا الغرض البلاغي الذي تضمن وجهاً من الهجاء فيه من المرارة والقسوة مالايخفى . وإذا كان الشاعر قد حقق غرضه في بيان حال هؤلاء ووصفهم وتحقق له بذلك مايقصد إليه؛ من الهجاء لهم - فإنه قد تحقّق له مايرومه من غرض جرّه ذلك الهجاء ؛ وهو التنفير من هؤلاء والترغيب عنهم، وذلك غرض من الأغراض البليغة لفن التشبيه التصويري.

- وقال أبو كبير الهذلي:

٧ - وإذا يَهُبُّ من المنام رأيتَه * كَرَتُوبِ كَعْبِ الساقِ ليس بزُمَّلِ

قال المرزوقي في بيان مراد الشاعر:

« .. يقول: إذا استيقظ هذا الرجل من منامه انتصب في مضجعه سريعاً كانتصاب كعب الساق في الساق، وهو ليس بضعيف ، وإنما يعني شهامته وتشمُّره في تلك الحالة . وكعب الساق منتصبٌ أبداً في موضعه ؛ فلذلك شبّهه به.».

ثم قال: « ... وهذا التشبيه يجري مجرى التصوير.»[٨]

ونقل التبريزي بعض كلام المرزوقي بتصرف ، لكن التبريزي لم يشر إلى مانحن بصدده من غاية التشبيه هنا وبيان غرضه ؛ إذْ لم يذكر - أو ينقل عنه - مصطلح

---

(٧) معاني أبيات الحماسة ٢٠٩.

(٨) شرح ديوان الحماسة ١/ ٩٠.

التشبيه التصويري أو مايجري مجراه . وهذا أهم مايمكن ذكره أو التنبيه إليه في هذا الشأن !.[٩]

ولكن ماقصد المرزوقي بمصطلح التشبيه التصويري أو مايجري مجراه ؟ فكما رأيت فالمرزوقي أطلق هذا المصطلح إطلاقاً عاماً ، وأصدره حكماً حكم به على طبيعة التشبيه عند الشاعر ؛ فقال - بعد أن أوضح هذا التشبيه بالشرح والتفسير-:

« ... وهذا التشبيه يجري مجرى التصوير» ، دون أن يبين المقصود بهذا المصطلح الفني أو يُحلِّله وفق مالدى الشاعر في بيته هذا من نظم بياني اشتمل على هذه الصورة الفنية التشبيهية الجارية مجرى التصوير ؛ كما يذكر.

ولعل المرزوقي كان يقصد بهذا المصطلح التنويه بغاية التشبيه وغرضه البلاغي عند الشاعر ، وأنه بيّن به حال المشبه وصفته؛ حينما أخرج بهذا التشبيه حال المشبه وصفته ونقله إلى حال المشبه به وصفته ؛ فنقل المشبه من حال غائب غير مشهود أو معلوم إلى حال مُحسَّة تشاهد وتدرك بحس البصر ؛ وبذلك قرّب التشبيه وصورةَ المشبه في صورة حسيّة تتمكّن في الذهن وتُعْلم بعد أن تمكّنتْ وعلمتْ بطريق الحس والمشاهدة . ومثل هذا التشبيه تشبيه جارٍ مجرى التصوير، أو هو تشبيه تصويري ، أو قُلْ - كما يقولون في النقد الحديث- : أجاد الشاعر في رسم صورة فنية حيّة قوية شاخصة ؛ بطريق هذا البيان التصويري التشبيهي ، على أن الصورة والحركة تمثلتْ هنا في المشبه أكثر منها في المشبه به؛ لأنها جاءتْ في المشبه به ؛ دون تصوير حركي يَعُجُّ بالحركات الحية المحسَّة ، وإنما هي صورة أو هيئة جامدة في أصل الخِلْقَة. وبلاغة التشبيه في المشبَّه هنا إنما تُستمد من هذه الصورة الجامدة الراسخة في المشبه به ؛ لأن بيان حال المشبّه وصفته الذي هو غرض التشبيه عند الشاعر لم يكن معلوم الحال أو الصفة قبل تشبيهه ذلك المشبه بما شبّهه به.

وقد ورد مصطلح (التشبيه التصويري) في تراثنا البلاغي والنقدي وعُرِف فيه وأُدركت أسراره قبل مايُعرف اليوم -في النقد الحديث- بنظريات البناء التصويري أو

---

(٩) انظر شرح ديوان الحماسة ٨٧/١.

القيم التصويرية ؛ فهاهو الإمام عبد القاهر الجرجاني يتحدث في مبحث التشبيه حديثاً مفصلاً مُحلَّلاً عما سمّاه : (التشبيه في الهيئة التي تقع عليها الحركات)؛ ومما قاله فيه :

« اعلم أنّ مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات. والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين : أحدهما : أن تقترن بغيرها من الأوصاف ؛ كالشكل واللون ونحوهما . والثاني: أن تُجرّد هيئة الحركة حتى لايُراد غيرها.»[١٠]

وما التشبيه في الهيئة التي تقع عليها الحركات إلا التشبيه التصويري أو مايجري مجراه مما عناه المرزوقي في بيت أبي كبير الهذلي ، موضع البحث هنا .

- وقال المنخّل اليشكري:

فَدَفَعْتُهـــا فتدافَعَتْ * مشيَ القطاةِ إلى الغديرِ

قال المرصفي في بيان الغرض البلاغي الذي قصده الشـاعر من هـــذه الصـــورة التشبيهية في البيت :

« (مشى القطاة) بيان لهيئة المِشْية وحسن البخترة.»[١١] .

وقد دلّ المرصفي بهذا الحكم الموجز دلالة قوية على الغرض البلاغي لهذا التشبيه عند الشاعر؛ وأنه لبيان حال المشبّه وصفته .

٢ - بيان مقدار حال المشبّه:

- قال شهل بن شيبان :

٧ - وطَعْنٍ كفم الزِّقِّ * غـــذا والزِّقُّ مـــلآنُ

امتدح المرزوقي الوصف القائم على الصورة الفنية للتشبيه عند الشاعر؛ فذكر أن هذا الوصف أبلغ من قول النابغة :

* وطَعْنٍ كإيزاع المخاض الضّوارب *

---

(١٠) أسـرار البلاغـة ١٥٧ .

(١١) أسـرار الحماسـة ١٤٢/١ .

حيث إن بيت شهل يصف الطعن بسعته ووفرة خروج الدم وسيلانه من مضرب الطعنة ؛ ولذلك شبّهه بفم الزِّق إذا سال بما فيه وهو مملوء.[(١٢)]

وعن نوع هذا التشبيه وغرضه وغايته البلاغية يقول المرزوقي:

«... وهذا التشبيه أبرز مايقلّ في الاعتياد في صورة مايكثر فيه، ومثله :

فَجَبَهْناهُم بضربٍ كما يَخْـــــ ـــرُجُ من خُرْبَةِ المزاد المـــــاءُ

أي : ويطعن في اتساعه وخروج الدم منه كفم الزقّ إذا سال بما فيه وهو مملوء .

... ... فأما قول الهذلي :

* فالطَّعْن شَغْشَغَةٌ والضربُ هَيْقَعةٌ *

فهو حكاية صوت الوقع .»[(١٣)]

وقد أحسن المرزوقي في إشادته العامة بوصف شهل بن شيبان للطعنة؛ وقوله عنها : إنها أبلغ من وصف النابغة لها ، لكنه لم يبين وجه فضل هذه البلاغة في وصف شهل ، ولعله تركه ؛ لأنه يراه واضحاً . كما أحسن في موازناته الشعرية ومقارناته في هذا المعنى، عل أني أقف عند قوله :« وهذا التشبيه أبرز مايقلّ في الاعتياد في صورة مايكثر فيه .» . فقصده من ذلك كلُّ الأوصاف التصويرية التي جاء ت بطريق التشبيه عند هؤلاء الشعراء جميعاً، وليس صورة التشبيه عند شهل فقـط .

---

(١٢) انظر شرح ديوان الحماسة١/٣٧. وقد اكتفى المرزوقي في الموازنة بينهما بقوله:« وهذا الوصف أبلغ من قول النابغة» فقط ، دون أن يبيّن فضل بيت شهل في البلاغة على بيت النابغة . ووجه البلاغة ماأشرت إليه ؛ من أن بيت شهل يصف الطعنة بالعمق والسعة وكثرة الدم الخارج منها ؛ لذلك فقد شبهه بسيلان الماء من فم السقاء المملوء . أما بيت النابغة فقد اكتفى بوصف الطعنة بإيزاع المخاض. وإيزاع المخاض . أو إيزاغها - كما يُروى ؛ انظر حاشية شرح ديوان الحماسة ١/٣٧ - هو : رَمْـــيُ الناقة الحامل ببولها دفعة دفعة (انظر تاج العروس٦. مادة:(وزغ) . وهذا الوصف لن يبلغ في الكثرة مايبلغه مايجري أو يسيل من فم السقاء وهو مملوء .

(١٣) شرح ديوان الحماسة١/٣٧.

وكأن المرزوقي بهذه العبارة الفنية ذات الدلالة العميقة إنما يشير إلى غرض التشبيه وفائدة التصوير فيه عند هؤلاء الشعراء في وصفهم لتلك الطعنات ؛ وذلك أنه تشبيه أوضح الخفيّ بصورة الجليّ ، وما يقلُّ في العادة مشاهدتُه ويضعف تصوُّره بما يكثر مشاهدته ويقوى تصوّره .

وتلك إشارة منه قوية إلى فائدة التصوير الفني بطريق التشبيه عند هؤلاء الشعراء وبيان غرض التشبيه عندهم ؛ وأنه كان لبيان مقدار حال المشبه وصفته قوةً وضعفا . ولم تكن تلك الصور التشبيهية لتحقق هذا الغرض البلاغي لو لم تستطع أن توضح الخفيّ بصورة الجليّ وأن تُظهر مايقل في العادة مشاهدته ويضعُف تصوُّره بما يكثر مشاهدته ويقوى تصوُّره .

وأما التبريزي فإنه لم يشر إلى بلاغة وصف الشاعر هنا وتفضيله على بيت النابغة ؛ كما ذكر المرزوقي، كما أنه لم يذكر فنّ التشبيه وتصويره، أو يشر إلى قيمته الفنّية وغرضه البلاغي ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي.

لكنه ذكر أن الشاعر وصف الطعن بالسعة ، وأن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة . وهذا كلام عام أشبه بشرح البيت وتفسير معناه العام ، ولايفيد فيما نحن بصدده شيئا !.[١٤]

– وقال حاتم الطائي:

١ - وعاذلةٍ قامتْ عليّ تلومني * كأني إذا أعطيتُ مالي أضيمُها

٢ - أعاذلُ إنّ الجود ليس بمُهلكي * ولا يخلد النفسَ الشحيحةَ لومُها

قال المرزوقي مبيناً التشبيه في البيت الأول ، موُضحاً فائدته وغايته ، وأنه جاء لتحقيق غرض الشاعر من هذا التشبيه ؛ ذلك الغرض المتمثل في بيان مقدار حال المشبه وصفته . يقول المرزوقي في ذلك :

« ثم أقبل عليها يخاطبها ، وهذا تشبيه يجري مجرى تصوير الحال في إخراج

---

(١٤) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٦.

الخافي إلى البيان ؛ فيقول :ربَّ لائمة قامت عليَّ تعتب وتوبّخ؛ كأني أبخس حظّاً لها إذا بذلتُ مالي، أو أغصبها حقاً من حقوقها ؛ لتناهي ظلامتها.»[١٥].

ففي هذا التشبيه الذي عقده الشاعر في البيت الأول تشبيه جار مجرى التصوير لإخراج ماغمض من حال المشبه وخفي من مقدار هذه الحال حتى يكون ظاهراً جلياً ؛ كما بّين ذلك المرزوقي.

إن غرض الشاعر البلاغي من هذه الصورة الفنية في هذا التشبيه أن يُبيّن مقدار حال المشبه وصفته ؛ فلقد شبه حال هذه اللائمة وهي تلوم بحال المظلوم المغتاظ حين ظلامته، فاللوم ، وحال اللائم ، ودرجتهما أمور غير واضحة مالم تُقَرّب بصورة تجلّيها وتخرجها من الغموض إلى الوضوح ؛ فإذا قُرِّبت حال اللائم وصُوِّرت – بطريق التشبيه – بحال المظلوم الممنوع حظّاً له أو المغصوب حقّاً من حقوقه ظهرت لنا درجة حال ذلك اللائم ونفسه مع هذا اللوم ، وأدركنا أنه لوم شديد مُجَلجِل قد تغيرتْ معه نفس هذا اللائم وخرجت عن طورها إلى الغضب الشديد.

ولأن الشاعر لم يرض هذا اللوم من هذه العاذلة التي أكثرت عليه ، بل لم يقتنع به أخذ – في بيته الثاني – بإكمال الصورة التقريرية لحاله وفعله وتسويغ صحّة تصرفه راداً عليها لومها بقوله : إن البذل والسخاء لايُقرِّب أجله ، وإن البخل وقبض اليد لايُخلِّد أو يدفع الموت عنه.

وقد أحسن المرزوقي في بيانه ماتضمنه هذا التشبيه عند الشاعر من تصوير فني بيَّن حال المشبه وجلّى غامض صفته ، كما أحسن في إشارته إلى الغرض البلاغي لهذا التشبيه الذي تضمن بيان مقدار حال المشبه وصفته؛ وذلك في قوله : إن هذا جار مجرى التصوير لبيان حال المشبه ، ثم في بيانه وجه تصوير هذا التشبيه لحال المشبه ؛ حين قال:« كأني أبخس حظًا لها إذا بذلت مالي أو أغصبها حقاً من حقوقها ؛لتناهي ظلامتها.»؛ ففي هذا الكلام ،وبخاصة قوله في الآخر:« لتناهي ظلامتها» دلالة قوية أشار بها إلى درجة لوم هذه اللائمة وشدّة عذلها؛وأنه متناهٍ في

---

(١٥) شرح ديوان الحماسة٤/١٧١١، ١٧١٢.

ذلك تناهي ظلامتها لو بُخست حظاً من حظوظها أو اغتُصبتْ حقاً من حقوقها.

أما التبريزي فقد أشار إلى ماشتمل عليه البيت الثاني من التفات ؛ حين قال:«ثم أقبل عليها يخاطبها.» ، لكنه لم يشر إلى التشبيه وما فيه من تصوير بديع تضمن بيان مقدار حال المشبه وصفته؛ على نحو ماسبق بيانه عند المرزوقي![16]

٣ - تقرير حال المشبه في النفس:

- قال آخر :

٢ - والحربُ يلْحقُ فيها الكارهون كما * تدنو الصِّحاحُ إلى الجربى فتُعْديها

قال المرزوقي في تفسير معنى البيت :

« يقول: شرُّ الحرب يُعدِي إعداءَ الجَرَب ؛ فترى الكاره لها يلتحق بها وإن كان غير حازم لها ، وتلقى البعيد منها يصطلي بحَرِّها وإن لم يُذْكِها ولم يُشيِّع مَوقِدَها.»[17]

ثم كشف المرزوقي عن فائدة التشبيه وغايته عند الشاعر؛ فقال: « وفي هذا التشبيه خروج المشبَّه من الكُمُون إلى الظهور ، ومن الخفاء إلى البروز ؛ حتى يتجلىَّ لُتأمِّله والمفكِّر فيه على بعده في التَّصَوُّر تجليَ القريب في العُرف والاعتياد . وهذا هو غاية المراد من التشبيهات.»[18]

أما التبريزي فلم يتكلم بشيء على صورة التشبيه وبلاغته عند الشاعر![19]

ولقد أجاد المرزوقي وأفاد في كشفه عن فائدة هذا التصوير الفني البديع في هذه الصورة التشبيهية عند الشاعر. إن فائدة هذه الصورة التشبيهية في هذا البيت قد تحققتْ في إظهارها ماكَمَن وبَطَن ، وإبرازها ماخفي حتى بدا ظاهراً جلياً لايصعب تصوره وإدراكه ؛ لأنه أصبح في صورة القريب إلى الذهن والتصوُّر قُربَ مايدرك بالعرف ، أو يُتَصَوَّر بالعادة.

تلك هي فائدة هذا التشبيه وغايته التي تؤول إلى تحقيق الغرض البلاغي من هذا التصوير الذي أراده الشاعر بهذا التشبيه البديع ؛ أعني أن ذلك يؤول إلى تحقيق

---

(١٦) انظر شرح ديوان الحماسة ٢٣٨/٤.

(١٧) شرح ديوان الحماسة٤٠٨/١.

(١٨) شرح ديوان الحماسة٤٠٨/١.

(١٩) انظر شرح ديوان الحماسة٢٨٣/١.

غرض بلاغي أراده الشاعر؛ وهو تقرير حال المشبه في نفس المتلقي . الذي دل عليه كلام المرزوقي -الآنف ذكره- دلالة إشارة قوية؛ إذْ ليس معنى قوله : « ... حتى يتجلّى لمتأمّله والمفكر فيه على بعده في التصوُّر تجليَ القريب في العرف والاعتياد.» إلا أن يكون هذا المعنى هو : تحقيق هذه الصورة التشبيهية لغرض (تقرير حال المشبه في النفس) وتأكيده في ذهن السامع وتثبيته في تصوّره وإدراكه.

لكن هناك غرضاً بلاغياً آخر يأتي نتيجة لهذا الغرض البلاغي وأثراً عنه ؛ ولاشك أنه مراد للشاعر أيضاً ، وأنه إنما ساق هذا التصوير الفني التشبيهي البديع من أجل تحقيقه ؛ إذْ ماغرض الشاعر من هذا الوصف التصويري الذي تضمنه البيت ؛ حين وصف الحرب وما تقذف به من شرور تأتي على الأخضر واليابس والتي تُلْحق أقسى الأذى بغير موقِدها الكاره لها والتي يصطلي بحرٍّ نارها القريب والبعيد، ثم تشبيهه ذلك وتصويره بصورة الإبل الصِّحاح يصيبها الجرب عدوىً من الإبل الجربى؛ أقول : ماغرض الشاعر من هذا الوصف والتصوير إن لم يكن يقصد إلى تشيين صورة المشبه وتشويهه طلباً للتنفير من هذه الحروب والرغبة عنها مهما كانت الدواعي؟!.

- وقال عنترة بن شداد:

٤ - وغادَرْنَ نَضْلةَ فــي مَعْرَكٍ * يَجُرُّ الأسنَّةَ كالمحــتَطِبْ

أوضح المرزوقي الصورة الفنية التشبيهية في هذا البيت بتفسيرين:

أحدهما : أن الشاعر أراد تصوير حال (نضلة) وقد خرج من المعركة وتكشّفتْ عنه الخيل فيها ، وهو يجرّ الأسنّة المتكسِّرة في جسده - بالمحتطب ؛ وهو جامع الحطب.

والتفسير الآخر - وقد حكاه عن بعضهم - : أن الشاعر إنما أراد بالمحتطب دويبة معروفة تمرّ على الأرض فتعلق بها العِيدان ؛ فيكون المراد: تشبيه نضلة وقد

تكسّرت النصال والأسنة في مواضع متفرقة من جسده وأخذ يجرّها معه بهذه الدويبة التي تجرّ العيدان التي تَعْلَق بها.

وقد علق المرزوقي على هذا التفسير الأخير بأنه تصوير للخفي بالجلي.[٢٠]

لكن المرزوقي لم يرجح أياً من هذين التصويرين ، وإن كنت ألمح ميله إلى التصوير الأول - الذي تضمنه التفسير الأول - ؛ لتقديمه إياه في الشرح والبيان وتأخير الثاني، ولتصديره الثاني بقوله:(وحكى بعضهم) ، ولا يخفى مافي هذا التصدير من أسلوب التضعيف والتوهين؛ إذْ هي مثل دلالة قولهم:(وقيل) في صِيَغ التمريض؛ مما يجعلنا نشعر بأنه يميل إلى التفسير التصويري الأول لهذا التشبيه ، ويُرجّحه على التفسير الآخر. وإن كان قد علّق على هذا التفسير الأخير تعليقاً فنياً جمع فيه بين مصطلحين فنّيين في البلاغة والنقد؛ أما المصطلح الأول فهو مصطلح: (التصوير) ، وله دلالة فنية عميقة ؛ فهو إشارة إلى مايعرف بمصطلح (التصويرالفني) . والمصطلح الثاني مصطلح: الخفي والجلي الذي يدل على فائدة التشبيه وغايته ويشير إلى غرضه البلاغي.

ولكني أرى أن التفسير الثاني أدق وأبلغ في الدلالة والتأثير البلاغي المتصل بالتصوير الفني بطريق التشبيه ؛ ذلك بأن هذا التصوير من خلال هذا التفسير يخدم النصّ الشعري في بيت الشاعر ويتواءم مع دقة التصوير الفني عند الشاعر ، وحسبك بعنترة دقةً وعمقاً في التصوير الفني. إن قيام هذا التشبيه عند الشاعر على كون المشبه به تلك الدويبة المحتَطِبة التي من طبعها أن تَعْلَق بها العيدانُ فتجرّها معها جِبِلّةً وخِلْقَة - أدلّ في الصورة وأعمق في بلاغة التصوير في تشبيه ذيّالكَ الفارس المنهزم التي تكسّرت الأسنة في جسده ؛ فراح يُجَرجِرها مع أذيال الهزيمة

---

(٢٠) انظر شرح ديوان الحماسة ١/ ٤٢٠، ٤٢١.

والذلة والعار؛ تماماً كما يوحيه مرأى هذه الدويبة المحتطبة وحقارتها في طبيعتها الفطرية التي جُبِلتْ عليها!.

أما التبريزي فقد ساق التفسير الثاني ولم يُشِد بما فيه من صورة فنية بليغة ؛ أعني: تصوير الخفي بالجليّ - كما ذكر المرزوقي - بل إن التبريزي اختار التفسيرالأول صراحة ؛ حين رجّحه بقوله :« .... والوجه : أن يُحمل على المعهود في تركهم الرماح في المطعون ؛ من قولهم : أجْررتُه الرمح ؛ إذا طعنته وتركته فيه ليكون أعنت له .»(٢١)

ولكن المقام هنا مقام تصوير لهيئة هذا الفارس المنهزم الذي انغرست في جسده الأسنّة والرماح ، ومقام التصوير لهذه الهيئة يقتضي التشبيه ، كما أراد الشاعر؛ حين قال مصوراً حال هذا الفارس ؛ بطريق التشبيه: (يجر الأسنة كالمحتطب) ؛ فهو إما أن يكون تصوير حاله بجامع الحطب أو بالدويبة المحتطبة ، ولا خيار في تفسير ثالث حتى يقول التبريزي:« ... والوجه : أن يُحمل على المعهود في تركهم الرماح في المطعون»، ثم إنه متى كان المعهود سبباً للاختيار ومسوِّغاً فنياً للترجيح ، وبخاصة وإذا فُقِدتْ مع هذا المعهود بلاغة التصوير ومسوِّغ الاختيار؟!. بل الوجه المختار ماكان فيه بلاغة تصويرية وغاية تشبيهية مُؤثِّرة من شأنها أن تنقل المعقول إلى المحسوس أو غير المشاهد وغير المعلوم إلى صورة حيّة شاخصة، إضافة إلى مافي هذا التصوير الفني من تواءم وتلاؤم مع سياق البيت ونظمه المتفق مع مراد الشاعر وغرضه البلاغي الذي قصد به تقرير حال المشبه في النفس وتثبيته في الذهن والإدراك . إن غرض الشاعر من تشبيه حال الفارس المنهزم وهو يجرّ تلك الأسنة شاهدةً عليه بالهزيمة بتلك الدويبة الحقيرة المحتطبة التي تجر معها مايعلق بها من عيدان تمرُّ بها ؛ إن غرض الشاعر من هذا التصوير الفني بهذا التشبيه البديع هو تقرير حال المشبّه في النفس وتثبيته في أعماق الإدراك الذهني قصداً إلى غرض بلاغي آخر يؤول إليه هذا التصوير -؛ لأنه نتيجة من نتائجه وأثر من آثاره - ؛ وهو

---

(٢١) شرح ديوان الحماسة ٣٩٢/١.

تشيين صورة المشبه وتشويهه طلباً للتنفير منه والرغبة عنه!.

- وقال الناشيء الأصغر:

إذا أنتَ عاتبت الملوك فإنما * تَخُطُّ بأقلام على الماء أحْرُفَــا

أراد : أن المعاتبة غير مُجدية مع الملوك ؛ لأن العتاب معهم كالرَّقْم على الماء لاوجود له ولا أثر . ذكر ذلك العبيدي، ثم أوضح التشبيه في البيت ، ونوعه ، وغرضه بقوله:

« ... وهذا من باب التشبيه بالمحسوس؛ لبيان تقرير المشبَّه عند السامع؛ فإنك تجد لتمثيلك هذا من التقرير مالايخفى؛ لأنك إذا مثّلتَ بالمحسوس عُرِفتْ مرتبتُه وعُلمتْ درجته.»[٢٢].

وهذا من تشبيه مُركَّب معقول بمشبَّه به مركب محسوس؛ لأنه حين شبَّه العتاب جعله عتاباً من نوع خاص ؛ هو معاتبة الملوك ، والعتاب أمر عقلي ؛ شبّهه بالكتابة على الماء ؛ فجعلها كتابة من نوع خاص ؛إذْ وصفَها بأنها على الماء، والكتابة على الماء أمر محسوس.

وقد قصد الشاعر بهذه الصورة التشبيهية المركّبة الطرفين - الوصولَ إلى غرض بلاغي بعينه؛ وهو تقرير حال المشبه في نفس المخاطب أو السامع ؛ ولذلك أوضح هذا المشبه بالبرهان المُحَسّ والشاهد الحيّ الذي يثبته ويقرره في الذهن والإدراك ، وبخاصة أن المشبه أمر معقول يحتاج إلى قوة برهان لإثبات صحته وتقريره في النفس؛ ولهذا جاء المشبه به محسوساً يُرى ويشاهد وتُعلم نتيجته بالطريق الحسي، ولن يستطيع الشاعر أن يثبت للمتلقي مايريد من تقرير حال المشبه وصفته ؛ من أنه لاأثر أو فائدة تُرجى من عتاب الملوك - إلا بمثل هذه الصورة التشبيهية البليغة ؛ ولذلك فقد جاءت صورة هذا التشبيه مركّبة الطرفين ومُؤكّدة بليغة ، حيث حذفت منها الأداة ، ووجه الشبه!.

ولقد أحسن العبيدي جداً في إيضاحه صورة التشبيه عند الشاعر، وفي بيانه

---

(٢٢) شرح المضنون به على غير أهله ٤٥٨.

نوع هذا التشبيه ، والغرض البلاغي منه ، وبخاصة أنه قد نصّ - باختصار - على المصطلح البلاغي لنوع التشبيه ، حين قال:« وهذا من باب التشبيه بالمحسوس» ، كما نصّ بدقة على المصطلح البلاغي للغرض البلاغي في هذه الصورة التشبيهية عند الشاعر؛ حين قال: « ... لبيان تقرير حال المشبه عند السامع» ثم إيضاحه التفسيري لهذا الغرض البلاغي ، وذلك بكلامه بعد ذلك ؛ حين قال:« .. فإنك تجد لتمثيلك هذا من التقرير مالايخفى ؛ لأنك إذا مثّلتَ بالمحسوس عُرفتْ مرتبته وعُلِمتْ درجته».!.

والتعامل المباشر الدقيق مع المصطلحات ؛ بالنصّ عليها واستخدامها بدقة يكاد يكون سمتاً للعبيدي في أكثر مباحثه البلاغية. وتلك ميزة علمية فنية تشهد له بالدقة والتميز في البحث البلاغي!.[٢٣]

٤ - تزيين المشبّه وتحسينه ؛ للترغيب فيه :

- قال حيّان بن ربيعة :

٣ - وأنّا نِعْم أحْلاسُ القــــوافي * إذا استَعَر التنافُرُ والنّشيدُ

قال المرزوقي :« ... والحِلْس: أصله البَرْذَعة ومايلي الظهر تحت الرَّحْل ، ثم يستعمل على طريق التشبيه على وجهين:

يقال في الذّمّ: فلانٌ كالحِلس المُلقى ؛ فيمن لاغناء عنده ولا كفاية إذا حَزَبه أمرٌ .

ويقال في مَنْ لزم ظهور الخيل: هم أحلاسُها ؛ وهذا إذا مَدَحوا بالفروسية .

ثم قالوا: ماهذا من أحلاس فلان ؛ أي: ليس من آلاته.

وقد مرّ بي أيضاً أنه يقال للكِفْل الذي ليس بفارس : هو كالحِلْس.

وأحلاس البيت : مايُلقى تحت حُرٌ متاعه.»[٢٤]

---

(٢٣) ولعل من أقوى الأسباب في ذلك : تأخر عصر الرجل عن غيره من شرّاح الاختيارات الشعرية ؛ إذْ قد فرغ من شرحه اختيار المضنون به على غير أهله سنة ٧٢٤ هـ. وهو عصر استواء البلاغة وعلومها تدويناً ودرساً وتقعيدا.

(٢٤) شرح ديوان الحماسة ٢٨٩/١.

وساق التبريزي هذاالكلام كله عن المرزوقي بنصه!.[٢٥]

وعندما ينص المرزوقي بعد أن عرّف بالحلس على أنه يستعمل بطريق التشبيه على وجهين ، ثم يذكر وجهاً للذم ، ووجهاً للمدح - فإن هذا معناه: أن الغرض البلاغي للتشبيه في مقام المدح يقصد به : تزيين المشبه وتحسينه للترغيب فيه ، كما أنه في مقام الذم لتشيين المشبه وتشويهه للتنفير منه.

لكن المرزوقي لم يبين أن قول الشاعر: (وأنَّا نِعْم أحلاس القوافي...) من باب التمدُّح والافتخار ، وأنه جار مجرى التشبيه ؛ لأنه استعارة مبناها التشبيه ؛ فالقصد منه إلى تحقيق غرض بلاغي ؛ هو تزيين المشبه وتحسينه للترغيب فيه وفي صنيعه ؛ لأن المقام مقام تمدُّح وافتخار بُنِي على أساس التشبيه بطريق الاستعارة.

٥ - تشيين المشبّه وتشويهه؛ للتنفير منه:

- قال مزرّد بن ضرار:

بِهِنَّ دُرُوءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٍ * لها ذَرِباتٌ كالثُّدِيِّ النَّواهِدِ

« النُّحاز : السُّعال . والغُدَّة : داء يصيب الإبل في لهازمها ومراقِّ بطونها يظهر لها حجم على هيئة الخُراج ، وجمع الخُراج : خِرْجان . والذَّرِبات : رؤوس الخِرْجان ؛ شبّهها برؤوس الثُّديِّ .»

ورد هذا الشرح والتفسير عند الأنباري ، وعند التبريزي نقلاً عن الأنباري[٢٦]

وصورة التشبيه هنا وإن كانت قد حققت مراد الشاعر وغرضه البلاغي الذي رامه من وراء هذا التصوير؛ وهو تشيين صورة المشبّه وتشويهها للتنفير منها إلاأنها صورة معيبة؛ لقبح التصوير الفني وقصوره الجمالي عند الشاعر ، لما ترتّب على هذا التصوير من أثر في إفساد الجمال الفطري لصورة المشبه به ؛ ذلك بأن تصوير الشاعر الدُّروء في هذه الإبل بالثُّدي النواهد صورة قبيحة في التصوير والأداء ، وذلك

(٢٥) انظر شرح ديوان الحماسة١/٢٧٩.

(٢٦) شرح المفضليات ١٣٦. وشرح اختيارات المفضل ١/٣٨٥، ٣٨٦.

بالنظر إلى صورة المشبه لا صورة المشبه به وارتباط صورة المشبه وأثرها بالمشبه به وأثر الصورة الأولى بالثانية نتيجة لهذا الربط والأثر الذي نظمه بينهما تركيب التشبيه ودلالته ؛ لأن صورة المشبه هنا ؛ وهي الدّروء والغُدد مما تَجْمَح عنه العين وتشمئز منه النفس وتنفر؛ لدمامته وقبحه فلا يصلح مع هذه الصورة إلا صورة هي أشد منها قبحاً ، حتى تتلاءم صورة الشبه ووجهه بين الطرفين ، ويقوى الغرض البلاغي المراد ويشتدّ تأثيره في توازن بديع بين طرفي التشبيه .

ونتيجة لعدم تحقيق هذا التوازن التصويري والفني عند الشاعر في صورة التشبيه عنده نجده قد أفسد بهذه الصورة التشبيهية التي لجأ إليها صورةَ المشبه به على الرغم من جمالها الفطري الأخّاذ . وكان الأوْلى بالشاعر أن يبحث عن صورة تشبيهية أخرى حتى يحقق بها التلاؤم والغرض الذي يريدإثارته في نفس المتلقي؛ فيأتي بصورة للمشبّه به هي أشد قبحاً من صورة المشبه - حسب ماتقضي به الأصول الفنية لفن التشبيه - وبذلك تؤدي هذه الصورة الفنية للتشبيه غرضها وأثرها البلاغي الذي يرومه الشاعر؛ وهو إثارة أشدّ القبح والاشمئزاز والنفرة في نفس المتلقي. وهذا هو الذي يتفق مع الغرض الأصيل أو الرئيس للشاعر ؛ وهو غرض (الهجاء) الذي تدور حوله أبيات القصيدة كلها؛ لأنها تتضمن الهجاء بالتقبيح وتنفير المتلقي من شناعة فعل مَنْ يخاطبه ويهجوه بهذه القصيدة . ويمثل هذه الصورة الفنية للتشبيه - لو حقّق الشاعر التوازن الفني بين طرفيها على نحو ماذكرت - يتحقق له ماأراده من غرض بلاغي لهذا التشبيه ؛ فيتحقق له تشيين صورة المشبَّه وتشويهها في النفس ؛ فتحصل الكراهية لهذه الصورة والنفرة منها على نحوٍ أقوى من البلاغة والتأثير الشديد.

- وقال عمرو بن معد يكرب:

٤ - لحا اللهُ جَرْماً كلّما ذرّ شارقٌ * وُجوهَ كلابٍ هارشَتْ فازْبأرّتِ

كشف المرزوقي عن صورة التشبيه في هذا البيت مبيناً الغرض البلاغي منها؛ وأنه لتحقيق الشَّبه قصداً إلى تشيين صورة المشبه وتشويهها وتقبيحها ؛ لأن الشاعر

شبّه المشبه بمشبه به قبيح في ذاته ،على أن الشاعر قد جعل هذا الشبه أوحال الشبه ووجهه – بين المشبه والمشبه به – في حالٍ هي من أحوال المشبه به الأشنع والأنكر!.

قال المرزوقي مبيناً ذلك ومشيراً إليه :

« كأنه شبه وجوههم بوجوه الكلاب في الحالة المذكورة.»(٢٧)

ثم قال:« اذْكُرْ قوماً يُشَبِّهون الكلاب إذا واثبتْ غيرها وساوَرَتْ؛ فانتفشت وتجمّعت للوثْب ، وتلك الحالة من أحوالها أشْنَع وأنكر. وهذا تحقيق للتشبيه وتصوير لقباحة المنظر»!.(٢٨)

ولقد أحسن المرزوقي في بيان صورة التشبيه عند الشاعر، كما أجاد كثيراً في الكشف عن صورة المشبه به في حالتها الأشنع والأنكر، وفي دلالته الفنية الدقيقة على غاية التشبيه وغرضه البلاغي؛ وأنه لتصوير قباحة المنظر؛ أي : تشيين صورة المشبه وتشويهها قصداً للتنفير منها والرغبة عنها.

ومع أن التبريزي نقل بعض شرح المرزوقي لهذا البيت إلا أنه أغفل صورة التشبيه فيه وغرضه ؛ فلم ينقل ذلك عن المرزوقي ، ولم يأت بشيء في هذا الشأن ألبتة!.(٢٩) مع أن صورة التشبيه في البيت قبيحة غريبة تدعو إلى الإفصاح عنها والتنويه بها ، وإلى الكلام على غاية التشبيه فيها وغرضه البلاغي!.

وقد مرّ في أحد شواهد غرض : بيان حال المشبه وصفته ، وفي شاهدين من شواهد غرض: تقرير حال المشبّه في النفس – تضمُّن كلّ منها غرضَ : تشيين المشبّه وتشويهه للتنفير منه والترغيب عنه؛ على أنّ هذا الغرض نتيجة لذينك الغرضين الأصليين وأثرٌ لهما ، قد أراده الشاعر وقصد إليه.(٣٠)

ولم أتبيّن عند أبي بكر الأنباري وابن النحاس في شرح المعلقات، ولا عند المرصفي نماذج صالحة في مبحث أغراض التشبيه العائدة إلى المشبّه .

---

(٢٧) شرح ديوان الحماسة١/١٦٠.

(٢٨) شرح ديوان الحماسة١/١٦١.

(٢٩) انظر شرح ديوان الحماسة١/١٥٩.

(٣٠) انظر ص ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨ – ٣٤٢ من هذا البحث .

وأمّا أغراض التشبيه العائدة إلى المشبه به في شروح الاختيارات الشعرية فقد وجدت نموذجين صالحين للاستشهاد بهما على أغراض التشبيه العائدة إلى المشبه به . وقد جاءا معاً لتحقيق الغرض الأغلب من بين هذه الأغراض ؛ وهو: إيهام أن المشبه به أتمّ من المشبه وأكمل في تحقيق وجه الشبه ؛ كما هو الحال في التشبيه المقلوب.(٣١).

لكن المرزوقي وأبا بكر الأنباري اللذين وُجِد عندهما هذان النموذجان لم يُصرِّحا بذكر مصطلح (التشبيه المقلوب)، أو تحديد الغرض البلاغي لهذا التشبيه بدقة أو أنه من الأغراض العائدة على المشبه به ، وإنما ذكره الأنباري بمصطلح (القلب)، وأما المرزوقي فلم يطلق عليه مصطلحاً محدّداً يدل به على مصطلح (التشبيه المقلوب) ، وإنما تحدث في شرحه هذا النموذج بما يشير إلى غرض الشاعر في هذا التشبيه ، ويشعر بالدلالة على التشبيه المقلوب، وإن كانت درجة تلك الإشارة وذلك الإشعار أضعف دلالةً مما يتناسب مع أهمية التشبيه المقلوب وقيمته البلاغية.

قال المرزوقي في قول البعيث بن حريث:

٥ - معاذ الإلهِ أن تكون كظبيةٍ * ولا دُمْيةٍ ولا عقيلةِ ربْربِ

« كأنه أنف وصار يربأ بصديقته أن تكون في الحُسن بحيث تُشبَّه بالظَّبي أو الظبية أو بالصورة المنقوشة أو بكريمة من بقر الوحش؛ إذْ كانت هذه الأشياء عنده دونهَا وقاصرةً عن رُتْبَتِها . وقد سلك من المتقدمين امرؤ القيس هذه الطريقة فقال:

كأنَّ دُمى سقْفٍ على ظَهْرِ مَرْمَرٍ * كسا مُزْبَدَ السَّاجوم وشْياً مُصَوَّرا

غرائِرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ * يُحَلَّينَ ياقوتاً ودُرّاً مُفَقَّرا

فشبَّه الدُّمى بالنساء لا النساء بالدُّمى. ومما يستحسن من هذه الطريقة قول أبي تمام:

كأنّما جاد مغناهُ فغيَّره * دُمُوعُنا يومَ بانوا وهي تَنْهمِلُ

---

(٣١) انظر الإيضاح ٣٦١.

لأنه شبّه الأمطار المُغيِّرة لرسوم الديار بدموع العشاق في إثْر الأحباب يوم الفراق.»[٣٢]

وقول المرزوقي في التشبيه المقلوب عند البعيث بن حريث:« كأنه أنف وصار يربأ بصديقته أن تكون في الحسن بحيث تُشبّه بالظبي أو الظبية أو بالصورة المنقوشة أو بكريمة من بقر الوحشي؛ إذْ كانت هذه الأشياء عنده دونها وقاصرة عن رُتْبتها.» ؛ هذا القول دلّ به على مايعرف بالتشبيه المقلوب وإن كانت دلالة إشارة خفيفة، كما أنه أشار فيه إشارة قوية إلى الغرض البلاغي لهذا التشبيه المقلوب العائد غرضه إلى المشبه به؛ فقد دلّ بقوله:« إذْ كانت هذه الأشياء عنده دونها وقاصرة عن رُتْبتها»، وبقوله أيضاً في تشبيه امرىء القيس الذي استشهد به على طريقتهم في التشبيه المقلوب :« فشبّه الدُّمى بالنساء لا النساء بالدمى»؛ دلّ بذلك على الدعوى المقلوبة التي هي أساس التشبيه المقلوب ؛ وهي دعوى إيهام أن وجه الشبه أتمّ في المشبه به وأكمل منه في المشبّه ، والشاعر هنا يدعي أن صاحبته أجمل من الظبي الغرير، ومن الدمية التي أخلص الماهرون نقشها ، ومن كريمة بقر الوحش ، وهذه الدعوى مبنية على أساس المبالغة بطريق الدعوى المقلوبة بصورة التشبيه المقلوب!.

وقد نقل التبريزي عن المرزوقي في تفسيره البيت - بيت البُعيث بن حُريث - المقطعَ الأول من كلامه الذي أشار به إلى أنه من التشبيه المقلوب، وإلى غرضه البلاغي، دون أن ينقل عنه ماأفاد به المرزوقي من أن التشبيه المقلوب جار على مذهب الأوائل وطريقتهم في بعض التشبيهات ، واستشهاده على ذلك بقول امريء القيس وأبي تمام اللذين جريا على هذه الطريقة!.[٣٣]

وأما أبو بكر الأنباري فقد قال في قول امرىء القيس:

٧٢ - يُضيءُ سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ * أمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المفتَّلِ

« وروى الأصمعي:

كأنّ سناهُ في مصابيحِ راهبٍ * أهانَ السَّليطَ للذُّبالِ المُفتَّلِ

---

(٣٢) شرح ديوان الحماسة ١/٣٧٨.
(٣٣) انظر شرح ديوان الحماسة ١/٣٥٢.

وقال : المعنى : كأنَّ مصابيحَ راهب في سناه ؛ فقلب. قال: ومثله:

حتى إذا احتدمَتْ وصـــــا * ر الجمرُ مثلَ تُرابهــــــا

معناه : وصار ترابها مثل الجمر. ومثله:

* كأنَّ لونَ أرضهِ سمــاؤُهُ *

معناه : كأن لونَ سمائه من غُبرتها لونُ أرضه.»(٣٤)

وأحسن ماورد في هذا الكلام قول الأصمعي:« المعنى: كأن مصابيح راهب في سناه؛ فقلب» ؛ فقد أوضح المعنى ودل على أنه بطريق التشبيه المقلوب مؤكِّداً ذلك بذكر مايدل على مصطلحه الصريح ؛ حين قال: (فقلب).

وأما ابن النحاس فقال في بيت امرئ القيس:

« ولا معنى لرواية من روى :(أمال السَّليط). وروى الأصمعي:

كأنَّ سناهُ في مصابيح راهب * أهان السَّليطَ للذُّبـــالِ المُفَتَّلِ

يريد: كأن مصابيح راهبٍ في سناه.»(٣٥)

وكأنما يشير ابن النحاس بقوله:« ولامعنى لرواية من روى (أمال السليط) » - إلى أبي بكر الأنباري . وقد رواه ابن النحاس على رواية (أهان السليط) وهذه الرواية توافق رواية الأصمعي لهذه الجملة.

غير أن ابن النحاس لم يورد مصطلح القلب كما ذكر أبو بكر الأنباري عن الأصمعي؛ فكأن ابن النحاس اكتفى بما ذكره من كلام الأصمعي دون قوله : (فقلب) بعد تقدير الكلام على وجه قلب التشبيه ، كما أنه لم يذكر شواهد الأصمعي المماثلة التي أوردها الأنباري . وهما معاً - أبو بكر الأنباري وابن النحاس- لم يذكرا الغرض البلاغي لهذه التشبيهات المقلوبة أو يشيرا إليه . والغرض فيها جميعاً هو الغرض الأغلب الذي يقوم عليه الغرض البلاغي في التشبيه المقلوب ؛ وهو: إيهام أن وجه الشبه في المشبه به أتمّ، وادعاء أنه فيه أقوى وأكمل!.

---

(٣٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٠٠، ١٠١.

(٣٥) شرح القصائد المشهورات ٤٥.

ج - أنواع التشبيه :

سيتم النظر في أنواع التشبيه ودراستها في شروح الاختيارات الشعرية وفق التصنيف المشهور المعتبر عند المحققين من البلاغيين ؛ وذلك حسب اعتبارات أركان التشبيه الأربعة المعروفة؛ وهي : الطرفان ، ووجهه، وأداته ؛ والغرض منه:

١ - أنواع التشبيه باعتبار الطرفين:

أ - تشبيه المفرد بالمفرد:

- قال أوس بن غلفاء :

٦ - كأنكَ عَيرُ سالِئةٍ ضروطٌ * كثيرُ الجهلِ شتّامُ الكرامِ

التشبيه في هذا االبيت متكامل الأركان ؛ فقد ذكر فيه الأداة ، والطرفان ، ووجه الشبه ، وعُلم الغرض البلاغي منه.

وهو من تشبيه المفرد الحسي غير المقّيد بالمفرد الحسي المقيّد.

ولم يعلِّق الأنباري على البيت بشيء إلا تفسيره لمعنى المرأة السالئة بأنها : التي تَسْلأ السَّمْن ![٣٦]

غير أن التبريزي نقل شرح البيت عن المرزوقي وأوضح الصورة الفنية التي انطوى عليها هذا التشبيه ؛ فقال:

« شبّهه في البلادة وسوء التّأتّي والعجز بحمار امرأة سالئة تسلأ السمن.... تُعدُّه لِتُقِلَّ آلاتها عليه ؛ من الأنحاء والوِطاب والألبان وغير ذلك.»[٣٧]

وكما ترى لم يذكر الأنباري شيئاً عن هذا التشبيه؛ لافي بيان تكامل أركانه، ولا نوعه ، باعتبار طرفيه ؛ وأنهما مفردين حسيّين غير مقيدين - كما ذكرت قبل -، ولا غرضه البلاغي، ومثل الأنباري في ذلك فعل المرزوقي والتبريزي؛ من جهة عدم بيان هذه الأركان والنوع والغرض ، والنصّ على ذكر مصطلحاتها. غير أنهما -

---

(٣٦) شرح المفضليات ٧٥٨ . ومعنى : تسلأ السّمْن : تُذيبه. اللسان مادة سلأ.

(٣٧) شرح اختيارات المفضل ١٠٦٨/٣ وحاشيتها.

المرزوقي والتبريزي - أحسنا في بيان الصورة الفنية للتشبيه من واقع البيت وتفسير مراد الشاعر فيه ؛ فقد ذكرا طرفي التشبيه ، كما بيّنا وجه الشبه الذي دلّ عليه الشاعر في البيت دلالة ظاهرة قوية ؛ وذلك بقوله: « ضروطٌ ، كثير الجهل شتّام الكرام » .

أما الغرض البلاغي لهذا التشبيه فقد جمع فيه الشاعر بين غرضين هما : بيان حال المشبه وصفته . وتشيينه بتشويهه للتنفير منه والترغيب عنه!.

- وقال عمرو بن معد يكرب:

١ - ولمّا رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنّها * جـــداولُ زرعٍ خُلِّيتْ فاسبَطَرَّتِ

٢ - فجاشتْ إليَّ النفسُ أولَ مرّةٍ * ورُدَّتْ على مكروهها فاستَقَرَّتِ

أوضح المرزوقي صورة التشبيه في هذا البيت ، فبيّن أن التشبيه واقع على جري الماء في الأنهار لا على الأنهار ذاتها ، ثم كشف عن صورة التشبيه فقال: « والتشبيه وقع على جري الماء في الأنهار لا على الأنهار؛ كأنه شبّه امتداد الخيل في انحرافها عن الطعن بامتداد الماء في الأنهار وهو يطّردُ ملتوياً ومضطربا .».[(٣٨)]

وقد أثنى المرزوقي على هذا التشبيه بأنه حسن صائب ؛ وذلك حيث يقول في نقل صورة أخرى في هذا التشبيه:

«وكما وصف الخيل في انحرافها بزُورٍ وُصِفتْ أيضاً بنُكْب ؛ فقال بعضهم:

* لأعدائنا نُكْبٌ إذا الطعن أفْقَرا*

فالنُّكب : جمع أنكب ؛ وهو الذي ينحطّ أحدُ منكبيه عن الآخر، كما أن الزُّور جمع أزور؛ وهو المعوجّ الزَّور . وهذا من التشبيه الحسن الصائب.».[(٣٩)]

ونقل التبريزي صدر كلام المرزوقي في بيان صورة التشبيه ؛ أعني قوله : « والتشبيه وقع على جرى الماء في الأنهار لا على الأنهار» ، ولم ينقل بقية كلام

---

(٣٨) شرح ديوان الحماسة١/١٥٧.

(٣٩) شرح ديوان الحماسة١/١٥٧، ١٥٨.

المرزوقي في بيان صورة التشبيه ، لكنه قال:

« ويجوز أن يقال: إنها امتدت في السير منهزمة ، أو يريد : أنها تَثجُّ دماً ، فكأنها جداول تجري .»[٤٠]

وهذه الصورة غير الصورة التشبيهية التي وردت عند المرزوقي والتي ترجم فيها مراد الشاعر بأن الخيل غير منهزمة وإنما هي متحرِّفة بتحريف فرسانها لها. أما التبريزي فقد صوّرها بأنها منهزمة في الحالين؛ في سيرها ، وفي سيلان دمها وثجّه، حتى أشبه الجداول الجارية بالماء.

والذي يظهر لي أن تفسير المرزوقي أقرب إلى الصواب ، وأليق بالمقام والحال من تفسير التبريزي ؛ ذلك بأن الموقف ليس موقف تصوير انهزام ، وإنما هو تصوير فني لموقف من مواقف البطولة والشجاعة ، ومنازعة النفس في الشدائد؛ طلباً للإقدام والاحتيال للثبات في هذا الموقف، وتوطين النفس عليه حين خوفها وثَوَرانها وجَيَشانها، ثم قهرها بعد ذلك وردّها إلى مواقف الشرف والبطولة والشهامة والفروسية؛ ومن ثَمَّ إلى المجد والحمد. ومما يدل على أن الموقف موقف تحرّف واحتيال للثبات دون الفرار والهزيمة ماتوحي به الأبيات التالية لهذا البيت وتصويرها لتلك المواقف الشجاعة الواثقة ،كما أن تصدير المرزوقي شرح البيت الأول – موضع البحث – بقوله:

« لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن، وقد خلّوا أعنَّةَ دوابهم وأرسلوها وقَرّطوا آذانها بها ؛ فكأنها أنهار زرع أُرسلت مياهها فامتدتْ بها .»[٤١] .

تصدير المرزوقي لشرح البيت بهذا الكلام مما يدل كذلك على أن الموقف موقف بطولة وشجاعة واستبسال ؛ فهذا التفسير من المرزوقي يدل على أن الخيل مُنحرفة أو مُتحرِّفة – كما ذكرت – لامنهزمة في سيرها ، ولا مطعونة تثجّ دماً يشبه جداول الماء– كمايقول التبريزي – . ويدل هذا التفسير الأخير من المرزوقي : على أن

---

(٤٠) شـرح ديوان الحماسة ١/١٥٧ .

(٤١) شرح ديوان الحماسة ١/١٥٧ .

تحرُّف الخيل من تحرُّف فرسانها.

لكن المرزوقي وكذلك التبريزي لم يوضحا نوع التشبيه أو يذكرا أيَّ مصطلح في ذلك . وهو من تشبيه المفرد الحسي المقيَّد بالمفرد الحسي المقيد؛ فقد شبَّه الخيل، وهي مُزْوَرَّة أو منحرفة بجداول زرع قُيِّدتْ بالاستطالة أو الطول . والوجه الجامع بينهما حسي مقيد كذلك ؛ وهو الجري والامتداد بالتواء واضطراب.

وأما الغرض البلاغي من هذه الصورة الفنية للتشبيه عند الشاعر فهو بيان حال المشبه وتقرير حاله في النفس فإن الشاعر أراد فيما ساقه من صورة فنية - استمد طرفيها من واقع الحال بالنسبة للمشبه ، ومن البيئة المحيطة بالشاعر بالنسبة للمشبه به - أراد من هذه الصورة التشبيهية أن يبين حال المشبه ويصور صفته في النفس، وأن يقرِّر كذلك في النفس حال المعنيِّ بهذا المشبَّه - وهو الفارس -، ويعطي وصفاً قوياً لحاله حتى تستقر في النفس وتتمكن ؛ لتتم البلاغة بعمقٍ في الدلالة على المراد وحسن التأثير وقوّته.

قال المرزوقي مشيراً إلى ذلك في كلامه على جواب لمّا المحذوف:

« .. وطريقة جُلُّ أصحابنا البصريين في مثله أن يكون الجواب محذوفاً ؛ كأنه قال : لمّا رأيت الخيل هكذا فجاشت نفسي ورُدَّت على ماكرهته فقرَّتْ طعنتُ أو أبْليتُ؛ ويدل على ذلك قوله [يعني في البيت الثالث] : (علام تقول الرُّمحُ يثقل ساعدي إذا أنا لم أطْعُنْ)؛ فحذف(طعنتُ) أو (أبليتُ)؛ لأن المراد مفهوم .... وحذْف الجواب في مثل هذه المواضع أبلغ وأدل على المراد وأحسن ؛ بدلالة أن المولى إذا قال لعبده :(والله لئن قمتُ إليك...) وسكت تزاحمتْ عليه من الظُّنون المعترضة للوعيد مالايتزاحم لو نصَّ من مؤاخذته على ضرب من العذاب، وكذلك إذا قال المتبجِّح: (لو رأيتني شاباً...) وسكت جالت الأفكار له بما لم تَجُل به لو أتى بالجواب...»[٤٢]

---

(٤٢) شرح ديوان الحماسة ١/١٥٩.

- وقال آخر:

٢ - هما رُمحانِ خَطِّيانِ كانـــا * من السُّمر المثقَّفَةِ الصِّعـــاد

كشف المرزوقي عن صورة التشبيه في البيت مشيراً إلى طرفي التشبيه ؛ المشبه والمشبه به وإلى وجه الشبه الجامع بينهما:

« وشبّههما برمحين استواءَ خِلْقة وامتداد قامة وسرعة نفاذ وحسن توجّه.»(٤٣)

كما دل المرزوقي على أن قوله :(من السمر المثقّفة الصِّعاد) جاء به للدلالة على التسوية بين هذه الرماح في الاستواء والطول وحسن التهذيب والوفاء بالغرض في إصابة الهدف ، وأنّ ذلك كان قصداً من الشاعر إلى تحقيق غرض المبالغة والدلالة على تناهي البراعة في تحقق ذلك وكماله في المشبه به ؛ ليُتَصوَّر بيان حال المشبه وصفته ، وتتقرّر حاله في النفس وتُتَصوَّر ، بطريق هذا التشبيه المحسوس الذي استوحاه من المحيط الذي يعايشه الشاعر؛ محيط القوة والشهامة والتطلع للمروءات والامتداح بها . وفي ذلك تناسب كبير مع جوّ الأبيات ومقام الحال الذي يتحدث فيه الشاعر عن الحوادث وما تتركه من آثار مدمّرة لايتصدّى لها إلا أمثال ابني زياد اللّذين وصفهما الشاعر بهذا التشبيه ؛ فصور حالهما بالقوة والاستقامة والثبات وحسن التهذيب والتوجّه قال المرزوقي مشيراً إلى ذلك:

« وقوله : (من السُّمْر المثقفة الصِّعاد) سوّى بينها في التشبيه حتى لامخالفة؛ تنبيهاً على مايقصد من المبالغة وتناهي البراعة.»(٤٤)

وهذا التشبيه من تشبيه المفرد الحسي بالمفرد الحسي والوجه الجامع متعدد حسي وعقلي ؛ فاستواء الخلِقة وامتداد القامة أمران حسيان وهما في الطرفين معاً؛ (الرمحين وابني زياد) . أما بقية الوجه ؛ وهو سرعة النفاذ وحسن التوجّه فهما أمران حسيان في المشبه به وهو: (الرمحان) وعقليان في المشبه ؛ وهو: (ابنا زياد).

---

(٤٣) شرح ديوان الحماسة ١٦١٢/٤.

(٤٤) شرح ديوان الحماسة ١٦١٣/٤.

ولم يكن للتبريزي جهد في الكشف عن صورة هذا التشبيه البليغ عند الشاعر.![٤٥]

– وقال أبو الطَّمْحان الأسدي ، وقيل : طُخَيم أبو الطَّخْماء الأسدي:[٤٦]

٢ - لقد حلَّقوا منها غُدافاً كأنَّهُ * عناقيدُ كَرْمٍ أَيْنَعَتْ فاسبكَرَّتِ

يَنعت الثمرة وأَيْنَعتْ : إذا نضجت. واسبكرت : استرختْ ولانت . والغُداف: الأسْود، وبه وُصِف الغراب لذلك . فسّر المرزوقي معاني مفردات البيت وبيتين بعده، ثم قال موضحاً صورة التشبيه فيه :

« شبه الشَّعْر في طوله ولينه ولونه بعناقيد من الكرم استرسلت.»[٤٧]

وإنما وصف الشاعر شعر هامته حين حلَّقوه منها ؛ فقال: إنهم حلقوا من هامتي شعراً أسود يشبه في طوله ولينه ولونه عناقيد عنب قد استرخت وطالت.

وعند التبريزي :« شبَّه لُمَّته في طولها ولينها بعناقيد من الكرم استرسلت»[٤٨]

وهذا تشبيه بديع يُرى فيه تأثير البيئة الحضرية ؛ لأن الشاعر شبَّه شعره بعناقيد عنب، ولأنه كان يتحدث عن قصته هذه مع صاحب شرطة الحيرة الذي أشار إليه في البيت الأول . أما وجه إبداعه فلإصابة التشبيه ووجه الشبه فيه بدقة ؛ وذلك لأن شعر لمته الذي حُلِق أشبه عناقيد عنب في طولها ولينها ولونها الأسود.

ونوع هذا التشبيه باعتبار طرفيه : تشبيه مفرد حسي غير مقيد بمفرد حسي مقيَّد . أما الوجه الجامع بينهما فمتعدد حسي؛ وهوالطول واللين والسواد.

---

(٤٥) انظر شرح ديوان الحماسة٤/١٥٩، ١٦٠.

(٤٦) ذكره أبو محمد الأعرابي فنسبه إلى طُخيم ؛ انظر إصلاح ماغلط فيه أبو عبد الله النمري ١٦٦.

(٤٧) شرح ديوان الحماسة ٤/١٨٦٤.

(٤٨) شرح ديوان الحماسة ٤/٣٥٥.

- وقال سلامة بن جندل

٦ - والعادياتُ أسابيُّ الدِّماء بها * كأنّ أعناقها أنصابُ ترْجيبِ

قال الأنباري عن أبي عكرمة في بيان صورة التشبيه في البيت :

« فشبّه أعناقها لما عليها من الدم بالحجارة التي يُذبح عليها.»(٤٩)

ونقل التبريزي هذا الكلام بنصه عن الأنباري ، غير أنه قال:« مما عليها» بدل قول الأنباري « لما عليها»!.(٥٠)

وهذا من تشبيه المفرد الحسي المقيد بالمفرد الحسي المقيد . والوجه الجامع حسي متعدد ، وهو الاستطالة والصّلابة وألوان البقع الحمراء الداكنة .

وأثر البيئة الجاهلية ظاهر على تركيب هذه الصورة التشبيهية عند الشاعر ؛ وذلك في تشبيهه أعناق الخيل الملطّخة بالدم بحجارة الأنصاب التي يُذْبح عليها في شهر رجب الذي يُعظّمونه في الجاهلية. وهذا مما أبطله الإسلام من أعمال الجاهلية!.

- وقال مزرّد بن ضرار:

معاهِدُ ترعى بينها كلُّ رَعْلةٍ * غرابيبُ كالهند الحوافي الحوافِدِ

فسّر الأنباري الرَّعْلة هنا : بالقطعة من النعام، ويرى أن الحَفْد: مشي فيه تقارب في الخطو، وأن الحفد- بهذا التفسير- يعني : الإبطاء.

كما يرى أن الشاعر شبّه النعام برجال الهند في السواد والدقة(٥١).

أما التبريزي ففسر الرعلة بالنعامة؛ مأخوذة من الرَّعْل؛ وهو : التّقَدُّم والسبق، لأن النعامة تسبق ذَكَرَها الظليم أبدا. وبه سُمِّيت الجماعة المتقدمة من الخيل ؛ فقيل : الرعيل . ويرى أن الحَفْد: الإسراع في الخدمة.

ولهذا يرى أن الشاعر شبّه النعام الغرابيب السّود بنساء الهند إذا أسرعت في الخدمة وسعتْ فيها حافية حافدة(٥٢).

(٤٩) شرح المفضليات ٢٢٨.

(٥٠) انظر شرح اختيارات المفضل ٢/ ٥٧١. وقد جاء ترتيب البيت عنده الثاني والعشرين.

(٥١) انظر شرح المفضليات ١٢٨.

(٥٢) انظر شرح اختيارات المفضل١/ ٣٦٧ وحاشيتها.

وكلاهما ينقل عن مصدره ؛ فالأنباري عن أبي عكرمة ، والتبريزي عن المرزوقي.

وأراني أميل إلى ماذهب إليه التبريزي ؛ من أن المشبه به نساء الهند لارجالها؛ لأن قول الشاعر :(الحوافي الحوافد) قرينة مُرشِّحة للتشبيه بالنساء لا بالرجال ، كما أشار إلى ذلك محقق شرح التبريزي للمفضليات؛ إذْ رجّح ماذهب إليه التبريزي .(٥٣) . وقد نص صاحب اللسان على أن الحفد بمعنى الإسراع(٥٤).

وعلى هذا فليس الحفد بمعنى الإبطاء كما ذهب الأنباري ، ولعله رأى أن المشي المتقارب وقُرب الخُطا يعني المشي البطيء ، وليس به دائماً في كل حال ؛ فقد يعني الحفد الإبطاء ؛ كما في خَطْو الطفل ودَرْجِه في المشي بادي أمره ، وكما في مشي ذي القيد من حيوان أو إنسان ، لكن المشي المتقارب وقرب الخطا يعني السرعة أيضاً ؛ كما هو حال مشي النساء طبعاً وخِلْقَة ، وبخاصة الفتيات الشوابّ منهن إذا سعين في الخدمة بِجدٍّ ، فإنهن تتقارب خُطاهن لكن بسرعة ، وكما هو حال مشي بعض الحيوان ، ودَرْج بعض الطير خِلْقَةً وجِبِلَّة.

وأيّاً ماكان المشبه به ؛ نساء الهند أو رجالها فنوع التشبيه من تشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد ؛ لأن كلاً من طرفي التشبيه مفرد حسي مقيد؛ فالمشبه مفرد قُيِّد بالسواد والدقة والمشبه به ؛ وهو نساء الهند - أو رجالها - مفرد قُيِّد بالسواد والدقة. وأما وجه الشبه الجامع بينهما فهو : السواد والدقة ؛ فهو متعدد حسي.

- وقال امرؤ القيس:

٨٢ - كأنّ السِّباعَ فيه غرقى عشيّةً * بأرجائه القُصْوى أنابيش عُنْصُلِ

بيّن أبو بكر الأنباري صورة التشبيه في البيت نقلاً عن أبي عبيدة :

« وقال أبو عبيدة : شبّه السباع الغرقى بما نُبِش من العنصل.»

---

(٥٣) انظر شرح اختيارات المفضل١/حاشية ٣٦٧.

(٥٤) لسان العرب . مادة : (حفد).

وأورد الأنباري رواية أخرى لآخر الشطر الأول :(غُدَيَّة) بدل (عشية) التي ورد بها البيت ثم فسَّرها ببيان صورة التشبيه في البيت ؛ فقال:

« يقول: حين أصبح الناس ورأوها فكأنها تلك الأنابيش من العنصل.»

والعُنْصَل:« بصل بَرِّيٌّ يُعمل منه خَلُّ عُنصُلان؛ وهو شديد الحموضة لايُقدر على أكله .» و(الأنابيش) : جماعات من العُنْصَل يجمعها الصبيان. وقيل : إنها عروق تنبش من تحت الأرض . أو هي : الغثاء وما تجمّع . وقد ذكر الأنباري هذا التفسير عن أبي عبيدة[٥٥].

وأورد ابن النحاس أثناء شرحه البيت – صورة التشبيه الآنفة الذكر التي ساقها أبو بكر الأنباري عن أبي عبيدة. كما نقل عن أبي الحسن بن كيسان معنى البيت وقد تضمّن الإشارة إلى صورة التشبيه؛ فقال:«قال أبو الحسن : معنى البيت عندي: أن هذا الغيث قد غرّق هذه السباع؛ فهي في نواحيه ، ويبدو منها أطرافها ، فشبّهها بالعنصل.»[٥٦]

ونوع هذا التشبيه باعتبار طرفيه : تشبيه مفرد حسي مقيد بمفردحسي مقيد، فقد قُيِّدت السباع بأنها غرقى متناثرة بادية أطرافها في نواحي ماء هذا الغيث الذي غرقتْ فيه، وقيّد المشبه به – وهو العنصل – بالنبش. وقد استمد الشاعر هذا التشبيه من بيئته البريّه التي تسودها السباع والمياه والنباتات.

– وقال السَّرِيُّ الرَّفَّاء:

نَسَبٌ أضاءَ عمودُهُ في رَفْعِهِ * كالصبح فيه ترفُّعٌ وضياءُ

وشمائِلٌ شَهِدَ العَدُوُّ بفضلها * والفضلُ ماشَهِدَتْ به الأعداءُ

قال العبيدي في بيان نوع التشبيه ، وصورته ، مشيداً به:

« وهذا تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهذا تشبيه حسن ؛ لأن الصبح له ترفّع

---

(٥٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١١١.

(٥٦) شرح القصائد المشهورات ١/٥٠.

وانتشار ضياء في الآفاق . كذا كأنّ لنسب الممدوح ارتفاع عظيم وضياء وشهرة في جميع البلاد وبين كل العباد بحيث لايخفى على أحد »(٥٧).

وهذا التشبيه من تشبيه المفرد المقيد ؛ وهو النسب المقيّد بالرفعة والانتشار؛ بسبب الشهرة – بالمفرد المقيد؛ وهو الصباح المقيد بما ذكر من صفاته وهي الترفع والضياء المنتشر في الآفاق . لكنه في المشبه عقلي ، وفي المشبه به حسي. والوجه الجامع بينهما متعدد حسي وعقلي؛ فرفعة النسب واشتهاره تعدّد عقلي يدرك بالعقل والذهن . وترفّع الصبح وانتشاره بالضياء تعدّد حسّي يدرك بالحس والمشاهدة.

- وقال مُزرِّد بن ضرار:

يُغَنِّنُهُ ماءُ اليُرَنَّاءِ تَحْتَهُ * شَكِيرٌ كأطراف الثَّغامةِ ناصِلُ

وقف الأنباري عند فن التشبيه وصورته في هذا البيت ؛ فأوضحه بقوله :

« ... والشكير : أول ماينبت من الشعر. وأطراف الثغام أبيض يُشبِّه الشَّيب عند نصوله من الخضاب به .»(٥٨)

وقريباً منه قال التبريزي نقلاً عن المرزوقي !.(٥٩)

لكن الأنباري والتبريزي اقتصرا على بيان صورة التشبيه دون أن يُبيِّنا نوعه؛ وهو من تشبيه المفرد الحسي المقيد بالمفرد الحسي غير المقيد ؛ فالمشبه ؛ وهو الشيب قُيِّد – في تشبيهه بالأطراف البيضاء لنبت الثغام– بكونه عند طلوعه ونصوله من جذوره قبل وصوله الخضاب، والشيب الجديد الذي لم يُصبه خضاب الحِنَّاء يكون أبيض.

وهذه الصورة التشبيهية بديعة اتسمت بالطرافة ، وهي في طرفيها مستمدة من بيئة الشاعر الفطرية والاجتماعية.

---

(٥٧) شـرح المضنون به على غير أهله ١٨٣ .

(٥٨) شرح المفضليات ١٦٠.

(٥٩) انظر شرح اختيارات المفضل ١/٤٤٤ وحاشيتها.

وقال امرؤ القيس:

٧٩ - كأنَّ ذُرى رأس المُجَيمر غُدْوَةً * من السَّيل والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ

أوضح أبو بكر الأنباري معنى البيت الذي دار حول صورة التشبيه فيه ؛ فقال: « ومعنى البيت : أنه شبَّه قُليعة المجيمر وقد علاها الماء والغُثَّاء فما يستبين إلا رأسها - بفَلْكَة.»(٦٠).

وبنحو ماقال أبو بكر الأنباري قال ابن النحاس إلا أنه كان أشد إيضاحاً لصورة التشبيه فيما يتصل بطرف المشبه به ؛ حيث قال:

« ومعنى البيت : أنه يصف أن هذا السيل والغثاء أحاطا بهذا الجبل فهو كأنه يدور ، فلهذا شبَّهه بفلكة المغزل.»(٦١)

لكنهما معاً لم يشيرا إلى المصطلحات البلاغية لهذا التشبيه - شأن غيرهما من شراح الاختيارات -؛ فلم يذكرا مصطلح الطرفين :(المشبه والمشبه به) ، أو يحدّدا نوع التشبيه ؛ بأنه من تشبيه المفرد الحسي المقيد بالمفرد الحسي غير المقيد. وقد استطاع الشاعر بهذه الصورة الفنية التي أبدع فيها بطريق التشبيه أن يقرّب البعيد تصوُّره من الذهن - لمن لم يشاهده - إلى صورة محسوسة قريبة يراها كلُّ أحد وبخاصة في زمن الشاعر. وكلا الطرفين مأخوذان من ملامح الحياة البدوية الضاربة في الصحراء الطبيعي الفطري منها والبيئي الاجتماعي المتكررة صورته في الحياة اليومية.

- **وقال عنترة بن شداد:**

٣٠ - صَعْلٌ يعودُ بذِي العَشيرة بيضَهُ * كالعبدِ ذي الفَرْوِ الطَّويلِ الأَصْلَمِ

بيَّن ابن النحاس صورتي التشبيه في البيت : أولهما : تشبيه ناقته بالصَّعْل؛

---

(٦٠) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٠٨.

(٦١) شرح القصائد المشهورات ٤٩/١.

وهو ذكر النعام، والثانية : تشبيه الصَّعل بالعبد الموصوف بما ذكره من أوصاف قيّده بها . قال ابن النحاس:

« والمعنى : كالعبد الأصلم ذي الفرو الطويل ؛ فشبّه ناقته بالصَّعْل؛ وهو ذكر النعام ، ثم شبَّه الصعل بعبدٍ حبشيٍّ مقطوع الأذنين قد لبس فرواً مقلوباً صوفه إلى خارج.»(٦٢)

أما أبو بكر الأنباري فقال: « وقوله :(كالعبد) شبّه الظليم براعٍ أسود مجتاب فروة . و(الأصلم) المقطوع الأذنين . والظِّلمان كلها صلْم؛ أي لاآذان لها . فشبّه الظليم بأسود مقطوع الأذنين.»(٦٣)

وقد كان ابن النحاس أشمل في بيان صورة التشبيه ؛ حيث ذكر صورتين ، كما أنه أوضح وأدق في بيان الصورة الثانية. أما أبو بكر الأنباري فقد رأيت أنّ بيانه هذه الصورة قد أتى بشكل مجزّأ ؛ حين استكمل بعدُ فيما يشبه الاستدراك تبعاً لتفسيره أولاً معنى قوله:(كالعبد)، ثم تفسيره ثانيًا معنى : (الأصلم).

لكنهما معاً لم يبينا نوع هذا التشبيه ، ولا شيئاً من مصطلحاته سوى مصطلح بابه العام ؛ أعني(التشبيه) الذي دلاّ عليه بقولهما :(شبّه). والأول منه هنا؛ أعني : تشبيه الناقة بالصعل – الذي ذكره ابن النحاس في بيانه عن صورة التشبيه الأولى – من تشبيه المفرد الحسي بالمفرد الحسي.

أما الصورة الثانية الوارد بيانها عند ابن النحاس وأبي بكر الأنباري فهي من تشبيه المفرد الحسي غير المقيد بالمفرد الحسي المقيد؛ وهو تشبيه الصعل بعبد حبشي مقطوع الأذنين قد لبس فرواً مقلوباً صوفه إلى خارج.

ولست أدري علةً لتشبيه الظليم بالعبد الأصلم الموصوف بما ذُكر مع أن مقتضى التشبيه أن يُشبَّه نادر الوقوع بما هو معروف مشتهر؛ إذْ إن مقتضى التصوير بالتشبيه أن يكون بالعكس؛ بأن يشبّه العبد الأصلم المجتاب الفرو المقلوب

---

(٦٢) شرح القصائد المشهورات ٢/٢١.

(٦٣) شرح القصائد السبع الطوال ٣٢٣.

إلى خارج بالظليم ؛ لأن الأصل في الظليم أن يكون أصلم مقطوع الأذنين بينما لاتكاد تجد عبداً مقطوع الأذنين لابساً فرواً مقلوبا ؛ إذْ هي صورة نادرة الوقوع ، ثم إن العبد إنسان من بني آدم كرّمه الله ؛ فما معنى أن يُشبَّه الحيوان الذي خُلق أصلم بهذا الإنسان المكرّم ؟!. إلاّ أن تكون الجاهلية ومعطياتها الفكرية المقلوبة وموازينها المختلّة في تقدير الإنسان وكرامته ؛ فأراد الشاعر أن يثبت كثرة ماكان غير متوقـــع الحصول ونادر الوجود بهذا التشبيه المقلوب ؛ لغرض بيان إمكان وجود مثل صورة المشبه به ، كما أراد هذا الشاعر بهذا التشبيه أن يثبت أن الجاهلية والاستعباد للبشر تفعل ببني آدم من تعذيب وتشويه وتصليم للآذان كما تفعل بالحيوان أو أشدّ !.

ب - تشبيه المركّب بالمركب:

ومن نماذج هذا النوع من أنواع التشبيه باعتبار طرفيه؛ : تشبيه المركّب بالمركّب **قول المرار بن منقذ**

كأنّ فروعَها في كل ريح * جَوارٍ بالـذوائب ينْتَصِينا

فروع النخل: أعاليه . وقد شبّه الشاعر سعف النخل تُميلُها الرياح بذوائب جوار يجذب بعضهن نوائب بعض.

وقد أورد الأنباري هذه الصورة التشبيهية عند الشاعر؛ وفق الصورة التي ذكرت(٦٤) . وأوردها التبريزي نقلاً عن الأنباري!.(٦٥)

وهذه الصورة الفنية من التشبيه من نوع تشبيه المركّب بالمركّب ؛ إذْ إن الشاعر لايريد تشبيه النخل بالجواري، أو فروع النخل بنوائب الجواري، أو إمالة الرياح لسعف النخل وتمايلها بإمالة النوائب إذا جذبت ، وإنمايريد الهيئة الخاصة الحاصلة من تركيب هذه المشبهات المفردة مجتمعةً في المشبه وتشبيهها بنظيرها من

---

(٦٤) انظر شرح المفضليات ١٢٥.
(٦٥) انظر شرح اختيارات المفضل ٣٥٨/١.

الهيئة الخاصة الحاصلة من تركيب مفردات المشبه به مجتمعةً . والوجه الجامع في هذا النوع من التشبيه هو: تلك الهيئة الحاصلة الجامعة بين مفردات الطرفين المركّبين؛وهو تلك الصورة المتمثلة في هيئة أجرام مستطيلة يتفرع عنها فروع عديدة متمايلة يمنة ويسرة ؛ لتصل بين هذه الأجرام بعضها ببعض، في حركة دائبة متصلة.

- **وقال مزرّد بن ضرار:**

متى يُرَ مركوباً يُقَلْ بازُ قانصٍ * وفي مَشْيه عند القياد تَساتُل

فسّر التبريزي معنى البيت - نقلاً عن المرزوقي - بقوله :

« يريد: أن الناظر إليه إذا رآه مركوبًا يُشبِّهه لطموحه واستشرافه بباز على يد صائد، وقد استوفز لصيد تراءى له ؛ فقال: هذا باز بهذه الصفة.»(٦٦)

وإيضاح المعنى وبيان المراد على هذا النحو قائم على بيان صورة التشبيه البديعة التي تضمنها البيت.

وهذا من تشبيه المركب بالمركب ؛ لأن الشاعر أراد الصورة الفنية المتكاملة، ولم يرد تشبيه الفرس وحده أو الفارس فقط وإنما أراد تشبيه هيئة ركوب الفارس، وصفته على هذا الفرس من الطموح والاستشراف بهيئة الباز المستوفز لصيد تراء ى له، وهيئته مع ذلك وهو على يد الصائد .

ولئن كان المرزوقي أو التبريزي لم يدلاّعلى نوع هذا التشبيه بذكر مصطلحه الصريح فإنهما قد أشارا إليه بقولهما بعد أن بّينا صورة التشبيه : « فقال: هذا باز بهذه الصفة» . فقد أراد بهذه الصفة الإشارة إلى الهيئة الحاصلة المركبة من هيئة الطرفين معاً ؛ وهي مايعنيه البلاغيون بمصطلح (تشبيه المركب بالمركب).

ولم يشر الأنباري إلى مصطلح التشبيه في البيت ، أو يأت بإيضاح للمعنى العام يبيّن من خلاله صورة التشبيه فيه ، أو نوع طرفيه ؛ على نحو ماورد عند المرزوقي أو التبريزي.(٦٧)

---

(٦٦) شرح اختيارات المفضل ١/٤٥٥، ٤٥٦.

(٦٧) انظر شرح المفضليات ١٦٥.

ج - التشبيه المتعدد الطرفين :

- قال ثعلبة بن صُعَيْر:

٩ - وكأنّ عيبتَها وفَضْلَ فِتانِها * فَنَنَانِ من كَنَفَيْ ظليمٍ نافرِ

أوضح الأنباري عن صورة التشبيه في البيت بقوله:

« شبّه عيبتَه على هذه الناقة والفتان (وهو أديم يُلْبَس الرحل) عند إسراعها بما نَتأ وشخص من ريش جناحي الظليم . وجعله نافراً ؛ لأنه أشد لعدوه.»(٦٨)

ونقل التبريزي بيان هذه الصورة من التشبيه عن الأنباري !.(٦٩)

لكن مانوع هذا التشبيه باعتبار الطرفين ؟. هذا مالم يوضحه الأنباري أو يذكر شيئاً عن مصطلحاته.

والتشبيه هنا متعدد الطرفين ؛ حيث شبّه عيبته وفضل مايُلبس رحله إذا برزا عند إسرا ع الناقة بالريش الشاخص من جناحي الظليم المسرع.

فالمشبه متعدد، وهو شيئان ؛ هما : العيبة، وفضل أديم الرحل. والمشبه به أمران كذلك؛ وهما: الريش الناتئ أو الشاخص من كل جناح من جناحي الظليم ؛ فصارت العيبة في بروزها تشبه الريش الناتئ من أحد الجناحين، وفضل أديم الرحل في بروزه يشبه الريش الشاخص من الجناح الآخر. على أن كلاً من الطرفين المتعددين مقيد بحال الإسراع ، وإلا فلا يتحقق التشبيه؛ لأن العيبة وفضل أديم الرحل لايبرز إلا عند إسراع الناقة ، وكذلك الريش الشاخص من كل جناح لايبرز ناتئاً مالم يكن الظليم نافراً شديد السرعة.

ثم إن هذا التشبيه المتعدد الطرفين من النوع الملفوف؛ لأنه أتى فيه بالمشبّهين أولاً ، ثم أتى بالمشبه بهما.

---

(٦٨) شرح المفضليات ٢٥٧.

(٦٩) انظر شرح اختيارات المفضل ٦١٨/٢.

- **وقال المرقش الأكبر :**

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوهُ دنا * نيرٌ وأطراف الأكُفُّ عَنَمْ

لم يتكلم الأنباري على نوع التشبيه الذي ضمَّه هذا البيت ، وهو نوع يتصل بنوع التشبيه باعتبار الطرفين ؛ أعني التشبيه المتعدد الطرفين ؛ وهو من التشبيه المقرون - غير الملفوف - الذي قُرِن فيه بين كل مشبَّه ومشبه به من هذه الصورة التشبيهية المتعددة في البيت ؛ فقد أتى الشاعر بمشبه ومشبه به ، ثم بمشبه ومشبه به ، ثم بمشبه ومشبه به ؛ في ثلاث صور تشبيهية متعددة.

لكن الأنباري لم يذكر شيئاً من ذلك ، ولم يزد على أن قال : « النشر : الريح؛ يقول ريحهن كالمسك ؛ كقول الآخر:

وكأنَّما ريحُ القرنفلِ نشرُها * أوحَنْوةٌ وخَطَتْ خزامى حَوملِ»

ثم ذكر بيتاً آخر في هذا المعنى . وقال:

« والعنم: شجرٌ أحمر؛ شبَّه حُمرةَ الحِنّاء به...» (٧٠)

وتابعه التبريزي فنقل عنه أكثر كلامه سوى شواهده الشعرية ! . (٧١)

لقد اقتصر الأنباري على بيان تشبيه واحد فقط من هذه التشبيهات ، وهي تشبيهات ظاهرة لاتحتاج إلى بيان مالم يكن بياناً فنياً يُعْنى بإظهار الصورة الفنية التي أرادها المُشبِّه، ومالم يكن بياناً فنياً يُعنى بتحديد المصطلحات الفنية؛ بأن يذكر أن مثل هذا البيت مما اشتمل على ثلاثة تشبيهات ، وهي من نوع التشبيه باعتبار طرفيه وأنها من المتعدد الطرفين، ومن النوع المقرون أو غير الملفوف؛ على نحو مامرّ بيانه !.

---

(٧٠) شرح المفضليات ٤٨٦.

(٧١) انظر شرح اختيارات المفضل ١٠٥٦/٢. والبيت الآخر الذي استشهد فيه على معنى بيت المرقش الأكبر: أعني قول الآخر: وكأنما ريح القرنفل نشرها ... ... يُعدُّ من تشبيه (الجمع)؛ وهو ماتعدّد طرفه الثاني : (المشبه به) فقط، وهو أحد أنواع التشبيه المتعدد الطرفين الداخل في أنواع التشبيه باعتبار طرفيه.

د - التشبيه المتعدد أحد طرفيه :

- قال عنترة بن الأخرس:

٣ - كأنّ بضاحي جِلدِه وسراتِه * ومَجْمعِ لِيتَيْهِ تهاويلُ زُخْرفِ

قصد الشاعر إلى إيضاح لون جلد الحية . والتهاويل : ماعُلّق على الإبل من عِهْن مزخرف. وأصل الزخرف في الذهب . ثم استعمل في معنى التحسين والتزيين.

وبعد أن أوضح المرزوقي هذه المعاني قال في بيان صورة التشبيه في البيت : « فشبّه بارز جلد الحيّة وظهره ومَجْمَع صفحتيْ عُنقه لاختلاف ألوانها بالتهاويل التي تزخرف بها الإبل.»[٧٢]

وقد توافق التبريزي مع المرزوقي في بعض أجزاء من شرح البيت إلا أنه لم يذكر صورة التشبيه !.[٧٣]

وهذا التشبيه داخل في أنواع التشبيه باعتبار طرفيه.

ثم هو من أنواعه باعتبار تعدد أحد الطرفين . وهو من تشبيه (التسوية) ؛ لأن المتعدد هو الطرف الأول ؛ وهو المشبّه ؛ ذلك بأن الشاعر عدّد المشبّه فجعله اثنين ، ثم سوّى بينهما معاً في تشبيههما سويّة بالمشبّه به ؛ لقد شبه ماظهر من جلد الحية ومجمع صفحتي عنقه بالتهاويل والزخارف الملوّنة التي تُعلّق على الإبل.

ولقد وُفِّق الشاعر في نقل صورة المشبه ؛ حين استطاع أن يثبتها في الذهن من خلال صورة فنية زاهية مستقرة في الذهن مألوفة عند الناس - أعني من خلال صورة المشبه به - ومما زاد في توفيق الشاعر في رسم هذه الصورة الفنية بطريق التشبيه - أن طرفيه من الصور المألوفة في بيئة الناس ومشاهداتهم في حياتهم اليومية؛ فليست صوراً وحشية ولا غريبة، وذلك في عصر الشاعر بوجه خاص. ولذلك ماأظن الشاعر يستطيع أن يحقق هذه الصورة الفنية البليغة بغير صورة التشبيه؛ لأنه قد قارب في هذا التشبيه ؛حين انتزعه من البيئة، مع شدة تلاؤم بين طرفيه ، كما أصاب في التصوير والوصف؛ لأن كلاً من المشبه به والمشبه صورة فنية

---

(٧٢) شرح ديوان الحماسة ١٨٠٥/٤، ١٨٠٦.

(٧٣) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٠٦/٤، ٣٠٧.

مركَّبة في ألوانها وخطوطها ؛ فكانت صورة مُحسَّة بديعة قريبة ؛ فاستطاع الشاعر لذلك تحقيق غرضه البلاغي في بيان حال المشبه وصفته ، وفي تقريره في النفس، مع تزيين صورته وتحسينها للترغيب فيها بعد أن كانت تنفر منهاالطباع وتتحاشاها.

- **قال آخر:**

١ - الامُ على بُغْضي لهــــا بـين حَيَّةٍ * وضَبْعٍ وتِمْساحٍ تَغَشَّاكَ مـن بَحـرِ

٢ - تُحاكي نعيماً زال في قُبْحِ وَجْهها * وصَفْحَتُها لمّا بَدتْ سَطْوةُ الدَّهْرِ

أراد الشاعر تشبيه هذه المرأة بالحية والضبع والتمساح .

قال المرزوقي مبيِّناً صورة التشبيه عند الشاعر:

« جمع بين الحيَّة والضَّبُع والتمساح ؛ لأنه ليس يقصد التشبيه من وجه واحد، وإنما يريد التشبيه من وجوه كثيرة من الخَلْق والخُلُق. والتمساح : الدابة المعروفة، والرجل الكذّاب.»(٧٤)

ونصّ هذا الكلام ورد عند التبريزي . عدا الجملة الأخيرة الخاصة بالتعريف بالتمساح!.(٧٥)

وهذا من تشبيه (الجمع) ؛ أحد نوعي التشبيه المتعدد أحد طرفيه ، فقد عدّد الشاعر هنا المشبَّه به وشبَّه بهذه المشبَّهات بها مُشبَّهاً واحداً فقط؛ حيث شبه هذه المرأة بالحية والضبع والتمساح جميعا ؛ لأنه أراد من كلٍّ من هذه المشبَّهات بها صفة بعينها لتناسب الصفات الخَلْقيه والخُلُقية التي أرادها لهذه المرأة. وهذا مادل عليه المرزوقي بكلامه الفني الآنف ذكره.

على أن دلالته على نوع هذا التشبيه دلالة قوية، وإن كانت غير صريحة؛ إذْ تستبين من كلامه الإشارة إلى نوع هذا التشبيه ، من حيث تعدد المشبه بـه . وهـذا

---

(٧٤) شرح ديوان الحماسة ١٨٧٧/٤.

(٧٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٣٦٨/٤.

أمر تُفيده من البيت عند أدنى تأمل . ولكن المرزوقي قد أجاد في بيان الصورة، كما دل على تعدد المشبه به وأشار إليه إشارة قوية؛ فقد ذكرمصطلح (الجمع) في مطلع كلامه ، وذكر أنه جمع بين هذه الأشياء الثلاثة، وبيّن مسوّغ الشاعر في جمعه بينها؛ وأنه لايريد أن يكون وجه الشبه الجامع من وجه واحد وإلاّ لاكتفى بأحد هذه الأشياء، لكنه يريد أوجهاً كثيرة تتحقق فيها المشابهة بين هذه المرأة وبين المشبهات بها الثلاثة في صفات عدِة ؛ خَلْقية وخُلُقية.

أما البيت الثاني ففيه صورتان تشبيهيتان ؛ وهما من تشبيه المفرد الحسي بالمفرد العقلي. وأولهما : تشبيه الشاعر قُبْح وجه هذه المرأة بزوال النعمة . والوجه الجامع الكراهية ونفور النفس، وعدم إطاقة المشْهَد أو مصابرة الحال. وأما التشبيه الآخر فتشبيهه تحيّتها بسطوة الدهر وقهره. قال المرزوقي دالاً على هذين التشبيهين ومشيراً إليهما:

« وقوله : (تحاكى نعيماً زال) يريد به المثل السائر (أقبح من زوال النِّعمة) يريد :تحاكي في قبح وجهها قبح زوال النعمة، فجعل اللفظ توسُّعا على ماترى . ثم جعل جانبها وما تصافح به مُلاقِيها كسطوة الدهر . والسطوة : البسط على الإنسان تقهره من فوق.»[٧٦]

ونقل التبريزي عن المرزوقي أكثر كلامه بتصرف واختصار ، لكنه لم ينقل عنه قوله في بيان صورة التشبيه الثانية؛ أعني قوله :« ثم جعل جانبها وما تصافح به ملاقيها كسطوة الدهر.» ![٧٧]

(٧٦) شرح ديوان الحماسة ٤/١٨٧٧.

(٧٧) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/٣٦٨.

٢ - أنواع التشبيه باعتبار وجه الشبه:

أ - التشبيه التمثيلي:

- قال مُزرِّد بن ضرار:

مصاليتُ كالأسياف ثُمَّ مصيرهم * إلى خَفِرات كالقنا المُترائدِ

ولكنّها في مَـــرْقَبٍ مُتنـاذِرٍ * كأنّ بها منه خُروطَ الجَداجدِ

يصف الشاعر نساء القوم بأنهن غاية في الجمال والأنوثة والرقة، مع حياء وخفر، لكنهن مع ذلك في منزل متناذر عُرف بالخيانة والغدر.(٧٨)

ويرى التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - أن في البيتين مَثَلاً للشر الخفيّ، وإيقاع الضرر الخافي من وراء ستر رقيق.(٧٩)

ولم يتكلم الأنباري على هذين البيتين بما يشير إلى بيان الصورة الفنية بطريق التشبيه عند الشاعر، وإنما فسّر المفردات اللغوية وذكر معانيَ متفرقة لبعض التراكيب!.(٨٠)

وفي قول المرزوقي والتبريزي: أن الكلام مَثَلٌ للشر الخفي وإيقاع الضرر الخافي من وراء ستر رقيق ؛ في هذا القول إشارة قوية إلى مصطلح (التشبيه التمثيلي) ؛ ففي مصطلح (المثل) الوارد في كلامهما ، ثم تفسيرهما المراد بهذا المثل - مايدل دلالة قوية على أن قول الشاعر هنا تشبيه تمثيلي؛ وذلك أن حال هؤلاء النسوة الجميلات الخفرات في ذلك المنزل الخائن الغادر كحال الجدْجَد في أعالي الشجر أو في المنازل يُسمعك الصوت الجميل بصرصرته في الليل البهيم لتستأنس به، لكنه يخدعك بسوء فعله المتأصّل في جبِلّته ؛ إذْ لاينفك أبداً عن تقريض الجلود وتقطيعها ، وإفساد أمتعة الناس. فظاهره جميل مؤنس ، لكن باطنه الولوع بالسوء والإفساد !. فوجه الشبه في هذا التشبيه التمثيلي البديع هو هيئة تلك الصفة المنتزعة من تلك الأمور المتعددة؛ وهي وجود الشر خُفيةً وإيقاع الأذى والضرر باطناً

(٧٨) انظر شرح اختيارات المفضل ١/ ٣٩٠، ٣٩١.

(٧٩) انظر شرح اختيارات المفضل ١/ ٣٩١، وحاشيتها.

(٨٠) انظر شرح المفضليات ١٣٨، ١٣٩.

مع أن الظاهر بضد ذلك.

ولو نظرت في تلك الأمور المتعددة التي انتزعت منها هيئة تلك الصفة التي اشتمل عليها وجه الشبه في هذا التشبيه التمثيلي- لوجدتها في البيتين معاً بل في كل شطر منهما ؛ فقد تضافرت معاً لتكوين هذه الهيئة التمثيلية ، ومما زان هذا الوجه الجامع في هذا التشبيه التمثيلي، وزان تلك الأمور التي انتُزع منها هذا الوصف أو تلك الهيئة الجامعة - أن كانت تلك الأمور مبنية على صور تشبيهية مستقلة؛ (مصاليت كالأسياف....) ، (إلى خفرات كالقنا المترائد)، (ولكنها في مرقب متناذر/ كأنَّ بها منه خروط الجداجد). وكون تلك الأمور- التي هي مصدر هيئة وجه الشبه الجامع ـ في اصلها صوراً تشبيهية مستقلة تتضافر معاً لتشكيل الهيئة أو الصفة الجامعة؛ كونها بهذه السمة أقوى وأدعى للإبدا ع الفني في رسم الصورة أو الهيئة لذلك الوجه الجامع ، وفي بلاغة هذه الصورة الكلية أو الهيئة الجامعة وقوة تأثيرها.

- وقال عبدة بن الطبيب:

٤٤ - له جنابان من نَقْع يثَوِّرُهُ * فَفَرْجُهُ من حَصى المعْزاءِ مكلولُ

يقول الأنباري - عن أبي عكرمة - مشيراً إلى صورة التشبيه التمثيلي في البيت:

« الجنابان : الناحيتان . يقول: قد ارتفع له من جانبيه غبار لشدّة عَدْوه . والمعزاء : الأرض ذات الحصى ؛ فيريد : أنه لشدّة عدوه يردّ الحصى على فَرْجه فكأنه إكليل له . وهذا غاية شدة العدو .... وقوله :(مكلول) تمثيل وتشبيه .»[٨١]

ونقل التبريزي بعض كلام الأنباري؛ من قوله :« يريد: أنه لشدّة عدوه....» إلى قوله: « وهذا غاية شدة العدو.»[٨٢]

---

(٨١) شرح المفضليات ٢٨٣.

(٨٢) شرح اختيارات المفضل٢/٦٦٩.

أما مراد الشاعر بالفَرْج فهو مابين قوائمه . كذا ورد عند الأنباري - عن غير أبي عكرمة - ، وكذا أورده التبريزي - نقلاً عن المرزوقي -، وجاء فيه : « وجعله مُكَلَّلاً بالحصى لشدة عدوه.»(٨٣)

والأنباري وأبو عكرمة قد صرحا بمصطلح التمثيل والتشبيه في قولهما في تفسير قوله :(مكلول)؛ كما سبق. أما التبريزي فلم يصرح بهذين المصطلحين ، وإن كان قد نقل عن الأنباري تفسير المعنى المشتمل على بيان صورة التشبيه بقوله:« يريد أنه لشدّة عدوه يرد الحصى على فرجه؛ فكأنه إكليل له .» ، كما أنه نقل عن المرزوقي الصورة البلاغية التي أرادها الشاعر؛ حين أراد أن يثبت شدّة عدو ذلك الثور؛ فجعل فَرجَه مُكَلّلاً بالحصى.

وأيّاً ما كان فالأنباري أدق وأعمق في تحديد مصطلح(التشبيه)في هذا البيت، وفي بيان صورة التشبيه فيه ؛ حين بيّن ذلك في مساق بيانه المعنى المراد.

لكن هل يريد الأنباري - وأبو عكرمة - بمصطلح (التشبيه) مجرّد التشبيه العام بدلالته الفنية العامة، ولايريد به (التشبيه التمثيلي)؛ جرياً على طريقة علماء البلاغة واللغة الأقدمين، ومنهم الزمخشري الذين يجعلون (التمثيل) مرادفاً للتشبيه؟.(٨٤)

ولعل مما يؤيد أن الأنباري يريد بمصطلح (التشبيه) معنى (التمثيل) أنه أردف التشبيه بالتمثيل في عبارته الآنفة التي نقلها عن أبي عكرمة وذلك بقوله : « ... وقوله : مكلول: تمثيل وتشبيه.».

لكن الصورة في البيت صورة تشبيه تمثيلي على ماعُرف - في مصطلحات التشبيه وأنواعه باعتبار وجه الشبه - عند أهل الاختصاص من علماء البلاغة المحققين. ووجه الشبه في صورة التشبيه التمثيلي في هذا البيت حسّي . أما المشبّه فمركّب وأما المشبه به فمفرد ؛ لأن الشاعر مثّل الحصى المتقاذف المرتدّ إلى فَرْج

---

(٨٣) شرح اختيارات المفضل ٦٦٨/٢، ٦٦٩ ، وحاشيتها.

(٨٤) انظر المطّول ٣٣٩.

الثور المتجمِّع بين قوائمه - من شدّة عَدْوه - بصورة الإكليل ؛ فوجه الشبه الجامع في هذا التشبيه التمثيلي هو تلك الهيئة المؤلّفة من ذلك الحصى المتقاذف بين قوائم الثور ومؤخرّته . والتي حاكت في تجمّعها الإكليل.

- وقال بشر بن أبي خازم:

١٢- فكانوا كذاتِ القِدْرِ لم تدرِ إذْ غلَتْ * أتُنْزِلُهـا مذمومـــة أم تُذيبُهَا

في هذا البيت تشبيه تمثيلي بديع. وقد نقل الأنباري في شرح البيت عدّة تصويرات لهذا التشبيه التمثيلي؛ نقلها عن أبي عكرمة الضبي، وعن الطوسي عن أبي عبيدة ، وعن الطوسي - أيضاً - عن ابن الأعرابي، وعن الطوسي - أيضاً - عن أبي محمد الأخفش؛ وإليك هذه التصويرات بحسب ترتيب سند روايتها آنفاً:

«.. يقول : لما رأونا تحيَّروا فلم يدروا مايصنعون ؛ وأصل ذلك أن امرأة كان تَسْلأ قِدراً فرأت راكباً مقبلاً فجعلتْ تُفكّر ؛ أتترك القدر فتحترق أو تنزلها فترفعها قبل أن تنضج فتفسدها..؟!. ويقال : لم تدر هذه المرأة ؛ أتَغْرف للناس من قِدْرها فتطعمهم (فذلك إذابتها إيّاها إذا فرّقتْها)، أم ترفعها مذمومة لم تطعم منها أحداً؟!» .

« ... قال : وإنما أراد : كسالئةٍ ارتَجَنتْ عليها زُبْدَتُها ؛ فإن أذابتها لم تصلح ، وإن أنزلتها فهو شرٌ فقد فسدت.»

«... هذا يقوله في يوم النِّسار لبني عامر؛ يقول : لمّا لقيناهم سُقِط في أيديهم فلم يقدروا على القتال ، ولم يكن لهم بنا يدٌ فانهزموا ؛ فشبّههم بامرأة نَصبتْ قِدرها لسلءِ سمنها ، فأقبل نازل فروّأتْ في أمرها ؛ أتتمُّ نضج قدرها فتَقْرِيَ منها ضيفَها أم تنزلها فتفسد عليها ولا يرضاها ضيفُها؟!؛ فأيُّ الأمرين فعلت فهو شاق عليها ؛ فيقول : فأولئك حين لقيناهم كهذه المرأة.»

« اختلط عليهم أمرهم وتقطّع كهذه القدر التي ارتجنتْ .... والارْتجان : أن صاحبة القدر إذا نصبتها فإذْ رَسَخت الزبدة في أسفل قدرها ولم ترتفع فإن السمن

ينوب ويرتفع ، فإن أصابها حرُّ النار فارتفعت الزبدة حتى تصير في أعالي القدر فإنها تتقطَّع وتفسُد؛ فيقول : ارتجنت القدر بما فيها . وهذا مَثَلٌ للقوم واختلاط أمرهم عليهم.»[٨٥]

ولو تأملت في هذه التصويرات الآنفة الذكر لوجدتها تُجْمِع على تصوير الشاعر حال أولئك القوم وتمثيلهم في اختلاط أمرهم عليهم وعدم قدرتهم على القتال والمواجهة بحال تلك المرأة مع قِدْرها التي هي معه بين حالين من الخوف ؛ لاتستقر على حال منهما يمكن أن تنفع أو تدفع بها مفسدة الحال الأخرى. وذلك هو التشبيه التمثيلي. وهذه الهيئة التصويرية المنتزعة من أمور متعددة هي الوجه الجامع بين الحالين في طرفي التشبيه في هذا التشبيه التمثيلي البديع.

وأشار التبريزي إلى ذلك ؛ حين نقل عن المرزوقي : أن هذه المرأة يُضرب بها المَثَل في التَّحيُّر والإمساك عن النفاذ فيما همّت به من شأنها . ثم حكى حالها وقصّتها بالتفصيل مقارناً حالها بحال قبيلة (هوازن)، وتحيّرهم في موقفهم من عدوِّهم لمّا أحسّوا بهم.[٨٦]

وقال عبد الله بن عَنَمة الضَّبّيُّ:

٥ - فلم يَبْقَ إلاّ دِمْنةٌ ومنازِلٌ * كما رُدَّ في خطِّ الدَّواةِ مِدادُها

ذكر الأنباري أن الشاعر يصف الديار واندراسها . وأردف بذكر شواهد شعرية مماثلة لوصف هذا الشاعر في تصوير هذا المعنى.

ثم وقف عند صورة التشبيه في البيت مبيناً أن الشاعر شبّه آثار تسويد هؤلاء الراحلين عن ديارهم وآثار دِمَنهم ؛ من رماد وغيره - بالمداد الأسود . كما وقف وِقْفة مقارنة بين تصوير هذا الشاعر وصورة التشبيه عند عديّ ابن الرقاع العاملي في بيته المشهور:

تُزْجي أغنَّ كأنّ إبرةَ روقِهِ * قَلمٌ أصاب من الدَّواة مدادَها

---

(٨٥) شرح المفضليات ٦٤٤.

(٨٦) انظر شرح اختيارات المفضل ١٣٨٧/٣ وحاشيتها.

حين شبه سواد قرن الظبي عند طلوعه بسواد المداد .[٨٧]

وقد جمع الأنباري في هذه المقارنة بين صورتين تشبيهيتين تشابَهَ مابينهما من ملامح، وبخاصة أن صورة (المشبه به) في كلا الصورتين واحدة. أما صورة(المشبه) فيهما فيجمع بينهما صورة السواد على خلاف في الشكل والهيئة.

أما التبريزي - في شرحه بيت عبد الله بن عنمة الضبي- فأورد صورة التشبيه ؛ نقلاً عن المرزوقي ، دون مقارنة أو موازنة بصور أخرى؛ كما كان عند الأنباري.

لكن التبريزي والمرزوقي أدق في بيان صورة التشبيه ؛ حيث بيّنا ملامح الصورة الفنية لهذا التشبيه التمثيلي بدقة ؛ كما أرادها الشاعر وهو ماقصّر في الكشف عنه الأنباري في بيانه الفني لصورة هذا التشبيه .

وإليك بيان هذه الصورة الفنية لهذا التشبيه التمثيلي عند الشاعر كما بيّنها التبريزي نقلاً عن المرزوقي:

« القصد إلى تشبيه آثار الدار الباقية بكتابةٍ درستْ فأُجِدَّتْ.»[٨٨]

فليس المقصود في هذه الصورة الفنية في تشبيه الشاعر - تشبيه سواد بسواد ؛ فهذه صورة سطحية ظاهرة لاجدال حولها ، ويكشفها تركيب الألفاظ مباشرة دون أدنى عناء من تأمّل!. وإنما المقصود - كما أشار المرزوقي والتبريزي - إبراز الملامح الفنيةالدقيقة لآثار هذه الديار الدارسة التي تُشْبِه كتابةً درستْ ، ثم جُدِّدتْ مرةً أخرى بإعادة الكتابة عليها؛ وذلك بأن الكتابة إذا اندرستْ بعض آثار حروفها وملامح كلماتها ، ثم أُعيدتْ مرةً أخرى بالكتابة على ماعساه بقي من أصول كلماتها وحروفها التي يوصل بعضها ببعض؛ لتصبح كلمات تدل على معان وأفكار مفيدة ؛ إن الكتابة إذا كانت بهذه الهيئة أو الصفة فإنها تكون شبيهة بآثار ديار

---

(٨٧) انظر شرح المفضليات ٧٤٣.

(٨٨) شرح اختيارات المفضل٣/١٥٤٤ وحاشيتها . وإنه ليزداد إعجابك بالمرزوقي ، والتبريزي الذي نقل عنه - إذا علمت أنه لم يأت في شرح البيت إلاّ بهذه العبارة الفنية المحكمة !.

دارسة عفى عليها الزمن إلاّ من دمَن ظهرتْ، أو آثار أثافٍ أو نُؤْيٍ بقيتْ على مرّ الدهر ، وكشفت عنها الرياح ، فدلَّتْ على آثار الدار الباقية ومعالمها ؛ فتُذكِّر منها ماتُذكِّر؛ تماماً كما قد تدل الكتابة الدارسة المُعادَة مرةً أخرى على معانٍ مستفادة.

وهذه صورة فنية دقيقة بديعة من صور التشبيه التمثيلي الذي يكون وجه الشبه – الجامع فيه بين طرفيه – هيئة وصف منتزع من أمور متعددة.

ومثل هذا التصوير الفني التمثيلي؛ في الصورة والمعنى **قول لبيد:**

٨- وجلا السّيولُ عن الطُّلول كأنّها * زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقـــلامُها

وقد وقف ابن النحاس مبيناً هذه الصورة الفنية بقوله في تفسير معنى البيت :

« ... ومعنى البيت : أنه يصف هذا السيل قد كشف عن بياض وسواد فشبّهه بكتاب قد تطمَّس فأعيد على بعضه ، وترك ماتبيّن منه ، فكتابُه مختلف؛ فكذلك آثار هذه الديار.»[٨٩]

ولم يقل أبو بكر الأنباري شيئاً من هذا في بيان الصورة التشبيهية التمثيلية في هذا البيت سوى أنه فسرّ قوله :(تجد متونها أقلامها) بقوله :« معناه : يُعاد عليها الكتاب بعد أن درستْ .»[٩٠]

وهذا تفسير ظاهر لايحتاة إلى تأمل ، كما أنه لايجدي فيما نحن بصدد بحثه من دراسة الصورة الفنية في هذا التشبيه التمثيلي. ولقد كان ابن النحاس أحسن منه وأمكن في إيضاح هذه الصورة التمثيلية؛ حين أوضح أجزاء هذه الصورة بشيء من التفصيل وردّ بعضها إلى بعض حتى دل على هذه الصورة بهيئتها ووصفها الجامع لوجه الشبه بين طرفي التشبيه.

---

(٨٩) شرح القصائد المشهورات ١/١٣٤.

(٩٠) شرح القصائد السبع الطوال ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

- وقال بشامة بن عمرو:

٣٦ - كأنّ يدَيْها إذا أرْقلتْ * وقد جُرْنَ ثم اهتدينَ السَّبيلا

٣٧ - يدا عائمٍ خرَّ في غَمْرةٍ * قد أدركهُ الموتُ إلاّ قليلا

قال التبريزي في بيان صورة التشبيه التمثيلي في البيتين:

« شبَّه يَدَي الناقة وقت إرقالها ؛ وهو الإسراع في السير، وقد عدلتْ قوائمها في رفعها لها ووضعها على المحجَّة مرةً وعادت إليها أخرى - بيَديْ إنسان ساقط في الماء الكثير، وقد خاف الغرق فصار يسبح مشارفاً للموت ، وهو يجتهد في طلب الخلاص منه.»[(٩١)]

ولم يشر الأنباري إلى هذا التشبيه على نحو ماورد عند التبريزي الذي جاء كلامه الآنف ذكره مفصّلاً مفتتحاً إياه بكلمة تدل على هذا الفن باسم مصطلحه ؛ وهي قوله: (شبَّه) ، ثم أورد صفة وجه الشبه الجامع بين طرفي التشبيه ، وهي الصفة المركبة المطلقة؛ فالوجه هنا : وصف لهيئة منتزع من متعدد، يحقق مايعرف بالصورة الفنية للتشبيه التمثيلي.

ولكن التبريزي نقل كلامه هذا عن المرزوقي مع تصرف يسير؛ فالفضل للمتقدم في بيان هذه الصورة الفنية لهذا التشبيه التمثيلي.

أما الأنباري فقد اكتفى في بيان صورة التشبيه بقوله:

« .... فكأن يَدَي هذه الناقة في وقت كلال غيرها من الإبل ولزومهنّ المحجّة - يدا سابح.»[(٩٢)].

وهذا - كما ترى - تصوير مختصر لهذا التشبيه التمثيلي، فلم ينص فيه على مصطلح(التشبيه) ، كما أنه لم يُفصِّل في بيان صورة التشبيه ووجه الشبه التمثيلي؛ على نحو ماورد عند المرزوقي والتبريزي!.

- قال عقيل بن علّفة:

ولست بصادر عن بيت جاري * صدورَ العير غمَّرهُ الوُرودُ

---

(٩١) شرح اختيارات المفضل ٢٩٤/١ وحاشيتها.

(٩٢) شرح المفضليات ٨٧.

أراد الشاعر : أنه من عفّته لايتلفّت إلى بيت جاره تلفُّتَ الحمار نحو الماء ، وقد صدر عنه غير ريّان[(٩٣)]

ذكر ذلك النمري في تفسيره معنى البيت وقد أتى في تفسيره بكاف التشبيه؛ « .. كما يتلفت الحمار...» ، لكنه لم ينص على مصطلح فن (التشبيه)، وأنه من التشبيه التمثيلي!.

والنص على مصطلح(التشبيه) العام ليس بمستغرب من أبي عبد الله النمري أو غيره من الشرّاح ، لكن أنّى لهم النص على مصطلح (التشبيه التمثيلي) ، وإن كان المرزوقي أقربهم إلى الدلالة عليه دلالة قوية يشير بها إليه بطريق مصطلح:(التصوير)، وبشرحه الهيئة الجامعة بين الطرفين والوصف المنتزع من متعدد شرحاً دقيقاً يوضح فيه بدقة وشمول معالم تلك الهيئة وبيان حال ذلك الوصف؛ على نحو مامرّ في نماذج المفضليات فيما نقله التبريزيُّ عنه. لكن أبا عبد الله النمري يبعد أن يذكر مصطلح (التشبيه التمثيلي)، أو مصطلحاً آخر يدل عليه به أو يشير إليه ، أو حتى يبيِّن في شرحه بياناً دقيقاً شافياً يوضح فيه الهيئة الجامعة بين الطرفين والوصف لتلك الحال المنتزعة من متعدد؛ ذلك لأنه يركز في شرحه على مايجلو غوامض معاني أبيات الحماسة؛ من تفسير للمفردات اللغوية أو الروايات لاختلاف تفسير المعنى بسببها ، ونادراً مايقف بشكل مفصل على تحديد مصطلح بلاغي وبيان وجه البلاغة فيه إلا مايأتي به عرضاً في أثناء تفسيره معنى البيت ؛ مما يساعد في الكشف عن المعنى المراد ، أو يستدعيه مقام الشرح والتفسير.

وهذا البيت الذي فسّر النمري صورته الفنية التشبيهية بما سبق ذكره هو من التشبيه التمثيلي؛ إذْ إن وجه الشبه الجامع بين طرفيه وصف منتزع من متعدد لحالة أو هيئة خاصة، فالشاعر يمتدح نفسه ويثني عليها بالعفة والورع عن محارم الله والرعاية لحرمة الجوار؛ فهو لايتلفّت إلى بيت جاره إذا تركه - مُعززاً مكرّماً - تلفُّت الحمار إذا صدر عن ماء لم يرتو منه؛ فنفسه متعلقة به !.

---

(٩٣) معاني أبيات الحماسة٨٧.

وتأمل هذه الهيئة الجامعة بين الطرفين ووصف حالتيهما المنتزعة من أمور متعددة؛ وهي الهيئة الحاصلة في النفس القائمة على التردّد بشأن المعاودة إلى أمر بعد الصدور عنه في حالٍ كان في المُكْنة ألا يُرجع إليه أو لايُحتاج إلى الرجوع إليه.

وهذه الصورة نفسيه تتعلق بأعماق النفس والشعور وإن كان طرفاها حسيين، لكن حال كل من هذين الطرفين ، والوجه الجامع بينهما نفسي كامن في أعماق النفس والشعور؛ ولذلك فقد كان تصوير الشاعر لهذه الصورة الفنية بطريق هذا التشبيه التمثيلي ـ تصويراً دقيقاً عميقاً ، ولك أن ترى شواهد ذلك في المفاضلة اللغوية لدى الشاعر ودقة اختياره بعض ألفاظ البيت وتراكيبه دون بعض ، وذلك لأن مااختاره منها يحقّق - بقوة وإبداع - المعنى العميق ذا الدلالة الخاصة ؛ لما له من مزيد اختصاص في آثار النفس والشعور؛ إن في تخصيص الشاعر بيت الجار - مثلاً - دون غيره له معنى ومغزى خاص يرمز إلى التأكيد على شرف الجوار ورعاية حرمته، وفي التخصيص بإضافة الصدور إلى العَير - دون غيره من سائر الحيوان لمزيد اختصاص في الحمار ذاته ، وهو المغزى الذي أراد الشاعر أن يرمز إليه ويؤكد عليه ؛ أعني صفة البلادة في الحس والشعور وإنعدام التهذيب والذوق ؛ وذلك لتركُّز الحيوانية والبهيمية في العير طبعاً وجبِلة أكثر من غيره .

- وقال حسين بن مطير:

فتىً عِيشَ في معروفهِ بعد موتِه * كما كان بعد السَّيلِ مجراهُ مَرْتَعا

أراد أنه بقي في يد مَنْ أعطاهم في حياته من ماله مايعيشون به بعدموته. أو أنه أوصى لذوي الحاجة والفاقة من ماله مايسدّ حاجتهم.

بهذين الوجهين من التفسير فسّر أبو عبد الله النمري المعنى المراد في البيت. كما أبان عن صورة التشبيه في البيت؛ فذكر أنه شبّه عيشهم في معروفه بعد موته بالسيل يترك مجراه مرعىً ترتع به الأنعام[٩٤]

---

(٩٤) انظر معاني أبيات الحماسة ١٣٣.

لكن النمري لم يشر إلى نوع هذا التشبيه الذي هو من التشبيه التمثيلي؛ أحد أنواع التشبيه باعتبار الوجه ، والوجه الجامع بين الطرفين هنا : وصف لهيئة مركبة دلّ عليه الحال المتعددة لكل من المشبه به والمشبه ؛ وهو بقاء الأثر واستمراره مع انقطاع المُؤثِّر وزواله.

وقد تكلم المرزوقي على بيت الحسين بن مطير - موضع البحث الآنف عند النمري- ، وكشف عن معانيه المحتملة ، وعن بعض مافيه من صورة فنية بطريق التشبيه التمثيلي؛ فقال: «... وقوله : (فتىً عيش في معروفه بعد موته) يجوز أن يكون أراد:مَن استغنى به وبمعروفه من المتصلين به والمنقطعين إليه والراجين له . ويجوز أن يكون أراد :مَنْ عاش مِن وقوفه وحبائسه بعده . ويجوز أن يريد : أنه علَّم الناسَ الجودَ والكرم ؛ فمن مُقتدٍ به آخذٍ أخذه ، ومُستَنٍّ بسنّته سلك مسلكه ، فما يفعله هؤلاء صار كأنه هو الفاعل له . ثم شبّهه بالغيث يصوب فيحيي العباد، ثم يعيش الناس في آثاره بعد انقطاعه ومُضيِّه.»(٩٥)

ولم يتحدث عن بقية الصورة المتمّة أو المؤكدة لهذا التشبيه التمثيلي؛ أعني قوله :(كما كان بعد السيل مجراه مرتعا) إلا حديثاً في وجوه الإعراب وعدول الشاعر عن الترتيب في الحكم الإعرابي ؛ حيث لم يُولِ (مجراه)- وهي اسم كان - كانَ ، وإنما جعله متأخراً ؛ لئلا يكون إضمار قبل الذكر ؛ فلذلك قدّم لفظ (السيل) عليه بالذكر ؛ ليعود الضمير إليه . وتقدير الكلام :(كما كان مجرى السيل مرتعاً بعده)!.(٩٦)

ومثل هذا لايفيد شيئاً فيما نحن فيه من بيان للصورة الفنية عند الشاعربطريق التشبيه التمثيلي؛ إذْ إن هذا التركيب الذي أهمل المرزوقي بيان وجه التصوير الفني فيه هو أهم مايكشف عن تلك الصورة الفنية البديعة في هذا التشبيه التمثيلي البديع عند الشاعر.

---

(٩٥) شرح ديوان الحماسة٢/٩٣٧، ٩٣٨.

(٩٦) انظر شرح ديوان الحماسة٢/٩٣٨.

أما التبريزي فمع أنه نقل أكثر شرح البيت عن المرزوقي بنصه - مع تصرف يسير- إلا أنه لم ينقل عنه ماذكره عن بعض هذه الصورة الفنية البديعة من التشبيه التمثيلي التي تحلّى بها البيت وازدهى . وليته حين ترك نقل بعض هذه الصورة عن المرزوقي أتى بتحليل لها أو تعريف بها أو بيان آخر غير ماذكره المرزوقي ، لكنه زهد في هذه الصورة الفنية؛ فلم ينقل عنه شيئاً منها ، ولم يأت بجديد غيره ، فجمع بين سوء المتابعة وقلة الاعتداد الفني بما تتضمنه بعض الأبيات من الصور البلاغية البديعة.!.(٩٧)

وقد تابع العبيديُّ المرزوقيَّ في بيانه عن معاني البيت المحتملة، وفي إيضاحه بعض مافيه من صورة فنية بطريق التشبيه التمثيلي؛ تابعه في ذلك سواء بسواء!.(٩٨)

وقد تجلت في هذا البيت صورة فنية بديعة جداً ؛ بطريق صورة التشبيه التمثيلي؛ حيث شبه الشاعر حال(معنٍ) في كرمه وبذله المعروف في حياته وبقاء هذا المعروف في الناس وانتفاعهم به بعد مامضى بحال السيل يمرّ على الأرض الطيبة فينشر فيها الكلأ والمرعى فيصيب الناس منه الخير الكثير مع ذهاب السيل وانقطاعه.

وهذه صورة فنية تشبيهية تمثيلية بديعة؛ لأنها اتسمت بالقوة والإحكام والمنطق المقنع واستطاع الشاعر بها أن يصل إلى غرضه؛ من رثاء (معن) وامتداحه بثبوت صفة الكرم وتأصلها فيه حتى بعد مماته. ولو أن الشاعر رام هذا المعنى والغرض بغير هذه الصورة أو الوسيلة الفنية - لما استقامت له هذه الصورة ، وذلك الغرض في قوةٍ وثبات ووضوح كما استقام له كل ذلك هنا؛ في هذه الصورة

---

(٩٧) انظر شرح ديوان الحماسة٢/٢٩٢.

(٩٨) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٣٦٠، ٣٦١.

التمثيلية.

ومما زاد هذه الصورة عند الشاعر وضوحاً وقوةَ تمكن أن المشبّه به صورة مُحسّة ناطقة شاهدة بحالها ؛ فهي مما يراه الناس وينتفعون به ، كما أن صورة المشبه قد جاءت مناسبة لصورة المشبه به ؛ فمعن رجل شهم كريم ذو مروءة عالية ومعروفه ظاهر في الناس في حياته، ومستمر فيهم بعد مماته؛ وذلك هو بقاء الأثر واستمراره مع انقطاع المؤثّر الذي يرمز إلى وجه الشبه الجامع بين الطرفين في صورة التشبيه التمثيلي.

وقال الراعي من بني قطن بن ربيعة:

٦ - إذا نُصِبتْ للطارقين حَسِبْتَها * نعامةَ حزْباءٍ تقاصر جيدها

الحزباء : الأرض الصلبة المرتفعة . أراد : أن هذه القدر إذا نُصبتْ على الأثافي لزوّار الليل من الأضياف حسبتها - لإشرافها وغليانها - نعامة حزباء.[٩٩]

وفي هذا البيت تشبيه تمثيلي بديع فصّله المرزوقي وصوّره بقوله: « شبّه القدر بالنعامة؛ لأنها تكثر رفع رأسها ووضعه ؛ لجُبْنها ونفورها؛ فكذلك القدر ترفع المَحالَ وتخفضها ؛ لشدّة غليانها. وقال :(تقاصر جيدها) ليُتَبيَّن وجه التشبيه منه ويصح ، ومثله قول الآخر:

* غَضوبٌ كحيزوم النعامة أحْشِمَتْ* »[١٠٠]

وورد هذا الكلام بنصه عند التبريزي نقلاً عن المرزوقي، إلاّ أنه ترك كلام المرزوقي الآخِر المتصل ببيت الموازنة !.[١٠١]

ولقد أحسن المرزوقي في بيان صورة التشبيه التمثيلي، واستطاع أن يُجلّيها كما صوّرها الشاعر؛ فذكر المرزوقي الوجه المشترك بين الطرفين في قوله :

---

(٩٩) انظر شرح ديوان الحماسة ١٥٠٩/٣.

(١٠٠) شرح ديوان الحماسة ١٥٠٩/٣، ١٥١٠.

(١٠١) انظر شرح ديوان الحماسة ٧٩/٤، ٨٠.

« لأنها تكثر رفع رأسها ووضعه ... فكذلك القدر ترفع المحالّ وتخفضها ....» ، كما ذكر مسوغ هذا الوجه في كل من الطرفين؛ « لجبنها ونفورها .... لشدة غليانها ».

أما قول المرزوقي : إن الشاعر إنما قال (تقاصر جيدها) ليُتَبَيَّن وجه التشبيه منه ويصح فذلك قول سليم ؛ لأن الشاعر لو لم يقل هذا التركيب لما تبيّن وجه الشبه الجامع بين الطرفين ؛ وهو الهيئة الحاصلة للوصف المشترك بين الطرفين المنتزع من أحوالهما المشتركة للدلالة عل هذا الشبه الجامع لصورة التشبيه التمثيلي في البيت ، وهو الهيئة أو الصفة المتمثلة في حركة دائبة مُتغيّرة متردّدة بين الرفع والوضع والارتفاع والانخفاض . وبهذا تدرك قيمة هذا التركيب - أعني قوله : (تقاصرجيدها)، وأثره في رسم الصورة الفنية للتشبيه التمثيلي في البيت . إنه بدون هذا القيد الذي تضمنه هذا التركيب يخرج عن دائرة التشبيه التمثيلي إلى تشبيه عام؛ هو تشبيه مفرد حسي مقيد بمفرد حسي مقيد، وأعني بالقيد في طرفي هذا التشبيه المفرد ذلك القيد البسيط غير المركّب ؛ وهو كون هذه القدر قد نصبت وأن هذه النعامة على أرض مرتفعة فتشابها؛ لذلك فوجه الشبه في هذا التشبيه هو الارتفاع والإشراف ليس غير.

وبلاغة التشبيه في هذا البيت ليست في هذا التشبيه العام المفردوإنما بلاغته وبراعته في هذه الصورة الفنية التي حواها هذا التشبيه التمثيلي نتيجة لما اشتمل عليه من قيد حوّله من تشبيه عام إ لى تشبيه تمثيلي؛ عنيت هذا التركيب البديع الذي ذيّله الشاعر هذا البيت ؛ وهو قوله :(تقاصر جيدها)!.

وإن قدرةالمرزوقي على تجلية هذه الصورة الفنية من التشبيه التمثيلي على هذا النحو من الشمول والدقة دليل على تمكّنه في فهم الصور الفنية البيانية !.

- وقال حسّان بن ثابت (رضي الله عنه):

١ - المالُ يغشى رجالاً لاطَباخَ لهم * كالسَّيل يغشى أصولَ الدِّنْدِنِ البالي

قال المرزوقي في تفسير معنى البيت وبيان صورة التشبيه فيه :

« قوله : (لاطباخ لهم) أي : لاخير عندهم . ويقال: هذا لحم لاطباخ له ؛ أي : لادسم له . وشاب مُطَبِّخ : أملأ مايكون شباباً وأرواه . وطبَّخ الغلامُ : إذا ترعرع وعمل. والدِّنْدِن: المُسوَدُّ من الكلأ ؛ لقِدَمه ويُبْسه . والمعنى : أن المرء لايؤتى الغنى لفضل فيه وغَناء لديه ، وإنما ذلك لمقادير قُدِّرتْ على حسب ماعرفه الله - تعالى جَدُّه- ، وهو الذي يُغني ويقني من مصالح خلقه. وإذا كان كذلك فقد يتفق حصول المال عند مَنْ لايستحقُّه بفضل أُوتيه، أو ذِمام وجب له ، بل يكون كالسيل يمتدّ من المذانب والتلاع حتى يقف حاصلاً في أصول يابس الكلأ ومُسْوَدِّه ؛ في أنه لايُنتفع به ولا يَرُدُّ خيراً على جامعه؛ كما لاينتَفِع الدِّندن البالي بما يغشى أصولَه من ماء المطر. وفي مثل هذا قول الراعي :

وخادَعَ المجدَ أقوامٌ لهم وَرَقٌ * راح العِضاهُ والعِرْقُ مَدخولُ

وقد أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال وأحسن:

لاتُنْكِري عَطَلَ الكريمِ مِن الغِنى * فالسَّيلُ حَرْبٌ للمكان العالي»(١٠٢)

والمرزوقي وإن لم ينص على مصطلح (التشبيه) في هذا البيان، أو مصطلح (التشبيه التمثيلي) ، أو مصطلح (الوجه الجامع) بين طرفي هذا التشبيه - فإنه قد أحسن في بيان صورة التشبيه من خلال هذا الشرح الضافي الدقيق الذي دلّ به على مابين الحالين أو الهيئتين - أعني طرفي التشبيه - من صورة معقودة بكاف التشبيه في قول الشاعر؛ (... كالسيل...) ، كما أنه أشار إلى الوجه الجامع في صورة هذا التشبيه التمثيلي بقوله :« ... في أنه لايُنْتَفع به ولايردُّ خيراً على جامعه » . وكذلك أجاد المرزوقي في عقد موازناته بين بيت حسان وبيت الراعي ؛ وأنهما يشتركان معاً في المعنى والصورة الفنية بطريق التشبيه التمثيلي. كما أحسن المرزوقي في تقريره أخذ أبي تمام لهذا المعنى وإحسانه فيه في بيته المشهور الذي تضمن صورة بديعة من التشبيه التمثيلي في معنى بيت حسان وبيت الراعي . على أنّ أخذ أبي تمام لمعنييهما جاء خفياً جداً ، وفيه شيء من عكس المعنى وقلبه .

---

(١٠٢) شرح ديوان الحماسة ١٦٨٩/٤، ١٦٩٠.

وهذا يتضح - بصورة أكثر - حين مقارنته ببيت حسان بوجه خاص .

لكن التبريزي لم يزد على ماورد عند المرزوقي في تفسيره لبيت حسان وبيان صورة التشبيه التمثيلي فيه سوى أنه أورد معنيين للبيت ؛ أحدهما : يتفق مع ماورد عند المرزوقي، والآخر : يختلف ؛ لاختلاف تفسير(الدِّندن)، فقد أورد له التبريزي تفسيراً آخر ؛ فجاء المعنى العام في البيت مختلفاً لذلك. قال التبريزي:

« وقيل : الدِّنْدِن: مابلي من الشجر فينبت بعد السيل يمرُّ به إذا كان أصله في الأرض؛ فمعناه على هذا : المال يأتي مَنْ لاعقل له ولا قوة فيُحييه.»(١٠٣)

ولقد أحسن الشاعر حسان - رضي الله عنه - في تصوير هذه الصورة الفنية بطريق هذا التشبيه التمثيلي البديع؛ إذْ شبّه الغنيَّ ومالك فضل المال ممن لاخير فيه ولا يرجى نفعه بالماء المتجمع من الأودية والشعاب عند أصول الشجر البالي الذي لايَنتفِع بهذا الماء ولا يُرجى خير منه لهذا الشجر البالي. والوجه الجامع : توفُّر فضل ماينفع عادةً عند مَنْ لاخير فيه ، أو في موضع لايَنْتفِع به.

ولئن كان حسان - رضي الله عنه - قد أجاد في هذا التصوير الفني بهذا التشبيه التمثيلي فإنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن المال مال الله يؤتيه مَنْ يشاء بقدر مايشاء سبحانه، والله يحكم مايشاء ويفعل مايريد، ولا معقب لحكمه، وهو سبحانه الخبير البصير بعباده ، وما ينفع لكل منهم من فقر أو غنى بمقتضى حكمته -تعالى - وعلمه الأزليّ. ثم إنّ المال ابتلاء من الله سبحانه وتعالى؛ ليعلم الغنيُّ الشاكر، وليعلم الفقير الصابر... وما أظن مثلَ هذا يغيب عن بال حسان - رضي الله عنه وأرضاه - شاعر الإسلام الأول .

---

(١٠٣) شرح ديوان الحماسة٤/٢٢١.

- وقالت صفيّة الباهلية :

١ - كنّا كغُصنين في جُرثومةٍ سَمَقا * حيناً بأحسنِ ما تسمو لهُ الشَّجَرُ

٢ - حتى إذا قيل : قد طالتْ فروعهما * فطاب فَيئاهُما واستُنْظِرَ الثَّمَرُ

٣ - أخنى على واحدٍ رَيبُ الزمان وما * يُبْقي الزمانُ على شيء وما يَذَرُ

٤ - كنّا كأنجم ليلٍ بينها قمرٌ * يجلو الدُّجى فهوى من بينها القمرُ

أوضح المرزوقي معاني الأبيات ، ووقف عند مافيها من صورتين تشبيهيتين ؛ فقال في بيان صورتي التشبيه :

« ... ثم قال :(كنا كأنجم ليل بينها قمر) وهذا تشبيه ثانٍ ؛ كأنها في الأول - وهو كنا كغصنين - شبّهت نفسَها وصاحبَها بغصنين ، وفي الثاني شبهت العشيرة كلها والمُتوفَّى فيها بنجوم ليل أحدقت بقمر استضاء ظلام الليل بنوره فسقط ذلك القمر من وسطها فعاد الليل كما كان.»[١٠٤]

وذكر المرزوقي أن في هذه الأبيات تفضيلاً للمتوفّى على ذويه كلهم ، وأنه كان محل التقدير والاحترام منهم؛ يحلّ خصوماتهم ويُنفّس كُرُباتهم فلما فارقهم بموته عاد كل شيء كما كان ؛ فعاد الشر جَذَعاً ، والضياء حِنْدِساً[١٠٥]

وإيضاح المرزوقي لهذا التشبيه التمثيلي على مافي إيضاحه من إيجاز - إيضاح مقبول قرّب فيه الصورة التمثيلية كما أرادتها الشاعرة وصوّرتها في الأبيات.

أما التبريزي فلم ينقل الصورة كما جاءت عند الشاعرة ، وكما وردت عند المرزوقي الذي أحسن نقلها وترجمتها عن الشاعرة، ولكنه - أعني التبريزي - اشار إلى هذا التشبيه التمثيلي في صورتيه الفنيتين البارعتين إشارة مقتضبة ضعيفة لاتخدم النص الشعري ، وما فيه من حيوية التعبير والتصوير الفني[١٠٦]

---

(١٠٤) شرح ديوان الحماسة ٢/٩٤٩.

(١٠٥) انظر شرح ديوان الحماسة ٢/٩٤٩.

(١٠٦) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/٤، ٥.

وإن كان هناك من إضافة تحسب للتبريزي ففي بيانه أصالة التصوير عند الشاعرة وابتداعها له ، ومتابعة أبي تمام وأخذه عنها هذا المعنى في مثل هذا التصوير في بيتها الأخير حين اقتفاه أبو تمام بقوله:

كأنَّ بني نبهانَ يومَ وفاته * نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البَدر[١٠٧]

وقد تابع العبيديُّ المرزوقيَّ فنقل عنه بيان صورة التشبيه الثانية دون الأولى التي لم يذكرها العبيدي، كما نقل عنه كلامه على أن أبيات الشاعرة في تفضيل المتوفّى، ونقل عنه في مواضع أُخَر !.[١٠٨]

ولقد أبدعت الشاعرة في تصويرها الفني الدقيق ؛ في هذا التشبيه التمثيلي اللطيف ؛ بصورتيه معاً ، وبخاصة أن صورة المشبه به فيهما قد جاءت أجزاؤها جميعاً صورة شاخصة مُحَسَّة تثبت في النفس؛ لكون صورتها ومنافعها مما يدرك في الحس. ولقد أجادت الشاعرة ببراعة أكثر في نقل صورتها الثانية مع صاحبها إلى صورة فنية؛ فجاء التشبيه التمثيلي فيها أكثر دقة وإحكاماً ، وأشد ماتكون الصورة إبداعاً وتصويراً وتأثيراً ؛ ذلك بأن هذه الصورة قد جاءت أشد إحكاماً وإيجازاً مع وضوح وبلاغة في التأثير؛ فقد تكاملت هذه الصورة في بيت واحد بينما لم تكتمل الصورة الأولى إلا في ثلاثة أبيات ، ثم إنها جاءت معبرة بقوة عن معاني الهداية والدلالة وحسن الرأي والرشد في الأمر؛ فالأنجم زينة، وعلامات يُهتدى بها ، والقمر نور وبهاء !.

- وقال آخر :

ومَنْ يصحبِ الدُّنيا يكنْ مِثْلَ قابضٍ * على المـــاء خانَتْهُ فُروجُ الأصابعِ

صدّر العبيدي هذا البيت بقوله:

«تمثّل علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - بهذا البيت كثيراً » .

ثم قال العبيدي في شرحه بعد إعرابه إياه :« .. يقول : من يصحب ويختلط مع الدنيا يكون حاله كحال قابض الماء ؛ والحال: أن فروج الأصابع خانته معه؛ أي:

---

(١٠٧) انظر شرح ديوان الحماسة ٣/٥.

(١٠٨) انظر شرح المضنون به على غير أهله ٣٦٢.

في العاقبة لم يحصل له شيء من الدنيا غير التعب بالحفظ والمشقة ممَّنْ تصاحبه.»[(١٠٩)]

وفي شرح العبيدي هذا بيان لصورة التشبيه التمثيلي فيه ، وإن كان العبيدي لم يذكر مصطلح (التشبيه) أو (التشبيه التمثيلي)، غير أن تصديره البيت بما يفيد تَمثُّل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بهذا البيت ، ثم شرحه إيَّاه بما يكشف عن الصورة التشبيهية التمثيلية وبيان صورة وجه الشبه الجامع فيه - كلّ ذلك مما يخفف التقصير بعدم نصه على هذه المصطلحات في باب التشبيه . وإن في إفادته تمثل علي - رضي الله عنه - به كثيراً يدل دلالة قوية على مصطلح التشبيه التمثيلي؛ لأن كلمة (التمثُّل) و(التمثيل) من اشتقاق واحد ودلالة واحدة يدلان على صورة التشبيه التمثيلي في البيت . كما أن في تمثّل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - به كثيراً مايدل على قوة هذا البيت وحسن سبكه ورصفه وتركيب نظمه ، وما يحويه من بالغ الحكمة والموعظة، وعمق التجربة، ودقة التصوير ، و فصاحة البيان وبلاغته في تأدية غرضه الذي هو : تقرير حال المشبه وصفته في النفس. ولك أن تتأمل وجه الشبه الجامع في هذه الصورة الفنية من التشبيه التمثيلي في هذا البيت ؛ وهو : ضياع الأمل مع بذل أقصى الجهد في نيل المأمول؛لتعرف صدق ماقيل في بلاغة هذا البيت ، وعمق تصويره ، وسرّ تمثل علي - رضي الله عنه - به !.

- وقال آخر في مثل هذا المعنى:

هي الدنيا إذا عُشِقَتْ أَذَلَّتْ * وتُكْرِمُ مَنْ يكون لها مُهينا

كظِلِّكَ إنْ تَرُمْهُ تَجِدْهُ صعباً * وتَتْرُكهُ فيتبع مُسْتكينا

أهمل العبيدي بيان مافي هذين البيتين من صورة فنية بديعة بطريق التشبيه

---

(١٠٩) شرح المضنون به على غير أهله ٤٣.

التمثيلي ، واكتفى بتفسيرهما تفسيراً أعاد فيه المعنى المراد عند الشاعر الذي دلّ عليه البيتان دلالة عامة.!(١١٠)

وقد جاء البيتان غاية في حسن التصوير ودقة التمثيل وصدق التقريب والمواءمة بين طرفي التشبيه ، وفي الدلالة على وصف هيئة الوجه الجامع وصدق تمثيله . كما جاءا غايةً في تأدية الغرض البلاغي لهذا التشبيه التمثيلي؛ وهو تقرير حال المشبه وصفته في النفس.

إن هذا الشاعر المبدع قد مثّل حال مَنْ يتبع هذه الدنيا بلهفة ويلاحقها بشوق ثم لايحصل من ذلك على طائل إلا الذّل والهوان ، على حين أنها تواصل بنوالها مَنْ يصدّ عنها وتكرم بالعطاء مَنْ يهينُها ؛ مثّل حَال مَنْ هذه صفته بحال من يتبع ظلِّه قاصداً اللحاق به وإمساكه فلا يقدر منه على شيء ويجد مرامه صعباً شاقاً ، على حين أنه إن تركه زهداً به، وأهانه ولم يعبأ به وجده يلاحقه ذليلاً ويطارده مستكيناً مهينا!.

إنها صورة تمثيلية عجيبة لحال الدنيا مع طلاّبها تُلاحَق لهفةً وتُتابَع شوقاً فلا تستجيب ، وتُترك زهداً ويُعرض عنها إهانةً فتُكرِم بالنوال والعطاء الجزيل ؛ كحال الظّل تتبعه فلا تُمسكه ، وتتركه رغبةً عنه فيلاحقك مَهِينا . ومن هذه الصورة العجيبة البديعة يتأتّى وجه الشبه الجامع بين طرفي هذا التشبيه التمثيلي؛ ذلك الوجه المتمثل في وصف حال كُلٍّ من هذين الطرفين وهيئته ؛ وهو: بذل السعي الحثيث بغير طائل أو أدنى فائدة ، وإنقطاع الأمل دون الظَّفَر بأدنى شيء من ذلك المؤمَّل، مع حصول الفائدة وتحقُّق الأمل بالظفر بالمأمول حين القعود عن السعي، والزهد في التحصيل، والرغبة عن المطلوب !.

ولا يَدُرْ بخَلَد أحد أن الشاعر يريد : ترك طلب الدنيا والانقطاع عنها دون إقامة المعاش ومؤونة الحياة ؛ فذلك هو التوكل المنبوذ الذي لايقرّه الإسلام ولا يرضاه ولكن الشاعر – فيما أحسبه –يريد : أولئك المتهالكين على الدنيا المُسيئي الظّنّ بالله

(١١٠) انظر شرح المضنون به على غير أهله ١١٤.

- سبحانه تعالى - وبخاصة مَنْ يدّعِي منهم الإسلام والإيمان بالله حقّ الإيمان ، والتوكل عليه حقّ التوكل فإن الله تعالى يَكِلُهم إلى دعواهم وزعمهم ويعاقبهم عاجلاً بعدم حصولهم على شيء من هذه الدنيا الحقيرة التي ركنوا إليها.

وقال آخر:

وقد جَعَلتْ قلوصُ ابنـيْ سُهَيلٍ * من الأكوارِ مَرْتَعُها قريبُ

كـأنّ لها برحْل القوم بَوّاً * وما إنْ طِبُّهـا إلاّ اللُّغوبُ

شرح سيد المرصفي البيتين مشيراً إلى مافيهما من صورة فنية بطريق التشبيه التمثيلي فقال:

« (وقد جعلتْ) مستأنف يُبيِّن به حال ناقتهما من الإعياء والكلال. (الأكوار) أرْحُل القوم . الواحد : كُور . يريد: وقد شرعت هذه الناقة ترعى حول أرحل القوم ، لاتستطيع أن تبعد في المرعى.(كأن لها برحل القوم بَوّاً) البوُّ : هنا : ولد الناقة ونحوه..... ... يريد بهذا التشبيه : تمثيل حركة تطوافها في المرعى حول أرْحُل القوم بهيئة فاقدة ولدها وهي تطلبه في حالة الذل وطأطأة الرأس في خشوع ؛ وذلك على مايراها الرائي.(وما إن طِبُّها إلا اللغوب) ..... يقول : وما حالها إلا التعب من كثرة الأسفار ، لا أن لها ولداً تطلبه.»(١١١)

ولقد أحسن المرصفي في بيان صورة التشبيه التمثيلي في هذين البيتين. صحيح أنه لم يصرّح بمصطلح (التشبيه التمثيلي) ، ولا بمصطلح (الوجه الجامع)، أو(الوصف المنتزع من متعدد)؛ ليدل على دراسة بلاغية مُوثَّقةً مُحقَّقة تُعنى بالمصطلحات البلاغية. لكنه - على أيٍّ حال - قد أحسن في بيان هذه الصورة ولَمْلَمة أجزائها في بيانه عنها ، كما صرّح بمصطلح التشبيه في مطلع بيانه صورته، ونصّ على أن المقصود من هذا التشبيه : تمثيل حركة تطواف هذه الناقة في المرعى حول أرْحُل القوم بهيئة فاقدة ولدها وهي تطلبه في حال مخصوصة من الخشوع في ذل وطأطأة رأس ، وأشار المرصفي إلى أن هذا المشهد مما يُحِسُّه

(١١١) أسرار الحماسة ١/٥١، ٥٢.

ويراه الرائي حقيقة، لكن الشاعر كان يرمز بهذا التصوير الفني البديع لحال الناقة وإلى ماتمكّن منها من معاناة من آثار المتاعب في الأسفار ، وما يداخلها من أثر ذلك من حالة شعورية خاصة أصابتها بما يُشبه الشُّدوه والذهول.

وإنّ جَمْع المرصفي في بيانه صورة هذا التشبيه التمثيلي بين مصطلحات:(التشبيه) و (التمثيل) و (الهيئة) و (الحال) لما يخفّف عنه جداً التصريح بمصطلح : (التشبيه التمثيلي) أو (الوجه الجامع) أو (الوصف المنتزع...)، وبخاصة أنه أجاد في بيان هذه الصورة الفنية وأحاط بأجزائها وأتقن الربط بينها حتى تكاملت له ملامح هذه الصورة ومقوماتها فاستطاع بيانها تماماً ، كما أرادها الشاعر!.

ب - المجمل والمفصّل:

ومن أنواع التشبيه باعتبار وجه الشبه: (المجمل)؛ وهو: مالم يذكر وجه الشبه فيه ، ومنه : ظاهر يفهمه كلُّ أحد، وخفيٌّ لايدركه إلا مَنْ ارتفع عن طبقة العامة.

و(المفصّل)؛ وهو : ماذكر وجه الشبه فيه .(١١٢)

ولم أجد نصاً من شرّاح الاختيارات الشعرية على هذه المصطلحات الفرعية في أنواع التشبيه باعتبار وجه الشبه ؛ فلم أجد أن أحداً منهم - وهو يشير إلى تشبيه ، أو يوضح صورة تشبيهية في شرحه أبيات الاختيار- يذكر مصطلح(التشبيه المجمل) أو (المفصّل)، أو يشير إليه بإشارة مرادفة ، أو بتعريف يدل على هذا النوع من التشبيه أو ذاك . على أن كثيراً من النماذج التي سبق عرضها ودراستها فيما سبق من نماذج التشبيه لاتخلو من ذكر وجه الشبه ؛ فهي من (المفصلّ)، وإن عُدِم ذكره فهي من (المجمل)، كما أن كثيراً من نماذج أبيات الاختيارات لم

---

(١١٢) انظر الإيضاح ٣٧٣، ٣٧٤.

يَخْلُ من فن التشبيه الذي لم يتعرض له الشرّاح ببيان ؛ وهي بين مذكور فيه وجه الشبه ، ومحذوف ، فهي لذلك مُترددة بين التشبيه(المفصل) والتشبيه (المجمل). لكن مايهمّ عرضه وبحثه ودراسته هنا ماكان للشراح فيه جهد واضح ، وبخاصة فيما يتصل بالنصّ على ذكر المصطلحات البلاغية للفنون البلاغية ؛ العام منها والخاص والكلي والجزئي الفرعي. أما مالم يَنُصّ فيه الشرّاح على ذكر المصطلح البلاغي أو النقدي فليس من شأني الخوض فيه؛ لأني لست بدارس لمسائل البلاغة وفنونها وقضايا النقد ومباحثه في الاختيارات الشعرية ذاتها ، وإنما دراستي لهذه المسائل والفنون وتلك القضايا والمباحث في شروح الاختيارات الشعرية ودراسة جهود الشرّاح في ذلك خلال شروحهم لأبيات تلك الاختيارات الشعرية.

ج - القريب المبتذل والبعيد الغريب:

كذلك من أنواع التشبيه باعتبار وجه الشبه : (القريب المبتذل)؛ وهو ماظهر وجه الشبه فيه بادي الرأي؛ فصار الانتقال فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر؛ لكون الوجه فيه أمراً جُمْلياً ، أو كان قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذهن.

أمّا (البعيد الغريب) فهو ماخفي فيه وجه الشبه بادي الرأي؛ فصارالانتقال فيه من المشبه إلى المشبه به بعد فكر وروية وإنعام نظر ؛ لكون وجه الشبه الجامع بينهما كثير التفصيل، أو لندرة حضور المشبه به في الذهن.(١١٣)

وقد عدّ القزويني هذا النوع من التشبيه ؛ أعني (البعيد الغريب) أبلغ أنواع التشبيه ؛ لغرابته ، ولأن وجه الشبه الجامع فيه لايُدرك إلا بعد طلب له وتشوّق إلى تفهّمه وإدراكه ؛ فيكون نيله أحلى، وموقعه من النفس ألطف ، وبالمسرة أولى وأحظى.(١١٤)

---

(١١٣) انظر الإيضاح ٣٧٦، ٣٧٧.

(١١٤) انظر الإيضاح ٣٨٣، ٣٨٤. على أن القزويني قد ذكر إجماع البلاغيين على أن التشبيه المحذوف الأداة ووجه الشبه ؛ نحو: (زيد أسد) أقوى مراتب التشبيه الثمانية وأبلغها في دعوى المبالغة . انظر الإيضاح ٣٩٠، ٣٩١.

وما قلته عن نوعي التشبيه :(المجمل) و(المفصل)؛ من جهة عدم تبيُّن شواهد له أو نماذج من دراسة شرّاح الاختيارات لمباحث التشبيه ؛ لعدم نصّهم على المصطلح الفني لهذه الأنواع - أقوله هنا ـ أيضاً - في نماذج نوعي التشبيه : (القريب المبتذل) ،(البعيد الغريب) ؛ لعدم نصّ الشرّاح على شيء من هذه المصطلحات الجزئية لأنواع التشبيه الفرعية أو إشارتهم إلى هذه المصطلحات بألقاب مرادفة أو بتعريفات مُوضِحة دالة على هذه المصطلحات.

٣ - أنواع التشبيه باعتبار الأداة :

أ - التشبيه المؤكّد : وهو : ماحُذفتْ منه الأداة .

ب - التشبيه المرسل : وهو : ماذكرتْ فيه الأداة.(١١٥)

وما قيل عن أنواع التشبيه الأخيرة باعتبار وجه الشبه - المجمل والمفصّل ، والقريب المبتذل والبعيد الغريب - يقال هنا ؛ من عدم نصّ شراح الاختيارات الشعرية على مصطلح (التشبيه المؤكد) أو (التشبيه المرسل).

على أن مامرّ عرضه ودراسته من نماذج في مبحث التشبيه عند شرّاح الاختيارات الشعرية لايخلو :إمّا أن يكون محذوف أداة التشبيه فهو (التشبيه المؤكد)، وإما مذكور الأداة فهو (التشبيه المرسل). وحيث إن إدراك مثل هذا سهلٌ مُيَسَّر ، وبما أن الشرّاح لم ينصّوا على شيء من مصطلحه فالخطب فيه هيّن.

د - التشبيه المقبول والمردود:

ومن أنواع التشبيه باعتبار الغرض:

أ - التشبيه المقبول :

وهو الوافي بإفادة الغرض البلاغي ؛ كأن يكون المشبه به أعرف بوجه الشبه: إذا كان الغرض بيان حال المشبه أو بيان مقدار حاله.

---

(١١٥) انظر الإيضاح ٣٨٧، ٣٨٨.

ثم إن تساوى الطرفان في وجه الشبه إذا كان الغرض بيان المقدار فهو التشبيه الكامل في القبول، وإلا فكلما كان المشبه به أسلم من زيادة أو نقصان كان التشبيه أقرب إلى الكمال.

ومن أحوال وفاء التشبيه المقبول بإفادة الغرض البلاغي أيضا: أن يكون المشبه به أتمّ في وجه الشبه ؛ إذا كان القصد إلحاق الناقص بالكامل. أو يكون المشبه به مُسلَّم الحكم عند المخاطب في وجه الشبه إذا كان الغرض بيان إمكان الوجود.(١١٦)

ب - التشبيه المردود:

وأما التشبيه المردود فهو ماكان بخلاف التشبيه المقبول؛ فقصر عن إفادة الغرض البلاغي.(١١٧).

وعلى هذا فإن النماذج التي تمّ عرضها ودراستها في مبحث أغراض التشبيه عند شراح الاختيارات الشعرية صالحة نماذج للتشبيه المقبول ؛ لأن تلك النماذج شواهد على تحقيق التشبيه أغراضاً بلاغية مختلفة، والتشبيه المقبول ماكان محققاً للأغراض البلاغية للتشبيه .

ومما يدلّ عل ذلك - أيضاً - ويؤكّده : أن القزويني لم يورد شواهد أو نماذج حين دراسته أو تعريفه بالتشبيه المقبول وعرضه لحالاته البلاغية التي أدارها على الأغراض البلاغية للتشبيه - كما مرّ آنفاً حدُّه ؛ للتشبيه المقبول والمردود - وكان ذلك منه اكتفاءً بماذكره - هناك - من نماذج أو شواهد لأغراض التشبيه .(١١٨)

ثم إنه - مع ذلك كله - لم يرد عند شرّاح الاختيارات الشعرية نصٌّ على مصطلح التشبيه (المقبول) أو (المردود) أثناء جهودهم في دراسة مباحث التشبيه ونماذجها في شروحهم لأبيات الاختيارات الشعرية.

---

(١١٦) انظر الإيضاح ٣٨٩.

(١١٧) انظر الإيضاح ٣٨٩.

(١١٨) انظر الإيضاح ٣٨٩. وانظر أغراض التشبيه في شروح الاختيارات الشعرية ص ٣٣١-٣٥٠ من هذا البحث ؛ لتستدل بها- إن شئت - على نماذج للتشبيه المقبول في شروح الاختيارات الشعرية.

ثانيا : الحقيقة والمجاز

هذا هو المبحث الثاني من مباحث علم البيان عند البلاغيين، وفي شروح الاختيارات الشعرية.

- مدخل :

- اللفظة بين الحقيقة والمجاز :

قبل أن أقف على مالدى شرّاح الاختيارات الشعرية من بحث للحقيقة والمجاز، وموقع اللفظة بينهما ، وما عسى أن يكون لديهم من نماذج تطبيقية في هذا الشأن – يحسن أن أقدم بين يدي ذلك بتعريف لكل من الحقيقة والمجاز.

فالحقيقة : هي « الكلمة المستعملة فيما وُضعتْ له .»(١١٩)

وأمّا المجاز فهو : اللفظ المستعمل في غير ماوُضِع له في الأصل، على وجه يصحّ ، مع وجود قرينة مانعة من أن يكون المعنى المراد لهذا اللفظ هو ماوضع له في الحقيقة وفي أصل الاستعمال.(١٢٠)

ولا خلاف بين علماء البلاغة في أن المجاز أبلغ من الحقيقة.(١٢١)

ولم أقف عن شرّاح الاختيارات الشعرية على وقفات فنية دقيقة يُحدّدون بها المراد من مصطلح : (الحقيقة) أو (المجاز). وكلٌّ ماديهم في ذلك بعض الوقفات العامة حول اصطلاحات مثل :(الحقيقة) و(المجاز) و(الإسناد الحقيقي والمجازي) و(إقامة البعض مقام الجملة) و(التوسع) و(الاتساع) و(الاستعارة)و(الكنايات) و(الأمثال) و(المثل) مُراداً بهما (الاستعارة).

---

(١١٩) الإيضاح ٣٩٢.

(١٢٠) انظر الإيضاح ٣٩٤، والمطّول ٣٥٣.

(١٢١) انظر الإيضاح ٤٦٨.

وإليك نماذج تطبيقية لهذه الوقفات حول هذه الاصطلاحات أثناء شروحهم بعض أبيات الاختيارات الشعرية:

- قال جابر بن ثعلب الطائي:

٢ - فإنّ الفتى ذا الحزم رامٍ بنفسه * جواشن هذا الليلِ كي يتمولا

قال المرزوقي في أثناء شرح البيت :

« ... وقوله (جواشن هذا الليل) يعني صدورها وأوائلها، والليل بإزاء النهار في الاستعمال، والليلة بإزاء اليوم. والإشارة بـ (هذا) على طريق التقريب. وهم يستعيرون الجواشن والهوادي والصدور والنحور والأعناق والرؤوس لأوائل الأمور، كما يستعيرون الأعجاز والأدبار والأعقاب والأذناب لأواخرها.»[(١٢٢)]

فتأمل قوله : « والليل بإزاء النهار في الاستعمال، والليلة بإزاء اليوم» ففيه دلالة على أصل الوضع في دلالة الألفاظ واستعمالها على التعيين في معناها الحقيقي. ثم تأمل في نصّ المرزوقي على كلمة (الاستعمال) ومدى إشارتها في هذا الموضع إلى مصطلح (الحقيقة).

ثم انظر قوله :« وهم يستعيرون الجواشن والهوادي والصدور والنحور والأعناق والرؤوس لأوائل الأمور، كما يستعيرون الأعجاز والأدبار والأعقاب والأذناب لأواخرها.» لترى دلالة النقل بهذه الاستعارة والتجوز فيها على سبيل التوسع ؛ حين استُعملتْ بطريقها ألفاظٌ وأسماءٌ ذاتُ دلالات حقيقية صريحة في دلالتها على ماوُضعتْ له بطريق التعيين، فاستعملتْ في دلالات ومعانٍ أخرى غير ماوُضعتّ له في الأصل ، وما سوّغ ذلك إلا التجوّز والتوسع بطريق النقل والإعارة.

- وقال بعض بني طيِّيء :

١ - إنْ أَدعِ الشّعرَ فلم أَكْدهِ * إذْ أَزَمَ الحقُّ على الباطل

---

(١٢٢) شرح ديوان الحماسة ٣٠٥/١.

قال المرزوقي مبيناً الأصل في معنى (الكُدْية) و(الأزْمُ) وكيف تُوُسِّع فيهما ، ونُقِلتا عن أصليهما الموضوعين له إلى معنى آخر:

« .... وقوله : (فلم أُكْدِه) أصله : من حَفَر فأكْدى ؛ إذا بلغ الكُدْية فتعذر عليه الحفر وإنباط الماء . والكدية: مكان صلْب يُعْيي الحافر . ويقال أيضاً : حفر فأجْبَل؛ إذا بلغ جَبَلا. وتوسّعوا فيه فقالوا : أكدى في الشعر والعطاء. وفي القرآن ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾. وقالوا أيضاً : فلان بلغ الناس كُدْيتَه؛ أي : كان يعطي ثم أمسك .... والأزْمُ : العَضُّ، وتُوُسِّع فيه ؛ فقيل: (نِعْم الدواء الأزْمُ) يريدون : الحِمْيَة.»[١٢٣]

-وقال آخر:

١ - زَعم العواذلُ أنَّ ناقةَ جُنْدَبٍ * بجنُوب خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأُجِمَّتِ

ذكر المرزوقي أن أصل (الخَبْت) : ما اطمأنَّ من الأرض، ويقال: أخْبتَ الرجل: إذا صار في الخَبْت، لكنه توسِّع فيه فقيل للمتأله المتخشع : مُخْبِت.[١٢٤]

ولا تكاد تحصي مواضع بحث المرزوقي للألفاظ وتطورها بين الحقيقة والمجاز ودلالته على ذلك بمصطلحات : (الأصل) ، (الاستعمال) ، (التوسع)، (الاستعارة)، ونحوها. وجهوده في ذلك واضحة قيمة؛ ففيها إلى جانب البحث البلاغي الجمالي الفني المتصل بمباحث البيان ؛ من مجاز واستعارة ؛ فيها إلى جانب ذلك جهدٌ لغوي متميّز يُعرِّفك بالتطور اللغوي ودلالته للّفظة الواحدة أو التركيب وبيان أصل الاستعمال وحقيقته ثم ما اعتراه من تجوّز وتوسع في الاستعمال بطريق النقل والاستعارة.

- قال حُسيل بن سُجَيح:

٥ - وبيضاءَ من نَسْج ابنِ داودَ نثرةٍ * تخيَّرتُها يومَ اللقاء الملَابِسا

---

(١٢٣) شرح ديوان الحماسة١/٣٠٦، ٣٠٧.

(١٢٤) انظر شرح ديوان الحماسة١/٣٠٨.

ذكر المرزوقي أن الأعلام لايدخلها المجاز ، ولكنها تستعار إذا حصل بها القصد وأُمن معها اللبس عند الذكر . وحجته في ذلك : أن العرب دأبوا على إقامة الأب مقام الابن والعكس، وأنهم يُسمُّون الشيء باسم ماقاربه أو كان منه بسبب.(١٢٥)

واكتفى التبريزي بالنقل عن المرزوقي مايتصل بمذهب العرب في إقامتهم الأب مقام الابن والعكس ، وتسميتهم الشيء باسم ماقاربه أو كان منه بسبب ، دون كلامه على المجاز في الأعلام !.(١٢٦)

ومن المعلوم أن المجاز؛ سواء كان مجازاً مرسلاً أم عقلياً أم استعارة .. قائم على سببية العلاقة والملابسة؛ سواء كانت المشابهة؛ كما في الاستعارة ، أم غير المشابهة؛ كما في المجاز المرسل ، أو المجاز العقلي.

وإذا كان المجاز قائم على علاقة وملابسة، وكانت الأعلام المنقولة قائمة على المقاربة أو السببية فذلك مما يدعو إلى قبول كونها من المجاز. لكن المرزوقي نفى أن تكون منه . وأجاز أن تكون من الاستعارة إذا حصل بها القصد، وأمن معها اللبس عند الاستعمال والذكر.

ولا أدري كيف ينفي المرزوقي المجاز عن الأعلام ثم يجوّز فيها الاستعارة مع أن الاستعارةَ أصل في فن المجاز!. إلا إن كان يريد بالاستعارة معناها اللغوي العام؛ بمعنى الإعارة والنقل، لامعناها الاصطلاحي عند البلاغيين ؛ ومن هنا قُسِّمت الأعلام بين مرتجل، ومنقول . فما كان مرتجلاً فلا تدخله الاستعارة بطريق النقل والإعارة ، وما كان منها منقولاً فهو الذي تدخله الاستعارة بطريق نقل الإعارة لابطريق الاستعارة بمعناها البلاغي الاصطلاحي المجازي ، وإنما بمعناها العام المفهوم من دلالة لفظ الإعارة والنقل . ولعل ذلك هو ماأراده المرزوقي حين قال :

---

(١٢٥) انظر شرح ديوان الحماسة٢/٥٧٠.

(١٢٦) انظر شرح ديوان الحماسة٢/١٣٧.

إن الأعلام لايدخلها المجاز ، ولكنها تستعار!.[(١٢٧)]

- وقال بشر بن أبي خازم :

١٥ -- ورآوا عُقابهُمُ المُدِلّةَ أصبحتْ * نُبِذَتْ بافْضَحَ ذي مخالبَ جَهْضَمِ

عنى بالعقاب : الراية. وقد كانت راية بني تميم على صورة العقاب، وراية بني أسد على صورة الأسد.

ذكر ذلك التبريزي ثم قال نقلاً عن المرزوقي:

« قال المرزوقي: وهذه الصفات إن جعلتها حقيقة ساغ ، وإن جعلتها كنايات وأمثالاً ساغ؛ لأن معانيها ظاهرة.»[(١٢٨)]

ولست أدري كيف تسوغ صفات الفريقين على الحقيقة؟ ، وكيف يسوغ المعنى على الوجه الذي فسّره التبريزي والمرزوقي ، وأن الأسود تنبذ العُقْبان إن جُعل تفسير المعنى على الحقيقة كما يقولان؟ . صحيح أن المراد : علامة العقبان وعلامة الأسود التي صُوِّرتْ على راية لكل من القبيلتين . لكن هل يسوغ المعنى على الحقيقة؛ فيقال : إن راية بني أسد نَبذتْ راية بني تميم على الحقيقة.

إن هذا الوصف أو المعنى بهذا التأويل الحقيقي بعيد غير سائغ؛ لاستبعاد إمكان وقوعه حقيقة على النحو الذي ذكرت؛ لأنه غير ممكن الوقوع على الحقيقة

---

(١٢٧) ذكر القزويني أن الأعلام لايدخلها المجاز وبخاصة الاستعارة وجعل ذلك أحد وجهي بُعد الاستعارة من الكذب ومفارقتها له. أما الوجه الأول : فهو قيام الدعوى في الاستعارة على التأويل والقرينة فيها دالة على أن المراد بها خلاف ظاهرها . وزَعْم الكذب بخلاف ذلك كله . أما الوجه الثاني فهو: أن الأعلام لاتدخل الاستعارة؛ لأن الاستعارة تعتمد على إدخال المشبه في جنس المشبه به ، والعلمية تنافي الأجناس ، وكذلك فإن العَلَم يدل على تعيين الأشياء من غير إشعار دقيق بجنسها فلا اشتراك بين معناه وغيره إلا في مجرد التعيين ...انظر الإيضاح ٤١٧ . وهذا يؤيد كلام المرزوقي في أن الأعلام لايدخلها المجاز ، ولكنها تستعار . وليس قصده بالاستعارة اصطلاحها البلاغي المجازي لكنه أراد بها معنى الإعارة والنقل. وهو المعنى العام لها ؛ على نحو ماأوضحته آنفا .

(١٢٨) شرح اختيارات المفضل٣/١٤٥٠ ، وحاشيتها.

عادة، إلا إذا أُريد : أنه بعد الغلبة والانتصار حدث أن رُميتْ علامة بني تميم ورايتهم بعلامة بني أسد ورايتهم إشارة إلى الانتصار ورمزاً إليه ، وسخريةً بالمغلوبين واستهزاءً بهم وإهانةً لهم وتحقيراً فذلك أمر محتمل الوقوع.

لكن الذي لامرية فيه : أن يُحمل الأمر على المجاز والتوسعْ ؛ ليُدَلَّ بذلك على الانتصار والغلبة أو يحمل على الكناية عن الغلبة ؛ فيكون هذا المعنى أو الوصف سائغاً بهذا الطريق من التأويل المبني على التجوز والاتساع بطريق المجاز أو الكناية. وهذا معنى قول المرزوقي :« وإن جعلتها كنايات وأمثالاً ساغ ؛ لأن معانيها ظاهرة.».

وهذا مبحث دقيق في دلالة الألفاظ وموقعها بين الحقيقة والمجاز . ومممايحمد للمرزوقي والتبريزي هنا إيرادهما مصطلح :(الحقيقة) بصيغة مباشرة صريحة، وإشارتهما إلى (المجاز) بطريق الدلالة النيابية اللازمة غيرالصريحة أو المباشرة ؛ أعني ذكرهما إياه بطريق التوسع والتأويل، حين ذكرا مصطلح (الأمثال) و (الكنايات).

أما الأنباري فلم يبحث في موضوع الحقيقة أو المجاز في هذا البيت أو يذكرهما بشيء ، إلا ماورد من إشارة خفيفة؛ حين فسَّر بها المراد بالراية؛ فقال نقلاً عن أبي عكرمة الضبي:

« والعُقاب : الراية » ، وقال عن أحمد بن عبيد :« قال أحمد بن عبيد : أَفْضَحُ: يعني أسداً فيه حُمرة وبياض. شبَّه به الجيش. ومنه فَضَح النهار.» ، وقال عن الطوسي:« ورواها الطوسي : (بأغلب) . وقال : العقاب ههنا : الراية التي يقاتلون تحتها وعنها..........قال : و(جَهْضم) هو الذي إذا قبض على شيء مات مكانه من شدَّة قبضه. قال : و(الأغْلب) يعني: الأسد، شبَّه الجيش في جُرأتهم على أعدائهم بالأسد.»[١٢٩]

فهذه إشارات خفيفة تشير إلى هذا التوسع وأن المعنى المراد محمول

---

(١٢٩) شرح المفضليات ٦٨٢، ٦٨٣.

على المجاز لاعلى الحقيقة. فلا الأسد ولا رايته التي تضمنت صورته ، ولا العقاب ولارايته التي تضمنت صورته – هما اللذان يقاتلان على الحقيقة، وإنما الأمر على التوسع والتأويل بطريق التجوز والمجاز.

- وقال بشامة بن عمرو:

١٦ - وحادِرَةٍ كَنَّفَيْهـــا المسيـــــ ـــحُ تَنْضِحُ أَوْبَرَ شَتّاً غليـــلا

قال التبريزي – فيما أفاده من المرزوقي – :« ويقال : حَدَرْتُ الشيء : إذا أملْتُه من أعلى إلى أسفل فانحدر؛ أي : فسال ، ثم تُوسِّع فيه ؛ فقيل : حَدَرْتُ القراءة حَدْراً .»(١٣٠)

قال صاحب اللسان فيما نقله عن الأزهري – : « ... ومنه : سُمِّيت القراءة السريعة : الحَدْرُ ؛ لأن صاحبها يحدُرُها حَدْراً .»(١٣١)

ولعل الجامع بين معنى (الحَدْر) وبين هذه القراءة السريعة؛ أعني قراءة:(الحَدْر) التي تُوسِّع في استعمال لفظ (حدر) ودلالته حتى شمل هذا النوع من القراءة لفظاً ودلالة ؛ لعل الجامع بينهما هو : التحدُّر من عُلوٍّ إلى أسفل ، مع مطاوعة في السرعة والانتهاء إلى نهاية الشيء ؛ فالقراءة يُنْتَهى منها – تلاوة وختْماً– من البداية إلى النهاية ؛ سواء كان ذلك بالنسبة لآي القرآن أو سوره أو القرآن كله . وهكذا كل شيء يتحدّر لابد له من بداية ونهاية مع مطاوعة في السرعة في البدء والانتهاء. لكن التوسّع هنا – أعني في قراءة الحدْر– مبنيّ على التجوز أو المجاز ؛ بطريق الاستعارة التصريحية ؛ حيث شبّه القراءة السريعة بالحدْر ؛ على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

---

(١٣٠) شرح اختيارات المفضل١/٢٨٨ وحاشيتها.
(١٣١) لسان العرب مادة :(حدر)١/٥٨٥.

ولم يشر الأنباري إلى هذا التوسع اللغوي البياني المجازي في اشتقاق كلمة: (الحدْر)، وتطور دلالتها حتى سُمِّيتْ بها هذه القراءة المشهورة !.[١٣٢]

- وقال أبو الغُول الطُّهَوِيّ:

ولا يَرْعون أكنافَ الهوينى * إذا حلُّوا ولا أرضَ الهُدونِ

أورد أبو عبد الله النمري تفسيرين لقوله:(ولايرعون أكناف الهوينى)؛ فإن أُريد بالهوينى : النواحي التي أباحتها المسالمة ووطّأتها المهادنة فقوله: (ولا يرعون) محمول على الحقيقة.

وإن أريد بالهوينى ؛ الإشارة إلى الدعة والميل إلى الراحة ، وأن الهوينى ليست من شأنهم وأنهم أصحاب جدٍّ وتشمير في أمورهم ، وأن المحاربة أحب اليهم من المسالمة - فإن هذا المعنى يكون سائغاً، لكن يكون قوله: (ولا يرعون) - وفق هذا التفسير - محمولاً على المجاز والاتساع.[١٣٣]

وهكذا يتغير مفهوم دلالة اللفظ أو التركيب ويتفاوت بين الحقيقة والمجاز حسب تقدير المعنى وحسب تأويله . وقد أحسن أبو عبد الله النمري في هذا الإيضاح ، وبخاصة أنه صرح بمصطلح(الحقيقة) و(المجاز) .

وقد تكلم التبريزي على هذا البيت بنحو ماورد عند أبي عبد الله النمري، بل إنه أورد كثيراً من كلامه بنصه ؛ فقد فسّر معنى البيت على الحقيقة ، ثم قال : « (والأكناف) على هذا التأويل حقيقة.» . وفسّره على التأويل بطريق المجاز والاستعارة، ثم قال : « فتكون (الأكناف) مستعارة؛ يصفهم بالميل إلى الشر والحرص على القتال.»[١٣٤]

ولم يشر المرزوقي إلى أيٍّ من مصطلح (الحقيقة) أو (المجاز) في أثناء شرحه هذا البيت ، لكنه ذكر مراد الشاعر بقوله : « يصفهم بالميل إلى الشر،

---

(١٣٢) انظر شرح المفضليات ٨٤.

(١٣٣) انظر معاني أبيات الحماسة١١، ١٢.

(١٣٤) شرح ديوان الحماسة ٣٤/١.

والحرص على القتال والقتل ، وأنهم يؤثرون جانب الخصومة على الصلح ، وناحية الذُّعْر على السكون .»[١٣٥]

وفي تفسيره مراد الشاعر بهذا التفسير إشارة إلى المجاز والاستعارة ؛ وأن المعنى في البيت محمول عليهما . فالمرزوقي - على هذا - يرى أن معنى البيت محمول على المجاز لا الحقيقة .

- وقال أبو الغول الطهوي أيضا:

١ - فَدَتْ نفسي وما ملكتْ يميني * فوارسَ صدّقوا فيهم ظنوني

أشار المرزوقي إلى المجاز المرسل وعلاقته في قوله:(وما ملكت يميني) دون أن يصرح بذكر مصطلح (المجاز) أو (المرسل) أو (العلاقة) أو مصطلح نوعها . لكنه أشار إلى ذلك إشارة - كما ذكرت - ؛ وذلك بذكره مصطلح (البعض) و(الجملة)، و(إقامة البعض مقام الجملة) وإنما يعني بمصطلح (الجملة) مصطلحَ (الكل) ، ويعني بمصطلح (البعض) مصطلحَ (الجزء) ؛ وذلك حين ذكر أن من سنن العرب كثيراً في كلامها : إقامة البعض مقام الجملة ، ونسبتهم الأحداث والأخبار التي تُنْسب في الأصل إلى الكل؛ ينسبونها إلى البعض ؛ قال المرزوقي في ذلك:

« .... وهم يقيمون البعض مقام الجملة ؛ فينسبون إليه الأحداث والأخبار كثيراً ؛ على ذلك قوله تعالى :(فضلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين) ، وقولهم : (عُذْتُ بحَقْو فلان) و(هو عبد القَذِّ) و (حُرُّ الوجه) و(لئيم القفا) وما أشبهه. وفي القرآن : ﴿ و ما ملكت أيمانكم ﴾ »[١٣٦]

وقد نقل التبريزي نصَّ كلام المرزوقي إلا أنه قطع النص عند قوله:« وحُرُّ الوجه» ؛ فلم يذكر بقية الكلام القليل الذي بعده![١٣٧]

---

(١٣٥) شرح ديوان الحماسة ٤٣/١.
(١٣٦) شرح ديوان الحماسة٣٩/١.
(١٣٧) انظر شرح ديوان الحماسة٢٩/١.

ويفـــهم من كـــلام المرزوقي المتـــقـــدم أنه يريد بهـــذا : الإشـــارة إلى مصطلح:(المجازالمرسل) بعلاقة (الجزئية) . والبحث في المجاز المرسل وعلاقاته بحث في استعمال اللفظ في غير ماوضع له في الحقيقة لعلاقة غير المشابهة بين اللفظ المستعمل في حقيقة معناه الأصلي وبين المعنى المراد له ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي؛ لذا فالبحث فيه بشكل صريح مباشر، أو على نحو من الإشارة القوية التي تدل عليه وعلى مصطلحاته ؛ على نحو ماكان من المرزوقي – يعدُّ من خاصة البحث في (اللفظة بين الحقيقة والمجاز).

- قال العسكري:

زعمَ البنفسجُ أنه كعِــــذارهِ * حُسْناً فَسَلُّــوا مِن قفاه لسانَهُ

قال العبيدي مبيناً حقيقة إسناد لفظ(زعم) إلى البنفسج، وحقيقة إثبات (اللسان) لهذا البنفسج أيضا:

« ... وإسناد الزعم إلى البنفسج إسناد مجازي لاحقيقي؛ لأن لونه لمّا ناسب لون العذار وأوراقه ضعيفة كأنه زعم أنه كعِذار المحبوب؛ من جهة الحسن والبهجة والطيب. وزعمه خطأ؛ فلهذا أُخْرِج وسُلَّ من طرف القفا لسانُه بهذا الجُرْم. وإثبات اللسان له مجاز أيضاً ؛ لأن مَنْ له لسان لابدّ له من أن يكون له فم ؛ فما لافم له لالسان له.»(١٣٨)

والإسناد عند الشاعر هنا ليس من إسناد الفعل إلى غير ماحقه أن يُسند إليه؛ كما هو الحال في (المجاز العقلي)، وإنما هو من الإسناد بمعناه العام على سبيل التجوز بطريق الاستعارة بالكناية، وذِكْر اللسان رمز للمشبه به المحذوف.

---

(١٣٨) شرح المضنون به على غير أهله ٢٩٣، ٢٩٤.

أقسام المجاز

ينقسم المجاز إلى قسمين:

١ - المجاز اللغوي ٢ - المجاز العقلي(١٣٩)

١ - المجاز اللغوي وأنواعه:

وينقسم المجاز اللغوي باعتبار العلاقة المُصحِّحة لاستعمال اللفظ في غير ماوُضع له إلى نوعين:

أ - المجاز المرسل : وهو ماكانت العلاقةُ المصحّحة فيه بين المعنى المستعمل فيه اللفظ وما وضع له في الأصل - مُلابَسةَ غير التشبيه ؛ كاليد إذا استعملت في معنى النِّعمة.

ب - الاستعارة : وهي : ماكانت العلاقة المصحِّحة فيها المشابهة بين معناها المستعمل فيه اللفظ وماوضع له.(١٤٠)

وسنُورد في المباحث الآتية ماتبيِّنته من نماذج تطبيقية صالحة لأقسام المجاز وأنواعه في شروح الاختيارات الشعرية:

---

(١٣٩) جاء تصنيف (المجاز العقلي) في خطة البحث المعتمدة ضمن مباحث علم البيان ؛ بناءً على رأي السكاكي الذي جعله أحد مباحث هذا العلم وفنونه ونَظَمه في سلك الاستعارة بالكناية. انظر مفتاح العلوم ١٦٦ - ١٦٩. أما القزويني فقد جعل المجاز العقلي من مباحث علم المعاني نظراً إلى كونه داخلاً في حكم الجمل واتصاله بالإسناد. انظر الإيضاح ٩٧ ومابعدها. والذي أميل إليه كونه معدوداً في مباحث علم البيان ؛ لأنه سمي (مجازاً) كالمجاز المرسل؛ ولأن له علاقات كعلاقات المجاز المرسل ، ولأن مسألة الإسناد مسألة اعتبارية عامة لاتخرجه من علم البيان وتحصره في علم المعاني ، ولنا أن نعبّر عن الإسناد بألفاظ أو مصطلحات أخرى كالإثبات أو الحكم أو التأويل أو النسبة، وهذه تصدق أيضاً على المجاز المرسل والاستعارة والكناية وعلى المجاز العقلي ؛ لقيامها كلها على الدعوى والتأويل وإلا لأخرجناها جميعاً من دائرة علم البيان إلى علم المعاني!.

(١٤٠) انظرالإيضاح ٣٩٦، ٤٠٧.

أ - المجاز المرسل وعلاقاته في شروح الاختيارات الشعرية

بالنظر في النماذج التطبيقية للمجاز المرسل في شروح الاختيارات الشعرية؛ لمعرفة علاقات هذا المجاز وحصرها حسب مصطلحاتها التي اشتهرت بها عند البلاغيين وجدت علاقات المجاز المرسل في تلك النماذج كما يلي:

١ - تسمية الشيء باسم جزئه (الجزئية) .

٢ - تسمية المسبَّب باسم السبب(السَّببيَّة).

٣ - تسمية الشيء باسم مايؤول إليه (اعتبار ماسيكون).

٤ - تسمية الشيء باسم آلته (الآلية) .

٥ - تسمية الحالّ باسم محلّه (المحليَّة) .

٦ - تسمية المحلّ باسم الحالّ (الحاليَّة) .

٧ - تسمية الشيء باسم ماجاوره (المجاورة).

وآتي على عرض هذه العلاقات ودراستها من خلال نماذجها التطبيقية في شروح الاختيارات الشعرية مستصحباً من هذه النماذج ماكانت دلالته قوية على المجاز وعلاقته، وما كانت وقفات شرّاح الاختيارات وتعليقاتهم عليه أو إشاراتهم تدل على هذا المجاز أو علاقته دلالة قوية في الإشارة إلى ذلك .

ولا تَظُنَّن أنك ستجد لهؤلاء الشرّاح اعتناءً بذكر المصطلحات البلاغية الصريحة ؛ مثل مصطلح (المجاز المرسل) أو مصطلحات علاقاته بالنص على أسمائها المعروفة عند البلاغيين وإنما ستجد - كما قلت - من وقفاتهم أو تعليقاتهم أثناء شروحهم لأبيات الاختيارات بعض الإشارات غير الصريحة المباشرة إلى هذه المصطلحات . وحسبي من هذه النماذج مايفي بالغرض من ذلك ، ويُعرِّف بطبيعة الجهود البلاغية لهؤلاء الشرّاح في هذا الجانب ؛ كما هو المنهج المتبّع في البحث كله .

- تسمية الشيء باسم جزئه ؛ (الجزئية) :

- قال سلامة بن جندل:

٢٨ - شِيبِ المبارِكِ مَدْروسٌ مدافِعهُ * هابي المراغ قليلُ الوَدْقِ مَوظوبُ

أشار الأنباري إلى المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ؛ حين فسّر المراد بلفظ (المبارك) مشيراً إلى أنها من باب تسمية الشيء باسم جزئه ، أو إطلاق الجزء وإرادة الكل ؛ إحدى علاقات المجاز المرسل . قال الأنباري:

« .. وقوله : (المبارك) لم يرد المبارك وحدها ، وإنما أراد البلد كله ؛ كما قال الآخر:

* فلأَمْنَعَنَّ منابتَ الضُّمْران*

أي : منابت الضمران وما اتصل بها من البلد.»[١٤١]

ونقل هذا النصَّ التبريزيُّ عن الأنباري!.[١٤٢]

وكما رأيت فقد دلَّ الأنباري بهذا التفسير - للمعنى المراد بلفظ (المبارك) - على المجاز المرسل وعلاقته دلالة غير صريحة أو مباشرة ، وإنما بطريق الإشارة ؛ إذْ لم يذكر مصطلح المجاز ونوعه ونوع علاقته.

- وقال بشر بن أبي خازم:

١٩ - بني عامرٍ إنّا تركْنا نساءكم * من الشَّلِّ والإيجاف تَدْمى عُجوبُها

أورد الأنباري عن أبي عكرمة الضبي عن الأصمعي قوله :

« والعَجْبُ: آخر العصعص؛ يريد : أنّهن حُمِلن على غير وِطاء وأُغذَّ بهنّ في السير فدَمِينَ لذلك.» .

---

(١٤١) شرح المفضليات ٢٤٢.

(١٤٢) انظر شرح اختيارات المفضل ٥٨٧/٢، ٥٨٨. وقول الآخر المُستَشْهَد به صدرُ بيت وجزء من عجزه . وهو مدوّر . ورواه محقق شرح اختيارات المفضل هكذا:

فلأَمْنَعَنَّ منابت الــ ضمْرانِ إذْ عزَّ القُصورُ

كما نقل الأنباري عن الطوسي قوله :(... الشَّلّ : الطَّرْد، ... والإيجاف: السير الشديد . وقوله : تَدْمى عجوبها يقول : حملناهن على أقتاب غليظة خشنة فأدمَتْ عُجوبَها ، وإنما أراد : أعجازَها.»(١٤٣)

وأتوقف عند قوله:« ... فأدمت عجوبها ، وإنما أراد أعجازها.» ؛ ففي هذا الكلام إشارة إلى المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ؛ فقد أطلق (الجزء) وأراد (الكل)؛ وهو العَجُز كله ؛ فهو من تسمية الشيء باسم جزئه في باب المجاز المرسل .

وهكذا يدل الأنباري - فيما نقله عن الطوسي - على المجاز المرسل وعلاقته دلالة إشارة قوية دون تصريح منهما بمصطلح المجاز أو نوعه وعلاقته.

ولم يبّين التبريزي شيئاً من ذلك ؛ لابدلالة صريحة مباشرة ولابدلالة إشارة قوية؛ على نحو ماورد عند الأنباري، مع أنه نقل أكثر شرح البيت عن الأنباري!.(١٤٤)

- قال تَوبةُ بن الحُمَيِّر :

ولو أنّ ليلى في السَّماء لصعَّدَتْ * بطَرْفي إلى ليلى العيونُ الكواشِحُ

فسّر أبو عبد الله النمري(العيون) بالرُّقَباء؛ كما يقال : (فلان عين على فلان) أي : رقيب عليه . قال أبو عبد الله النمري:

« يقول: لو أن ليلى في السماء لقال الكاشحون: (طرفُه يُصَعِّد به إليها) عداوةً له ووشاية به . والعيون ههنا : الرُّقباء ؛ يقال: (فلان عين على فلان)، والكشاحة : العداوة....»(١٤٥)

وتفسير النمري لمراد الشاعر بلفظ(العيون) بأنها: الرقباء يكون من باب(المجاز المرسل)، وعلاقته (الجزئية) ؛ من إطلاق (الجزء) ؛ وهو (العيون) وإرادة (الكل)؛ وهو الرقيب، أو الرقباء ؛ لأن العين أهم شيء في الإنسان تجعله رقيباً

---

(١٤٣) شرح المفضليات ٦٤٧.
(١٤٤) انظر شرح اختيارات المفضل ١٣٩٠/٣.
(١٤٥) معاني أبيات الحماسة ١٧٨.

فكأنها ؛ لذلك الشخص كله.(١٤٦)

- قال جعفر بن علْبةَ الحارثي:

٢ - فقالوا لنا : ثِنْتان لابُدَّ منهما * صُدورُ رِماحٍ أُشْرِعَتْ أوْ سَلاسِلُ

قال المرزوقي في أثناء شرح البيت :

« .. وخَصَّ الصُّدور ؛ لأنَّ المقاتلة بها تقع ، ويجوز أن يكون ذكَر الصدور وإن كان المراد الكلَّ ؛ كما قال:

* الواطئين على صُدور نِعالِهم*

وإن كان الوطءُ للصدور والأعجاز.»(١٤٧)

ويرى التبريزيُّ رأيَ المرزوقي في ذلك ، بل إنه نقل كلامه هذا بنصه ، دون أن يعزوه إليه !.(١٤٨)

---

(١٤٦) قال القزويني حين مثّل لعلاقة تسمية الشيء باسم جزئه بالعين في الربيئة :« لكون الجارحة المخصوصة هي المقصود في كون الرجل ربيئة؛ إذْ ماعداها لايغني شيئاً مع فقدها ؛ فصارت كأنها الشخص كله .» الإيضاح ٣٩٩. والربيئة : طليعة الجيش.(انظر حاشية الصفحة المذكورة) وهي الريادة ، وفي معناهما : الرقابة والمراقبة. ولقد تطوّرت اليوم وسائل الاستطلاع والتجسس والمراقبة فشملت أجهزة معقدة أنتجتْها حضارة اليوم؛ كأجهزة الإنذار المبكر، وأجهزة استشعار الخطر من بُعد ، وأجهزة التسجيل والتصنُّت ، وغيرها ، لكن للعين الباصرة نصيباً كبيراً في التعامل معها صناعةً واستنتاجاً . كما أن للسمع دوراً كبيراً في كثير منها.

(١٤٧) شرح ديوان الحماسة ٤٦/١.

(١٤٨) انظر شرح ديوان الحماسة٤٦/١، ٤٧.

وفي قول المرزوقي في الوجه الثاني لتفسير مراد الشاعر:« ... ويجوز أن يكون ذَكَر الصدور وإن كان المراد الكُلّ ...» إلى آخر كلامه في ذلك ، واستشهاده الحَسَن عليه ، وإيضاحه لهذا الشاهد بما يُعزِّز هذا الوجه من التفسير؛ في قول المرزوقي هذا مايدل على (المجاز المرسل) بعلاقة (الجزئية) ؛ لأن الشاعر أطلق الجزء أو البعض وأراد الكل فهو من باب تسمية الشيء باسم جزئه ؛ المعروف في مبحث فنّ (المجاز المرسل) وعلاقاته. ويكون صدر كلام المرزوقي ؛ وهو قوله:«وخص الصدور ؛ لأن المقاتلة بها تقع » بمثابة المسوغ لتعبير الشاعر بطريق المجاز المرسل ؛ بعلاقةالجزئية.

لكن دلالة كلام المرزوقي على هذا المجاز وعلاقته دلالة إشارة من غير تصريح منه بذكر مصطلح (المجاز المرسل) أو مصطلح علاقته هنا ؛ وهي (الجزئية).

- تسمية المسبَّب باسم السبب؛ (السببية):

- قال معاوية بن مالك بن جعفر:

٢٣- إذا نزل السَّحاب بأرض قومٍ * رَعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

دلّ الأنباري – في شرحه البيت – على المجاز المرسل الذي استعمله الشاعر، وعلى نوع علاقته ؛ فقال: « يصف الغيث الذي يكون عن السحاب. والسَّحاب لايُرعى؛ فقال: (السحاب) لمّا كان النَّبْتُ عن السحاب ؛ يقول : رعيناه على كرههم لعزِّنا.»[149]

وفي تفسير الأنباري للبيت إشارة دقيقة مفصّلة إلى المجاز الذي اشتمل عليه البيت ، غير أنه لم يذكر مصطلح المجاز ، ولا نوعه، ونوع علاقته . وفي قول الشاعر :(إذا نزل السحاب ... رعيناه.) مجاز مرسل ؛ من تسمية المُسبَّب باسم سببه؛ فقد أراد : إذا نزل النبات الذي سببه السحاب أو الغيث رعيناه ؛ فقد أطلق

---

(١٤٩) شرح المفضليات ٧٠٣ .

السبب؛ وهو (السحاب) أو الغيث وأراد المسبّب عنه؛ وهو النبات، والقرينةالمانعة من إرادةالمعنى الأصلي قوله : (رعيناه) ؛ فإن السحاب أو الغيث لايرعى وإنما يرعى النبت الذي سببه الغيث. والعلاقة المُصحِّحة لهذا التجوز هي : السّببية.

وإذا كان الأنباري قد أشار في كلامه الآنف ذكره إلى هذا المجاز وعلاقته إشارة قوية مفصّلة تفهم من كلامه بوضوح ، ولم ينقصه إلا النص على المصطلحات في هذا الخصوص فإن التبريزي لم يذكر مافي هذا البيت من مجاز مرسل بعلاقة السَّببية ، بل لم يشر إلى ذلك ولو مجرد إشارة ضعيفة ؛ لأنه لم يشرح البيت ألبتة(١٥٠)

- وقال أبو صخر الهذلي:

وإنّي لَتَعْروني لذكراكِ نَفْضَةٌ كما انتفض العصفورُ بللهُ القَطْرُ

عبّر الشاعر عن النشاط الذي يصيبه بسبب مايعتريه من نفضة وحركة واضطراب مسبب عن السرور الحاصل مِنْ تذكُّره مَنْ يودّه؛ لأن الانتفاضة تستلزم النشاط غالباً والنشاط مسبب عن الانتفاضة والحركة. وذلك من تسمية المسبّب باسم السبب فقد سمى النشاط باسم النفضة أو الانتفاضة، والنشاط مسبب عن النفضة أو الهزّة ، والنفضة سبب في النشاط؛ فقد أطلق السبب (النفضةأو الهزة)وأراد المسبّب ؛ وهو النشاط على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية. وذلك ماصرّح به العبيدي بقوله :

« ... يقول:إني ليصلني ويأتيني لذكراك حركة واضطراب للسرور الحاصل من الذكر، وعبّر بها عن النشاط لأنها تستلزمه غالباً ؛ تسمية للمسبب باسم السبب؛ كأنه قال : ليأخذني نشاط كنشاط العصفور أي: كمااضطرب الطائر إذا بلّله القطر ؛

---

(١٥٠) انظر شرح اختيارات المفضل ١٤٨٥/٣. وقد ذكر محقق الشرح أن رواية المرزوقي (إذا نزل السماء...) ثم قال :والسماء: المطر. وأقول: والمعنى واحد في دلالته على المجاز المرسل بعلاقة السببية.

يعني : إذا وصل إليه نداوةٌ يحرِّك ليسقط منه البلل أشد حركة ، فكذلك أنا أضطرب لذكراك . ومحلّ(كما انتفض) رَفْعُ صفةٌ لنفضة، أي: نشاط كنشاط العصفور.»[١٥١]

والمهم من كلام العبيدي قوله :«..وعبّر بها عن النشاط؛ لأنها تستلزمه غالبا ؛ تسمية للمسبب باسم السبب...» وما عدا ذلك من كلامه السابق واللاحق فهو زيادة في إيضاح صورة المجاز المرسل وعلاقته عند الشاعر.

لقد أشار العبيدي بالضمير في قوله :(وعبّر بها ...)» إلى النفضة أو الهزّة ؛ أي عبّر بالنفضة عن النشاط ، ثم أوضح الأمر أكثر مُصرّحا بمصطلح علاقة المجاز المرسل ؛ وذلك في قوله بعد: (... تسمية للمسبب باسم السبب) . وإن كان لم يصرح بمصطلح (المجاز المرسل) ولا بمصطلح (العلاقة) ، لكنه قد صرّح – كما قلت – باسم هذه العلاقة ونوعها.

وقد أحسن العبيدي في الإشارة إلى المجاز المرسل ؛ وذلك بكلامه الدقيق الذي ذكر فيه اسم علاقته ونوعها.

لكن الشاعر قد بالغ في تصويره حاله هذه مع مَنْ يتذكرها؛ فلا أحد يصدق أنه كلّما ذكرها اهتزّ وانتفض واضطرب وتحرّك لذكراها. ولو أنه قال إنه : ينشط في نفسه ومزاجه ويستريح باله لكان يصدّق ؛ ولصار مثل هذا مما يجعل القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي معقولة مقبولة ومؤيّدة للمجاز المرسل هنا بعلاقة السببية؛أعني أن عدم صدق الشاعر فيما ادّعاه مؤيد لقيام القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي الذي أراده الشاعر؛ وهو الانتفاض والاهتزاز دائماً عند التذكر ، وأن المراد النشاط والحيوية لا الانتفاض الحقيقي والاهتزاز الصحيح الصريح.

وثمّة أمر آخر يهبط بمستوى التصوير الفني بصورة التشبيه عند الشاعر؛ أعني قوله :(كما انتفض العصفور بلّله القطر)؛ فإن هذا التصوير التشبيهي المركب

---

(١٥١) شرح المضنون به على غير أهله٢٣٥، ٢٣٦.

في الطرفين ؛ (المشبه والمشبه به) تصوير محدود جداً وهو مع ذلك متدنٍ في صورته وهيئته وأثره الفني والبلاغي ؛ فلا إبداع فيه ، ولا تَسامي بصورة المشبه ؛ لأن صورة المشبه به متدنية حقيرة ضعيفة في صورتها وأثرها، وكأنما يشير اختيار الشاعر لهذه الصورة وتصوير حاله وفقها إلى حاله الضائعة البائسةالحقيرة الضعيفة عندما لجأ إلى هذه الصورة الهيّنة الحقيرة ، فهلا قال إن كان لابد كاذباً وقائلاً : كما اهتز صقر، أو نحو ذلك ، لا أن يُصوِّر بالعصفور. لكن كأنما كان ذلك منه نتيجة لكذبه فيما تقوّله بحق نفسه وادّعاه كاذباً في تصوير حاله من الاهتزاز والانتفاض عند كل تذكر. وذلك من عواقب الكذب ومخالفة الواقع والوقوع في الحُرمات والمجاهرة بها ؛ عاقبةٌ مُعجّلة بركوب مركب الكذب والزور ، وإخفاق في التصوير وحسن البيان، ومهانة وحقارة فيما يدل عليه هذا التصوير، وفيما يشير به مثل هذا التصوير إلى مثل هذا القائل من ذل وهوان !.

- تسمية الشيء باسم مايؤول إليه (اعتبار ماسيكون):

قال الحادرة :

٦ - بغَرِيضِ ساريةٍ أدرَّتْهُ الصَّبا * من ماءِ أسْجَرَ طيِّبِ المُسْتَنْقَعِ

قال الأنباري :

« .. الغريض: الطريّ من كل شيء؛من اللحم واللبن ؛ وهو ههنا: الماء القريب العهد بالسحابة... والسارية: السحابة تسري بالليل... والأسْجَر: الماء الذي فيه كُدْرة لم يَصْفُ كل الصفو...»[١٥٢]

ثم ينقل الأنباري عن أحمد بن عبيد علّة جعل الشاعر ماءَ السحابة أسجر وهو في أصله صافٍ غير كَدِر، وأن مرد ذلك إلى مخالطته التراب بعد نزوله من السماء . يقول الأنباري:

« قال أحمد: وإنما جعل ماء السارية أسجر وليس بأسجر، ولكنه صافٍ فإذا

---

(١٥٢) شرح المفضليات ٥٤.

صار إلى الأرض تغيّر لما يخالطه من تراب الأرض؛ فيصير سُجْرةً ، وإنما توصف بهذا أمواه السيول.»(١٥٣)

ونقل التبريزي أغلب شرح البيت عن الأنباري ، لكنه لم يذكر أو ينقل عنه علة جعل ماء السحابة أسجر مع صفاء هذا الماء في الأصل.(١٥٤)

وهذا الكلام الذي لم يأت به التبريزي هو المهم فيما نحن بصدده؛ إذْ عليه مدار المجاز المرسل في قول الشاعر الذي أشار في قوله : (من ماء أسجر) بعد قوله:(بغريض سارية...) إشارة قوية إلى المجاز المرسل ؛ من باب: (تسمية الشيء باسم مايؤول إليه)؛ فقد وصف الشاعر الماء بأنه أسجر كَدِر على حين أنه على خلاف ذلك ؛ لأنه نزل من هذه السارية أو السحابة ماءً نميراً صافياً ؛ وذلك بالنظر إلى مايؤول إليه ؛ فإنه ينزل صافياً ، لكنه يخالط الأرض والتراب فيصبح كدراً فهذه هي علاقة المجاز المرسل التي سوّغت هذا المجاز واستعمال اللفظ في غير ماوضع له، وهي علاقة: (تسمية الشيء باسم مايؤول إليه) أو هي (اعتبار ماسيكون).

وقد أحسن الأنباري وأحمد بن عبيد- الذي نقل عنه الأنباري - في إشارتهما إلى هذا المجاز المرسل بطريق الإشارة إلى علاقته ، وإن كانا لم يصرّحا بمصطلح المجاز المرسل ولا بمصطلح علاقته ، وإنما كان ذلك على سبيل الإشارة ؛ من خلال كلامهما في تعليل وصف ماء السحابة بالسُّجْرة والكدرة مع أنه في أصله بخلاف ذلك.

- وقال سعد بن ناشب:

٤ - فإن تهدموا بالغَدْرِ داري فإنها تراثُ كريمٍ لايُبالي العواقبا

أشار المرزوقي إلى المجاز المرسل ونوع علاقته في هذا البيت ، وإن لم يُصرِّح بمصطلحات : المجاز ونوعه ونوع علاقته ، لكنه دلّ على ذلك دلالة قوية؛ حين بيّن غرض الشاعر في استعماله أسلوباً معيناً في حال معينة ؛ فقال:

« وسمّى مِلْكَه ميراثاً وهو حيٌّ، والمعنى : أنه سيورث ، وهذا تسمية الشيء

---

(١٥٣) شرح المفضليات ٥٤.
(١٥٤) انظر شرح اختيارات المفضل١/٢١٦، ٢١٧.

المُتنقِّل في أيدي مُلاّكه والمتصرفين فيه على التشبيه ميراثاً وإن لم ينتقل بالأسباب والأنساب؛ على ذلك قول الله عز وجل: ﴿ ولِلّهِ مِيراثُ السمواتِ والأرض﴾ ، وقوله : ﴿وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم.﴾.»(١٥٥)

فمن هذا التعليل الفني الدقيق كانت الإشارة القوية التي دلت على المجاز المرسل بعلاقة (تسمية الشيء باسم مايؤول إليه) . ولك أن تتأمل قوله:« وسمّى ملكه ميراثاً وهو حيّ ، والمعنى : أنه سيورث » ، ثم قوله بعد ذلك مُعقِّباً عليه :« .. وهذا تسمية الشيء المتنقّل في أيدي مُلاّكه والمتصرفين فيه – على التشبيه – ميراثاً ، وإن لم ينتقل بالأسباب والأنساب» ثم استشهاده الواضح القوي على هذا المعنى وصحته عند الشاعر بما ورد من آي الذكر الحكيم التي استشهد بها. إن السين في قوله :« والمعنى : أنه سيورث » دليل قوي يشير إلى علاقة المجاز المرسل التي هي(تسمية الشيء باسم مايؤول إليه)، أو سيؤول إليه أو (باعتبار ماسيكون).

أما التبريزي فقد أورد أول هذا الكلام عن المرزوقي بنصه ، ولكنه كان أصرح منه في النصّ على مصطلح علاقة المجاز المرسل هنا؛ حيث سمّى هذه العلاقة باسمها الصريح الموافق لتسمية البلاغيين؛ لقد ترك التبريزي عبارة المرزوقي الأخيرة؛ أعني قوله :« وهذا تسمية الشيء المتنقّل في أيدي مُلاّكه والمتصرفين فيه –على التشبيه – ميراثاً وإن لم ينتقل بالأسباب والأنساب.» وقال بدلاً منها عبارةً هي أصرح منها في الدلالة على علاقة المجاز بل اشتملت على بيان هذه العلاقة بمصطلحها الصريح ؛ فقال بعد أن نقل عن المرزوقي قوله: « وسمّى ملكه ميراثاً وهو حي. والمعنى : أنه سيورث» ؛ قال بعد ذلك متابعاً الكلام:« .. وهذا تسمية الشيء بما يؤول إليه.»(١٥٦)

وهذا هو مُسمّى علاقة المجاز المرسل بمصطلحها الصريح المعروف الموافق لقولهم: (تسمية الشيء باسم مايؤول إليه) أو(باعتبار ماسيكون). ولذلك فقد أجاد

---

(١٥٥) شرح ديوان الحماسة ١/٧٠.

(١٥٦) شرح ديوان الحماسة ١/٧٢.

التبريزي هنا وأفاد كثيراً ؛ حين استقلّ بشخصيته العلمية البلاغية؛ فتحرّر من رِقّ المتابعة ، وترك بقية كلام المرزوقي مستعيضاً عنه بما هو خير منه في الدلالة على علاقة المجاز المرسل دلالة صريحة مباشرة موافقة لمصطلح تسميتها عند البلاغيين . وإن هذا الجهد المتميز والموقف الأصيل من التبريزي لما يحسب له كثيراً في البحث البلاغي!.

- تسمية الشيء باسم آلته (الآلية) :

- قال مزرّد بن ضرار:

٣٤ - مُقَرَّبَةٌ لم تُقْتَعَدْ غيرَ غارةٍ * ولم تَمْتَرِ الأطْبَاءَ منها السَّلائِلُ

قال التبريزي - نقلاً عن المرزوقي - : « ... وقوله : (لم تقتعد غير غارة) العرب تسمي الخيل غارة؛ لأنها من قِبَلها تكون.» ثم قال في بيان المعنى المراد: «والمعنى : لاتُبْتَذَل فيما يَعْرِض ويتّفق من الحاجات ، لكنها قُعْدَةٌ للحرب والغارات، فلا تُركب إلا وهي غارة . هذا قول المرزوقي. وقال ابن الأنباري : معناه: لم تُركب إلاّ في غارة.»(١٥٧)

وظاهر من قول المرزوقي والتبريزي :« العرب تسمي الخيل غارة ؛ لأنها من قبلها تكون» أن تسمية العرب الخيل غارة إنما هو على سبيل التجوز والتوسع بطريق المجاز المرسل لعلاقة الملابسة والمناسبة في غير المشابهة؛ من تسمية الشيء باسم آلته ؛ فقد دلّتْ هذه العلة الواردة في عبارة المرزوقي والتبريزي الآنفة الذكر؛ وهي قوله :« ... لأنها من قبلها تكون» على أن الغارة كائنة من قِبَل الخيل وبسببها ، وفي هذا دلالة غير صريحة ولا مباشرة، لكنها دلالة إشارة خفيفة على علاقة المجاز المرسل أعني علاقة (تسمية الشيء باسم آلته)؛ (الآلية) إن المرزوقي والتبريزي لم

---

(١٥٧) شرح اختيارات المفضل ٤٦٦/١ وحاشيتها . وتصريحه باسم المرزوقي والأنباري حين النقل عنهما هنا من نوادرمايحصل من التبريزي ، وإلاّ فالأعم الأغلب تركه التصريح باسم مَنْ أخذ عنه!.

يصرحا بمصطلح المجاز المرسل ولا بمصطلح العلاقة أو نوعها ، ولم يدل كلامهما على ذلك دلالة قوية، وإنما دلالة إشارة خفيفة ؛ على نحو مارأيت.

أما الأنباري فلم يذكر مصطلح المجاز أو نوعه ونوع علاقته ، كما أنه لم يشر إلى شيء من ذلك، وإنما اكتفى بالتفسير العام للمعنى؛ فجعل المعنى قائماً على أساس الاستثناء المفهوم من أداته المذكورة في البيت: (غير) ؛ وذلك حين فسّر قوله: (لم تُقْتَعد غير غارة) بقوله :« ... أي لم تركب إلاّ في غارة» .(١٥٨)

وهذا تفسير ضعيف لاجديد فيه ولا قوة ، ولا يرقى بحال إلى درجة تفسير المرزوقي – الذي نقله التبريزي عنه – المتضمن الإشارة إلى المجاز المرسل وعلاقته ؛ على نحو مامرّ بيانه.

- تسمية الحالّ باسم مَحلّه (المحليّة):

٥٤ - قال عبدة بن الطبيب

نَرجو فواضل ربٍّ سَيْبُهُ حَسَنٌ * وكلُّ خير لديه فهو مقبول

أورد الأنباري عن أبي عكرمة الضبي رواية أخرى ؛ بالتاء في (نرجو) بدل النون؛ ليعود الكلام إلى الإبل، ويكون الكلام مجازاً بالحذف ؛ والتقدير : ترجو أصحابُ الإبل. ثم وازن بين هذا المعنى بطريق مجاز الحذف وقول الله تعالى ﴿واسأل القرية ﴾ مشيراً إلى أن المعنى في كليهما يعود إلى الأهل أو الأصحاب، وليس إلى القرية أو الإبل ذاتهما؛ لأنهما ممن لايُسأل أو يرجو؛ إذْ هما مابين جماد غير ناطق أو حيوان لاينطق أو يُستنطق؛ لأنه لايعقل. وهذا من المجاز المرسل وعلاقته (تسمية الحالّ باسم محلّه)؛ (المحليَّة) . قال الأنباري في ذلك:

« ويروى : (ترجو) تذهب إلى الإبل ، والمعنى على أصحابها؛ كما قال عزّ ذكره: ﴿واسأل القرية﴾ أي : أهلها .»(١٥٩)

---

(١٥٨) انظر شرح المفضليات ١٧١.

(١٥٩) شرح المفضليات ٢٨٦.

وواضح من توجيه أبي عكرمة الضبي والأنباري لهذه الرواية، والدقة في توجيه اللفظ لشيء- وذلك في قولهما : « ترجو : تذهب إلى الإبل » -، وتوجيه المعنى لآخر- في قولهما :« والمعنى على أصحابها » - ، واستشهادهما على ذلك بالآية الكريمة ؛ واضح من ذلك الإشارة إلى التجوز بالحذف ؛ بطريق المجاز المرسل بعلاقة المحليّة . وكانت هذه الإشارة واضحة دلّت على هذا المجاز بهذه العلاقة، وإن لم يسميا المجاز بمصطلحه ونوعه ، أو نوع علاقته . وهذا جهد يذكر للأنباري وإن كان عالة فيه على أبي عكرمة الضبي الذي بنى الأنباريُّ عمود شرحه ديوان المفضليات على شرحه.

أما التبريزي فقد نقل عن الأنباري هذه الرواية دون أن يوجّهها أو يستشهد لها ؛ كما فعل مَنْ نقل عنه ، وإنما اكتفى بالقول :

« ويروى :(ترجو) بالتاء ، ثم أخذ في شرح البيت نقلاً عن الأنباري والمرزوقي ».(١٦٠)

- وقال مقّاس العائذي:

٣ - تذكَّرتِ الخيلُ الشعيرَ عَشِيَّةً * وكنّا أُنـاساً يُعْلِفون الأياصـرا

قال الأنباري عن أبي عكرمة الضبي:

« ... والأيصر ، وجمعه : أياصر: كساء يجمع فيه الخلى ، ثم سمِّي الخلى الذي يكون في الأيصر أيصر؛ لمقارنته الأيصر.

قال أبو عبيدة:الخلى : النبت الرقيق كله مادام رطباً ، فإذا يبس فهو حشيش ، ولا يقال حشيش إلا لليابس.»(١٦١)

وقال التبريزي عن المرزوقي:

« والأياصر: جمع أيصر؛ وهو كساء يجعل فيه الخلى . وهو الرّطب.» وأردف قائلاً:

« وقد يُتوسَّع فيه فيسمّى الحشيش أيصراً على عادتهم في تسمية الشيء باسم غيره

---

(١٦٠) انظر شرح اختيارات المفضل ٢/٦٧٣ .

(١٦١) شرح المفضليات ٦١٠.

إذا كان منه بسبب».(١٦٢)

ولقد كان كلام الأنباري وأبو عكرمة والتبريزي والمرزوقي دقيقاً في الإشارة إلى المجاز المرسل وعلاقته ، وفي تعليلهم الفني والبلاغي لذلك وإن كانوا لم يذكروا المصطلحات البلاغية في ذلك ، لكن كلامهم يدل عليها دلالة قوية، وتأمل قول الأنباري عن أبي عكرمة « ... ثم سمّي الخلى الذي يكون في الأيصر أيصر ؛ لمقارنته « الأيصر.» ثم تأمل قول التبريزي عن المرزوقي « ... وقد يتوسع فيه فيسمّى الحشيش أيصراً على عادتهم في تسمية الشيء باسم غيره إذا كان منه بسبب.» ففي قولهما هذا دلالة قوية على المجاز المرسل وعلاقته؛ وهي (تسميةالحالّ باسم محلّه).

- وقال ذو الإصبع العدواني:

٣١ - كان أمامَ الجيادِ يَقْدُمُها * يَهُزُّ لَدْناً وجؤجؤاً تَلِعا

قال التبريزي عن المرزوقي في تفسير البيت :« أي : يهزُّ عنقاً لدناً وصدراً مشرفاً .» ، وأردف مشيراً إلى المجاز في البيت دون أن يصرّح بذكر مصطلحه ونوعه ونوع علاقته ؛ فقال:

« ونسب الفعل إلى الفرس في التّقدم والمراد نفسه.»(١٦٣)

وهذا من المجاز المرسل ؛ من تسمية الحالّ باسم محلّه ؛ فقد جعل التقدم أو السبق ظاهراً للفرس والمراد الفارس نفسه ؛ لأنه هو السائس للفرس والرائض لها؛ حتى تقدم وسَبق الجياد؛ فقد أطلق المحل(المركوب)، وهو : الفرس وأراد الحالّ (الراكب) ؛ أعني الفارس؛ فالعلاقة المحليّة. والقرينة عقلية حالية؛ وهي استحالة أن يتقدم الفرس الجياد بنفسه وإنما بفارس يسوسه ، ثم إن المقام مقام تمدح وافتخار؛ فالشاعر يتحدث عن نفسه ويتمدح بها ويفتخر ببيان مآثرهاوخصالها وبطولاتها.

---

(١٦٢) شرح اختيارات المفضل ١٣١٥/٣، ١٣١٦، وحاشيتها.

(١٦٣) شرح اختيارات المفضل ٧٤١/٢ وحاشيتها . ولم يرد البيت في قصيدة ذي الإصبع العدواني في شرح ديوان المفضليات للأنباري.

وقد كانت إشارة المرزوقي والتبريزي إلى المجاز المرسل وإلى نوع علاقته - من خلال عبارتهما الآنفة الذكر- إشارة دالة على هذا المجاز ونوع علاقته.

- وقال آخر:

فيارِبُّ إنْ أهلِكْ ولم تُرْوَ هامتي * بليلى أمُتْ لاقَبْرَ أعطشَ من قبري

قال النمري مشيراً إلى مافي البيت من مجاز وعلاقته:

«.... وجعل العطش للقبر لحلوله فيه وهو عطشان؛ كما تقول :(هذا بيتٌ كريمٌ) وأنت تريد صاحبه. وخصّ الهامة بالعطش؛ لأنها محلّه ؛ على ماقيل.»(١٦٤)

إن الشاعر هنا ذكر القبر ، وأراد مَنْ حلّ فيه ؛ وهو الشاعر نفسه؛ كما يقال : هذا بيت كريم والمقصود بهذه الصفة صاحب البيت لا البيت ذاته. وهذا من المجاز المرسل؛ بعلاقة(تسمية الحالّ باسم محلّه).

وقد أحسن النمري في هذا البيان الدقيق الذي أشار به إلى المجاز ، ونوعه، ونوع علاقته ودل به على ذلك دلالة قوية ، وبخاصة في التركيب الذي استصحبه شاهداً بطريق موازنة المماثلة؛ أعني قوله: «... كما تقول :(هذا بيتٌ كريمٌ)، وأنت تريد صاحبه.» ! . ولكن ذلك لايخرج عن حيِّز الإشارة والدلالة غير الصريحة المباشرة؛ إذْ لم يصرِّح بذكر مصطلح المجاز ونوعه ونوع علاقته!.

- وقال زيد بن حصين

٤ - وراكِدةٍ عَنْبى طويلٍ صيامها * قَسَمْتُ على ضوء من النار مُبْصِرُ

في الشطر الأول من البيت مجاز مرسل علاقته المحلية؛ تسمية الحالّ باسم محلّه ؛ ذلك بأن الشاعر لم يرد في قوله: (قسمت) القِدْرَ؛ وهو المحلّ ؛ وإنما أراد قسمة ماحلّ فيه ؛ وهو المَرَق.

---

(١٦٤) معاني أبيات الحماسة ١٦٦.

وقد أشار المرزوقي إلى هذا المجاز المرسل وعلاقته (المحليّة) بقوله: « ... وجعل قِسْمة القدر وهويريد قسمة مَرَقها وماحتوتْ عليه ليلاً ، وبضوء من النار؛ لشدة الزمان ، وتناهي البرد ، ولأنه وقت طروق الضيف.»[165]

وكعادته لم يُصَرِّح بمصطلح المجاز أو نوعه ونوع علاقته ، ولكنه أشار إلى ذلك إشارة قوية بكلامه الفني الدقيق الآنف ذكره ؛ وهو قوله :« وجعل قسمة القدر وهو يريد قسمة مرقها وما احتوت عليه » .

وأورد التبريزي كلام المرزوقي كله المتقدم بتصرف يسير جداً فيه ![166]

- **وقال مهلهل:**

نُبِّئْتُ أنّ النارَ بعدكَ أوقِدَتْ * واسْتَبَّ بعدكَ ياكُلَيبُ المجلسُ

بين العبيدي أن قوله : (واستبّ المجلسُ) من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ ثم ماثله بقول الله تعالى :﴿ واسأل القرية﴾ ، وأن المعنى وتقدير الكلام فيهما : (واستب أهل المجلس) ، (واسأل أهل القرية).

قال العبيدي: « ... وإنما قال : (المجلس)؛ لأ ن المراد به أهل المجلس؛ فُحذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ؛ كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية﴾أي: أهل القرية.»[167]

وفي هذا إشارة إلى الإيجاز بطريق المجاز بالحذف ، وهو من باب المجاز المرسل ، وعلاقته : تسمية الحالّ باسم محلّه؛ فقد قال : (المجلس)؛ فذكر المحلّ ، وأراد أهله الحالّين فيه . والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي في دلالته الوضعية في أصل اللغة قولُه: (استبّ) ؛ فإن الاستِباب والمُسابّة - التي تكون بين اثنين فأكثر - لاتكون للمحل أو المكان وهو المجلس؛ إذْ لايصح منه ذلك ، وإنما المسابّة تكون بين أهل المحل أو المجلس الحالّين فيه .

---

(١٦٥) شرح ديوان الحماسة٤/١٦٧٩.

(١٦٦) انظر شرح ديوان الحماسة ٤/٢١٢.

(١٦٧) شرح المضنون به على غير أهله ٣٥٦.

وقد كانت إشارة العبيدي هنا إلى (المجاز المرسل)، وعلاقته(المحليّة) إشارة قوية وبخاصة أنه استشهد في الآية الكريمة المشهورة في هذا الباب. وإن كان لم يصرح بذكر المصطلحات الخاصة في ذلك بل لم يذكر حتى مصطلح (مجاز الحذف) مكتفياً بقوله : إنه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وبتفسيره المراد باللفظ المستعمل على سبيل المجاز ، وباستشهاده في الآية الكريمة تاركاً للناظر المتخصص تحقيق الأمر في ذلك وتصنيفه!. على أن هذا هو ماعند الرجل في ظاهر الأمر، ولو كان عنده غير ذلك من النص على المصطلحات ، والدقة في التحقيق وإطلاق الاصطلاحات المخصوصة لأتى به ولما ادّخره . وأيّاً ماكان الأمر فما كان منه جهد حسن أشار به إلى المجاز المرسل وعلاقته إشارة قوية.

- تسمية المحلّ باسم الحالّ (الحاليّه):

- قال ربيعة بن مقروم:

١٩ - لــــه بُرَةٌ إذا مالـجَ عاجتْ * أخـادِعَهُ فلانَ لهـا النُّخـاعُ

أشار الأنباري - عن أبي عكرمة الضبي - إلى مافي استعمال الشاعر لكلمتي:(أخدع)و(نخاع) من مجاز مرسل بعلاقة الحالّية : (تسمية المحلّ باسم الحالّ) : لكن بيانه عن ذلك كان بطريق الإشارة المفهومة من دلالة كلامه فيهما دلالة قوية على هذا المجاز بهذه العلاقة دون تصريح بمصطلح المجاز أو نوعه أو مصطلح العلاقة أو نوعها.

وقد جاء كلامه في ذلك أثناء ذكره علّة تسمية الأخدع باسم موضعه ، وعلة تسمية العنق باسم مافيها من نخاع في فقار العنق؛ قال الأنباري:

« ... وأخادعه : جمع أخدع ؛ وهو : عِرق في العنق سُمّي موضعه به . والنُّخاع : الخيط الأبيض في فقار العنق ؛ فأراد : أنه إذا جَذَبه لانتْ عنقُه ؛ فسمّاها نُخاعاً بالنُّخاع الذي فيها .»[١٦٨]

---

(١٦٨) شرح المفضليات ٣٧٨.

وقد نقل التبريزيُّ عبارتي الأنباريِّ هاتين ، دون أن يضيف إيضاحاً أو بياناً يذكر فيه المصطلحات البلاغية في باب المجاز هنا!.[١٦٩]

وعلى هذا ففي البيت موضعان من المجاز المرسل بعلاقة (تسمية المحلّ باسم الحالّ) أو (الحاليّة):

أولهما : في كلمة (أخادعه)؛ فقد أطلق الشاعر كلمة (أخادع)؛ وهي العروق التي في العُنُق وأراد : مواضعها ؛ فهو من قبيل المجاز المرسل بعلاقة : تسمية المحلّ؛ وهو : موضع العرق باسم الحالّ ، وهو : العرق ذاته .

أما الموضع الآخر ففي كلمة: (النخاع) ؛ فقد أطلق كلمة : (النخاع)؛ وهوالخيط الأبيض الرقيق الذي في فقار العنق وأراد العنق ذاته ؛ فهو من قبيل المجاز المرسل أيضاً من تسمية المحلّ ؛ وهو (العنق) باسم الحالّ ؛ وهو (النخاع).

وهذا جهد حسن يذكر للأنباري، وإن كان الفضل فيه للمتقدم وهو أبو عكرمة الضبي الذي نقل عنه وبنى عمود شرح المفضليات على شرحه؛ وإن كانت أيضاً دلالة الكلام على هذا المجاز وعلاقته في الموضعين بطريق الإشارة دون ذكر للمصطلحات البلاغية الصريحة؛ كما سبق بيانه.

- **وقال المسيَّب بن علس:**

١ - أرَحَلْتَ من سلمى بغير متاع قبل العُطاس ورُعْتَها بوداعِ

لم يرد الشاعر الرحلة من سلمى على الحقيقة، لكنه أراد الرحلة عن أرضها وديارها.

قال التبريزي عن المرزوقي:

« وقوله: (من سلمى) يريد : من أرض سلمى وديارها.»[١٧٠]. وفي هذا إيجاز بطريق مجاز الحذف ؛ وهو هنا : مجاز مرسل علاقته (الحالِّية)؛ من (تسمية المحلّ باسم الحالّ) ؛ فقد قال أرحلت من سلمى ، وإنما أراد : أرض سلمى وديارها ؛ كما بيّن المرزوقي والتبريزي ذلك وأشارا إليه . لقد سمّى الشاعر

---

(١٦٩) انظر شرح اختيارات المفضل ٨٥٩/٢.
(١٧٠) شرح اختيارات المفضل ٣٠٣/١ وحاشيتها.

المحل ؛ وهو : أرض سلمى وديارها باسم مَنْ حلّ فيها ؛ وهو : (سلمى) ؛ فأطلق الحالّ ؛ وهو : (سلمى) ، وأراد المحلّ ؛ وهو : (الأرض والديار) ؛ على سبيل المجاز المرسل .

وهذه الإشارة من التبريزي والمرزوقي وإن كانت موجزة ، ولم يكن فيها نصّ على مصطلح المجازأو نوعه ونوع علاقته إلا أنها إشارة دلّت على هذا المجاز ونوعه وعلاقته.

ولم يرد عند الأنباري ذكر لمصطلحات المجاز هنا ، ولا بيان له أو إشارة إليه ولو بمثل عبارة المرزوقي والتبريزي الموجزة الآنفة الذكر!.[١٧١]

- تسمية الشيء باسم ماجاوره (المجاورة):

- قال عوف بن الأحوص:

٢٠ - قناة مُذرَّبٍ أكرهْتُ فيها * شُراعياً مَقالِمُهُ ظِماءُ

قال الأنباري - عن أبي عكرمة الضبي - في شرح البيت :

« لمّا كان السِّنان في القناة جعل المقالم له وإن كانت للقناة . وأصل القَلْم : القَطْع ، ومنه : تقليم الأظفار.»[١٧٢]

ونقل التبريزي هذا الكلام بنصه عن الأنباري مُصدِّراً إيّاه بقوله :

« ويقال: لما كان السنان.....» ، وأورد بقية الكلام إلى قوله : « وأصل القَلْم: القَطْع.»[١٧٣]

وعبارة الأنباري في صدر شرحه ، والتي نقلها التبريزي أيضاً عنه ؛ أعني

---

(١٧١) انظر شرح المفضليات ٩٢.

(١٧٢) شرح المفضليات ٣٤٧.

(١٧٣) شرح اختيارات المفضل ٨١٢/٢. وقد فسّر التبريزي معنى (الشُّراعِيّ) بأنه السِّنان. و(المقالم) بأنها المقاطع . لكن تأمل صيغة نقله عن الأنباري بقوله:« ويقال : لما كان السنان...» إلى آخر كلامه الذي نقله عنه مصدّراً إيّاه بهذه الصيغة دون عزو صريح إليه!.

قول الأنباري عن أبي عكرمة :« لمّا كان السِّنان في القناة جعل المقالم له ، وإن كانت للقناة.» ؛ وهذه العبارة تضمنت كلاماً فنياً دقيقاً دلّ بطريق الإشارة على مصطلح بلاغي مهم، أعني: المجاز المرسل وعلاقته، ففي إضافة (المقالم) إلى (السنان) او (الشُّراعِيُّ) مجاز مرسل علاقته (المجاورة) من باب: (تسمية الشيء باسم ما جاوره)، حيث جعل المقالم للسنان، وليست له على الحقيقة، وإنما المقالم والمقاطع للقناة. وهذا من إطلاق اسم الشيء على ما جاوره؛ لعلاقة المناسبة والملابسة، بطريق (المجاورة).

وأبو عكرمة والأنباري والتبريزي وإن لم يصرّحوا بمصطلح المجاز ونوعه ونوع علاقته في عبارتهم الفنية الدقيقة هذه فقد دلّوا بها على هذا المجاز المرسل بعلاقة المجاورة في هذا البيت دلالة إشارة قوية.

- وقال علقمة بن عبدة:

٥ - فلا تَعْدِلي بيني وبين مُغَمَّرٍ * سَقَتْكِ روايا المُزْنِ حينَ تصوبُ

قال الأنباري عن أبي عكرمة :

« ... والمزن : سحاب أبيض يأتي في قُبُلِ الصَّيف ، وهو أحسن السحاب... وروايا المزن: ماحمل منه الماء . والراوية : الحامل للشيء ، وروايا: حوامل مائية ، وكلُّ ما استُقي عليه من بعير أو دابّة فهو راوية. والراوية: المزادة التي يُحمل فيها الماء، وهو من الأضداد ؛ يقال: رَوَيتُ أرْوي رَيَّةً إذا استقيتُ عليها ، وبه سُمِّيت الراوية التي يُحمل عليها الماء ، وإنما هي المزادة . قال أبو النجم:

تمْشي من الرِّدَّةِ مَشْيَ الحُفَّلِ * مَشْيَ الرَّوايا بالمزادِ الأثقَلِ.»(١٧٤)

وقول الأنباري والضبي:

« وروايا: حوامل مائية ، وكل ما استُقِي عليه من بعير أو دابة فهو راوية . والراوية: المزادة التي يحمل فيها الماء.» ثم قولهما : « وبه سُمِّيت الراوية التي يُحمل

---

(١٧٤) شرح المفضليات ٧٦٩.

عليها الماء، وإنما هي المزادة »

هذا القول منهما قويّ الدلالة والإشارة إلى المجاز المرسل بعلاقة :(المجاورة) وإن كانا لم ينصا على مصطلح المجاز ونوعه ونوع علاقته إلا أن في هذا الكلام الفني البلاغي الدقيق إشارة ظاهرة إلى ذلك كله.

فالأصل في معنى لفظ(الراوية) هو : المزادة؛ وهي القربة التي يحمل فيها الماء ، ثم سُمِّي بالراوية كلُّ مااستُقي عليه بها من بعير أو دابة .

فإطلاق الراوية على الدابة الحاملة لها من باب المجاز المرسل بعلاقة (تسمية الشيء باسم ماجاوره) ، وهو مايعرف بعلاقة(المجاورة) .

أما تسمية السحاب الحامل للماء رواياً فهو على التشبيه والتجّوز ؛ بطريق الاستعارة ؛ فكأنه تحقيق بطريق التشبيه والمماثلة بينها وبين الروايا الحقيقية؛ وهي المزادات.

وإنما قلت: فكأنه تحقيق بطريق التشبيه والمماثلة.... لأني أعني أن السحب الحاملة للماء رواياً أيضاً على الحقيقة ؛ من جهة أنها تحتوي الماء، وأنه محمول فيها؛ فهي ظرف له ، لا أنها تحمله فهو محمول عليها ؛ ولذلك شابهت المزادات في أنها ظروف للماء يُحمل فيها ولا يحمل عليها ، بل إن سُحبَ المزن التي قال عنها الأنباري : إنها أحسن السحاب - كلُّها ماء ، ولا شيء منها ظرف للماء ؛ فهي ريٌّ وماءٌ خالص بخلاف راويات المزادات ؛ فإن الماء بداخلها ؛ فالقربة ظرف ووعاء يحمل الماء الذي بداخله ، وليست كلُّها ماءً خالصاً كالمزنة من السحاب التي هي كلها كُتلةٌ من الماء سواءٌ منه ماكان بَرَداً أو ماءً أو بخاراً .

وإذا كان التبريزي فيما نقل عن المرزوقي يقول:

« وجعل للمزن رواياً على التمثيل والاستعارة»[١٧٥] فإن ذلك من قبيل المسامحة ؛ بطريق التجوز والاستعارة ؛ من جهة البناء على التمثيل والمشابهة بين سحب المزن المحمّلة بالماء وبين الراويات والمزادات المحمّلة بالماء، وبينها وبين الراويات

---

(١٧٥) شرح اختيارات المفضل ١٥٧٩/٣ ، وحاشيتها.

الحاملات للمزادات ؛ من حيث أن كلاً منها يحمل الماء والماء محمول عليه؛ فالمزادة تحمل الماء ، والراوية ؛ وهي الدابة تحمل مزادة الماء ، والمــــزنة تحمله كذلك ؛ فتشابهت من هذا الأمر؛ فساغ التشبيه والحمل على التجوّز ؛ بطريق الاستعارة التصريحية؛ فقد شُبِّهت المزن الحاملة للماء بالإبل الحاملة لروايا الماء ومزاداته ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو (روايا) للمشبه ؛ وهو (المزن)؛ فقيل:روايا المزن ؛ على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

لكني أميل مع ذلك إلى كون السحب المزن روايا على الحقيقة؛ لما قدمته من مسوغ بنيته على أن إطلاق كلمة (روايا) على سحب المزن تحقيقٌ ولا سبيل فيه إلى المجاز أو الإستعارة ؛ ذلك بأن بناء التشبيه فيه بناءٌ مُتوهَّم لاحقيقة له ؛ لأمرين : **أحدهما** : أن المزن ريَّانة بالماء مملوءة منه فهي روايا على الحقيقة لا التشبيه ، وما مسوغ العدول عن الحقيقة إلى التشبيه أو التجوز مع قيام الحقيقة الثابتة؟!.

والأمر الآخر : أنها ظرف للماء يحمله ولا يُحمل عليه فشابهت ماقيل إنه الأصل في ذلك؛ وهو الراوية أو المزادة التي يحمل فيها الماء ، لا الراوية التي يُحمل عليها ؛ وهي الدابَّة، بل إنها - أعني المزن - ظرف خالص لايشاركه جسم آخر غريب عنه ؛ كالجلد في المزادة ، وإنما المزنة كتلة خالصة من الماء كما قدّمت بيان ذلك مفصلاً.

- **وقال أبو تمام:**

وما نَفْعُ مَنْ قد ماتَ بالأمس صاديا * إذا ماسماءُ اليومِ طالَ انهِمارُها

قال العبيدي مبيناً وجه المجاز في البيت :

« وإنما أضاف السماء إلى اليوم؛ لأن المراد به السحاب؛ لأن انهمار المطر من السحاب لا السماء الحقيقي، ويطلق السماء على السحاب مجازاً والعلاقة الارتفاع.»[١٧٦].

---

(١٧٦) شرح المضنون به على غير أهله ٤٤٦.

ولقد أحسن العبيدي في هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول : حسن تعليله الذي سوّغ به إضافة (السماء) إلى (اليوم) وتفسيره بأن المراد به السحاب لا السماءالحقيقي؛ لأن السحاب هو الذي ينهمر منه الماء .

والوجه الآخر : تصريحه بمصطلح (المجاز) وبمصطلح (العلاقة) ؛ وذلك بقوله : إن السماء يطلق على السحاب مجازاً ، والعلاقة الارتفاع. إلاّ أنّ تصريحه بهذين المصطلحين - على مافيه من إحسان - قد جاء ناقصاً ؛ فمصطلح المجاز لم يذكر نوعه ، ومصطلح (العلاقة) وإن كان قد صرّح بمصطلح (العلاقة) بهذا الإسم والمصطلح ، لكنه بيّنها ؛ حين بيَّن نوعها بياناً غير كاف. والمجاز: مجاز مرسل ، أمّا العلاقة فلا يكفي فيها القول : بأنها الارتفاع دون أن ينص على مسمى العلاقة عند البلاغيين التي يكون فيها (الارتفاع) الذي ذكره سبباً في هذه العلاقة أو مسوغاً لها؛ فالارتفاع هو النسبه والملابسة بين السماء والسحاب ، لكن لايقال : إنه هو العلاقة، وإنما العلاقة كما هي عند البلاغيين (المجاورة) ؛ أعني: (تسمية الشيء باسم ماجاوره).

إن السماء هو العلو. وكل ماعلا وارتفع فهو سماء، والسحاب مرتفع وعالٍ فهو سماء بهذه الملابسة التي تجمع بين كلٍ من السماء والسحاب بجهة العلو والارتفاع على أساس من علاقة التجاور أو المجاورة ؛ ولذا ساغ أن يطلق على السحاب سماء من هذا الوجه الاعتباري في تقدير المجاورة بينهما . ولهذا أيضاً روي قول معاوية بن مالك بن جعفر:

إذا نزَل السَّحابُ بأرضِ قومٍ * رعَيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

برواية : (إذا نزل السّماء بأرض قومٍ) .

فقد رواه بالرواية الأولى الأنباري ، وبالرواية الأخرى المرزوقي[177] . وكلا الروايتين صحيحتان دالتان على المراد وعلى المجاز المرسل بعلاقة (السببية) ؛ إذ

---

(١٧٧) انظر المفضليات ٧٠٣. وانظر شرح اختيارات المفضل ٣/ حاشية ١٤٨٥.

المقصود فيهما : إذا نزل السحاب أو السماء ؛ وهو الغيث والمطر المتسبّب في النبات رعيناه.

وإذ قد انتهى عرض ودراسة ماوُجِد مناسباً من نماذج علاقات المجاز المرسل وشواهدها عند شرّاح الاختيارات الشعرية؛ فسأنتقل- بإذن الله - في المبحث التالي إلى ذكر النوع الثاني من أنواع المجاز اللغوي؛ وهو (الاستعارة وأنواعها) مستعرضاً نماذجها الصالحة ، ودارساً شواهدها البيِّنة في شروح الاختيارات الشعرية.